كتاب

تسهيل النظر وتعجيل الظفر

في أخلاق الملك وسياسة الملك

تأليف

أقضى القضاة أبي الحسن علي بن محمد الماوردي

تحقيق

محيي هلال السرحان

المدرس بقسم [illegible] الدين

كلية الآداب - جامعة بغداد

مراجعة وتقديم

الدكتور حسن الساعاتي

رئيس فرع الاجتماع

كلية الآداب - جامعة بيروت العربية

١٩٨١

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

بيروت ص. ب ٧٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة]

الحمدُ للهِ الّذي جَعَلَ الحقَّ مُعِزّاً لمن اعْتَقَدَهُ وَتَوَخّاه، ومُعيناً لمنْ اعتمدَهُ وابتغاه، وَجَعَلَ الباطلَ مُذِلاًّ لمنْ آثَرَهُ وارتضاه، ومُذِيلا[١] لمنْ أظهرَهُ واقتفاه، حمداً يوازِنُ جميلَ نِعَمِهِ، ويضاهي جزيلَ قِسَمِهِ، وصلّى اللهُ على سيِّدِنا محمدٍ النبيِّ وآلِهِ وصحابتِهِ[٢].

أما بعدُ: فإنّ اللهَ جلَّ اسْمُه [بـ] بليغ[٣] حكمتِهِ وعدلِ قضائِه جَعَلَ الناسَ أصنافاً مختلِفين، وأطواراً متباينين، ليكونوا بالاختلافِ مُؤْتَلِفين، وبالتّبايُنِ متفقين، فيتعاطفوا[٤] بالإيثارِ[٥] تابعاً ومتبوعاً، ويتساعدوا على التّعاونِ آمِراً ومأموراً [كما قالَ الشاعرُ][٦]: [من الطويل].

وَبِالنّاسِ عاشَ النّاسُ قِدْماً وَلَمْ يَزَلْ
مِنَ النّاسِ مرغوبٌ إليهِ وَراغِبُ[٧]

(١) مذيلا، (كذا): اسم فاعل من (أذال)، بمعنى: (مهيناً)، قال الفيروز أبادي: «وأذلته: أهنته» (القاموس، مادة ذيل) ٣ / ٣٩١.

(٢) سقطت كل هذه المقدمة من (ط)، وجاء فيها بعد البسملة: قال أقضى القضاة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، في أثناء خطبته، في كتابه الملقب بتسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك: أما بعد...

(٣) غ: بليغ، ط: فإن الله عز وجل لتبليغ حكمته...

(٤) غ: ويتعاطفوا، وما أثبتناه عن ط.

(٥) ط: بالامتياز.

(٦) الزيادة من ط. والشاعر هو أبو نواس الحسن بن هاني الشاعر المعروف.

(٧) غ: فبالناس... إلخ وما أثبتناه عن ط، وعن مصادر التخريج، وقد استشهد المؤلف بهذا البيت على أنه من الأمثال والحكم في كتابه (الأمثال والحكم مخطوط-الورقة ٨ب) دون أن =

فَوَجَبَ التّفويضُ إلى إمرةِ سلطانٍ مُسترعًى، ينقادُ الناسُ لطاعتِهِ، ويَتَدبَّرُونَ بسياستِهِ، ليكونَ بالطاعةِ قاهراً، وبالسياسةِ مُدَبِّراً. وكانَ أولى الناس بالعنايةِ ما سِيْسَتْ بهِ الممالكُ، ودُبِّرَتْ بهِ الرّعايا والمصالحُ، لأنّه زِمامٌ يقودُ إلى الحقّ، ويستقيمُ به أَوَدُ الخَلْقِ.

وَقَدْ أوجزتُ بهذا الكتابِ مِنْ سياسةِ المُلْكِ ما أَحْكَمَ المتقدّمونَ قواعِدَهُ؛ فإنَّ لكلِّ ملةٍ سيرةً، ولكلِّ زمانٍ سريرةً، فلم يُغْنِ ما سَلَفَ عنْ مؤتلِفٍ من الشّريعةِ عهودَها، ومن السياسة معهودَها؛ ليكونَ للدينِ موافِقاً، وللدنيا مطابِقاً.

وجعلتُ ما تَضَمَّنَهُ بابَيْنِ:

فالبابُ الأولُ: في أخلاقِ المُلْكِ.

والبابُ الثاني: في سياسةِ المُلْكِ.

ليكونَ مشتملاً على مُعْتَقَدٍ ومفعولٍ، ومُصلحاً لعامِنٍ ومعمولٍ، وترجمتُهُ بـ: **تسهيلِ النّظرِ وتعجيلِ الظّفر**، إذْ كانَ ما تَضَمَّنَهُ داعياً إليهِ وباعثاً (٢ آ) عليهِ.

وأنا أَسْأَلُ اللهَ الكريمَ حُسْنَ المعونةِ والتوفيقِ، وأرغبُ إليهِ في إمدادي بالرُّشْدِ والتسديدِ، وهو حسبي وَنِعْمَ الوكيلِ.

* * *

= ينسبه لقائل، وباللفظ نفسه. والبيت لأبي نواس، انظر ديوان بتحقيق إيفالد فاغنر ٢ / ١٧٤، وبتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ٦١٦، وديوانه الذي نشرته مكتبة النهضة ببغداد ١ / ٨٢ وهو فيها كلها بلفظ (... كان الناس قدماً...) ولم أجد البيت في ديوانه باعتناء الزهار المطبوع بمطبعة جمعية الفنون سنة ١٣٠١ / ١٨٨٤م في ٥٢ صفحة. وهو في زهريات أبي نواس ص٩٦، القطعة رقم ٥٣ وهو فيها بلفظ «... كان الناس... مرغوب اليدين...».

الباب الأوّل
في أخْلاقِ المُلْك

[تمهيد]:

الأخلاقُ غرائِزُ كامنةٌ، تظهَرُ بالاختيارِ، وتُقْهَرُ بالاضطرار.

وللنَّفسِ أخلاقٌ تحدثُ عنها بالطَّبْعِ، ولها أفعالٌ تصدرُ عنها بالإرادة، فهما ضربانِ، لا تنفكّ النفسُ منهما:

أخلاقُ الذاتِ.

وأفعالُ الإرادة.

[الفصل الأول]
[أَخْلاقُ الذاتِ]

فأمّا أخلاقُ الذاتِ فهي من نفائحِ[1] الفطرةِ، وسُمِّيَتْ أخلاقاً لأنّها تصيرُ كالخلقةِ.

والإنسانُ مطبوعٌ[2] على أخلاقٍ قَلَّ ما حُمِدَ جميعُها، أو ذُمَّ سائِرُها، وإنّما الغالبُ أنَّ بعضَها محمودٌ، وبعضَها مذمومٌ، لاختلافِ ما امتزجَ من غرائزِهِ، ومُضادَّةِ ما تنافَرَ من نحائِزِهِ[3]؛ فَتَعذَّرَ لهذا التعليلِ أنْ يَستكمِلَ فضائلَ الأخلاقِ طبعاً وغريزةً، ولزمَ لأجلِهِ أنْ تتخلَّلها رذائلُ الأخلاقِ طبعاً وغريزةً، فصارتْ الأخلاقُ غير منفكّةٍ في جِبِلَّةِ الطّبعِ، وغريزةِ الفِطْرَةِ، من فضائلَ محمودةٍ، ورذائلَ مذمومةٍ، كما قالَ الشاعرُ: [من الطويل]

وما هٰذِهِ الأخلاقُ إلّا طبائعٌ
فمنهنَّ محمودٌ ومنها مُذَمَّمُ

قال بعضُ الحكماء:

---

(١) النفائح جمع نفيحة، وهي كل شيء يصدر بقوة وبحدة، مأخوذة من نفح الأرنب أي ثار، أو الشيء إذا ارتفع، أو الريح إذا جاءت بغتة (نهاية ابن الأثير ٥ / ٨٨ مادة نفح) أو إذا جاءت بقوة (قاموس ١ / ٢١٧ والمصباح المنير ٢ / ٩٥١) أو نفح الثدي القميص إذا رفعه (أ البلاغة ٢ / ٩٧٦) وقد يطلق على القوس (المعجم الوسيط ٢ / ٩٣٨).

(٢) قوله: «والإنسان مطبوع على أخلاق قلَّ ما حمد جميعها أو ذمَّ سائرها...» ذكر المؤلف معنى ذلك في كتاب أدب الدنيا والدين إذ قال:

«اعلم أن النفس مجبولة على شيم مهملة، وأخلاق مرسلة، لا يستغني محمودها عن التأديب، ولا يكفي بالمرضي منها عن التهذيب، لأن لمحمودها أضداداً مقابلة، يسعدها هوى مطاع، وشهوة غالبة...» (أدب الدنيا والدين ص٢١٠).

(٣) النحائز جمع نحيزة: الطبيعة (قاموس ٢ / ٢٠٠) وانظر (مختارالصحاح ٥١٥) قال ابن دريد: «الغريزة : الطبيعة والجمع الغرائز. فلان كريم الغريزة، والطبيعة، والنحيزة، والنحيتة، والخليقة، والسليقة، كل ذلك واحد» (الجمهرة مادة غرز ٢ / ٣٢٢).

لكلِّ خلقٍ من الفضلِ رقيبٌ من الدناءةِ، لا يمتَنِعُ منهُ إلاّ مُؤْثِرٌ للفضلِ على ما سواه.

[من هو الفاضل؟]:

وإذا استقرّتْ هذهِ الأخلاقُ على هٰذهِ القاعدةِ، فالفاضِلُ من غَلَبَتْ فضائِلُهُ رذائِلَهُ؛ فقَدَرَ بوفورِ الفضائلِ على قهرِ الرذائلِ، فسَلِمَ من شَيْنِ النقصِ، وسَعِدَ بفضيلةِ التخصيصِ، ولذلكَ قالَ عليٌّ عليهِ السلامُ:

«أَوَّلُ ما تبتدئونَ به من جهادِكم جهادُ أَنْفُسِكُمْ»[1].

وهذا واضحٌ؛ لأنَّ صلاحَ النفسِ يُصْلِحُ ما عداها، فكانت أَحَقَّ بالتقديمِ (٢ ب) وأَوْلىٰ بالتقويمِ.

[إلى أيّ شيءٍ تعود الأخلاقُ؟]:

واختُلِفَ في الأخلاقِ، هل هي عائدةٌ إلى الفضائل والرذائل؟ أو إلى النفس التي تصدر عنها الفضائلُ والرذائلُ لـظُهُـور الأخلاق بها؟.

وذهب بعضُهم [إلىٰ] أنّها عائدةٌ إلى [الذاتِ] التي حدوثُ النفس عنها.

---

(١) غ: (أو) بسقوط اللام.
وقول الإمام علي: أول ما تبتدئون... ورد معناه بألفاظ مختلفة منسوباً إليه منها: «أول ما تنكرون من الجهاد جهاد أنفسكم، وآخر ما تفقدون مجاهدة أهوائكم وطاعة أولي الأمر منكم» عرر الحكم ٩٨. وبلفظ: «إنّ أول ما تغلبون عليه من الجهاد جهاد بأيديكم...» ص١١١ منه. وبلفظ: «أفضل الجهاد مجاهدة المرء نفسه» ص٨٨و١٠٣منه. وبلفظ: «أفضل الجهاد جهاد النفس عن الهوى، وفطامها عن لذات الدنيا» ص٩٥ منه. وبلفظ: «جهاد النفس أفضل جهاد» ص١٦٤. وبلفظ: «خير الجهاد جهاد النفس» من١٧١ منه. وفي مختار الحكم بلفظ: «أشد الجهاد مجاهدة الإنسان غيظه» غير منسوب ص٣٤٠، ومن أقواله في نهج البلاغة: «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم» شرح نهج البلاغة ٤ / ٥٥٣، وبهذه المعاني وردت أقوال له بألفاظ أخرى شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٣٧، ٢ / ٥٤٥.

[لأيِّ شيءٍ تُرادُ فضائلُ الذاتِ؟]:

واختلفوا في فضائلِ الذاتِ، هل تُراد لذواتِها؟ أو للسعادةِ الحادثةِ عنها؟.

فذهبَ بعضُ الحكماءِ إلى أنّ المرادَ بالفضائلِ ذواتُها؛ لأنها المكْسِبةُ للسعادةِ.

وذهب بعضُهُم إلى أنّ المرادَ بها السعادةُ الحادثةُ عنها؛ لأنها الغايةُ المقصود[ةُ] بها.

[إلى أيِّ شيءٍ تَتَوَجَّهُ السعادةُ؟]:

واختلفوا في السعادةِ، هل تتوجّه إلى الفضائـل المحمودةِ؟ أو إلى ما يحدُثُ عن الفضائلِ من الحمدِ؟.

فذهبَ بعضُ الحكماءِ إلى توجّه السعادةِ إلى الفضائـلِ المحمودةِ؛ لأنّها نتيجةُ أفعالِهِ.

وذهب بعضُهم إلى توجّهِ السعادةِ إلى ما يحدثُ عن الفضائلِ من الحمدِ؛ لأنّها ثمرةُ فضائِلِهِ.

[وجوبُ اهتمامِ ذي الإمرةِ بمراعاةِ أخلاقِهِ]:

فحقّ على ذي الأمرةِ والسلطانِ أنْ يهتمَّ بمراعاةِ أخلاقِهِ، وإصلاحِ شِيَمِهِ؛ لأنّها آلةُ سلطانِهِ، وأسُّ إمْرتِهِ، وليسَ يمكنُ صلاحُ جميعِها بالتسليمِ إلى الطبيعةِ، والتفويضِ إلى النحيزةِ، إلاّ أنْ يرتاضَ لها بالتقويمِ والتهذيبِ، رياضةَ تهذيبٍ، وتدريجٍ، وتأديبٍ، فيستقيمَ لـه الجميعُ [بعضهـا] خلقٌ مطبوعٌ، وبعضُها خلقٌ مصنوعٌ؛ لأنّ الخلقَ طبعٌ وغريزةٌ، والتخلّق تطبعٌ وتكلفٌ كما قال الشاعر:

يـا أيُّهـا المتحلّي غيـر شيمَتِـهِ   وَمِنْ سجيَّتِـهِ الإكثـارُ والمَـلَقُ

عليكَ بالقصْدِ فيما أنْتَ فاعِلُهُ   إنّ التخلّقَ يأتي دونَه الخُلُقُ[1]

قالَ بعضُ الحكماءِ: ليسَ شيءٌ عُولِجَ إلاّ نَفَعَ وإنْ كانَ ضارّاً، ولا شيءٌ أُهمِلَ إلاّ ضَرَّ وإنْ كانَ نافعاً.

[أنواع الأخلاق]:

فتصيرُ الأخلاقُ نوعين[2]:

---

(١) البيتان قد نسبا إلى أكثر من شاعر:
فهما مرة لسالم بن وابصة (انظر ديوان ص٣٣) والبيان والتبيين ١ / ٢٣٣ بلفظ (اعمد إلى القصد فيما أنت راكبه) مع أربعة أبيات أخرى، وانظر حاشية ص١٦٦ من الجزء الأول منه. وانظر الحماسة للمرزوقي ١ / ٢٩٥ ، ونوادر أبي زيد ١٩١ ، والمؤتلف ١٩٧ ، والتذكرة السعدية ١ / ١٣٥ وفيها إحالات، والمستطرف ١ / ١٣٣، وهما مرة ثانية للعرجي (انظر ديوانه) والحيوان ٣ / ١٢٧، والعقد الفريد ٢ / ٢٤، ٣ / وهما فيه بلفظ (ارجع إلى خيمك المعروف ديدنه. . .) وزهر الآداب ١ / ٧٧ والشعراء (تحقيق السقا) ص ٢٢٤.
وهما مرة ثالثة لذي الإصبع العدواني (انظر ديوانه ص٦٨ القطعة رقم١٣) بلفظ: (اعمد إلى الحق فيما أنت فاعله)، وحماسة البحتري (ص٣٥٨) بلفظ (اعمد إلى الحق فيما كنت فاعله)، ومجموعة المعاني ١٦٠.وهما مرة رابعة غير منسوبين، فقد ورد الثاني في الإمتاع والمؤانسة (١ / ١٥٩) بلفظ

ارجع إلى خَيْمِك المعروف ديدنه   إن التخلق يأتي دونه الخلق

وفي عيون الأخبار (ط / ٦) بلفظ (ارجع إلى خلقك المعروف ديدنه)، وقد أورد ابن رشيق شطراً من كل بيت بهذه الصورة:

يا أيها المتحلي غير شيمته   إن التخلق يأتي دونه الخلق
ولا يواتيك فيما ناب من حدث   إلا أخو ثقة فانظر بمن تثق

انظر العمدة (١ / ٢٥٠) وكذلك وردا في الكامل للمبرد (١ / ١٦).

(٢) لخصت نسخة طهران ما سبق وما لحق بعبارة فيها زيادة، إذ جاء فيها ما نصه: «وقال في أثناء كلامه في وصفه لأخلاق الملك: وشريف الأحوال لا يتصرف فيه إلا بشريف الأخلاق سواء كان طبعاً أو تطبعاً؛ لأن الأفعال نتائج الأخلاق، ونوازع الهمم. وقد نبه الله تعالى في كتابه على ذلك بقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم «وإنك لعلى خلق عظيم»، لأن النبوة لما كانت أشرف منازل الخلق لإشتمالها على شرائع الدين ومصالح الدنيا ندب الله لها من قد أكمل فضائل الأخلاق وحاز أشرف الأعراق، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بعثت بمكارم الأخلاق» قال: كذلك سياسة الملك لما كانت تالية لحالها، وجب أن تكون مشاكلة لخصالها، فصارت فضائل الأخلاق نوعين: غريزية طبع عليها، ومكتسبة تطبع لها، فالملوك بالفضائل الغريزية أخص من العامة، فهي فيهم أوفر، وعليهم أظهر، لكرم منشئهم، وعلو هممهم قال الشاعر:

=

غريزيةٌ[١] طُبِعَ عليها.

ومكتسبةٌ[٢] تَطبَّع لها.

والملوكُ (٣آ) بالفضائلِ الغريزيةِ أَخَصُّ بها من العامّةِ؛ لأنّها فيهم أَوْفَرُ، وعليهم أَظْهَرُ، لِما خُصّوا بهِ مِنْ كرمِ المَنْشَأِ وعلوِّ الهِمَّةِ.

والعامّةُ بالفضائلِ المكتسبةِ أَخَصُّ من الملوكِ؛ لأَنَّهم إلى التماسِها أَسْرَعُ، ولكلالِها أَطْوَعُ، لكثرةِ فراغِهِمْ لَهَا، وتوفّرهم عليها، إمّا لرغبةٍ في جَدْواها، وإمّا لرهبةٍ من عَدْواها. وهذانِ المَعْنَيان في الملوكِ معدومان[٣]، إلّا مَنْ شَرُفَتْ نفسُهُ فمالَ إليها لعلوّ همّتِهِ، وتوفَّرَ عليها لكرمِ طَبْعِهِ، لأنّه[٤] لا يَعْرىٰ من فَضْلٍ مكتَسَبٍ، ولا يخلو من فِعْلٍ مستصوبٍ، ليتفرّدَ بفضائلِ النفسِ، كما تَفَرَّدَ بعزّ السلطانِ والأمرِ، فيصير بتدبيرِ سلطانِهِ أَخْبَرَ، وعلى سياسةِ رعيتِهِ[٥] أقدَرَ، والحمدُ يستحقّ على الفضائلِ المكتسبةِ؛ لأنّها مستفادةٌ بفعلِهِ، ولا يستحقّ على الفضائلِ المطبوعةِ فيه، وإن حُمِدَتْ لجودها بغيرِ فعلِهِ.

[تفاضل الأخلاق]:

واختُلِفَ في أفضلهما ذاتا:

ففضّل بعضُ الحكماءِ أخلاقَ الطبعِ الغريزيِّ على أخلاقِ التطبّعِ[٦] المكتسبِ، لقوّةِ الغريزيّ، وضعفِ المكتسبِ.

= و وما هذه الأخلاق إلّا طبائعٌ فمنهن محمود ومنها مذمم

[وقال آخر]:

يا أيها المتحلي غير شيمته ومن سجيته الإكثار والملق

عليك بالقصد فيما أنت فاعله إن التخلق يأتي دونه الخلق

(١) غ: غريزة) وما أثبتناه عن ط.

(٢) غ: (مكتسب) وما أثبتناه عن ط.

(٣) غ: (معدوم).

(٤) غ: (لأن).

(٥) غ: (برعايته).

(٦) غ: (تطبع).

وفضّل آخرونَ أخلاق التطبُّعِ المكتَسَبِ على أخْلاقِ الطَبْعِ الغريزيّ؛ لأنّها قاهرةٌ لأضدادِها بالانتقالِ إلى ما ضادَّها.

وقالَ آخرون: كلُّ واحدٍ منهما محتاجٌ إلى الآخر؛ لأنَّ الأخلاقَ لا تنفكّ منهما بمنزلةِ الروحِ والجسدِ. وكما لا يظهر أعمالَ الروحِ إلّا الجسدُ، ولا ينهضُ الجسدُ إلّا بحركةِ الروحِ، كذلك الغريزةُ والاكتسابُ متقابلان في الفعلِ ومتشاركانِ في الفضلِ؛ فتساويا في الطبعِ والغريزةِ، كما قالَ البحتريُّ[1]:

[من المنسرح]:

وَلَسْتُ أعْتَدُّ للفتى حَسَباً
حتى يُرَىٰ في فِعالِهِ حَسَبُه[2]

وفرّقَ بعضُ أهلِ اللغةِ بينهما في الاسمِ فقال:

الطبعُ هو الختم[3]، والتطبّعُ هو الخلقُ[4]. (٣ب).

* * *

(١) البحتري: أبو عبادة الوليد بن عبيد الشاعر المشهور المتوفى سنة ١٩٩هـ والبحتري نسبه إلى بحتر، وهو أحد أجداده، وديوانه مطبوع عدة طبعات في استانبول وبيروت وغيرهما، وقد اختار أبو بكر عبد القاهر الجرجاني من ديوانه ووضع له عنواناً باسم المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام وقد حققه عبد العزيز الميمني وطبع ضمن الطرائف الأدبية بمطبعة لجنة التأليف في القاهرة ١٩٣٧.

(٢) البيت في ديوان البحتري (طبعة صادر ص٢٢٧) ضمن قصيدة يمدح بها أبا العباس بن بسطام، ولم أجده في كتاب المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام لعبد القاهر الجرجاني (ضمن الطرائف الأدبية).

(٣) الختم بالتاء كذا وردت في الأصل غ قال الجوهري: والطبع الختم وهو التأثير في الطين ونحوه (الصحاح مادة طبع ٣ / ١٢٥٢).

(٤) قوله: وفرَّق بعض أهل اللغة بينهما في الاسم... إلخ انظر بشأن هذين الاصطلاحين جمهرة اللغة مادة طبع ١ / ٣٠٦، والصحاح مادة طبع ٣ / ١٢٥٢ وتهذيب اللغة مادة طبع ٢ / ١٨٦.

[الفصل الثاني]

[أوائل الفضائل وأواخرها]

[مبادىء الفضائل]:

وللفضائل مبادىءُ(١) هي أوائلُ وأواخرُ.

وأوّلُ الفضَائل العقلُ.

وآخِرُها(٢) العدَلُ.

لأنّ العقلَ أصلُ(٣) الفضائلِ؛ بحدوثِها عنه، وتدبيرُها به؛ فلذلك كانَ أوّلَهَا.

والعدلُ نتيجةُ الفضائلِ؛ لأنّها مقدرةٌ به؛ فلذلك صارَ آخِرَها(٤).

وهما قرينانِ مُؤْتَلِفانِ، وما آئْتَلَفَ أمرانِ إلّا كانَ أَحَدُهما محتاجاً إلى الآخرِ اضطراراً، وما سواهما من الفضائلِ واسطةٌ بيَن العقلِ والعدلِ، يختصّ العقلُ بتدبيرِها، والعدلُ بتقديرِها؛ فيكونُ العقلُ مدبراً، والعـدلُ مقدّراً، وليسَ تنفكّ الفضائلُ بواحدٍ منهما، وإنّما تنفكّ بالنفسِ المطيقةِ لهما، فإنْ كانتْ النفسُ زكيةً صافيةً تهيّأتْ للفضائلِ(٥)؛ فعَمِلَتْ بها. وإنْ كانتْ خبيثةً تهيّأتْ

---

(١) غ: مباد بالتنوين.

(٢) غ: وآخره.

(٣) غ: أول الفضائل. وما أثبتناه عن ط التي حذفت كلامه المبتديء بقوله «والعامة بالفضائل المكتسبة أخص من الملوك...» إلى بداية هذا الفصل فجاء فيها ما نصه: «قال أقضى القضاة: أول الفضائل العقل، وآخرها العدل، لأن العقل أصل الفضائل فكان أولها، والعدل نتيجة الفضائل فكان آخرها. وهما قرينان مؤتلفان، ولم يأتلف أمران إلّا كان أحدهما محتاجاً إلى الآخر اضطراراً، وما سواهما من الفضائل واسطة بين العقل والعدل، يختص العقل بتدبيرها، والعدل بتقديرها، فيكون العقل مدبراً، والعدل مقدراً. وقد قال بعض الحكماء المتقدمين... إلخ».

(٤) غ: آخرهما.

(٥) غ: للفضل.

للرذائلِ، فعَدَلَتْ إليها، وصارَ ما وافقَها[١] منها سهلاً عليها في سرعةِ انفعالِهِ بحكمِ المناسبةِ، وما خالفَها[٢] صعباً عليها في تأخّر انفعالِه بحكمِ المنافرةِ. لأنّ موافقةَ الأشكالِ مركوزَةٌ في الطباعِ كما قيل:

المودَّةُ مشاكلةٌ طبيعيةٌ في أنواعٍ شخصيّةٍ يماثِلُ بعضُها بعضاً من حيث يعلمُ ومن حيثُ لا يعلمُ.

قال بعضُ الحكماءِ [المتقدمين:

إن][٣] قواعدَ الأخلاقِ الفاضلةِ أربعٌ، يتفرّعُ عنها ما عداها من الفضائلِ، وهي التمييزُ[٤]، والنجدةُ، والعفةُ، والعدلُ، ويتفرّعُ عن أضدادِها [الكثير] من الرذائلِ[٥].

[أوائل الرذائل وأواخرها]:

وللرذائل[٦] مبادىءُ هي أوائلُ، وغاياتٌ هي أواخِرُ.

---

(١) غ: وافقها.

(٢) غ: خالفهما

(٣) الزيادة من ط.

(٤) غ: التميز، ط: التمئيز بالهمز.

(٥) قوله: قال بعض الحكماء المتقدمين قواعد الأخلاق الفاضلة أربع... إلخ. ذكر ابن مسكويه أن الحكماء أجمعوا على «أنّ أجناس الفضائل أربع وهي: الحكمة، والعفة، والشجاعة، والعدالة» (تهذيب الأخلاق ص٢٠). وذكر ابن حزم أن «أصول الأخلاق أربعة عنها تتركب كلّ فضيلة وهي: العدل، والفهم، والنجدة، والجود» (رسالة الأخلاق ٥٣). وقال أوشهنج: «جماع أمر العباد في أربع خصال: العلم والحلم والعفاف والعدالة»(الحكمة الخالدة ٦). وقد ذكر ابن المقفع جماع الفضائل وفرع عليها ما عداها وهي «الحكمة، والعفة، والعقل، والعدل» (كليلة ودمنة ٢٤). وفي كلام الإمام على «ثلاث هن جماع الدين: العفة، والورع، والحياء» (غرر الحكم ١٦١) و(كتاب ٢٠٠٠ كلمة للإمام على ص٤٢ رقم٩٣٨) وكأن يقال: «من أراد السيادة فعليه بأربع: العلم والأدب والعفة والأمانة» (معجم الأدباء ١ / ٧٤). وقد جاء هنا في (ط) قوله: قال بعض الحكماء: من بدأ بسياسة نفسه... إلخ مما سيأتي.

(٦) الرذائل: قال أبو الحسن محمد بن أبي ذر يوسف العامري النيسابوري: «الرذيلة حال لازمة إلى زيادة على الوسط المضاف إلينا أو نقصان، قال أرسطوطاليس: الرذائل كلها إنما تثبت بالزيادة والنقصان. قال: وأما التوسط من الأفعال كلها ومن الأحوال فإنه محمود...» (السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية ص٧٤).

فأوّلُ الرذائلِ الحمقُ.
وآخِرُها الجَهلُ.
وفي الفرقِ بينهما وجهان:

أحدهما: أن الأحمقَ هو الذي يتصوّرُ الممتنعَ بصورةِ الممكنِ، والجاهل هو الذي لا يعرِفُ الممتنعَ من الممكنِ.

والوجه الثاني: أن الأحمقَ هو الذي يعرفُ الصوابَ ولا يعملُ به، والجاهلُ هو الذي (١٤آ) لا يعرِفُ الصوابَ، ولو عَرَفَهُ لعمِلَ به.

وقد رُوِيَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم أنه قالَ:
«الأحمقُ أبغضُ خلقِ اللهِ إليهِ، إذ حَرَمَهُ أعزَّ الأشياءِ إليهِ، [وهو العقل][١]...»

والعَرَبُ تقولُ: الأحْمَقُ مأخوذٌ من حَمَقَةِ السوقِ إذا نقصتْ[٢]، وكأنّه إشارةٌ إلى ذهابِ عقلِهِ.

وللجاهل حالتان[٣]:

= قال الحسن: «أصول الشرّ وفروعه ستة. فالأصول الثلاثة الحسد، والحرص، وحب الدنيا. والفروع كذلك، حب الرياسة وحب الثناء، وحب الفخر» (العقد الفريد -تحقيق العريان -٢ / ١٥٤).

وذكر ابن حزم أنّ «أصول الرذائل كلها أربعة، عنها تتركب كل رذيلة، وهي أضداد لما ذكر في الفضائل، وهي الجور، والجهل، والجبن، والشح...» (رسالة الأخلاق ٥٣-٥٤).

(١) الزيادة من المستطرف ١ / ١٦، وقد أورد الماوردي هذا الحديث في أدب الدنيا والدين ١٤، والأمثال والحكم الورقة ١٤٩آ وليس فيهما هذه الزيادة.

(٢) قوله: والعرب تقول: الأحمق مأخوذ من حمقة السوق...إلخ، قال الليث: «... والأحمق مأخوذ من انحماق السوق إذا كسدت، فكأنه فسد عقله حتى كسد...» وعن ابن الأعرابي: «الحمق أصله الكساد، ويقال للأحمق الكاسد العقل، قال: والحمق أيضاً الغرور... ومنه أخذ اسم الأحمق...» (تهذيب اللغة مادة حمق ٤ / ٨٥) وانظر أيضاً (جمهرة اللغة مادة ح م ق ٢ / ١٨١-١٨٢) و(الصحاح مادة حمق ٤ / ١٤٦٤-١٤٦٥) و(المستطرف ١ / ١٦) وفيه أن هذا القول لابن الأعرابي.

(٣) قوله: وللجاهل حالتان... قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: «الناس أربعة: رجل يدري =

[الحالُ الأَولى: أنْ] يجهلَ، ويعلمَ أنّه يجهل.

وهذا يجوزُ أنْ يسترشدَ، فيعلمَ ما جهِل، إنْ أُمِدَّ بحميةٍ باعثةٍ، وأُعِين بنفسٍ قابلةٍ، كما قيل:

لولا الخطأُ ما أشْرَقَ نورُ الصوابِ.

قال الشاعرُ: [من الطويل]

إذا صحَّ حسُّ المرءِ صحَّ قياسُهُ
وليسَ يصحُّ العقلُ من فاسِدِ الحسِّ

والحالُ الثانيةُ: أنْ يجهلَ، ويجهلَ أنه يجهلُ. فهو أسْوَأُهُما حالاً، وأقبحُهما خِصالاً، لأنّه إذا جَهِلَ جَهْلَهُ، صارَ جهلين متشاكِلَين في الصّورِ، مختلفَين في الأثر:

أحَدُهما: سالبٌ لهدايتِهِ.

والآخرُ جالبٌ لغوايتِهِ.

فطاحَ - بالأولِ - في سكراتِهِ.

ومَرَحَ - بالآخرِ - في هَفَواتِهِ.

فلم يختَرْ له فاقة.

ولم ترجَ له إفاقة.

وقد قال جالينوس[1]:

الجهلُ بالجهلِ جهلٌ مركبٌ.

= ويدري أنه يدري، فذلك عالم فاسألوه. ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك ناس فذكروه. ورجل لا يدري، ويدري أنه لا يدري، فذلك مسترشد فارشدوه. ورجل لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، فذلك جاهل فاحذروه» (برد الأكباد في الأعداد ١٣١)، وانظره باختلاف يسير في (عيون الأخبار ١ / ١٢٦) و(أدب الدنيا والدين ص٦٨) و(العقد الفريد -طبعة العريان -٢ / ١٣٢).

(١) جالينوس الحكيم: أحد الأطباء الثمانية المقدمين المرجوع إليهم في صناعة الطب، والذين هم رؤوس الفرق ومعلمو المعلمين... خاتم الأطباء الكبار، ولم يجيء بعده من الأطباء إلاّ من هو دون منزلته. ولد سنة ١٣١م بفرغاس من آسيا وسافر إلى أثينة وروميه ومصر وبلاد الشام، فمرض في طريقه ومات بالفرما على البحر الأحمر صنَّف عدداً من الكتب بلغت =

لأَنْ أجهلَ وأعلمَ أنني أجهلُ أحبُّ إليّ من أنْ أجهلَ وأجهلَ أنني أجهلُ.

قال سليمانُ بن داودَ عليه السلامُ:

النائحةُ على الميّتِ سبعةَ أيّامٍ، وعلى الجاهلِ كلَّ أيامِ حياتِهِ، والموتُ خيرٌ من الحياةِ الرديّة[١].

وقيلَ في منثورِ الحكمِ:

الجاهِلُ وإنْ توفرتْ عليه الأيامُ فكأنّهُ ابنُ يومِهِ وتلادُ ساعتِهِ.

وقالَ بعضُ العَرَبِ:

لو صُوِّرَ العقلُ لاظلَمّتْ مَعَهُ الشمسُ، ولو صُوِّرَ الجهلُ لأَضاءَ مَعَهُ الليلُ[٢].

قال الشاعر: [من البسيط]

لـلعقـلِ مَـا خُـلقَ الإنسـانُ فـالـتمسَـنْ
بـالـعقـلِ حـظَّك لا بـالـجهـلِ والـرُتَـبِ

= أربعمائة كتاب. انظر أخباره وحكمته في الفهرست ٤١٦، عيون الأنباء في طبقات الأطباء (دار الفكر) ١ / ١٠٨-١٥٥، مختار الحكم ومحاسن الكلم ٢٨٨-٢٩٦، التمثيل والمحاضرة ١٨٠، تاريخ الفلسفة في الإسلام ١٧، ٢٦، ٨٤، ٨٧، ٨٩، ٩١، ١٥٩، ١٦١، ١٨٧، محاضرة الأوائل ٧٢.

(١) قول سليمان عليه السلام النائحة... ورد في هذا المعنى قول منسوب للإمام علي رضي الله عنه بلفظ «الجاهل ميت وإن كان حياً» (غرر الحكم ودرر الكلم ص٢٥ وص٥٦) وقد استعمل الشاعر هذا المعنى فقال:

ما وهب الله لامرىء هبة ... أحسن من عقله ومن أدبه
هما جمال الفتى فإن فقدا ... ففقده للحياة أجمل به

(انظر معجم الأدباء -طبعة رفاعي- ١ / ٧١).

(٢) قوله: «لو صور العقل... إلخ» أورد ابن مسكويه هذا القول ضمن حكم العرب، ولم ينسبه لقائل، بلفظ «وقيل: لو صوِّر العقل لأظلمت عنده الشمس، ولو صوِّر الجهل لأضاءت عنده الظلمة» (الحكمة الخالدة ١٥١). وقد أورده الثعالبي بلفظ «لو صوِّر العقل=

(٤ب) لا يلبثُ الجهــلُ أنْ يجني لصـاحبـه
ذمّـاً ويُـذهِـبُ عنــه بـهـجـةَ الــحَسَــبِ

[ما هي الفضائل؟]:

والفضائِلُ توسّطٌ محمودٌ بين رذيلتين مذمومتين[1]، من نقصانٍ يكونُ تقصيراً، أو زيادةٍ تكونُ سَرَفاً، فيكونُ فسادُ كلِّ فضيلةٍ من طرفيها:

فالعقلُ واسطةٌ بينَ الدّهاءِ والغَبَاءِ.

والحكمةُ واسطةٌ بينَ الشرِّ والجهالةِ[2].

والسخاءُ واسطةٌ بين التقتيرِ والتبذيرِ[3].

والشجاعةُ واسطةٌ بينَ الجبنِ والتهورِ[4].

= لأضاء معه الليل، ولو صوِّر الجهل لأظلمت معه الشمس» (التمثيل والمحاضرة ٤٠٧). وأورد النويري بلفظ «لو صوِّر العقل لأضاء معه الليل، ولو صوِّر الجهل لأظلم معه النهار» (نهاية الأرب ٣/٢٣٥). وأورده ابن قتيبة منسوبا الى أعرابي بلفظ: «ولو صوِّر الحمق لأضاء معه الليل» (عيون الأخبار ١/٢٨٠).

(١) قوله: «والفضائل توسط محمود بين رذيلتين مذمومتين» قال ابن حزم «الفضيلة وسيطة بين الافراط والتفريط، فكلا الطرفين مذموم...» (رسالة الأخلاق ص٧٩). وقد قال الطرطوشي: «إن الفضائل هبات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين، فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة كالكرم الذي هو متوسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين التهور والجبن...إلخ» (سراج الملوك ٦٩). وقال السيد محمد العيناتي العاملي: «وكل فضيلة فهي وسط بين رذيلتين هما طرفا الإفراط والتفريط، والوسط هو الصراط المستقيم، صراط أولياء الله وخلفائه المنعم عليهم...» (آداب النفس ٨) وفي أدب الدنيا والدين: «لأن الفضائل هيئات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين...» ص١١ وقال ابن مسكويه: «إن كل فضيلة فهي وسط بين رذائل...» (تهذيب الأخلاق ٢٩) ولعل الحكماء قد تابعوا أرسطوطاليس الذي نقل أبو الحسن محمد بن أبي ذر يوسف العامري النيسابوري قوله قائلاً: «قال أرسطوطاليس يمكن أن يقال في الفضيلة أنها توسط بيْن رذيلتين» (السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية ٧٠).

(٢) في تهذيب الأخلاق: أما الحكمة فهي وسط بين السفه والبله (ص٣١).

(٣) في تهذيب الأخلاق: وأما السخاء فهو وسط بين رذيلتين: إحداهما السرف والتبذير والأخرى البخل والتقتير. (ص٣٣).

(٤) في تهذيب الأخلاق: وأما الشجاعة فهي وسط بين رذيلتين: إحداهما الجبن والأخرى التهور (ص٣٣) وفي أدب الدنيا والدين ١٢٧: والشجاعة واسطة بين التقحم والجبن.

والحياءُ واسطةٌ بينَ القحّةِ والحصرِ(١).

والوقارُ واسطةٌ بينَ الهزءِ والسخافةِ.

والسكينةُ واسطةٌ بينَ السخطِ وضعفِ الغضبِ.

والحلمُ واسطةٌ بينَ إفراطِ الغضبِ ومهانةِ النفسِ(٢).

والعفةُ واسطةٌ بينَ الشَرَهِ وضعفِ الشهوةِ(٣).

والغيرةُ واسطةٌ بينَ الحسدِ وسوءِ العادةِ.

والظرفُ واسطةٌ بينَ الخلاعةِ والفدامةِ(٤).

والمودّةُ واسطةٌ بينَ الخلابةِ وحسنِ الخلقِ(٥).

والتواضعُ واسطةٌ بين الكبرِ ودناءةِ النفسِ(٦).

[تركيب الفضائل مع غيرها]:

وقد يحدثُ من تركيبِ فضائلَ مع غيرِها من الفضائلِ فضائلُ أخَرُ.

فيحدثُ من تركيبِ العقلِ مع الشجاعةِ، الصبرُ في الملمّاتِ، والوفاءُ بالإيعادِ.

---

(١) قال أرسطوطاليس: «التوسط في الحياء محمود والطرفان مذمومان وطرف الزيادة يسمى الخجل، وطرف النقصان يسمى القحّة، أعني الخلاعة» (السعادة والإسعاد ١٠٣) وقال ابن مسكويه: «الحياء وسط بين رذيلتين إحداهما الوقاحة والأخرى الخرق» (تهذيب الأخلاق ٣٣).

(٢) قال أرسطوطاليس: «الحلم هو ترك الانتقام مع قدرة عليه، الإفراط فيه مذموم وكذلك التقصير...» (السعادة والإسعاد ١٢٦).

(٣) قال أرسطوطاليس: «العفة هي التوسط في شهوات البطن والفرج» (السعادة والإسعاد ٧٨) وقال ابن مسكويه: «وأما العفة فهي وسط بين رذيلتين وهما الشر وخمود الشهوة» (تهذيب الأخلاق ٣٣).

(٤) الفدامة -بالفاء- يقال رجل فدم أي عييّ ثقيل (الصحاح مادة فدم).

(٥) غ: وخسأ الخلق والتصحيح من أدب الدنيا والدين ١٢٨، والخلابة: الخديعة باللسان.

(٦) حول هذه المقارنات انظر أقوال أرسطو وغيره في كتاب السعادة والإسعاد ص٤٩-١٧٢، وكتاب تهذيب الأخلاق ص٣١-٣٤ ورسالة الأخلاق ص٧٩ وأدب الدنيا والدين ١١-١٢و١٢٧ وإحياء علوم الدين ٣ / ٥٢-٥٥.

وعن تركيبِ العقلِ مع السخاءِ إنجازُ المواعيدِ والإسعادُ بالجاهِ.

وعن تركيبِ العقلِ مع العفّةِ النزاهةُ، والرغبةُ عن المسألةِ.

وعن تركيبِ الشجاعةِ مع السخاءِ الإملاقُ والأخلاقُ.

وعن تركيبِ الشجاعةِ مع القوةِ إنكارُ الفواحشِ والغيرةُ على الحُرَمِ.

وعن تركيبِ السخاءِ مع العفةِ الإسعافُ بالقوتِ والإيثارُ على النفسِ[1].

[نتائج كثير من الأخلاق تؤول إلى رذائل]:

ولكثيرٍ من الأخلاقِ نتائجُ تؤولُ إلى رذائلَ[2].

حُكِيَ عن عليٍّ عليهِ السلامُ أنّهُ قالَ:

أَعجَبُ ما في الإنسانِ نفسُهُ، وما فيها من التَّضادِّ ما أذكرُهُ:

إنْ سَنَحَ لها الرجاءُ أذلَّها الطّمَعُ.

وإنْ أهاجَها الطمعُ أهلكها الحرصُ.

وإنْ مَلَكَها اليأسُ قتلَها الأَسَفُ.

وإنْ عَرَضَ لها الغَضَبُ اشتدّ بها الغيظُ.

---

(١) ذكر ابن حزم فضائل أخرى متولدة عن تركيب فضائل مع غيرها غير التي ذكرت هنا فقال:

«في النفس فضيلة تركيب من النجدة وكذلك الصبر، والحلم نوع مفرد من أنواع النجدة، والقناعة فضيلة مركبة من الجود والعدل... والمداراة فضيلة مركبة من الحلم والصبر، الصدق مركب من العدل والنجدة...» (رسالة الأخلاق ٥٤-٥٥).

(٢) قوله: «نتائج تؤول إلى رذائل...» ذكر ابن حزم شيئاً من ذلك فقال:

«الشره متولد عن الطمع، والطمع متولد عن الحسد، والحسد متولد عن الرغبة، والرغبة متولدة عن الجور والشح والجهل. الحرص، ويتولد من الحرص رذائل عظيمة منها الذل، والسرقة، والغصب، والزنا، والقتل، والعشق، والهم بالفقر، والمسألة لما بأيدي الناس. وإنما فرقنا بين الحرص والطمع لأن الحرص هو إظهار ما استكن في النفس من الطمع... الكذب يتولد من الجور والجبن والجهل، لأن الجبن يولد مهانة النفس...» (رسالة الأخلاق ص٥٥).

وإنْ أَسْعَدها الرضا أُنْسِيَتْ التحفّظ.

وإن نالها خوفٌ شَغَلها الحذرُ.

وإنْ اتّسَعَ لها الأمْنُ اسَتَلَبَتْها العزّة.

وإنْ جُدّدَتْ لها نعمةٌ أحدثتْ لها مَرَحاً.

وإن أصابتْها مصيبةٌ فَضَحَها الجزعُ.

وإن نالتْ مالاً أطغاها الغنيُّ.

وإنْ أفرطَ عليها الشّبعُ كظّتها البِطْنَةُ.

فكلُّ تقصيرٍ بها مضرٌّ.

وكلُّ إفراطٍ لها مفسدةٌ[١].

وقالَ غيرُهُ:

---

(١) قوله: «حكي عن علي عليه السلام...» أورد الشريف الرضي هذه الحكاية عن الإمام علي بلفظ: «لقد علق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه، وهو القلب، وذلك أنّ له مواد من الحكمة وأضداد من خلافها؛ فإن سنح له الرجاء، أذله الطمع.

وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص

وإن ملكه اليأس قتله الأسف.

وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ.

وإن أسعده الرضى نسي التحفظ.

وإن غاله الخوف شغله الحذر.

وإن اتسع له الأمر استلبته العزة.

وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع.

وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى.

وإن عضته الفاقة شغله البلاء.

وإن جهده الجوع قعدت به الضعة.

وإن أفرط به الشبع كظته البطنة.

فكل تقصير به مضر

وكل إفراط له مفسد.

(انظر نهج البلاغة بشرح ابن أبي الحديد ٤ / ٢٨٨)

الإفراطُ في التواضعِ مذلَّةٌ.

والإفراطُ في التكبّرِ يستحرّ البغضَةَ.

والإفراطُ في الحذرِ يدعو إلى إيهامِ الخَلْق.

والإفراطُ في الأُنس يكسبُ قرناءَ السوءِ.

والإفراطُ في الإنقاصِ يُوحشُ ذوي النصيحةِ.

قال ابنُ المعتَزِّ[1]:

لو مُيِّزَتْ الأشياءُ لكانَ الكَذِبُ مع الجبنِ، والصدقُ مع الشجاعةِ، والراحةُ مع اليأسِ، والذلُّ مع الطمعِ، والحرمانُ مع الحرصِ[2].

[أقسام الخلق الذاتي]:

وقد ينقسم قسمين:

أحدهما: ما أوجبَ ثناءَ المخلوقينَ..

(١) ابن المعتز: أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم الخليفة العباسي الشاعر المشهور والأديب الكبير ولد سنة ٢٤٧ وقيل ٢٤٦هـ. وتوفي سنة ٣١٥هـ. انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢ / ٢٦٣-٢٦٨ رقم الترجمة ٣١٤ ومقدمة كتاب الآداب بتحقيق الأستاذ صبيح رديف وفي نهايته مراجع ترجمته وأخباره. وبعض أقواله وأمثاله في التمثيل والمحاضرة ١٠١-١٠٣.

(٢) قوله: «قال ابن المعتز: لو ميزت الأشياء...» انظر هذا القول بلفظة في كتاب الآداب لابن المعتز تحقيق الأستاذ صبيح رديف ص١٢٤ القول رقم ١٥٨ وفي ص١٣٤ منه تجد مظان ورود هذا القول، وقد ورد فيه هذا القول بلفظ: «... والصدق مع الشجاعة، والتعب مع الطمع، والراحة مع اليأس، والحرمان مع الحرص، والذل مع الدَّين». ومما ينسب إلى الإمام علي قوله: «لو تميزت الأشياء لكان الصدق مع الشجاعة، وكان الجبن مع الكذب» (غرر الحكم ص٢٦٢) وقد نسب مثل هذا القول لفورفوريوس، قال النويري: «قال فورفوريوس: لو تميّزت الأشياء بأشكالها لكان الكذب مع الجبن، والصدق مع الشجاعة، والراحة مع اليأس، والتعب مع الطمع، والحرمان مع الحرص، والعز مع القناعة، والأمن مع العفاف، والسلامةُ مع الوحدة» (نهاية الأرب ١٨٣/٨).

وهو ما عدا نفعُه عليهم.

والثاني: ما اقتضى ثناءَ الخالقِ.

وهو ما قُصد به وجهُ اللهِ تعالى.

روى جعفر بن محمد[١] قال:

ناجى الله بعضُ أنبيائهِ فقالَ: يا ربّ أيُّ خلقِك أحبُّ إليك؟.

قال: أكثَرُهم لي ذكراً.

قال: يا ربّ، فأيّ خلقِك أصْبَرُ؟.

قال: أكظمهم للغيظ.

قال: يا رب، فأي خلقك أعدل؟.

قال: من أدان[٢] نفسه.

قال: يا رب، فأي خلقك أغنى؟.

قال: أقنعهم برزقه.

قال: يا رب فأي خلقك أسعد؟.

قال: من آثر أمري على هواه.

قال: يا رب، فأي خلقك أشقى؟.

قال: من لم تنفعه الموعظة[٣] (٥ب).

فهذا ما تعلق بأخلاق الذات.

* * *

(١) جعفر بن محمد: هو جعفر الصادق بن محمد الباقر الإمام المشهور. ولقب بالصادق لصدقه في مقالته، وفضله أشهر من أن يذكر. وله كلام في الكيمياء، وكان تلميذه جابر بن حيان قد ألَّف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة. ولد الصادق سنة ٨٠هـ وتوفي ١٤٨هـ. وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين. انظر بعضاً من أخباره في وفيات الأعيان ١ / ٢٩١-٢٩٢ رقم الترجمة ١٢٨. طبقات ابن سعد ٥ / ١٣٩.

(٢) غ: أدال، باللام.

(٣) نسب الأبشيهي ما يشبه هذه المناجاة إلى موسى عليه السلام (انظر المستطرف ١ / ١٩).

[الفصل الثالث]

[أفعال الإرادة]

[أسبابها]:

وأما أفعالُ الإرادة فتصْدُرُ عن أسبابٍ باعثةٍ عليها، داعية إليها، وهي:

العقلُ.

والرأي.

والهوى.

فأما الارادةُ [فليست][1] حادثةً إلّا عن أحدِها.

وأما العقلُ والرأيُ فمؤتلفانِ، وهما علّةُ الفضائل.

[الفرق بين العقل والرأي]:

وفي الفرقِ بينهما وجهان:

أحدهما: أن العقلَ ما تُيُقِّنَ به الصواب من الخطأ، والرأي غلبة[2] الظنّ في ترجيح الصواب على الخطأ.

والوجه الثاني: أن العقلَ هو الموجبُ لأمرٍ لا يجوزُ خلافُه، والرأي هو سكونُ النفسِ إلى ترجيحِ أمرٍ يجوزُ خلافُهُ.

ثم يتّفقان[3] في النعتِ والصفةِ، ويختلفانِ في العلّةِ والنتيجةِ:

فالعقلُ لازم لمحلّهِ، ومستقلٌّ بحكمهِ، والرأيُ معترضٌ يستمدُّ العقلَ، ويستضيءُ بنورِه، ولذلك قيل:

---

(١) غ: فأما الإرادة فحادثة إلاّ...

(٢) غ: والرأي علة الظن...

(٣) غ: ثم يفترقان في النعت والصفة...

ظنُّ العاقل أصدقُ من يقينِ الجاهلِ[١].

وقالَ علماءُ العربِ:
سّمي العقلُ عقلاً، لأنّه يعقِلُ صاحبَه عن القبائحِ[٢].

وكان المأمونُ يُنشِدُ كثيراً قولَ الشاعرِ: [من الطويل]

يُعَدّ عظيمُ الناسِ من كانَ عاقلاً
وإنْ لم يكنْ في قومِهِ بحسيبِ
وإنْ حلَّ أرضاً عاشَ فيها بعقلِهِ
وما عاقلٌ في بلدةٍ بغريبِ[٣]

---

(١) قوله: «ولذلك قيل: ظن العاقل أصدق من يقين الجاهل» أورد عبد الوهاب الآمدي هذا القول من أقوال الإمام علي رضي الله عنه بلفظ «... أصح من يقين ...» (غرر الحكم ودرر الكلم ٢١٠) وقد ورد منسوباً إليه أيضاً في كتاب (٢٠٠٠ كلمة للإمام علي ص٧٢ رقم القول ١٦٧٤) وقد ورد غير منسوب لقائل في (التمثيل والمحاضرة ٤٢٧) بلفظ «جهل العاقل أعقل من عقل الجاهل» وفي (أحاسن المحاسن ١٦٤) بلفظ «... أصح من يقين ...» وقد أورده الميداني بلفظ «... خير من يقين...» في (مجمع الأمثال ١ / ٤٤٥ رقم المثل ٢٣٦٧) وورد بلفظه في (المستطرف ١ / ٢٦).

(٢) قوله: «وقال علماء العرب: سمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن القبائح».
قال في أدب الدنيا والدين «وسمي بذلك تشبيهاً بعقل الناقة، لأن العقل يمنع الإنسان من الإقدام على شهواته إذا قبحت، كما يمنع العقال الناقة من الشرود إذا نفرت، ولذلك قال عامر بن عبد القيس: إذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل»... ثم سمي هذا النوع من العقل بالعقل الغريزي (ص٥-٦).
وقيل: «العقل عقال النفس» (التمثيل والمحاضرة ٤٠٧) وقالوا: «العاقل من عقل لسانه» (المصدر نفسه ٤٠٨) و(غرر الحكم ٣٢، ٣٧، ٤٠)وُأيدي العقول تمسك أعنة النفوس عن الهوى» (التمثيل والمحاضرة ٤٠٨). وقال بطليموس: «العاقل من عقل لسانه إلاّ عن ذكر الله، والجاهل من جهل قدر نفسه» (لباب الآداب ٢٣٦) وفي صفحة ٤٦٢ منه منسوباً إلى الحكيم أرسطوطاليس.

(٣) قول الشاعر: يعد عظيم الناس... هذان البيتان وردا بلفظهما في العقد الفريد (تحقيق العريان ٢ / ١٠٥) ولم ينسبهما لقائل، وهما فيه بلفظ «يعد رفيع القوم...».
ونسبهما ابن عد البر النمري لبعض الأدباء وأوردهما بلفظ «يعد رفيع القوم من كان عالماً... عاش فيها بعلمه ..» (جامع بيان العلم وفضله ١ / ٥٧).

ولئِنْ كانَ العقلُ مستقّلاً ببصيرتِهِ، فقد يزدادُ بالتجاربِ تيقّظاً[١]، وبممارسةِ الأمورِ تحفّظاً، فلا يلتبسُ عليه حزمٌ، ولا ينتقصُ عليه عزمٌ.

وقيل:

[كلُّ شيءٍ] يحتاجُ إلى العقلِ، والعقلُ يحتاجُ إلى التجاربِ[٢].

وقد قيل:

استرْ عورةَ الحداثةِ بدرايةِ كتبِ المتقدمينَ
واستعنْ على إدراكِ الأحوطِ بحفظِ آثارِ الماضينَ[٣]

قال بعضُ الحكماء:

من لم تلقّحْ رأيَهُ التجاربُ عقمتْ همتُهُ[٤].

فنظمهُ بعضُ الشعراءِ: [من الكامل]

---

(١) قوله: «فقد يزداد بالتجارب تيقظا...» وقد سماه المؤلف في أدب الدنيا والدين بالعقل المكتسب (ص٦) قال ابن المعتز: «العقل غريزة تربيها التجارب» (الآداب ص٥٦) و(التمثيل والمحاضرة ٤٠٨) وقال الإمام علي: العقل غريزة يزيد بالعلم والتجارب» (غرر الحكم ودرر الكلم ص٤٠) وأورد ابن الأثير من أمثال المولدين: «طول التجارب زيادة في العقل» (مجمع الأمثال ١ / ٤٤٢) وقالوا: «كفى بالتجارب تأدباً وبتقلب الأيام عظة (سراج الملوك ٦٧،٧٢) و(العقد الفريد -تحقيق العريان -٢ / ٢٦٥) وقد أنشد الحارث بن حلزة:

إن السعيد له في غيره عظة   وفي التجارب تحكيم ومعتبر

(البيان والتبيين ٢ / ١٠٦) وانظر حول أقسام العقل (إحياء علوم الدين ١ / ٨٥).

(٢) قوله: «وقد قيل: كل شيء يحتاج إلى العقل والعقل يحتاج إلى التجارب» أورده المؤلف في كتاب أدب الدنيا والدين في باب المشورة ص٢٧٤ والزيادة منه وليست في الأصل. وقد عقد المؤلف هناك فصلاً لنمو العقل المكتسب بالتجارب فانظره (ص٦-٧، ١١-١٥) وقد أورد الآمدي هذا القول ضمن أقوال الإمام علي بلفظ «كل شيء يحتاج إلى العقل والعقل يحتاج إلى الأدب» (غرر الحكم ٢٣٩) وهو بلا عزو إلى أحد في عيون الأخبار ١ / ٣٤و١ / ٢٨١ وبلفظ (محتاج) بدلاً من (يحتاج) في الموضعين.

(٣) قوله: «وقد قيل: استر عورة الحداثة...إلخ» في هذا المعنى قال ابن المقفع: «وللعقول سجيات وغرائز بها تقبل الأدب، وبالأدب تنمي العقول وتزكو...» (الأدب الصغير -ضمن كتاب رسائل البلغاء- ص٤).

(٤) قوله: «من لم تلقح رأيه التجارب عقمت همته...» أورد ابن مسكويه من حكم العرب وأمثالهم السائرة في هذا المعنى قولهم: «لا خير في من لم تعظه التجارب» (الحكمة الخالدة ٢٠٧).

مَـنْ لَـمْ تَـلقّـحْـهُ نَـوائـبُ دهـرِهِ
وحـوادثُ الأيـامِ فـهـو عـقـيـمُ

[الهوى][1]:

(٦ آ)
وليجهدَنَّ أنْ لا يجعلَ لنفسِهِ في الهوى نصيباً. وقد قيلَ:
من أذلَّ هواه عَزَّ[2].

وقال بعض الحكماء: [من الطويل]

لَنِعْمَ أخـو التّـقـوى فتىً طـاهـرُ الحجى
خـمـيصٌ مـن الـفـحـشـاءِ عـفُّ الـمسالـكِ
فـتـىً مـلكَ الـلّذاتِ أنْ يـعـتَـبِـدْنَـه
ومـا كـلُّ ذي لـبٍّ لـهـنَّ بـمـالـكِ[3]

وقال [آخر من الطويل]

---

(١) فرّق المؤلف في أدب الدنيا والدين بين الهوى والشهوة، فقال: «فأما فرق ما بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول، واتفاقهما في الدلالة والمدلول، فهو أن الهوى مختص بالآراء والمعتقدات، والشهوة مختصة بنيل المستلَذّات فصارت الشهوة من نتائج الهوى، وهي أخص، والهوى أصل، هو أعم...» (ص٢٣).

(٢) قـولـه: «من أذل هـواه عـز» أورد المؤلـف معنـاه عن بـعض الحكـماء في (أدب الدنيا والدين ص٢٠) بلفظ «أعز العز الامتناع من تملك الهوى» و«قيل في منثور الحكم: من أطاع هواه أعطى عدوه مناه» (ص١٨) و«قال بعض البلغاء: أفضل الناس من عصى هواه» (ص١٨) ونجده عند الثعالبي بلفظ «أشجع الناس أقهرهم لهواه» (التمثيل والمحاضرة ٤٥٣) وللإمام علي رضي الله عنه «من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته» (مجمع الأمثال ٢ / ٤٥٣).

(٣) قوله: «وقال بعض الحكماء: لنعم أخو التقوى... إلخ البيتين» البيتان لأبي العتاهية (انظر ديوانه ص٣١٤) وقد وردا فيه بلفظ

لنعم فتى التقـوى فتى ضـامـر الحشـا   خميص من الـدنيـا نقي المسـالـك
فـتى مـلك الـلذات أن يـعـتـبـدنـه   ومـا كـل ذي لـب لهـن بمـالـك

وألــتــذّ مــا أهــواهُ والــمــوتُ دونَــهُ
كــشــاربِ ســمٍّ فــي إنــاءٍ مُــفَــضَّضِ
فــتــوشــكُ أمــراضــي تــؤوبُ بــمَــرضــةٍ
تــفــرقُ مــا بــيــنــي وبــيــنَ مُــمَــرّضــي[1]

* * *

(١) غ: (فيوشك) بالياء. وقد أصبح البيت الأول من الأمثال البديعة السائرة، فقد ورد غير منسوب في (زهر الربيع في المثل البديع ص٩٣).

[الفصل الرابع]

[الكرم والمروءة][1]

[بين الكرم والمروءة]:

فأما الكرمُ والمروءةُ فهما قرينانِ في الفضلِ، ومتشاكلانِ في العقل.

والفرقُ بينهما مع التشاكلِ من وجهين:

أحدُهما: أن الكرمَ مراعاةُ الأحوالِ، أن يكونَ على أنْفَعها وأفْضَلِها. والمروءةُ مراعاةُ الأحوالِ أن يكونَ على أحْسَنِها واجْمَلِها.

والوجهُ الثاني: أن الكرمَ ما تعدى نفعُه إلى غيرِ فاعلِه، والمروءةُ قد تقفُ على فاعِلها، ولا تتعدّى إلى غيره. فإنْ استعملها في غيره ما زجتْ الكرمَ، ولم ينفردْ بالمروءةِ، وصارَ بالاجتماعِ أفضلَ، وإن افترقا كان الكرمُ أفضلَ؛ لتعدي نفعِه، وتعدي النفعِ أفضلُ.

وليس واحدٌ من الكرمِ والمروءةِ خلقاً مفرداً، ولكنه يشتملُ على أخلاقٍ يصيرُ مجموعها كرماً ومروءة

[المروءة]:

روي عن النبي عليه السلام أنه قال:

«مَنْ عامَلَ الناسَ فلمْ يَظلِمْهُمْ، وحَدَّثَهُمْ فلمْ يَكْذِبْهُمْ وَوَعَدَهُمْ فلمْ يُخْلِفْهُمْ، فهو مِمّنْ كَمُلَتْ مروءَتُه، وظهرتْ عدالتُه، وَوَجَبَتْ أخوّتُهُ»[2]

قالَ بعضُ البلغاءِ: (٦ ب)

---

(١) حول الكرم والمروءة عقد المؤلف فصلا في أدب الدنيا والدين عنهما، فلينظر (ص٢٩٠-٣١٨) كما عقد ابن مسكويه عن الفضائل التي تحت السخاء فصلاً في (تهذيب الأخلاق ٢٦) وللغزالي في (إحياء علوم الدين ٣ / ٢٣١-٢٧٤) وللأبشيهي في (المستطرف ١ / ١٥٥-١٧١) وجعل المؤلف الباب الثامن من أبواب كتابه نصيحة الملوك خاصاً بموضوع التدبير في الأموال في الورقات (٦٩آ-٧٦آ) فلتنظر.

(٢) حديث «من عامل الناس فلم يظلمهم... الحديث» أخرجه الخطيب البغدادي عن الحسين بن علي (انظر الكفاية ٧٨) وأورد المؤلف في (أدب الدنيا والدين ٢٩٠) و(الأمثال والحكم الورقة ٥٧ب)

مِنْ شرائطِ المروءةِ أنْ تعفَّ عن الحرامِ، وتَتَصَلَّفَ عن الآثامِ، وتُنصِفَ في الحكمِ، وتكفَّ عن الظلمِ، ولا تطمعَ في ما لا تستحقُّ، ولا تستطيلَ على من لا تسترقُّ، ولا تعينَ قويًّا على ضعيفٍ، ولا تُؤْثِرَ دنيًّا على شريفٍ، ولا تُسِرَّ ما يعقبُ الوزرَ والإثمَ، ولا تَفْعَلَ ما يُقَبِّحُ الذكرَ والاسمَ[١].

قال سليمان بن عبد الملك[٢] لأبي حازم[٣]:

أيُّ عبادِ اللهِ أكرمُ؟

قال: أولو المروءةِ والنهى، الذين نَهَوْا النفسَ عن الهوى، ولم يقولوا لعلَّ وعسى.

قال أنوشِرْوان[٤] لابنه:

---

(١) قوله: «قال بعض البلغاء: من شرائط المروءة أن تعف عن الحرام... إلى آخر القول» أورد المؤلف هذا القول منسوباً لبعض البلغاء بنفس ألفاظه إلّا أن فيه «أن يتعفف... ويتصلف... وينصف... إلخ» بصيغة الغائب لكل الأفعال (ص٢٩٠).

وأورد الآمدي قسمًا منه ضمن أقوال الإمام علي رضي الله عنه بلفظ «من شرائط المروءة التنزه عن الحرام، ومن لوازم الورع التنزه عن الآثام، ومن أحسن العقل التحلي بالحلم، ومن لوازم العدل التناهي عن الظلم، ومن تمام المروءة أن تستحي من نفسك... إلخ» وفيها كثير من شرائط المروءة (غرر الحكم ٣٠٤).

وقد أورد أبو الحسن بن الحسين الرخجي بلفظ: «فمن شرائط المروءة أن يتعفف عن الحرام، ويتنزه عن استعمال الآثام، وينصف في الحكم ويكف عن الظلم، ولا تطمع -كذا بتاء الخطاب فيها لا تستحق، ولا تستخف بمن لا تسترق، ولا تعز قوياً على ضعيف، ولا تؤثر دنيئاً على شريف، ولا تشر بما يعقب الوزر والإثم، ولا تفعل ما يقبِّح الذكر والاسم» (أحاسن المحاسن ١٦٠).

(٢) سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي المعروف.

(٣) أبو حازم: هو أبو حازم الأعرج سلمة بن دينار الأفزر التمار المدني القاص، مولى الأسود بن سفيان المخزومي، كان ثقة في الحديث، توفي بعد سنة ١٤٠هـ في خلافة المنصور. انظر صفة الصفوة ٢/٨٨، إسعاف المبطأ برجال الموطأ ص١٢، طبقات ابن خياط ص٢٦٤ وفيه أنه توفي ١٣٥هـ، وانظر بعضاً من أقواله في العقد الفريد ١ / ١٤، ٣٧، ٢٨٢ والبيان والتبيين ١ / ٣٦٤، ٣ / ١٢٦، ١٢٧، ١٣٩، ١٤٢، ١٥٢، ١٦٠، ١٦٤، ١٩١، ٢٧٣، عيون الأخبار ٢ / ٣٧٠، المصباح المضيء في خلافة المستضيء ٢ / ٨٠٦، ٨٦١.

(٤) أنوشروان: كلمة فارسية معناها ذو النفس الخالدة، وهو كسرى أنوشروان بن قباذ أحد ملوك الفرس (٥٣١-٥٧٩) كانت له حروب مع الروم إذ افتتح بلاد حلب وقنسرين وحمص

من الكاملُ المروءةِ؟

قال: مَنْ حصّنَ دينَه، وَوَصَلَ رَحِمَهُ، وأكرم إخوانَهُ[١].

وفي اشتقاقِ اسمِ المروءةِ من كلامِ العربِ[٢] ما يدلُّ على فضيلتِها عندهم، وعِظَمِ خطرِها في نفوسِهم، ففيه وجهان:

أحدُهما: مشتقةٌ من المروءةِ والإنسانِ، فكأنها مأخوذةٌ من الإنسانية.

والوجهُ الثاني: أنّها مشتقةٌ من المريءِ، وهو ما استمرأه الإنسانُ من الطعامِ؛ لما فيه من صلاحِ الجسدِ، فأُخِذَتْ منهُ المروءةُ؛ لما فيها من صلاحِ النفسِ.

[انقسام الفضائل مع الكرم والمروءة]:

فكل كرمٍ ومروءةٍ فضيلةٌ، وليس كلُّ فضيلةٍ كرماً[٣] ومروءةً، بل تنقسمُ الفضائلُ مع الكرمِ والمروءةِ [إلى أربعة أقسامٍ]:

وإنطاكية وغير ذلك انظر أخباره وأقواله في: مروج الذهب ١ / ١٦٤-١٦٨، نصيحة الملوك للغزالي ٤٦-٤٧ العقد الفريد١ / ١١٧، التمثيل والمحاضرة١٣٣، ١٣٧-١٣٨، ٤٢١ الإيجاز والإعجاز ١٤، السعادة والإسعاد ٩٥، المعرب٦٨، دائرة المعارف الإسلامية المترجمة (٣ / ٨٤) نسخة مصورة، الطبري ١ / ٨٦٢ (طبعة أوربا)، غرر أخبار ملوك الفرس ٦٠٣-٦٣٧، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة بن الحسن الأصفهاني ٥١-٥٣، التاج والآيين لمحمد محمدي ٣٤-٤٢.

(١) قوله: «قال أنوشروان لابنه: من الكامل المروءة؟...» أورد المؤلف هذا القول بلفظه منسوباً إليه في (أدب الدنيا والدين ٢٩٤) ونقل هناك أنه قال ذلك لابنه هرمز. كما نقل تعاريف أخرى منها قوله: «حكي أن معاوية سأل عمرو بن العاص عن المروءة فقال: تقوى الله تعالى وصلة الرحم، وسأل المغيرة فقال: هي العفة عما حرم الله تعالى، والحرفة فيما أحل الله تعالى، وسأل يزيد فقال: هي الصبر على البلوى والشكر على النعمى والعفو عند المقدرة. فقال معاوية أنت مني حقاً» (أدب الدنيا والدين ٢٩٤) و«سئل محمد بن علي عن المروءة فقال: ألّا تعمل في السر عملاً تستحي منه في العلانية» (ص٢٩٩)

(٢) قوله: «وفي اشتقاق اسم المروءة من كلام العرب...» انظر بشأن ذلك في مادة (مرأ) في كل من الصحاح (١ / ٧٢) لسان العرب (صادر ١ / ١٥٤-١٥٧) تاج العروس (١ / ١١٧-١١٨) الجمهرة (٣ / ٢٥٢-٢٥٣).

كل ذلك حول اشتقاقها من كلام العرب، وأما عن معناها عند الأعاجم، فمن معانيها: قال بهرام بن هرمز: المروءة اسم جامع للمحاسن كلها» (الإيجاز والإعجاز ص١٣).

(٣) غ: كرم.

القسم الأول: ما يدخلُ من الفضائلِ في الكرمِ والمروءةِ][1]، كالعفوِ، والعفةِ، والأمانةِ.

والقسم الثاني: ما يدخلُ في الكرمِ، ولا يدخلُ في المروءةِ، كالحمدِ، والرحمةِ، والحميةِ، والبذلِ، والمساعدةِ.

والقسم الثالث: ما يدخلُ في المروءةِ، ولا يدخلُ في الكرمِ، كعلوِّ الهمّةِ، وحسنِ المعاشرةِ، ومراعاةِ المنازلِ والملابسِ (٧ آ).

والقسم الرابع: ما لا يدخلُ في الكرمِ، ولا المروءةِ، كالشجاعةِ، والصبرِ على الشدّةِ.

فاجتمع الكرمُ والمروءةُ في بعض الفضائلِ، وافترقا[2] في بعضها؛ فصارَ الكرم أعمَّ من المروءةِ في بعضِ الفضائلِ، والمروءةُ أعمَّ من الكرمِ في بعضِ الفضائلِ، فلم يتعيّنْ عمومُ أحدِهما [و] خصوصُ الآخرِ، وإنْ تناسبَ ما مُيّزَ به أحَدُهما.

* * *

---

(١) الزيادة يقتضيها السياق وقد سقطت من الأصل.

(٢) غ: وافتراقاً.

[الفصل الخامس]

[السجايا والأخلاق]

هذا ما استقرّتْ عليه قواعدُ الأخلاقِ.

[الفرق بين السجايا والأخلاق]:

أمّا السجايا: فقد اختُلِفَ في الفرقِ بينَها وبينَ الأخلاقِ على وجهين:

أحدهما: أنّ السجايا [ما][1] لم يُظهرْ الطبائعَ، والأخلاقُ ما أظهرتْها، فكانتْ قبلَ ظهورِها سجايا، وصارتْ بعد ظهورِها أخلاقاً.

والوجه الثاني: أنّ السجايا ما لم يتغيّرْ لطبعٍ ولا تطبّعٍ، والأخلاقُ ما يجوزُ أنْ يتغيّرَ بطبعٍ وتطبّعٍ.

وزعم بعضُ علماءِ الطبِّ أنّ السجايا والأخلاقِ تابعةٌ لمزاجِ البدنِ في أحوالِ الطباعةِ، بالزيادةِ والنقصانِ، تزيدُ بزيادتِها، وتنقصُ بنقصانِها. فزعموا أنَّ الغضبَ يُسرِعُ بكثرةِ المرّةِ الصفراءِ، ويضعفُ بقلتِها، وتكثرُ الحرارةُ والقحّةُ والشجاعةُ مع وفورِ الدم، وتقلُّ لقلّتِه، ويكثُر الخبثُ والدهاءُ والمكرُ لغلبةِ المرةِ، ويقلُّ إنْ قلتْ، ويكثرُ الحلمُ والاناةُ لغلبةِ البلغمِ، ويقلُّ إنْ قلَّ.

فاذا اعتدلتْ فيه هذه الأمزجةُ اعتدلتْ أخلاقُهُ؛ فكانتْ فضائلَ، وإن تجاوزتْ الاعتدالَ إلى زيادةٍ أو نقصانٍ خرجتْ عن الفضائلِ إلى الرذائلِ في الزيادةِ والنقصان.

والذي عليه المتديّنونَ: أنّ اللهَ تعالى ركّبها في النفوسِ وطَبَعَها في الفطرِ (٧ ب) بحسب إرادتِه على ما قدّره من أحوالِ عبادِه، وجعلَ اختلافَ الأخلاقِ كاختلافِ الخِلَقِ والصُّوَرِ التي لها علةٌ غيرُ إراديةٍ.

---

(١) الزيادة يقتضيها السياق.

وأما الشيمُ فكالسّجايا في قولِ الأكثرين، وكالأخلاقِ في قولِ الأقلّين.

والفرقُ بين الغرائزِ والنحائزِ، أن الغرائزَ ما امتزجَ بالطبعِ، والنحائزَ ما ظهرَ بالقوةِ.

[أحوالُ الإنسانِ فيَ أخلاقِهِ]:

فإذا وضحَ ما ذكرناهُ من أحوالِ الأخلاقِ، من صلاحٍ وفسادٍ، وحمدٍ وذمٍ، فليسَ يخلو الإنسانُ من إحدى ست[1] أحوالٍ:

إحداهن: أن تكونَ أخلاقُه كلُّها صالحةً في الأحوالِ كلّهـا، فهي النفسُ الزاكية، وصلاحُها هو الخيرُ التامّ، وصاحبُها هو السيدُ بالاستحقاقِ، فيحفظُ صلاحَ أخلاقِهِ كما يحفظُ صلاحَ جسدِهِ، ولا يغفلُ عن مراعاتِها، ثقةً بصلاحِها، فإنّ الهوى مراصدٌ، والمهملُ معرّضٌ للفسادِ.

قال بعض الحكماءِ:

النفسُ عروفٌ عزوفٌ، ونَفورٌ ألوفٌ، متى ردعتهَا ارتدعتْ، ومتى حمَّلتَها حَمَلتْ، وإنْ أهملتَها فسدتْ[2].

قالَ عليٌّ بن عبيدةَ الريحاني[3]:

إنّ من شأنِ النفسِ أنّها كلّما أعطيتْ رخصةً في الغفلةِ والنسيانِ ازدادتْ أكثَر ممّا أُعطيتْ، وردُّها قبل العادةِ أهونُ من ردّها بعد الحاجة.

---

(١) غ: ستة.

(٢) قوله: «قال بعض الحكماء: النفس عروف عزوف...» ورد هذا القول في (التمثيل والمحاضرة ٣٠٧) غير منسوب لأحد وقد جاء فيه بلفظ «النفس عيوف عزوف...» وأورد الميداني قولهم: النفس عروف أي صبور إذا أصابها ما تكره فيئست من خير اعتبرت فصبرت والعارف الصابر (مجمع الأمثال ٢ / ٣٣٣ رقم المثل ٤١٩٨) وأورده مرة أخرى بلفظ «النفس عزوف ألوف» يقال عزفت نفسي عن الشيء تعزِف وتعزُف عزوفاً، أي زهدت فيه وانصرفت عنه ومعنى المثل: أن النفس تعتاد ما عودت، إن زهدتها في شيء زهدت وإن رغبتها رغبت» (مج الأمثال ٢ / ٣٤٢ رقم المثل ٤٢٥٢).

(٣) غ: علي بن عبيد والصواب ما أثبتناه. وعلي بن عبيدة الريحاني من كتّاب العصر العباسي الأول وأحد البلغاء الفصحاء، ومن الناس من يفضله على الجاحظ في البلاغة وحسن التصنيف، وكان له اختصاص بالمأمون. ويسلك في تأليفاته وتصنيفاته طريقة الحكمة، وكان =

ولذلك قالت العربُ في أمثالها:

لو نُهيت الأولى لانتهتْ الأخرى[١].

قال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لمولاه مزاحم:

إن الولاةَ جعلوا العيونَ على العوامِ، وأنا أجعَلُك عيناً على نفسي، فإن سمعتَ كلمة وبِّخْني عليها، وفعالاً لا تَحبّه مني فعظني عنده.

والاستظهارُ بمثلِ (٨ آ) هذه الأحتياطُ.

قال بعضُ الحكماءِ:

إن للناسِ أفهاماً يحفظونَ عليكَ أفهامَك، فربما ذكّروك ما قد أُنسيت، وأتاك عنهم ما قد سَقَطَ عن علمِك، فعلى حسبِ ذلك فليكن حذرُك من ذمّهم، وقهرُك لهم بصيانةِ نفسِك عندهم.

والحال الثانية:

أن تكونَ أخلاقُه كلُّها فاسدةً في الأحوالِ كلِّها، فهي النفسُ الخبيثةُ، وفسادُها هو الشرُّ التامُّ، وصاحبُها هو الشقيُّ بالاستحقاقِ، فيعالجُ فسادَ نفسِه كعلاجِه مرضَ جسدِه، وهو أصعبُ أحوالِها علاجاً، وأبطؤُها صلاحاً؛ لأنها تنتقلُ إلى ضدٍّ بغيرِ ضدٍّ، وتردّ عن طبعٍ بغير طبعٍ.

قال بعضُ الحكماء:

لا مرضَ أوجعُ من قلةِ العقلِ[٢].

= يرمي بالزندقة، وله كتب حسان في الحكم والأمثال. عدَّد له ياقوت (٥٢) كتاباً وذكر ابن النديم أسماء (٥٥) كتاباً توفي سنة ٢١٩هـ. انظر أخباره وترجمته وأقواله في: تاريخ بغداد ١٢ / ١٨، النجوم الزاهرة ٢ / ٢٣١ معجم الأدباء ١٤ / ٥١-٥٦ رقم الترجمة ١٢، الفهرست ١٧٩-١٨٠، التمثيل والمحاضرة٤٠٣، ٤٣٩، ثمار القلوب ٤٧٩، ٤٨٠.

(١) قولهم: «لو نهيت الأولى لانتهت الثانية» مثل من أمثالهم أورده أبو عبيدة القاسم بن سلام بلفظ «لو نهتك الأولى لم تعدم الأخرى» (أمثال أبي عبيد ١٣) وأورده أبو الوفا محمد بن احمد البساك بلفظ «لو نهيت الأولى لانتهت الثانية» ويقول: إن معناه: «لو عاقبتك على أول جناية لم تجن ثانياً، قاله أنس بن الجمير الأيادي لما لطمه الحارث بن أبي شمر لطمة بعد أخرى» (٩٢-٩٣) وانظر (معجم الأمثال ٢ / ١٧٤ رقم المثل ٣٢٣٠)

(٢) قول الحكماء: لا مرض أوجع من قلة العقل» أورده عبد الواحد الآمدي ضمن أقوال الإمام =

ولأنْ يداويَ المرءُ عقلَه من الجهلَ أحرى به أنْ يداويَ بدنَه من المرض؛ فتلينَ بشماسها[1]، وتتدرجَ في مراسها، لينقلّها بالتدريجِ عن أحوالٍ متقاربةٍ إلى غايةٍ متناهيةٍ. فَرائِضُ الفيلِ الوحشيِّ يقودُه بالتدريجِ إلى ضدّ طِباعِهِ، قال الشاعر: [من الكامل]

والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبتَها
وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقنعُ[2]

فيُحَكِّمُ العقلُ عليها، فكفى به مُدَبِّراً ناصحاً، وسفيراً مصلحاً، كما قيلَ:

القلوبُ خواطرُ بالهوى،
والعقولُ تزجرُ وتنهى،

= علي رضي الله عنه بلفظ «لا مرض أضنى من قلة العقل» (غرر الحكم ٣٤٩) وهو غير منسوب عند ابن منقذ بلفظ «الأدب حياة القلوب، ولا مصيبة أعظم من الجهل» (لباب الآداب ٢٣٤).

(١) يقال رجل شموس: أي صعب الخلق. (مختار الصحاح مادة شمس ص٢٧٤).

(٢) قوله: «قال الشاعر: والنفس راغبة...»هذا البيت لأبي ذؤيب الهذلي واسمه خويلد بن خالد، الشاعر الجاهلي الذي أدرك الإسلام وأسلم على عهد رسول الله (ص) قيل إنه مات بأرض الروم. والبيت هو أحد أبيات العينية في الرثاء لبنيه السبعة الذين ماتوا في يوم واحد والتي مطلعها

أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

وقد قال عنه ياقوت: شعره كله نمط في الجودة وحسن السبك وذكر إنه توفي في غزوة أفريقية مع ابن الزبير، انظر عن الشاعر معجم الأدباء١١ / ٨٣-٨٩ رقم الترجمة٢٠، جمهرة أشعار العرب٢٤١-٢٤٨المفضليات٢ / ٢١٩-٢٢٩ رقم القصيدة١٢٦، الاستيعاب٤ / ٦٥ (على هامش الإصابة، الإصابة٤ / ٦٦ وديوانه مطبوع ضمن ديوان الهذليين القسم الأول من ١-١٦٥.

وعن البيت فإننا نجده في ديوان الهذليين القسم الأول ص٣، والعقد الفريد٣ / ٢٥٤ ضمن القصيدة، و٦ / ١٢٣ (طبعة العريان)، وشرح نهج البلاغة٢ / ٤٨٩ والإيجاز والإعجاز٤٠ وخاص الخاص١٠٤ والمفضليات٢ / ٢٢٢، وجمهرة أشعار العرب٢٤٢، ونهاية الأرب٣ / ٧٢، ٢٤٧، وهو من الأبيات التي لا مثيل لها في عيون الأخبار٢ / ١٩١، ٣ / ١٨٥، والبيان والتبيين١ / ١٥٤ على أن نصفه الثاني أحكم نصف بيت وأوجز، و١ / ١٥٥ أيضاً، والشعر والشعراء٩ والاستيعاب٤ / ٦٧ وفيهما أن الأصمعي قال عنه أبرع بيت قالته العرب، الإصابة ٤ / ٦٦، ولباب الآداب٤٢٥ بلفظ (والنفس =

وفي التجاربِ علمٌ مستفاد[1]،
والاعتبارُ يفيدُكَ الرشادَ،
وكفاكَ أدباً ما تكره من غيرِك،
فعظْ نفسَك بالعبرةِ.

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ:
متى بدأتَ بطلبِ الشرفِ والفضلِ؟
فقالَ: منذ الوقتِ الذي بدأتُ فيهِ بمعاتبةِ نفسي على ما أنا فيه من القبائح[2].

والحال الثالثة[3]:

أن تكونَ أخلاقُه صالحةً في كلّ الأحوالِ، فتنقلبُ كلُّها إلى الفسادِ (٨ ب) في كلِّ الأحوالِ، فهو المستعاذُ به من الحورِ بعد الكورِ.

وليسَ تكونُ إلّا عن أسبابٍ ناقلةٍ [لا تنفكّ][4] فيها من أحدِ ثلاثةِ أمورٍ:

إمّا من سوءِ منشأٍ.

= طامعة...)، معجم الأدباء١١ / ٨٨٨، وقد استشهد المؤلف بهذا البيت في هذا الكتاب مرة أخرى، كما استشهد به على أنه من الأمثال السائدة (انظر كتاب الأمثال والحكم الورقة٣١ب).

(١) قولهم: «وفي التجارب علم مستفاد» ورد هذا القول في رسالة كلمات مختارة ص٢٤ دون عزو وفي مجمع الأمثال٢ / ٧٩ رقم٢٧٧٨. وورد في التمثيل والمحاضرة٤٢٤، والامتاع والمؤانسة٢ / ١٥٠ بلفظ «في التجارب علم مستأنف» وفي لباب الآداب ٣٢٦ بلفظ «إن التجارب عقل مستفاد» وفي غرر الحكم ص٢٣ بلفظ «التجارب علم مستفاد».

(٢) قوله: «وقيل لبعض الحكماء: متى بدأت...» أورد هذا القول المبشربن فاتك منسوبا إلى سقراط، بلفظ «وقيل له: مذ كم بدأت تكسب الفضائل؟ قال: مذ بدأت توبيخ نفسي» (محاسن الكلم ١١٥) ونسب قولاً مشابهاً لهذا القول لمندرس بلفظ: «متى أثرت فيك الحكمة؟ فقال: مذ بدأت أحقر نفسي» (ص٣١٦). وقد أورد أبو الحسن محمد بن أبي ذر يوسف العامري النيسابوري هذا القول بلفظ: «قيل منذ كم أثرت الحكمة فيك؟ فقال مذ بدأت أحقر نفسي» (السعادة والإسعاد٢ ١٠)

(٣) غ: الثانية.

(٤) الزيادة من حاشية الأصل.



وإمّا من غلبةِ شهوةٍ.

وإما من إهمالٍ وقلةِ تحفظٍ.

فيعالجهُ بالضدِّ من سببه، فانّ في صلاحِ الطبعِ عوناً على فسادِ الاكتسابِ، ولنْ يُستصعبَ انقيادُ طبعٍ طرأ عليهِ عارضٌ.

قال الشاعرُ: [من الطويل]

ومـا الـنفسُ إلاّ حـيـثُ يـجـعـلُهـا الـفـتـى
فـإنْ أعـطـيـتْ تـاقـتْ وإلاّ تـسـلّتِ[1]

ولئنْ تغيَّرَ الطبعُ بالإهمالِ فهو إلى أصله أبرعُ، وإذا أنقصته الحميَّةُ، كان إلى الاستقامةِ أسرع.

قال بُزُرْجُمِهْرُ[2]:

من طباعِ النفسِ استدامةُ المعاذيرِ لصاحبها فيما مضى، والوجالةُ فيما بقى[3].

---

(١) البيت: «وما النفس إلاّ حيث يجعلها الفتى...» استشهد به المؤلف في أدب الدنيا والدين (ص١٠) وفيه (فإن أطمعت) وقد جاء به بعد بيت آخر هو قوله:

صبرت على الأيام حتى تولت ... وألزمت نفسي صبرها فاستمرت

ولم ينسبها لقائل. ونجد البيت في شرح نهج البلاغة غير منسوب وهو فيه بلفظ (فإن أطعمت تاقت...» (٢ / ٤٨٩).

(٢) بزرجمهر: وهو بزرجمهر بن البختكان رأس أطباء فارس وهو الذي تولى انتساخ كتاب كليلة ودمنة وترجمه من كتب الهند وكان وزيراً مقدماً لديهم، انظر قصته في مقدمة كتاب كليلة ودمنة ٣٠ وبعض أقواله في التمثيل والمحاضرة ١٤٢، ١٦٠، ٤٠٢ والعقد الفريد١ / ٢٦٥، والبيان والتبيين١ / ٧، ٢٢١، ٤ / ٦٣ وحول ضبط حروفه انظر تثقيف اللسان لابن مكي الصقلي ١٤١ وله قصص مع أنوشروان في غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ٦١٩-٦٢٤، ٦٣٣-٦٣٦.

(٣) قول بزرجمهر: «من طباع النفس استدامة المعاذير...» أورده ابن المقفع بلفظ «إن من طباع النفس الأمارة بالسوء أن تدعي المعاذير فيما مضى، والأماني فيما بقي» غير أنه لم يذكر قائله (الأدب الصغير٤٢) و(ص١١ ضمن رسائل البلغاء). وأورد الثعالبي قولاً يشبه هذا المعنى ونسبه إلى دقليطاس الرومي بلفظ: «من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير» (الإيجاز والإعجاز ص١١).

فلْيعلم العاقلُ أنّها إنْ سهَّلت له العذرَ في قبيح أتاهُ أنّهُ قد اكتسبَ في قبولِهِ فيها مثلَهُ.

قال الشاعِرُ: [من الطويل]

وإنَّ أمْـرَءا لا يَـنْـتَـهـي عَـنْ غـوايـةٍ
إذا مـا اشْـتَـهَـتْـهـا نـفـسُـهُ لَـجَـهُـولُ

والحال الرابعة:

أن تكونَ كلُّ أخلاقِهِ فاسدةً في كلّ الأحوالِ، فتنقلبُ إلى الصلاحِ في كلّ الأحوالِ، فما ذاكَ إلّا لداعٍ غلبَ على الطبعِ، فاجتذبَه، وقويَ عليهِ حتى قَلَبَه، فيراعي حفظَ أسبابِه، وتقويةِ موادِّهِ، ولا يغفله؛ فيجذبه الطبعُ كما اجتذبَه، فإنّ نوازِعَ الطباعِ أجذبُ، وهي إلى ما ناسبَها أقربُ، وقليلٌ لفسادٍ صلح أنْ يكونَ محفوظَ الصّلاحِ.

قال بعضُ الحكماءِ:

كل متأدّبٍ من غيرِه متى لم يدمْ عليه الأدبُ، اختلَّ ما يستفيدُ منه، ورجعَ (٩ آ) إلى طبعِهِ.

وملاكُ صلاحِها أنْ تكاثَر من وافقَه في الصّلاحِ، وتجانبَ من خالفَه فيه، فإنّ للصحبةِ تأثيراً في اكتسابِ الأخلاقِ، واجتذابِ الوفاقِ، لقصورِ الطرفِ عليها، وسكونِ النفسِ إليها، ولذلك قال النبيُّ عليه السلامُ:

«المرءُ على دينِ خليلِهِ، فَلْينظرْ أَحدُكم مَنْ يخالِلُ»[١].

---

(١) حديث: «المرء على دين خليله...» أخرجه أبو داود (سنن أبي داود ٤ / ٢٥٩ رقم الحديث ٤٨٣٣) والترمذي (سنن الترمذي ٤ / ١٧ رقم الحديث ٢٤٨٤) وكلاهما من حديث أبي هريرة من طريق محمد بن بشاروبلفظ «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» وهو حديث حسن. وقد روي باللفظ الذي جاء به الماوردي وبطرق أخرى فانظر (الجامع الصغير ٢ / ٢٦) و(المقاصد الحسنة ٣٧٨ رقم الحديث ١٠٠٩) و(كشف الخفاء ومزيل الإلباس ١ / ٢٨١ رقم الحديث ٢٢٨١) وقد استشهد المؤلف به في (أدب الدنيا والدين ص٩٦) وسيأتي أيضاً في هذا الكتاب وقد أصبح هذا الحديث مثلاً من أمثاله صلى الله عليه وسلم (انظر التمثيل والمحاضرة ٢٨) وقد أورده أبو عبيد بلفظ «المرء بخليله فلينظر المرء من يخالّ» (أمثال أبي عبيد ص٣) و(مجمع الأمثال ٢ / ٢٧٥ رقم المثل٣٨٣٣).

وقال عبد الله بن طاهر[١]:

إن لكلّ شيءٍ حياةً وموتاً؛ فمما يحيي اللبَّ محادثةُ الألبّاءِ، ويحيي الودَّ محادثةُ الأودّاءِ، ويحي العزّ مضافرةُ الأعـزاءِ، ويحي الذلَّ مـظاهرةُ الأذلاءِ، ويحي الشجاعةَ مصاحبةُ الشجعاءِ، ويحي الكرمَ مواصلةُ الكرماءِ، ويحيي الحياءَ مكاثرةُ أهلِ الحياءِ، ويحيي اللؤمَ معاشرةُ اللئامِ.

قال بعضُ البلغاءِ:

صلاحُ الشيمِ بمعاشرةِ الكرامِ، وفسادُها بمخالطةِ اللئامِ[٢].

والحال الخامسة:

أن تكونَ بعضُ أخلاقهِ صالحةً في كلّ الأحوالِ، وبعضُها فاسدةً؛ فقد أعطتْه نفسُه من صلاحِها شطراً، ومَنَحَتْهُ [من] فسادِها[٣] شطراً، وهما فيه متنافرانِ. وفيما أعطتْ عونٌ[٤] على ما مُنعتْ إنْ روعيتْ، وفيما منعتْ فسادٌ لما أعطتْ إن أُهملتْ.

وقد قالَ عليُّ بنُ عبيدةَ: من كانتْ فيهِ خصلةٌ حسنةٌ فليواظبْ عليها؛ فإنّ لها دولةً تعودُ إليها، ما أدبرَ عنها، فليستَعِنْ بشطر صلاحِها على شطرِ

---

(١) عبد الله بن طاهر: هو عبد الله بن طاهـر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن مـاهان الخزاعي (أبو العباس) كان سيداً نبيلاً عالي الهمة شهمًا، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه، وكان أديباً ظريفاً، جيد الغناء، نسب إليه صاحب الأغاني أصواتاً كثيرة، وأحسن فيها، ونقلها أهل الصنعة عنه، وله شعر مليح، ورسائل ظريفة، توفي سنة ٢٣٠هـ.انظر بعضاً من أقواله وأحواله في: وفيات الأعيان٢ / ٢٧١-٢٧٥ رقم الترجمة٣١٦، العبـر في خبر من غبر١ / ٤٠٦، المستظرف١ / ٢٢٦، الفهرست١٧٦ وفيه أنه كان له مجموع رسائل.

(٢) قول بعض البلغاء: «صلاح الشيم بمعاشرة الكرام...» أورده ابن مسكويه دون نسبه لأحد بلفظ «رأيت صلاح الأخلاق بمعاشرة الكرام وفسادها بمخالطة اللئام» (الحكمة الخالدة٨٤) وفي هذا المعنى قال لقمان: «من خير حظ المرء، قرين صالح، فقارن أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشر تبن عنهم» (مختار الحكم٢٧٨) وقول أوميروس: «قارن أهل الخير تكن منهم وباين أهل الشر تبن عنهم» (مختار الحكم٣١) وقول ابن المقفع: «إن الخصال الصالحة من البر لا تحيا ولا تنمي إلاّ بالموافقين والمهذبين والمؤيدين» (الأدب الصغير٤٥).

(٣) غ: ومنحته بفسادها.

(٤) غ: عوناً.

فسادِها؛ فإنَّ كلَّ واحدٍ منهما مجذوبٌ، والقوةُ لما أُحِدَّ وأُعِينَ؛ فامدُدْ صرحَها بإرشادِك، وأَعِنْهُ باجتهادِك؛ فلنْ يبقى[١] لفسادِها مع التظاهرِ عليه لبسٌ، وهو بالضدِّ إن انعكسَ.

حُكيَ عن عليّ رضي الله عنه أنّه قالَ:

إذا رأيتُم في الإنسانِ خلةً من الشرِّ رابعةً فاجتنبوه، وإنْ (٩ ب) كانتْ عند الناس خيراً[٢]، فلها أخواتٌ ونظائرُ، وإذا رأيتم في الإنسانِ خلةً من الخير رابعةً فلا تجتنبوه، وإنْ كانَ عند الناسِ رجلَ سوءٍ؛ فلها عنده نظائرُ وأخواتٌ[٣].

والحال السادسة:

أن تكونَ كلُّ أخلاقِهِ صالحةً في بعضِ الأوقاتِ، وبعضُها فاسدةً في بعضِ الأوقاتِ، فقد تردّدت النفسُ بينهما، وتوطأت لهما، والفسادُ داخلٌ عليها، وليسَ منها، والعقلُ مساعدٌ، والهوىٰ معتدٍ، وكلُّ واحدٍ منهما جاذبٌ للنفس، وهي تنقادُ إلى ما وافقها، فإنْ توفّرتْ فضائلها انقادتْ للعقلِ في صلاحِ الأخلاقِ، وإنْ توفّرتْ رذائلُها مايلتْ الهوىٰ في فسادِ الأخلاقِ، لأنَّ العقلَ علمٌ روحانيٌّ يقودُ إلى الخيرِ، والشهوةَ خلقٌ بهيميٌّ يقودُ إلى الشرّ، فأطلقْ عنانَ النفسِ إذا انقادتْ للعقلِ واقبضْه إذا ما يلتْ الهوىٰ، تجدْها على الصلاحِ مساعِدةً، وللفسادِ معانِدةً، فحسبُك بها للعقلِ عوناً وظهيراً.

قال الرشيدُ:

قبّحَ اللهُ المرءَ لا واعظ له من عقلِه، ولا مطيعَ له من نفسِهِ[٤].

---

(١) يبق.

(٢) غ: خير

(٣) غ: (٤) قوله: «حكي عن علي رضي الله عنه أنه قال: إذا رأيتم في الإنسان خلة من الشر...» ورد هذا القول ضمن حكم الإمام علي بلفظ «إذا كان في الرجل خلة رائعة -كذا بالهمزة- فانتظر منه أخواتها» (غرر الحكم ١٤٣) ووردت مثلاً من الأمثال (مجمع الأمثال ٢ / ٤٥٤).

(٤) قوله: «قال الرشيد: قبح الله المرء لا واعظ له من عقله...» في هذا المعنى أورد أبو=

مـرّ أبو نـواس(١) بـأبي العتـاهيـة(٢) فـوعـظَه، فقـال أبـو نـواس: [من السريع]

لـن تُـقْـلـعَ الأنـفسُ عـن غـيِّـهـا
مـا لـمْ يـكـنْ مـنْـهـا لـهـا واعظُ(٣)

فقالَ أبو العتاهية: وددتُ أنّي قلتُها بجميعِ شعري.

وقيلَ: بل النفسُ خليةُ الذاتِ من الفضائلِ والرذائلِ، وإنما هي آلةٌ لهما يتجاذُبها العقلُ والهوىٰ، فإنْ غلبَها العقلُ استعملَها في الفضائلِ، وإنْ غلبَها الهوىٰ استعمَلها في الرذائل(٤).

= الحسن بن الحسين الرخجي قولاً غير منسوب بلفظ «من لم يكن له من نفسه زاجر لم ينفعه وعظ واعظ» (أحاسن المحاسن ١٥٠) ومن أقوال الإمام علي مما يتصل بهذا المعنى قوله: «واعلموا أنه من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها لا واعظ ولا زاجر» (شرح نهج البلاغة٢ / ١٣٧)، وسيأتي استشهاد المؤلف بقولهم: «من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ».

(١) غ: أبو النواس، وأبو النواس الحسن بن هاني الشاعر المشهور المتوفى ١٩٥هـ وقيل ١٩٨هـ وديوانه مشهور ومطبوع طبعات كثيرة انظر بعضاً من أخباره في وفيات الأعيان١ / ٣٧٣-٣٧٧ رقم الترجمة١٦٢.

(٢) أبو العتاهية: هو الشاعر المشهور المعروف، وهو أبو إسحق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي بالولاء، العيني المتوفى ٢١١هـ أو٢١٣هـ ببغداد وأبو العتاهية ككراهية قال الفيروز آبادي لقب أبي إسحق لا كنيته، ووهم الجوهري والعتاهية أيضاً ضلال الناس (قاموس مادة عته ٤ / ٢٨٩) انظر أخباره وترجمته في (وفيات الأعيان ١ / ١٩٨-٢٠٤ رقم الترجمة٩١).

(٣) قوله: «مرَّ أبو نواس بأبي العتاهية فوعظه...»

أورد ذلك أبو الوليد الطرطوشي بلفظ: «يروي أن أبا العتاهية مرَّ بدكان الوراق، وإذا كتاب فيه بيت من الشعر [هو]:

لـن تـرجـع الأنـفس عـن غـيـهـا ... مـا لم يـكـن مـنـهـا لهـا زاجـر

فقال: لمن هذا؟ فقيل لأبي نواس. قال: وددت أنه لي بنصف شعري» (سراج الملوك ص١٠) ولم أجد هذا البيت في ديوانه بتحقيق فاغنز ولا ديوانه بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ولا في ديوانه باعتناء الزهار فليلاحظ ذلك.

(٤) قوله: «وقيل بل النفس خلية الذات من الفضائل والرذائل...» لقد بحث الحكماء في كون النفس خلية الذات من الفضائل والرذائل أو غير خلية منها، وقد ذكر ابن مسكويه بعضاً من آرائهم وبيَّنَ بمقابل ذلك آراء الرواقيين كما بيَّنَ رأي جالينوس في ذلك بالتفصيل في كتابه (تهذيب الأخلاق ٣٦ وما بعدها) فلتراجع.

وقال عليُّ بنُ عبيدة:

العقلُ والهوى ضدّانِ، فَمُؤَيِّدُ العقل التوفيقُ، وقرينُ الهوىٰ الخذلانُ، والنفسُ بينهما، فأيُّهما ظفرَ كانتْ في حيِّزهِ[١].

وقالَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ[٢]:

إنّ العقلَ والهوى يصطرعانِ في القلبِ، فأيهما صَرَعَ صاحِبَه (١٠ آ) كانت الغلبةُ له[٣].

وقد نظمَ ابنُ الروميّ[٤] في النفسِ شعراً خالفَ فيه الوجهين؛ فقالَ:

[من الكامل]

كُنْ مثلَ نفسِك في السموِّ إلى العلىٰ
لا مثلَ طينةِ جسمِك[٥] الغدارِ

---

(١) غ: حيرة-بالراء. وقول علي بن عبيدة «العقل والهوى ضدان...» نجد له ما يشابهه عند الحكماء: ففي الحكمة الخالدة: «العقل والهوى مختلفان» غير منسوب (ص٦٢) وقال ابن المقفع: «إن الرأي والهوى متعاديان» (الأدب الصغير ٤٨) ومن حكم الإمام علي رضي الله عنه: «العقل والشهوة ضدان، مؤيد العقل العلم، وقرين الشهوة الهوى، والنفس متنازعة بينهما، فأيهما قهر كانت في جانبه» (غرر الحكم٥٥).

(٢) وهب بن منبّه: هو أبو عبد الله وهب بن منبّه الأنباري الصنعاني المؤرخ المشهور والأخباري المكثر، كان كثير القراءة لكتب أهل الديانات السابقة، والنقل منها، وهو معدود في التابعين، توفي سنة ١١٠هـ وقيل ١١٤هـ. انظر أخباره وسيرته في: المعارف٢٠٢، تاريخ الإسلام للذهبي ٥ / ١٤ وفيات الأعيان ٥/٨٨-٨٩ ترجمة رقم ٧٤٣، شذرات الذهب١ / ١٥٠، طبقات ابن سعد٣ / ٣٩٥-٣٩٦، تهذيب التهذيب١١ / ١٦٦.

(٣) قول وهب بن منبّه: «إن العقل والهوى يصطرعان في القلب...» يقترب من قول رئيس القوم أمام الملك بهمن: «علامة العقل أن يرى العبد حارساً لنفسه من نفسه، ولأناته من بادرته، ويروض صعب الهوى حتى يذله للعقل، فإن العقل والهوى مختلفان، اختلفا على هذه النفس في موافقتها ومخالفتها، فالعقل لها شجن، والهوى لها سكن، وذلك أن الهوى يهدي إليها الشهوات واللذات، والعقل يمنعها من ذلك، إلّا فيما يحل ويجمل، ويحذرها من العواقب، فالنفس إلى ما قارب الهوى أسرع، ومن كان ما يثقل عليها أجزع...» (الحكمة الخالدة٦٢).

(٤) ابن الرومي: أبو الحسن علي بن العباس بن جريح الشاعر المشهور المتفنن في الشعر المتوفى سنة ٢٨٣ وقيل ٢٨٤هـ وقيل ٢٧٦هـ مسموماً، انظر وفيات الأعيان ٣ / ٤٢-٤٥ رقم الترجمة٤٣٦، ومقدمة ديوانه للعقاد.

(٥) غ: طينة نفسك، والتصحيح من الديوان.

فالنفسُ تسمو نحو علوِ مليكِها
والجسمُ نحو السفلِ هاوٍ هارِ
فأعِنْ أحقّهما بعونك واقتسِر[١]
طبعَ السفالِ بطبعكِ السوّارِ
والنفسُ[٢] خيرُك إنّها علويةٌ
والجسمُ شركُ ليسَ فيه تمارِ
فانفذْ لخيرِك لا لشرِّك واتّبعْ
أولاهما بالقادرِ الغفّارِ
فالأرضُ في أفعالِها مُضطَّرةٌ
والحيُّ فيهِ فضيلةُ[٣] المختارِ
فإذا جَرَيْتَ على طباعِك مثلَها
فكأنَّ طبعَك[٤] بَعْدُ منْ فخّارِ[٥]

* * *

(١) غ: واقتبس.
(٢) في الديوان: (النفس).
(٣) في الديوان: تصرف المختار.
(٤) في الديوان: فكأن طرفك.
(٥) والأبيات في ديوان ابن الرومي (ص١٦٧، ١٦٩) ضمن القصيدة ٢٠٢ التي وقعت في ٦٢ بيتاً الأبيات الثلاثة الأولى التي وردت هنا تحتل التسلسل ٥٨، ٥٩، ٦٠ من القصيدة في الديوان، والبيتان الرابع والخامس والسادس هنا ٢٧، ٢٨ منها.

[الفصل السادس]

[الأفعال الشريفة بالأخلاق الشريفة]

[شريف الأفعال وشريف الأخلاق]:

فإذا وضَحَ ما استقرّتْ عليهِ قواعدُ الأخلاقِ من محمودِ الفضائلِ ومذمومِ الرذائلِ، فشريفُ الأفعالِ لا يتصرّفُ فيه إلّا بشريفِ الأخلاقِ، سواءً كانَ طبعاً أو تطبّعاً؛ لأنَّ الأفعالَ نفائج[1] الأخلاقِ ونوازعُ الهممِ، وقد نبَّهَ اللهُ تعالىٰ علىٰ ذلكَ في كتابهِ [العزيزِ بقولِهِ،][2] لنبيِّهِ عليهِ السلامُ:

«وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيْمٍ»[3]

لأنَّ النُّبُوَّةَ لما كانتْ أشرفَ منازلِ الخلقِ؛ لاشتمالِها على مصالحِ الدينِ والدنيا نَدَبَ اللهُ تعالىٰ لها من قد أكملَ فضائلَ الأخلاقِ، وحازَ أشرفَ الأعراقِ؛ ولذلك قالَ النبيُّ عليهِ السلامُ:

«بُعِثْتُ بِمَكارِمِ ٱلأَخْلاقِ»[4]

كذلك الإمارةُ والإمامةُ[5]، لمّا كانتْ تاليةً لحالِها، وجبَ أنْ تكونَ

---

(١) غ: نتائج، والنفائج جمع نفيجة، وهي كل شيء يصدر بقوة، وقد مرت.

(٢) الزيادة من حاشية غ.

(٣) سورة القلم آية ٥.

(٤) حديث «بعثت بمكارم الأخلاق» رواه الإمام مالك رضي الله عنه في الموطأ بلاغاً عن النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ «بعثت لأتمم حسن الأخلاق» (الموطأ -في صلب تنوير الحوالك-٢ / ٢١١) قال السيوطي: وصله قاسم بن أصبغ والحاكم عن أبي هريرة، قال ابن عبد البر: وهو حديث مدني صحيح (تنوير الحوالك٢ / ٢١١) وقال الزرقاني: رواه أحمد والخرائطي برجال الصحيح، وساق الحديث، وقال: وفي رواية «إنما بعثت» ثم قال وللطبراني عن جابر مرفوعاً: «إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق» (شرح موطأ الإمام مالك ٥ / ٢٥١) وقد أخرجه جمع غفير منهم ابن سعد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة وهو حديث صحيح (الجامع الصغير ١ / ١٠٣) وعن ألفاظه انظر كشف الخفاء (١ / ٢٤٤-٢٤٥، ٣٤٠) والمقاصد الحسنة (ص١٠٥ رقم الحديث ٢٠٤).

(٥) غ: الأمانة، وهو تصحيف.

مشاكلةً لخصالِها، فلزِمَ أنْ يُنتدبَ لهـا من قد أنهضتْـهُ الفضائـلُ، حتى تهذّبَ، واستقلّ بحقوقِها، حتى تدرّب، ليسوسَ الرعايا بآلتِهِ، ويباشرَ التدبيرَ بصناعتِهِ، فلذلك كانَ الخلفاءُ الراشدون رضوانُ اللهِ عليهم أحقَّ من تكاملتْ فيهمْ فضائل (١٠ ب) الأخلاق طبعاً وتـطبُّعاً، وأولىٰ من صـدرتْ عنهم محاسنُ الأفعالِ سجيّةً وتصنعّاً؛ لأنهم رعـاةٌ مطاعـونَ، ودعاةٌ إلى الحقِّ مجابونَ، ليكـونَ الأفضلُ سـائساً للمفضـولِ، والأعدلُ مقـوّماً للجهـولِ، فيجتذبَهم بكمالِ فضائِله إلى الاقتداءِ بأخلاقِه وطرائقِه؛ فأكثَرُ الرعايا أتباعٌ لأمرائِهم وملوكِهم في الخير، والشرّ، والجهلِ، والجدِّ، والهزلِ.

قال النبيُّ صلىٰ اللهُ عليهِ وسلّمَ:

«إثْنانِ مِنَ النّاسِ إذا صَلَحا صَلَحَ النّاسُ، وإذا فَسَدا فَسَدَ النّاسُ: العلماءُ والأمراءُ»[(١)]

قالَ بعضُ الحكماءِ:

الملكُ كالبحرِ تستمدُّ منه الأنهارُ، فإذا كانَ عَذْباً عَذُبَتْ، وإذا كانَ مالحاً مَلُحَتْ[(٢)].

---

(١) قوله: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إثنان من الناس إذا صلحا صلح الناس. . .إلخ» أخرج هذا الحديث ابن عبد البر عن ابن عباس بلفظ «صنفان من أمتي إذا صلحا صلح الناس: الأمراء والفقهاء» وإسناد آخر عنه أيضاً بلفظ «صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت الأمة، وإذا فسدا فسدت الأمة، السلطان والعلماء» (جامع بيان العلم وفضله ١ / ١٨٤) وبالصيغة الأخيرة رواه أبو نعيم في الحلية وقد استشهد به الغزالي بلفظ «صنفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس، الأمراء والفقهاء» (إحياء علوم الدين١ / ٦) قال العراقي في تخريجه إن سنده ضعيف (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار -مطبوع في هامش الإحياء- ١ / ٦)، وفي العقد الفريد: قال الأصمعي: «كان يقال صنفان إذا صلحا صلح الناس الأمراء والفقهاء» (١ / ٣٢)، وقد أخرج ابن الجوزي هذا الحديث موقوفاً على سفيان الثوري بلفظ: «صنفان إذا صلحا صلحت الأمة وإذا فسدت -كذا- فسدت الأمة: السلطان والعلماء» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ج١ ورقة ٤٧٠).

(٢) قوله: «قال بعض الحكماء: الملك كالبحر تستمد منه الأنهار. . .» أورده الأمير أسامة بن منقذ بهذا اللفظ وعزاه إلى أفلاطون (لباب الآداب٤٥٦) وأورده مرة أخرى ونسبه إلى الحكماء بزيادة هي قوله: «. . . تستمد منه الأنهار الصغار فإن. . . وإن كان ملحاً. . . (لباب الآداب٧٠) وأورده المبشر بن فاتك منسوباً إلى أفلاطون أيضاً بلفظ: «الملك هو كالنهر =

[أولُ ما يبدأ بهِ الملكُ سياسةُ نفسِه ونقويمها]:[١]

فلزمَ ذا[٢] الإمرةِ والسلطانِ أن يبدأ بسياسةِ نفسِهِ، ليحوزَ[٣] من الأخلاقِ أفضلَها، ويأتيَ من الأفعالِ أجملَها، فيسوسَ الرعيةَ بعد رياضتهِ، ويقوِّمَهم بعد استقامتِه.

قال بعضُ العلماءِ:

ينبغي للملكِ أن يبتديءَ بتقويمِ نفسِه[٤]، [قبل أن يبتديءَ بتقويمِ

= الأعظم تستمد منه الأنهار الصغار، فإن كان عذباً عذبت، وإن كان مالحاً ملحت، (محاسن الكلم ١٣٥)، وأورد قولاً آخر غير منسوب بلفظ: «الملك العادل كالنهر الصافي الجاري ينتفع به الأخيار والأشرار، ولا ضرر منه عليهم، قربه منفعة وفي مفارقته ضرر» (ص٣٤٤)، ومن أقوال العامة والمولدين مما يقرب من هذا المعنى: «إذا عذبت العين طابت الأنهار» (التمثيل والمحاضرة٢٥٦) وقال ابن عبد ربه: «وقالوا: إنما السلطان بأصحابه كالبحر بأمواجه...» (العقد الفريد١ / ٣٣).

(١) بشأن أوصاف الراعي والسائس انظر أقوال الحكماء في صفة السائس في كتاب (السعادة والإسعاد١٨٩-٢٠٠).

(٢) غ: ذي.

(٣) غ: ليجوز -بالجيم المعجمة.

(٤) قوله: «قال بعض العلماء: ينبغي للملك أن يبتديء بتقويم نفسه...» أورده المبشر بن فاتك بثلاث صيغ متقاربة ونسب كل صفة إلى قائل: فقد نسبه مرة إلى أفلاطون وجاء به بلفظ: «ينبغي للملك أن يبتديء بتقويم نفسه قبل أن يشرع في تقويم رعاياه، وإلاّ كان بمنزلة من رام استقامة ظل معوج من قبل تقويم عوده الذي هو ظل له» (مختار الحكم ومحاسن الكلم١٤٠) وانظر نفس هذه الصيغة في (لباب الآداب٤٤٩).

وأورده مرة ثانية منسوباً إلى الحكيم هرمس بلفظ «إذا لم يكن الملك يقدر على قهر حواسه وغلبة شهواته، فكيف يقدر على ضبط رعيته وما بعد ذلك عن مملكته؟ فسبيل الملك أن يبتديء بسلطانه على نفسه ليستقيم له سلطان غيره» (مختار الحكم ومحاسن الكلم ص٢٦).

وأورده بصيغة ثالثة مرتين ونسبه في الأولى إلى سولون الحكيم وفي الثانية إلى لقمان بلفظ: «ينبغي للرئيس أن يبتديء بتقويم نفسه قبل أن يبتديء بتقويم رعاياه، وإلاّ كان بمنزلة من رام استقامة ظل معوج قبل تقويم عوده الذي هو ظل له» (مختار الحكم ص٣٩ وص٢٧٩).

وعند ابن المقفع: «ومن نصب نفسه إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة والرأي واللفظ والأخدان، فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه، فإنه كما أن كلام الحكمة يوفق الأسماع فكذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب، =

رعاياهُ][1] وإلّا كانَ بمنزلةِ من أرادَ تقويمَ ظلٍّ معوجٍّ قبلَ تقويمِ عودِه الذي هو ظلٌّ له.

فإذا بدأ بسياسةِ نفسه كانَ على سياسةِ غيره أقدَرَ، وإذا أهملَ مراعاةَ نفسِه كانَ بإهمالِ غيرِه أجدرَ، فبعيدٌ أنْ يحدثَ الصلاحُ عمّن ليسَ فيهِ صلاح، لأنَّ ضرورةَ نفسِه أمسُّ، وهو بتهذيبِها أخصُّ، فإذا غلبَ عليه عنادُها واستصعبَ عليهِ قيادُها كانَ عنادُ المباينِ لهُ أغلبَ، وقيادُهُ عليه أصْعَبَ.

قال بعضُ الحكماءِ: (١١ آ)
مَنْ بدأ بسياسةِ نفسِهِ أدركَ سياسةَ الناسِ[2].

قالَ بعضُ البلغاءِ:
لا ينبغي للعاقلِ أنْ يطلبَ طاعةَ غيرِه وطاعةُ نفسِهِ ممتنعةٌ عليه[3].

وقيلَ:
إذا عجزتَ عن أَدب نفسِك فلا تَلُمْ مَنْ لا يُطِيعُكَ.[4]

ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم..» (الأدب الصغير ٤٩).

(١) الزيادة من مختار الحكم ص٣٩ وص٢٧٩.

(٢) قول بعض الحكماء: «من بدأ بسياسة نفسه أدرك سياسة الناس» نسبه الرخجي إلى أفلاطون بلفظ «من بدأبسياسة نفسه قدرعلى سياسة غيره»(أحاسن المحاسن ١٤٦)ومن أقوال الإمام علي رضي الله عنه: «من ساس نفسه أدرك السياسة، ومن بذل ماله استحق الرياسة» (غرر الحكم ٢٧٠). ونسبه الأمير أسامة بن منقذ إلى أفلاطون بلفظ: «من قام من الملوك بالعدل والحق ملك سرائر رعاياه» (لباب الآداب ٤٤٩) واستشهد به ابن الجوزي بلفظ: «من بدأ بنفسه فساسها أدرك سياسة الناس» وعزاه إلى أفلاطون (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ج١ / الورقة ٤٧٠ وفيها تخريج).

(٣) قوله: «قال بعض البلغاء: لا ينبغي للعاقل أن يطلب طاعة غيره وطاعة نفسه ممتنعة عليه» استشهد به الماوردي في كتابه (أدب الدنيا والدين١٣٢) بنفس لفظه إلاّ أن فيه «ونفسه ممتنعة عليه» وعزاه إلى بعض الحكماء. وقد ورد هذا القول غير منسوب لأحد في التمثيل والمحاضرة بلفظة (ص٤٠٨) وفي أقوال الإمام علي رضي الله عنه: «لا تطلبن طاعة غيرك وطاعة نفسك عليك ممتنعة» (غرر الحكم ٣٣٧).

(٤) قوله: «وقيل إذا عجزت عن أدب نفسك فلا تلم من لا يطيعك» نشر الماوردي هذا القول فقال: «فلأنها -أي النفس- إذا أطاعته ملكها وإذا عصته ملكته ولم يملكها، ومن لم يملك =

قالَ الشاعرُ: [من الوافر]

أَتَطْمَعُ أَنْ يُطيعَكَ قلبُ سُعْدىٰ
وتزعمُ أَنَّ قَلْبَكَ قد عَصَاكا[١]

[إساءة الظنّ بالنفس]:

وربّما حَسُنَ ظَنُّ الإنسانِ بنفسِه، فأغفلَ مراعاةَ أخلاقِه، فدعاهُ حُسْنُ الظنِّ بها إلى الرِضا عنها، فكان[٢] الرضا عنها[٣] داعياً إلىٰ الانقيادِ لها، فَفَسَدَ منها ما كانَ صالحاً، ولم يصلحْ منها ما كان فاسداً، لأن الهوى أغلَبُ من الرأيِ، والنفسَ أجورُ[٤] من الاعداءِ؛ لأنّها بالسوءِ آمرةٌ وإلى الشهواتِ مائلةٌ، كما قالَ اللهُ عزّ وجَلّ:

«إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ»[٥]

ولذلكَ[٦] قال النبيُّ صلّىٰ اللهُ عليهِ وسلّمَ:

«الشَّديدُ[٧] مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ»[٨]

= نفسه فهو بأن لا يملك غيرها أولى، ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها أولى...» (أدب الدنيا والدين١٣٢) وفي هذا المعنى قال الإمام علي رضي الله عنه: «أعجز الناس من عجز عن إصلاح نفسه» (غرر الحكم ٩٣).

(١) قول الشاعر: «أتطمع أن يطيعك...» استشهد المؤلف بهذا البيت في أدب الدنيا والدين١٣٢ ولم ينسبه لقائل أيضاً.

(٢) ط: وكان.

(٣) غ: الرضا عليها.

(٤) ط: أجود، وهو تصحيف.

(٥) يوسف: ٥٣.

(٦) ط: وقال.

(٧) غ: السديد -بالسين المهملة وهو تصحيف.

(٨) حديث: «الشديد من ملك نفسه» متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» (صحيح البخاري -كتاب الأدب- ٤ / ٤٧) و(صحيح مسلم -كتاب البر والصلة- مطبوع بصلب شرح النووي عليه١٦ / ١٦٢) و(جامع الأصول من أحاديث الرسول٩ / ٣٠٤ الحديث رقم٦١٨٩)رياض الصالحين ٤٣ باب الصبر) ورواه الإمام مالك أيضاً باللفظ المتفق عليه أيضاً (الموطأ -في صلب تنوير الحوالك ٢ / ٢١٢) قال الزرقاني: وعند ابن حيان مرفوعاً: «ليس الشديد من غلب الناس إنما الشديد مَن غلب نفسه» (شرح موطأ الإمام مالك ٥ / ٢٥٧).

قالَ بعضُ الألبّاءِ:

من رضيَ عن نفسِه، أسخطَ عليهِ الناسَ[١].

[أسبابُ حسنِ الظنِّ بالنفسِ]:

ولحسنِ الظنِّ بها أسبابٌ:

فمن أقوىٰ أسبابِه الكبرُ والإعجابُ، وهوَ - بكلِّ أحدٍ - قبيحٌ، وبالملوكِ أقبَحُ، لأنّه من دواعي صغرِ الهمّةِ، وشواهدِ الاستكثارِ لعلوِّ المنزلةِ، وهذا من ضَعْفِ المنّةِ الذي يُجَلُّ الملوكُ عنهُ، لأنَّ قدرتَهم تظهَرُ بالقدرةِ والسلطانِ، لا بالكبرِ والإعجابِ، وكفىٰ بالمرءِ ذمّاً أنْ تكونَ همتُه دونَ رتبتِه، ومنته أضعفَ من قدرتِه.

قال بعضُ الحكماءِ:

لا ينبغي للعاقلِ أنْ يرىٰ شيئاً من الدّنيا لنفسِه خَطَراً فيكونَ به تائهاً[٢].

وقال عبدُ الملكِ بنُ مروانَ:

---

(١) قوله: «قال بعض الألباء: من رضي عن نفسه أسخط عليه الناس»» استشهد المؤلف بهذا القول في أدب الدنيا والدين (ص٢١٤) غير منسوب إلى أحد بل نسبه إلى الحكماء بلفظه. وفي مختار الحكم (٣٣٥) بلفظ «من رضي عن نفسه كثر من يسخط عليه ومن تقصّى على نفسه سلم من تقصّي غيره عليه، ومن لم يعظ نفسه لم ينتفع بوعظ الواعظين» وأورده ابن مسكويه ضمن حكم العرب وأمثالهم السائرة بلفظ «من رضي عن نفسه كثر الساخطون عليه» (الحكمة الخالدة١٩٨) وبهذا اللفظ في التمثيل والمحاضرة (٤٤٤) و(عيون الأخبار١ / ٢٧٢) ومن كلام الإمام علي: «إياك أن ترضى عن نفسك فيكثر الساخط عليك» (غرر الحكم ٧٥) و«من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه (ص٢٨٠) و(كتاب ٢٠٠٠ كلمة للإمام علي ص٣) و(شرح نهج البلاغة ٤ / ٢٤٣) و(مجمع الأمثال٢ / ٤٥٣) وعزاه ابن الجوزي إلى سقراط بلفظ «من رضي عن نفسه سخط الناس عليه» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ج١/الورقة ٤٧١) وبهذا اللفظ الأخير نفسه أورده الرخجي منسوباً إلى سقراط وفيه زيادة هي «. . .ومن اتهم هواها أقبلت الوجوه إليه» (أحاسن المحاسن١٤٦).

(٢) قوله: «قال بعض الحكماء: لا ينبغي للعاقل أن يرى شيئاً من الدنيا لنفسه خطراً فيكون به تائهاً» جاء في هذا المعنى كثير من الأقوال، فمنها ما نسب إلى أرسطوطاليس: «إياك والعجب فإنه يفسد كثير الفضل» (مختار الحكم١٩٣) وقال بطليموس: «من تاه في ولايته ذل في عزله» (مختار الحكم ٢٥٤).

أفضلُ الناسِ من تواضعَ عن رفعةٍ، وزهدَ عن قدرةٍ (١١ ب) وأنصفَ عن قوةٍ[(١)].

وقيلَ:
التّواضعُ في الشّرفِ أشرفُ من الشّرفِ[(٢)].

[الكبر والإعجاب]:

والملوكُ أعلىٰ النـاسِ هممـاً، وأبسـطُهم أملًا؛ فلذلـك كان الكبـرُ والإعجابُ بهم أقبحَ، ونقصُه عليهم أفضحَ.

قالَ عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ رضي اللهُ عنهما

---

(١) قول عبد الملك: «أفضل الناس من تواضع عن رفعة...» ورد بنفس اللفظ ومنسوباً إليه في (العقد الفريد ط / ٤٢) و(عيون الأخبار١ / ٢٦٧) و(آداب النفس٢٩٠) و(التمثيل والمحاضرة١٣٤) وهو فيه بلفظ... وعفا عن قدرة...» وذكره صاحب التمثيل مرة أخرى منسوباً إليه بلفظ «أفضل الناس من عفا عن قدرة وتواضع عن رفعة وأنصف عن قوة» (الإيجاز والإعجاز١٧) و(برد الأكباد في الأعداد١١٦) وقد ورد منسوباً للإمام علي في (غرر الحكم٩٥) بلفظ «أعدل الناس من أنصف عن قوة، وأعظمهم من حلم عن قدرة» وفي موضع آخر بلفظ «إن أفضل الناس من حلم عن قدرة وزهد عن غنية، وأنصف عن قوة» (غرر الحكم١٠٤). وقد ورد هذا القول غير منسوب لقائل وبلفظ: «أفضل الرجال...» في (مختار الحكم٣٣٥) وهو غير منسوب أيضاً «...وتزهد عن ثروة...» في (الحكمة الخالدة١١٧).

(٢) قوله: «وقيل التواضع في الشرف أشرف من الشرف» أورده المؤلف منسوباً إلى ابن السماك وقد قاله لعيسى بن موسى بلفظ «تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك» (أدب الدنيا والدين٢١٧) وقد جاء به دون عزو في (أدب الوزير٥٠) بلفظه. وقد أورد الثعالبي قولاً لمصعب بن الزبير بلفظ «التواضع من مصائد الشرف» (التمثيل والمحاضرة٣٣، ٤١٠) وأورده مرة أخرى بلفظ: «تواضعك في شرفك أحسن من شرفك» (ص٤١٠) وأورده ابن عبد ربه بلفظ «تواضعك في شرفك أكبر من شرفك» (العقد الفريد١ / ٤٢) وهو فيه من أقوال ابن السماك لعيسى بن موسى. ونسبه ابن قتيبة إليه أيضاً وأورده بلفظ «تواضعك في شرفك خير لك من شرفك» (عيون الأخبار١ / ٢٦٧) وأورد القول الآخر: «التواضع من مصائد الشرف» منسوباً إلى عروة بن الزبير (عيون الأخبار١ / ٢٦٦) وهذا القول الأخير في (الأرب الدنيا والدين٢٢٠) وأورده النويري بلفظه دون أن يعزوه إلى قائل (نهاية الارب ٦ / ١٣٥ ومن أقوال ابن المعتز: «التواضع سلم الشرف» (الآداب ١٥٢ وفي ص١٦٣ منه تخريج للقول الأخير).

سمعت أبا بكرٍ رضي اللهُ عنه يقولُ: [من البسيط]

إذا أَرَدْتَ شَـريـفَ الـنّـاسِ كـلِّهمُ
فـانـظُرْ إلـى مَـلِكٍ فـي زيٍّ مسْـكيـنِ
ذاكَ الـذي حَـسُـنَـتْ فـي الـنـاسِ رأفَـتُـهُ
وذاكَ يَـصـلُحُ لـلدّنْـيـا ولـلدّيـنِ[1]

لكنّ السكينةَ والوقارَ أولىٰ بهِ من الكبرِ والإعجابِ.

ومن الناس من لا يفرّقُ بينَ الكبرِ والوقارِ. وهذا جَهْلٌ بمعناهما؛ لأنّ الوقارَ اقتصارٌ، والكِبْر استطالةٌ.

فأما الكبر والإعجابُ[2] فقد يجتمعانِ في الذمّ، ويفترقانِ في المعنىٰ:

فالإعجابُ يكونُ في النفسِ، وما يعتقِدُه من فضائِلِها.

والكبرُ يكونُ بالمنزلةِ، وما يتصورُه من علوِّها.

فكانتْ علةُ الإعجابِ من ذاتهِ؛ فصارتْ أَلْزَمَ، وعلةُ الكبرِ طارئةٌ أَلْأَمُ وهما رذيلتا ذي الفضلِ والمنزلةِ.

وقِيلَ:

---

(١) قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «سمعت أبا بكر رضي الله عنه يقول: إذا أردت شريف الناس كلهم... البيتين» أخرجه ابن الجوزي عن طريق عطاء عنه بلفظ «في الناس سيرته» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء٥٣٩-٥٤٠) وقد اقتبسها أبو العتاهية ضمن قصيدته التي مطلعها:

لَتَجْدَعَنَّ المنايا كل عرنين والخلق يغنى بتحريك وتسكين

في سبعة أبيات، وقد جاء الثاني منها فيها بلفظ «عظمت في الناس حرمته» (ديوان أبي العتاهية ٤٣٩) وفي الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية ٢٧٤ وتجدهما في العقد الفريد (١ / ٤٣، ٢ / ١٨٥ - من طبعة العريان) منسوبين فيهما إلى أبي العتاهية بلفظ «ذاك الذي عظمت في الله نعمته» و (عيون الأخبار ٢ / ٣٣٢) و(المحاسن والأضداد١٧٩ وهي في هذا الأخير بلفظ «عظمت همته» منسوبين إلى أبي العتاهية أيضاً والأول في المحاسن والمساويء للبيهقي٢ / ٣٩٠ منسوباً لأبي العتاهية. وقد ورد في أقوال يحيٰ بن خالد البرمكي: «أن الكرم ملك في زي مسكين» (معجم الأدباء ج٢٠ / ص٦).

(٢) عن الكبر والإعجاب عقد المؤلف فصلاً في كتابه (أدب الدنيا والدين٢١٥-٢٢٠).

عظمةُ الإنسانِ تواضعُهُ[١].

[من أسباب الكبر والإعجاب]:

وللكبرِ أسبابٌ[٢]:

فمن أقوى أسبابِه كثرةُ المتقربينَ، وإطراءُ المتملقينَ، الذينَ قد استبضَعُوا الكذبَ والنفاقَ، واستحبّوا المكرَ والخداعَ؛ لدناءةِ أنفسِهم وضِعَةِ أقدارِهم، فإذا وجدوا لنفاقِهم سوقاً، ولكذبِهم تصديقاً، جعلوه في ذمم النوكىٰ سُلَّماً تسلّقوه[٣]، ومغنماً أحرزوه، فاعتاضوا به ديناً، وعوّضوا منه شيئاً، وحكمَ الممدوحُ بكذبِ قولِهم على صدقِ علمِه بنفسِه، وجعلَ لهم طريقاً إلى الاستهزاءِ به؛ لأنّهم صَدَعُوه؛ فانصدعَ، وخدعُوه؛ فانخدعَ.

ومن (١٢ آ) أجلِ ذلكَ قالَ النبيُّ عليهِ السلامُ:

«اُحْثُوا في وجوهِ المدّاحين الترابَ»[٤]

---

(١) قوله: «وقيل عظمة الإنسان تواضعه» وردت في هذا المعنى أقوال كثيرة منها ما أورده المبشر بن فاتك بألفاظ مختلفة منها: «أفضل الرجال من تواضع عن رفعة...» وقد مرَّ قبل قليل من كلام عبد الملك بن مروان ومنها قولهم «كل نعمة محسود عليها إلّا التواضع» وقد استشهد به المؤلف في أدب الدنيا والدين (٢١٦) ونسبه إلى بزرجمهر بلفظ «النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها التواضع» ومنها قولهم «من جهل قدر نفسه فهو لقدر غيره أجهل، ومن أنف من عمل نفسه اضطر إلى عمل غيره، ومن لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره وثمرة التواضع المحبة وثمرة القناعة الراحة» (مختار الحكم٣٣٥) و«أعظم الشرف التواضع» (غرر الحكم٨٧) منسوباً للإمام علي و«التواضع من مصائد الشرف» (التمثيل والمحاضرة٤١٠) وهو من قول مصعب بن الزبير (أدب الدنيا والدين٢٢٠) وقدمرَّ قبل قليل و«تمام الشرف التواضع» (غرر الحكم ١٥٣)، و«من دام تواضعه كثر صديقه» (أدب الدنيا والدين٢٢٠) وفيه أقوال أخرى.

(٢) حول أسباب الكبر والإعجاب انظر أدب الدنيا والدين (٢١٨-٢٢٠).

(٣) غ: أسلقوه.

(٤) حديث «احثوا في وجوه المداحين التراب» رواه الإمام مسلم في صحيحه بطرق أن رجلاً جعل يمدح عثمان فعمد المقداد فجثا على ركبتيه وكان رجلاً ضخمًا فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله قال: «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب» (صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ / ١٢٨) ورواه الترمذي عن المقداد أيضاً وقال: هو حديث حسن صحيح (سنن الترمذي ٤ / ٢٦ رقم الحديث٢٥٠٤) ورواه =

وقال عليه السلامُ:
«إيّاكم والمدحَ؛ فإنَّهُ الذَّبْحُ»[1]

وقيلَ لأنوشروانَ:
لِمَ تتهاونونَ بالمدحِ إذا مُدِحْتُم؟
[فقالَ:] لأنّنا ربّما رأينا ممدوحاً هو بالذمِّ أحقُّ[2].
وقيلَ:
حبُّ المدحِ واسطةٌ بين الفضائلِ والرذائلِ؛ فهي آخرُ الرذائلِ، وأولُ الفضائلِ.

= مرة أخرى عن أبي هريرة بلفظ «قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحثو في أفواه المداحين التراب» وقال: هذا حديث غريب (سنن٤ / ٢٦-٢٧رقم الحديث٢٥٠٥) ورواه أبو داود عن المقداد بلفظ «إذا لقيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب» (سنن أبي داود٤ / ٢٥٤ رقم الحديث ٤٨٠٤) ورواه ابن ماجة عن المقداد أيضاً (سنن ٢ / ١٢٣٣رقم٣٧٤٢) و(جامع الأصول من أحاديث الرسول١١ / ٣٧٨-٣٧٩ رقم الحديث٨٤٨٥و٨٤٨٦) ورواه الإمام أحمد بروايات متعددة مرة عن ابن عمر (المسند٢ / ٩٤) ومرات عن المقداد (المسند٦ / ٥) واحدة منها باللفظ الذي استشهد به الماوردي أعلاه، وهناك روايات أخرى عن ابن عمر وعن أنس وغيرهما (الجامع الصغير١ / ٢٧) و(مشكاة المصابيح٢ / ٥٧٩ رقم الحديث٤٨٢٦) و(المغني عن الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار-مطبوع على هامش الأحياء٣ / ١٦١).

(١) حديث «إياكم والمدح فإنه الذبح» رواه ابن ماجة عن معاوية في الأدب من سننه (٢ / ١٢٣٣رقم٣٧٤٣) بلفظ «إياكم والتمادح فإنه الذبح» وحديثه حسن. ورواه الإمام أحمد عن معاوية من طريق معبد الجهني بلفظ «إياكم والتمادح فإنه الذبح» ثلاث مرات في حديث طويل (المسند٤ / ٩٢، ٩٣، ٩٩) والحديث في أدب الدنيا والدين(٢١٨) بلفظ «إياكم والتمادح فإنه الذبح» ومن أقوال الإمام علي رضي الله عنه «من مدحك فقد ذبحك» (غرر الحكم ٢٦٦) ومن أمثالهم: «المدح الذبح» (مجمع الأمثال٢ / ٢٨٤ رقم٣٨٨٦) ومن أقوال عمر بن الخطاب «المدح هو الذبح» (إحياء علوم الدين٣ / ١٦٠) و(عيون الأخبار١ / ٢٧٥).

(٢) قوله: «وقيل لأنوشروان: لم تتهاونون بالمدح...إلخ» أورد ابن مسكويه هذا القول فيما أورده من حكم أنوشروان بلفظ: «قيل: فما بالكم تطرحون من المدح ما لم يكن مطرحاً عند غيركم من الملوك؟ قال: لكثرة من رأينا من الممدوحين الذين كانوا بالذم أولى منهم بالمدح» (الحكمة الخالدة٥٢) و(الترجمة والنقل عن الفارسية ٩١-٩٢) وفيه أن هذا القول قطعة من كتاب لأنو شروان اسمه كتاب المسائل (الترجمة والنقل عن الفارسية ٤٠).

وحملَ هذا على إطلاقِه ذلكَ.

والصوابُ: أنْ يُعتبَرَ: فإنْ أحبَّ المدحَ ليلتذَّ بسماعِ ما ليسَ فيهِ كان رذيلةً ونقصاً، وإنْ أحبَّهُ ليفعلَ ما يمدحُ بهِ كانَ فضيلةً؛ لأنّهَ يبعثُ على فعلِ الفضائلِ، وما بعثَ عليها كانَ منها.

وهذا أمرٌ ينبغي لكلِّ عاقلٍ أنْ يراعِيَهُ من نفسِهِ وَيُفَرّقَ بينَ متملِّقةٍ آحتيالاً لما لديهِ، وبينَ من يخُلِصُ له النصيحةَ من أهلِ الصدقِ والوفاءِ، الذينَ همْ مرايا محاسنِهِ، وعيونُه، وأمناءُ مشهـدِهِ ومغيبِهِ.

قالَ سليمانُ بنُ داودَ عليهِ السلامُ:

شَفَتا الصديقِ رحمتانِ، وشَفَتا العدوّ تنطِقُ بالعداوةِ.

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ:

من أولىٰ بكَ منكَ وأصدقُ في نصيحتِكِ من نفسِك لكَ؟

قالَ:

من صدَّقَني إنْ نزعتُ، ونَبَّهني إن غفلتُ.

فإنْ أغفَلَ[1] هذا الفرقَ والتمييزَ، واسْتَسْهلَ[2] الاغترارَ والتجويزَ، داهنَ نفسَهُ، ونافقَ عقلَه، واستفسدَ أهلَ الوفاءِ والصـدقِ، وصارَ مـأكلةَ النفاقِ والملقِ، فأعقبَه أذىً ومضرةً، وتورّطَ بهِ في شبهةٍ وحيرةٍ، واكتسبَ به هجنـةً ومعرّةً.

وقد قيلَ:

المنافقُ نصفُ حسـدِهِ بلا عَقْلٍ

والسلطان أولىٰ من حذرَ ذلكَ وتَوَقّاه؛ لأنَّ حضرتَه - لكثرةِ الراغبينَ فيها - كالسّوقِ التي [3] يُجْلَبُ إليها ما ينفقُ فيها، وكلُّ داخلٍ عليهِ إنّما يريدُ التقربَ إليهِ بقولِهِ وفعلِهِ، إمّا طالباً للمنزلةِ، وإمّا (١٢ ب) اجتذاباً للمنفعةِ، وإمّا حذراً من المخالفةِ. فإذا لم يـزجرْهم عقـلٌ، ولم يكفّهم

---

(١) غ: أعقل.

(٢) غ: استهلّ.

(٣) غ: إلى.

دينٌ، مرحوا[١] في نفاقِهم؛ فخانوا، وشانوا. وقد رويَ عن النبيّ عليهِ السَّلامُ أنّه قالَ:

«لا يمنَعَنَّ أحدَكم رهبةُ السلطانِ أنْ يقولَ بحقٍّ إذا رآهْ؛ فإنّهُ لا يقرّبُ من أجلٍ ولا يباعدُ من رزقٍ[٢]».

فإذا آتّسقَ لهم النفاقُ، ورأوهُ من أرفَقِ الأرزاقِ، عدلوا عن زواجرِ العقلِ والمناصحةِ إلى مساعدةِ الملكِ على رأيِهِ؛ لأنّهم قد علموا منْهُ إيثارَ الموافقةِ على الهوىٰ، وحبَّ المدحِ والإطراءِ، فَجَعَلوا ذلكَ أربحَ بضائِعهم لديهِ، وألطفَ وسائِلهم إليهِ، وهو سهلُ التكلُّفِ، لا يجدُ المتوسّلُ المتقرّبُ به مسًّا؛ فيتصوّرُ ذمّه حمداً، وقد اكتسبَ به ذمًّا، ويتوهّمُ قبيحَه حَسَناً، وقد أورثَهُ قباحةً وشَيْناً، ثم لا يجدُ ناصحاً سليماً، ولا مراقباً رحيماً؛ لأنَّ النصحَ عندَهُ بائرٌ مرذولٌ، والخداعَ إليه نافقٌ مقبولٌ؛ فإنْ روقبتْ[٣] هفواتُه بالإغضا[٤]، وسوعد عليها بالرِّضا، طاحَ في إغوائِهِ، ومَرَحَ في غُلَوائِهِ؛ فطمسَ بهجةَ محاسنِه، وأوهىٰ جلالةَ قدرِه، وقد قالَ العتّابيُّ الشاعرُ[٥]:

[من البسيط]

---

(١) غ: فمرحوا.

(٢) حديث «لا يمنعن أحدكم رهبة السلطان...إلخ» رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري بلفظ: قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق، أن يقول بحق أو يذكر بعظيم» (مسند الإمام أحمد٣ / ٥٠) وأورد قطعة من هذا الحديث مرة أخرى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضاً بلفظ قال صلى الله عليه وسلم «ألا لا يمنعن أحدكم مخافة الناس أن يقول الحق إذا رآه» (المسند٣ / ٨٧) ومن كلام الإمام علي رضي الله عنه «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان من أجل، ولا ينقصان من رزق لكن يضاعفان الثواب ويعظمان الأجر، وأفضل منها كلمة عدل عند إمام جائر» (غرر الحكم١١٤) وقد أورد الماوردي هذا الحديث في الأمثال والحكم (الورقة ٤٩ب).

(٣) غ: روقب.

(٤) بالإغضا كذا بالقصر) لتناسب الفاصلة المسجوعة.

(٥) العتابي: أبو عمرو كلثوم بن عمرو التغلبي ينتهي نسبه إلى عمرو بن كلثوم الشاعر، والعتابي من الشام وهو أديب من أدباء العصر العباسي الأول جمع بين بيان الشعر فكان شاعراً مجيداً وبيان النثر فكان كاتباً حسن الترسل، مدح الرشيد بعد أن اختص بالبرامكة، وكان حسن =

لَـوْمٌ يُـعِـيـذُكَ مِـنْ سُـوءٍ تُـقـارِفُـهُ[١]

أَبْقَىٰ لِعِرْضِكَ مِنْ قَوْلٍ يُداجِيْكـا

لَقَـدْ رَمَىٰ بِـكَ فـي تيـهـاءَ مهـلكـةٍ

مَنْ كـانَ يَكْتُمُـكَ العيبَ[٢] الـذي فيكـا[٣]

وهذا ممّا يجبُ أنْ يتوقّاه الملكُ، ويحذَرَهُ ليكفىٰ مخادعةَ[٤]الهوى، ويميزَهُ عَنْ مداهنةِ النفسِ.

قالَ النبيُّ عليهِ السّلامُ:
«إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خَيْراً جَعَلَ لَهُ واعظاً مِنْ نفسِهِ»[٥]

= الاعتذار في رسائله وشعره، ويشبه في المحدثين بالنابغة في الجاهلية مات في حدود ٢٢٠هـ والعتابي بفتح العين وتشديد التاء نسبة إلى عتاب بن سعد بن زهير بن جشم. انظر ترجمته وأخباره في: تاريخ بغداد١٢ / ٤٨٨، طبقات الشعراء٢٦١، معجم الشعراء ٢٤٤، معجم الأدباء١٧ / ٢٦-٣١ رقم الترجمة١٢ وذكر أنه استوفى أخباره في كتابه أخبار الشعراء، وفيات الأعيان٤ / ٢٣ ضمن ترجمة أبي منصور محمد بن علي بن إبراهيم بن زبرج النحوي المعروف بالعتابي أيضاً، فوات الوفيات ٢ / ٢٨٤-٢٨٦ رقم الترجمة٣٥٩، العقد الفريد١ / ١٩، ٨٦، ٨٨، فهرست ابن النديم١٨١-١٨٢ وذكر له ستة كتب، واللباب١ - ٣١٩.

(١) غ: تفارقه.

(٢) غ: يكتمك النصح، والتصحيح من معجم الأدباء.

(٣) قول العتابي: لوم يعيذك...إلخ البيتين أوردهما ياقوت منسوبين إليه في معجم الأدباء ١٧ / ٣٠.

(٤) غ: فيخادعه.

(٥) قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله بعبد خيراً...» أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أم سلمة بحديث ضعيف (الجامع الصغير١ / ١٧) وفيه زيادة (يأمره وينهاه) وقد أورده المؤلف في أدب الوزير وفي الأمثال والحكم (الورقة٩آ) عن أبي الوقاص العامري عن أم سلمة.

قالَ بعضُ الحكماءِ:

من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ[١].

* * *

(١) قولهم: «من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ» مرَّ قبل قليل قول الرشيد: «قبح الله المرء لا واعظ له من عقله ولا مطيع له من نفسه» وفي تخريجه ما يتصل بموضوعنا هنا. وقد ورد قول مشابه غير منسوب لأحد وبلفظ «من كان من نفسه واعظ كان له من الله حافظ» في (كلمات مختارة ٤٠) ومن الأقوال المنسوبة للإمام علي: «من كان له من نفسه زاجر كان عليه من الله حافظ» (غرر الحكم٢٩٣) و(كتاب٢٠٠٠ كلمة للإمام علي ص٩ رقم١٣٣) وقوله «من لم يعنه الله على نفسه لم ينتفع بموعظة الواعظ» (غرر الحكم ٢٩٥). والقول بلفظه أورده الماوردي في كتاب أدب الوزير (ص٤٩) ونقله عنه النويري (نهاية الأرب ٦ / ١٣٥) كما أورده ثانية بلفظ «من لم يكن له من نفسه زاجر لم تنفعه الزواجر» في (الأمثال والحكم الورقة ٥ب).

[الفصل السابع]
[شواهد الفضل]

[الوقار]:

وإذا كان الوقارُ محموداً، وكانَ ذو القدرِ [به] مأموراً فهو أوّلُ شواهدِ الفضلِ، وأسُّ (١٣أ) قواعدِه، فوجبَ أن نوضّحَ[١] منه فصولاً تدلُّ على نظائرِها يتبعُ بعضُها بعضاً.

[التثبّت والصمت]:

فمن ذلك قلةُ السرعِ إلى الشهواتِ، والتثبّتُ عند الشبهاتِ، والإعراضُ عن الهفواتِ، وضبطُ النفسِ عنْ سرعةِ الحركاتِ، ثمّ إطراقُ الطرفِ، ولزومُ الصمتِ، إلّا من ضرورةٍ لا يجدُ فيها من الكلامِ بدًّا؛ ليسلمَ من هذرِ[٢] الاسترسالِ، ويأمنَ من معرّةِ الطيشِ؛ فإنّ الملكَ مرموقُ الألحاظِ، محفوظُ الألفاظِ، تشيعُ زلّاتُه، وتنشرُ هفواتُه، وبحسبِ ذلك تكونُ[٣] محاسنُه أنْشَرَ، وفضائلُه أشْهَرَ؛ فهو بالسكوتِ ممدوحٌ، ومنَ الكلامِ على خطرٍ، وقد قيلَ:

الحصَرُ خيرٌ من الهذرِ[٤]؛ لأنَّ الحصَرَ يضعفُ الحجّةَ، والهذرَ يتلفُ المهجةَ[٥].

---

(١) غ: يوضح.
(٢) غ: هدر.
(٣) غ: يكون.
(٤) غ: الهدر.
(٥) قوله: «وقد قيل: الحصر خير من الهذر... إلخ» أورده المؤلف منسوباً إلى بعض البلغاء في أدب الدنيا والدين ٢٥٢، وأورده غير منسوب إلى أحد في أدب الوزير ص٥، وقد ورد القول غير منسوب في أحاسن المحاسن ١٥٤ وهو فيه بلفظه، وقد ورد منسوباً إلى الإمام علي بلفظ «الحصر خير من الهذر»، الهذر مقرب من الغير - كذا -، الحصر يضعف الحجة، الهذر يأتي على المهجة» (غرر الحكم ودرر الكلم ٢٨) وقد أورد ابن مسكوية قولاً يجانسه=

قالَ بعضُ البلغاءِ:

إلزم الصّمتَ؛ فإنّه يكسبُكَ صفوَ المحبّةِ، ويؤمِنُك سوءَ المغبَّةِ، ويُلبسُك ثوبَ الوقارِ، ويكفيكَ مؤونةَ الاعتذارِ[١].

وتكلّم أربعةٌ من حكماءِ الملوكِ بأربعِ كلماتٍ، كأنّها رميةٌ عن قوسٍ:

فقالَ ملكُ الرومِ:

أفضلُ علمِ العلماءِ السكوتُ.

وقالَ ملكُ الفرسِ:

إذا تكلمتُ بالكلمةِ ملكَتْني ولم أملكْها.

وقالَ ملكُ الهندِ:

أنا علىٰ ردِّ ما لمْ أقُلْ أقدَرُ منّي على ردِّ ما قُلْتُ.

وقال ملكُ الصّينِ:

ندمْتُ على الكلامِ، ولمْ أندمْ علىٰ السّكوتِ[٢].

= وجعله من حكم العرب وأمثالها السائرة بلفظ: «عيُّ الصمت خير من الكلام» (الحكمة الخالدة ٢٠٣).

(١) قوله: «قال بعض البلغاء: الزم الصمت... الخ» أورد الماوردي هذا القول بلفظه دون أن ينسبه لقائل في أدب الدنيا والدين (٢٤٩-٢٥٠).

(٢) قوله: «وتكلم أربعة من حكماء الملوك بأربع كلمات... الخ» وردت هذه الكلمات في مختار الحكم بلفظ: «اجتمع عند ملك من الملوك ثلاثة حكماء: يوناني وهندي وفارسي، فقال لهم الملك: ليتكلم كل واحد منكم بكلمة يبين فيها عقله وعلمه. فقال اليوناني: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت. وقال الهندي: عجبت لمن يتكلم الكلمة، إن حكيت عنه أضرت وإن لم تحك عنه لم تنفعه. وقال الفارسي: أنا إذا تكلمت بالكلمة فقد ركبتني، وإذا لم أتكلم بها فأنا راكبها» (انظر مختار الحكم ومحاسن الكلم ٢٩٩). وأورد قولاً لسقراط: «الكلام مملوك ما لم ينطق به صاحبه، فإذا نطق به خرج من ملكه» (ص ١٠٨). وأورد ابن المقفع قول هؤلاء الأربعة على الوجه التالي: «اجتمع في بعض الزمان ملوك الأقاليم من الصين والهند وفارس والروم، وقالوا: ينبغي أن يتكلم كل واحد منا بكلمة تدون على غابر الدهر. فقال ملك الصين: أنا على [رد] ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت. وقال ملك

وليعلمْ أنَّ الحاجةَ إلى الصّمتِ أكثرُ من الحاجةِ إلى الكلامِ ؛ لأنّ الحاجةَ إلى الصمتِ عامّةٌ، والحاجةَ إلى الكلامِ عارضةٌ، فلذلك ما وجبَ أنْ يكونَ صمتُ العاقلِ في الأحوالِ أكثرَ من الكلامِ في كلّ حالٍ.

حُكي عن بعضِ الحكماءِ أنّه قالَ - وقد رأىٰ رجلاً يُكثِرُ من الكلامِ ويقلّ السكوتَ - فقالَ:

إنَّ اللهَ تعالىٰ إنّما جعلَ لكَ (١٣ب) أُذُنَيْنِ ولساناً واحداً؛ ليكونَ ما تسمعُه ضعفَ ما تتكلّمُ بهِ[1].

الهند: عجبت لمن يتكلم بالكلمة فإن كانت له لم تنفعه، وإن كانت عليه أوبقته. وقال ملك فارس: أنا إذا تكلمت بالكلمة ملكتني، وإذا لم أتكلم بها ملكتها. وقال ملك الروم: ما ندمت على ما لم أتكلم به قط، ولقد ندمت على ما تكلمت به كثيراً» (كتاب كليلة ودمنة ٢٦) وقد أورد كلمات أخرى لأربعة علماء (انظر صفحة ٢٤ منه). وفي التمثيل والمحاضرة: «أربع كلمات صدرت عن أربعة ملوك كأنها رميت عن قوس واحدة: قال كسري: لم أندم على ما لم أقل، وقد ندمت على ما قلت مراراً. وقال قيصر: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت. وقال ملك الصين: إذا تكلمت بالكلمة ملكتني وإذا لم أتكلم بها ملكتها. وقال ملك الهند: عجبت لمن يتكلم بالكلمة إن رفعت ضرته، وإن لم ترفع لم تنفعه» (ص ٤٢٦). وقوله: «أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلته» نسبه الآمدي إلى الإمام علي (غرر الحكم ١٢٦) وذكر من أقواله: «وإذا تكلمت بالكلمة ملكتك وإذا أمسكتها ملكتها» (ص ١٤٠) وبلفظ آخر في شرح نهج البلاغة ٤ / ٤١٦ وقد أورد البيهقي كلمة لكسرى بلفظ: «أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت» (المحاسن والمساوي طبعة بيروت ١٩٦٠ ص ١٢١) وكتاب (الترجمة والنقل عن الفارسية ١١٨) وانظر (عيون الأخبار ٢ / ١٧٩) و(كليلة ودمنة ١٥) ونسب الأبشيهي كلام ملك الفرس إلى الشافعي مخاطباً الربيع تلميذه (المستطرف ١ / ٨٢) وحكى القصة كاملة في الصفحة نفسها، وتجد الأقوال باختلاف يسير في المحاسن والأضداد المنسوب للجاحظ (٢٥ - ٢٦).

(١) قوله: «حكي عن بعض الحكماء أنه قال وقد رأى رجلاً يكثر من الكلام... الخ» ورد في أدب الدنيا والدين (ص ٢٥٢) دون نسبة إلى أحد وقد أورده الأمير أسامة بن منقذ باختلاف لفظي يسير ونسبه إلى أفلاطون (لباب الآداب ٤٦٥-٤٦٦). وقد نسبه المبشر بن فاتك إلى سقراط مرة (مختار الحكم ومحاسن الكلم ١٠٧) وإلى أفلاطون مرة أخرى (ص ١٣١). وقد وردت العبارة مثلاً من الأمثال في التمثيل والمحاضرة (ص ٣١١) بلفظ «إنما جعلت لك أذنان ولسان لتسمع أكثر مما تقول». ونسب ابن قتيبة هذا المعنى إلى أبي الدرداء بلفظ: «قال أبو الدرداء: أنصف أذنيك من فيك؛ فإنما جعل لك أذنان اثنتان وفم واحد؛ لتسمع أكثر مما تقول» (عيون الأخبار ٢ / ١٧٧).

فإذا دَعَتْهُ الحاجةُ إلى الكلام سَبَرَهُ قبلَ إطلاقِهِ، وروّىٰ فيهِ قبلَ إرسالِه؛ ليكونَ وفقَ غرضِهِ، وفي إبّانِ حاجتِه؛ فإنّ كلامَهُ ترجمانُ عقلِهِ، وبرهانُ فضلِهِ، وقد قيلَ:

كلامُ امْرِئٍ وافِدُ أَدَبِهِ(١).

وقيلَ:

اللّسانُ وزيرُ الإنسانِ(٢).

فلا يهتِكُ بالاسترسالِ فيهِ فضائِلَه، ولا يمحو بالتجويزِ فيهِ محاسنَه؛ فظهورُ نقصِ الكلامِ يغلبُ علىٰ الخافي من فضلِهِ؛ لأنَّ الظاهرَ سابقٌ منتشرٌ، والخفيَّ مسبوقٌ مستترٌ. وقد قيلَ:

الصّمتُ منامٌ والكلامُ يَقَظَةٌ(٣).

فإذا تكلّمَ لَوَّحَ بالمعنىٰ، وجاوزَ الإكثارَ، فقلَّ مَنْ كَثُرَ كلامُه إلاّ ظَهَرَ خَلَلُهُ، وبانَ زَلَلُهُ.

---

(١) قوله: «وقد قيل: كلام المرء وافد أدبه» أورد الماوردي معنى هذا القول في أدب الدنيا والدين دون نسبة إلى أحد في موضعين: مرة بلفظ «قال بعض البلغاء: كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله» (ص ٢٥٢) وأخرى بلفظ: «يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفعله» (ص ٢٥٤) وفي معناه ما ذكره الثعالبي من قول زياد: «ما قرأت كتاب رجل إلا عرفت مقدار عقله» (التمثيل والمحاضرة ٣٢) وأورده الرخجي مرة بلفظ: «كلام الإنسان بيان فضله وترجمان عقله» (أحاسن المحاسن ١٥٣) وهو بهذا اللفظ في المستطرف (١ / ٢٥) ومرة أخرى بلفظ: « يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفعله وبقلة كلامه، وعلى مروءته بكثرة إنعامه» (أحاسن المحاسن ١٥٤).

(٢) قوله: «وقيل: اللسان وزير الإنسان» أورده المؤلف بلفظه مصدراً بقوله: «وقال بعض الحكماء...» (أدب الدنيا والدين ٢٥٤)، وأورده الآمدي في أقوال الإمام علي بلفظ: «ينبيء عن عقل كل امريء لسانه» (غرر الحكم ٣٦٣). وبلفظ «اللسان ترجمان الإنسان» (ص ١٥) وبلفظ: «اللسان ميزان الإنسان» (ص ٢٨).

(٣) قوله: «وقد قيل: الصمت منام والكلام يقظة» أورده الماوردي ونسبه إلى حكيم يوناني (الأمثال والحكم الورقة ٣٨أ) وأورده ابن قتيبة بلفظه ولم ينسبه لأحد (عيون الأخبار ٢ / ١٧٠) وهو عن المبشر بن فاتك بلفظ «الصمت منام العقل والنطق يقظته» غير منسوب لقائل (مختار الحكم ٣٣٧) ونسبه ابن مسكوية إلى أكثم بن صيفي بلفظ «الصمت منام =

وقد قيلَ:

الجاهلُ الصامتُ يعدُّ حكيماً، والممسِكُ عمّا لا ينبغي يُعَدُّ فهيماً[1].

قالَ الشّاعِرُ: [من المتقارب]

قَدْ يَكْشِفُ القولُ عيَّ اللّسانِ ... فيبدو ويَسْتُرُهُ ما سَكَتْ

فإنْ كُنتَ تبغي لِيانَ المعاشِ ... فَلِنْ للأمورِ إذا ما ٱلْتَوَتْ[2]

ولا ينبغي أنْ يعجب بجيّدِ كلامِهِ، ولا بصوابِ منطقِهِ، فإنّه بالصوابِ أحقُّ، والعجبُ إنّما يكونُ ببادرٍ مستظرفٍ وعلىٰ أنَّ سببَ الاكثارِ منهُ. وفي الإكثارِ عثارٌ[3].

= العقل والنطق يقظته» (الحكمة الخالدة ١٦٠) وقد أورده المؤلف كلاماً يتصل بهذا المعنى ونسبه إلى الأحنف بن قيس بلفظ «النطق مسفرة، والصمت مسترة» (أدب الوزير) وفي العقد الفريد (طبعة العريان): «الصمت نوم والكلام يقظة» وفي المستطرف من كلام ابن عيينة: «الصمت منام العلم والنطق يقظته» (١ / ٤١).

(١) قوله: «وقد قيل: الجاهل الصامت يعد حكيمًا...» نقل الماوردي من كلام الحكماء: «الزم الصمت تعد حكيمًا، جاهلاً كنت أو عالماً» (أدب الدنيا والدين ٢٤٩) ومن أقوالهم «الزم الصمت تعد في نفسك فاضلاً، وفي جهلك عاقلاً، وفي عجزك حليمًا» (أحاسن المحاسن ١٥٣).

(٢) قول الشاعر: «قد يكشف القول عن اللسان... إلخ» البيتين. استشهد المؤلف بهما في كتابه (الأمثال والحكم الورقة ١٣أ) ونسبهما إلى يحيى بن زياد ولكن البحتري نسب البيت الأول لعبد الله بن معاوية الجعفري بلفظ «لقد يكشف القول عن الفتى»... (الحماسة ٣٦٥) وعنها نقل الدكتور عبد الجبار المطلبي جامع ديوان عبد الله بن معاوية المسمى بالصبابة من شعر عبد الله بن معاوية وهو فيه بلفظ الحماسة غير أنه أسقط (اللام) من (لقد) (انظر مجلة الكتاب التي يصدرها اتحاد المؤلفين والكتّاب العراقيين ببغداد العدد: ٧ لسنة ١٩٧٥ ص ٩٤).

(٣) قوله: «وفي الإكثار عثار» نجد معناها في أدب الدنيا والدين بلفظ «ومن أعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل في الكلام كثير الزلل دائم العثار» (ص ٢٥٣) وفي الأمثال: «من كثر كلامه كثر سقطه» (أمثال أبي عبيد ١٥) وفي سراج الملوك من كلام الإمام علي: «من =

قالَ بعضُ الحكماءِ:

من أُعجب[١] بكلامِهِ أصيبَ بعقلِهِ[٢].

وقال الحسنُ البصريّ[٣]:

مَنْ لمْ يكنْ كلامُهُ حكماً فهو لغوٌ، ومنْ لم يكنْ سُكوتُهُ تفكّراً[٤] فهو سهوٌ، ومنْ لم يكنْ فكْرُهُ اعتباراً فهو لهوٌ[٥].

وكما أنَّ الملكَ مندوبٌ إلى قلّةِ الكلامِ، فهكذا من أرادَ خطابَ الملكِ، يجبُ أنْ يحبسَ لسانَه عن كلامِه، فإنْ دعته الحاجةُ إليهِ اختصرَ؛ ففي الإكثارِ معَ الإعثار إضجارٌ.

= كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار» (ص ٢٨).

(١) غ: عجب، والتصحيح من أدب الدنيا والدين (٢٥٣).

(٢) قول بعض الحكماء: «من أعجب بكلامه أصيب بعقله» انظره في أدب الدنيا والدين بلفظه (ص ٢٥٣) ومن كلام علي رضي الله عنه: «من أعجبه قوله فقد غرب عقله» (غرر الحكم ٢٧٨) و«عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله» (كتاب ٢٠٠٠ كلمة للإمام علي ٢٣ رقم ٤٦٣).

(٣) الحسن البصري: وهو أبو سعيد الحسن بن يسار التابعي الجليل الذي تتلمذ على الصحابة وكبار التابعين وفقيه البصرة المعروف بالعلم والنسك والفصاحة توفي سنة ١١٠هـ انظر ترجمته وأخباره في أخبار القضاة ٢ / ٣-١٥، الحلية ٢ / ١٣١، أدب القاضي ١ / ١٢٢، ميزان الاعتدال ١ / ٢٥٤، وفيات الأعيان ١ / ٣٥٤-٣٥٦ رقم الترجمة ١٤٨، تذكرة الحفاظ ١ / ٧١-٧٢ رقم الترجمة ٦٦ وذكر أنه أفرد له ترجمة في جزء سمّاه الزخرف القصري، الأخبار الموفقيات ١٠٤، تهذيب التهذيب ٢ / ٢٦٤.

(٤) غ: تفكر - بالضم - والتصحيح من ط ومن السياق ومن مصادر التخريج.

(٥) قول الحسن البصري: «من لم يكن كلامه حكمًا... إلخ» ذكره الماوردي منسوباً إليه بلفظه في كتابه (الأمثال والحكم الورقة ٤٥ ب) كما ذكر قولاً آخر ونسبه إلى عيسى عليه السلام بلفظ: «البر ثلاثة: المنطق والنظر والصمت، فمن كان منطقه في غير ذكر فقد لغا، ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها، ومن كان صمته في غير فكر فقد لها» (أدب الدنيا والدين ص ٩٠) وانظر الحكمة الخالدة ١٩٥ وقد يكون معنى ذلك مأخوذاً من حديث للنبي صلىّ الله عليه وسلّم الذي استشهد به المؤلف بلفظ «أوصاني ربي بسبع... ثم ذكرها ومنها: وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبرة» (أدب الدنيا والدين ٣١٢) ومن كلام علي =

وقِيلَ:

إن كانَ قومٌ تقتلهم[1] الحربُ كثيراً فإنّ الذي يَقْتُلُهُمْ اللسانُ أكثرُ[2].

والموتُ (١٤أ) والحياةُ باللسانِ هو مما يتجافاهُ الملكُ، ولا يرخّص فيه اليمينَ والحلفَ، مصرّحاً أو معرّضاً؛ فإنّ الحلفَ قبيحٌ، وهو بالملوكِ أقبحُ. ومن قولِ النبيّ عليه السلامُ:

«اليمينُ حنثٌ أو مندمةٌ»[3].

قال بعضُ العلماءِ:

= رضي الله عنه: «العاقل إذا سكت فكر، وإذا نطق ذكر، وإذا نظر اعتبر» (غرر الحكم ٤٢) وبلفظ آخر فيه اختلاف (ص ٥٤) ومن أمثالهم: «كل صمت لا فكر فيه فهو سهو» (أمثال أبي عبيد ١٢) و(مجمع الأمثال ٢ / ١٦٢ رقم ٣١٥٥) و(لباب الآداب ٢٧٢) وهو فيه منسوب إلى عيسى عليه السلام، وذكر الأبشيهي أن الحجاج نسب هذا القول إلى إبراهيم بن عبد الله بن الحسن في خطبة له (المستطرف ١ / ٦٠) ونسبه إلى بعض الحكماء مرة أخرى (١ / ٨٢).

(١) غ: يقتلهم.

(٢) قوله: «وقيل: إن كان قوم تقتلهم الحرب... إلخ» أورد ابن مسكوية معنى هذا القول ضمن إشارات الصوفية بلفظ: «غاية البطل الرامي أن يقتل بسهمه رجلاً واحداً، لكن كيد العاقل يقتل برمية واحدة الجيش بأسره» (الحكمة الخالدة ١٢١) وأورد الثعالبي قولاً لجؤذر بن سابور قريباً من ذلك بلفظ: «السعايات أقتل من الأسياف ومن السم الذعاف» (الإيجاز أوالإعجاز ١٢) وأورد عبد الواحد الآمدي للإمام علي بلفظ «رب حرب جنيت من لفظة» (غرر الحكم ١٨٣-١٨٤) و«كم من حرب جنيت من لفظة» (ص ٢٣٩)، وفي أدب الوزير غير منسوب بلفظ «وقد قيل: رب صبابة غرست من لحظة وحرب جنيت من لفظة» (ص ٤٢).

(٣) حديث: «اليمين حنث أو مندمة» أخرجه ابن ماجة عن ابن عمر بلفظ «إنما الحلف حنث أو ندم» (انظر سنن ابن ماجة الباب الخامس من كتاب الكفارات منه ج١ ص ٦٨٠ رقم الحديث ٢١٠٣) قال السيوطي وهو حديث ضعيف (الجامع الصغير ١ / ١٠٢) والحديث من حكم الرسول صلىّ الله عليه وسلّم وأمثاله السائرة (انظر التمثيل والمحاضرة ٢٨) و(الإيجاز والإعجاز ٧) وهو في مجمع الأمثال (٢ / ٤٢١ رقم المثل ٤٧٠٩) غير منسوب. وقال: «أي إن كانت صادقة ندم وإن كانت كاذبة حنث، يضرب للمكروه من وجهين». وقد روي الحديث بألفاظ أخرى منها قوله «الحلف حنث أو ندم» الذي رواه البخاري في التاريخ والحاكم في المستدرك وهو حديث صحيح (الجامع الصغير ١ / ١٥٢).

كثرةُ الأَيمانِ من قلّةِ الإيمانِ.

ولأنّ اليمينَ يقصَدُ بها أحدُ ثلاثةِ أوجهٍ يجلُّ الملكُ عنها: إما ليصدِّقَ خبره، والملكُ يجلّ قدرُه عن الإكذابِ، وإما ليتحققَ وعدهُ أو وعيدُه، وقدرتُه تمنعُ من الارتيابِ، وإمّا لاستراحةٍ في كلامهِ؛ فهي عيٌّ قبيحٌ، ولكنْ فاضحٌ[1].

وإنْ دعتْهُ الضرورةُ إليها لشرطٍ في عقدٍ وتوثقةٍ في عهدٍ، إلتزمَ حكمَها في السياسةِ، وإن لم يلزمْ حكمَها في الديانةِ؛ لفسادِ عقدِهـا، واختلالِ شرطِها، ولا يتطلّبُ لفسخِها مع الصحةِ تأويلاً، وإنْ كانَ له في الفسخِ تأويلٌ، ولا يجعلُ لمخرجهِ منها تعليلاً، وإنْ كانَ له في الشرعِ تعليلٌ، لتكونَ عقودُه محروسةً من فسخٍ، وعهودُه محفوظةً من نسخٍ، فلا يختلجُ فيه ظنٌّ، ولا يقدحُ فيه طعنٌ، فإنَّه، وإنْ كانَ لهُ في الدينِ مخرجٌ منها، فما يقفُ عليهِ كلُّ منْ سَمِعَ بالتزامِها، ولا يعرفُه إلّا العلماءُ بأحكامِها. وَلأنْ يراقبَ في دنياهُ بعد مراقبةِ اللهِ تعالىٰ في دينِهِ؛ فيجمعَ بين رضا اللهِ تعالىٰ وثناءِ خلقِهِ أولىٰ من تفرّدِهِ بأحدِهما واطراحِ الآخر.

وقيلَ:

دعْ ما يسبقُ إلى القلوبِ إنكارُه، وإنْ كانَ عندَك اعتذارُه؛ فما كلُّ من حكىٰ عنكَ نكراً يطيقُ أن يوسعَه منكَ عُذراً[2].

---

(١) قوله: «ولأن اليمين يقصد بها أحد ثلاثة أوجه...» قال ابن المقفع: «وليتق الملك أن يكون حلافاً، فأحق الناس باتقاء الأيمان الملوك، فإنما يحمل الرجل على الحلف إحدى هذه الخلال: إما مهانة يجدها في نفسه، وضرع وحاجة إلى تصديق الناس إياه، وإما عيّ بالكلام حتى يجعل الأيمان له حشواً ووصلاً، وإما تهمة قد عرفها من الناس لحديثه، فهو ينزل نفسه منزلة من لا يقبل منه قوله إلّا بعد جهد اليمين، وإما عبث في القول، أو إرسال اللسان على غير روية ولا تقدير...» (الأدب الكبير ١١٤-١١٥).

(٢) قوله: «وقيل: دع ما يسبق إلى القلوب إنكاره...» أورده ابن مسكوية دون أن ينسبه لقائل بلفظ: «...وقال آخر: دع ما يسبق إلى القلوب إنكاره وإن كان عندك اعتذاره، فما كل من أنكر نكراً تطيق أن توسعه منك عذراً» (الحكمة الخالدة ١٣٧)، وفي غرر الحكم من أقوال علي رضي الله عنه: «إياك وما قل إنكاره وإن كثر منك اعتذاره» (ص ٧٩) وأورد =

فإنْ لم يجدْ إلى استدامةِ التزامِها سبيلاً أوضحَ من أسبابِ عذرِه، وأشاعَ من وجوهِ مخرجِهِ قبلَ شروعِهِ في خلقِه، ونقضِه، ما يحفظُ عليهِ سلامةَ دينهِ وعرضِه؛ فلا ينسبُ في (١٤ب) يمينِه إلى حنثٍ، وفي عهدِه إلى نكثٍ.

قال بعضُ الحكماءِ:

الكذبُ والغدرُ يشبهانِ أسنانَ الأسدِ، ويفسِدانِ قلوبَ النّاسِ.

* * *

= ابن مسكوية قولاً آخر من حكم الفرس بلفظ «وعلى العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدر أيهما الصواب أن ينظر إلى أقربهما إلى هواه مخالفة فإن الهوى عدو العقل فيحذره» في كلام طويل (الحكمة الخالدة ٧٣) واستشهد به ضمن أقوال ابن المقفع بلفظ «إذا بدهك أمران متناقضان لا تدري أيهما الصواب فانظر أقربهما إلى هواك فخالفة فإن أكثر الصواب في خلاف الهوى (الحكمة الخالدة ٣٢٣) وانظر (الأدب الكبير ١٧٧) و(الأدب الصغير ٤٩).

[الفصل الثامن]
[الصدق]

[اعتماد الصدق]:

وممّا هوَ أَلْزَمُ في أخلاقِ الملكِ وأليقُ اعتمادُ الصّدقِ واجتنابُ الكذبِ[١]؛ فإنّه سهلُ البادرةِ، خبيثُ العاقبةِ؛ لأنّه يعكسُ الأمورَ إلى أضدادِها، ويستبدلُ الحقائقَ بأغيارِها، فيضعُ الباطلَ موضعَ الحقِّ، ويتخيّلُ أنّ الكذبَ يتشبهُ بالصدقِ. كلاّ[٢] فإنّ الزمانَ يكشفُ عن خباياهُ، وينم على خفاياهُ، وكذلكَ قالَ النبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ:

«رحمَ الله امرءا أَصْلَحَ من لسانِهِ، وأقصرَ منْ عنانِهِ، وأَلْزَمَ طريقَ الحقِّ مِقْوَلَهُ ولمْ يعوّدْ الخطلَ مِفْصَلَهُ[٣].

[الحذر من الكذب]:

فيحذرُ الكذبَ جادًّا وهازلاً، ولا يرخّصُ لنفسِهِ مُحِقّاً ولا مبطلاً، إلاّ على وجهِ التوريةِ في خداعِ الحروبِ، انتهازاً للفرصةِ فيها، واختداعاً لمكيدَتِها، فما للحرب مهلةٌ، ولا للظفرِ علةٌ، فأُبيحَ في التوصُّلِ إليها رُخَصُ

---

(١) عن اعتماد الصدق واجتناب الكذب عقد المؤلف في أدب الدنيا والدين فصلاً فلينظر فيه (ص١٣٢٧-٢٤٤). وقد قال ابن المقفع: «ليس للملك أن يغضب؛ لأن القدرة من وراء حاجته، وليس له أن يكذب، لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على غير ما يريد» (الأدب الكبير ١١٣) ومن أقوال أردشير: «ليس للملك أن يبخل؛ لأن البخل لقاح الحرص، وليس له أن يكذب؛ لأنه لا يقدر أحد على استكراهه، وليس له أن يغضب، لأن الغضب والعداوة لقاح الشر والندامة، وليس له أن يلعب ولا يعبث؛ فإن اللعب والعبث من عمل الفرّاغ، وليس له أن يفرغ؛ لأن الفراغ من أمر السوقة، وليس له أن يحسد إلاّ ملوك الأمم على حسن التدبير؛ وليس له أن يخاف؛ لأن الخوف من أمر المعوز، وليس له أن يتسلط إن هو أعوز...» (عهد أردشير ٦٩) ونجد ما يماثل ذلك في (لباب الآداب، ٧٠-٧١).

(٢) غ: وكلا.

(٣) حديث: «رحم الله امرءاً أصلح من لسانه.. إلخ» ذكره المؤلف في باب الصدق والكذب من كتاب أدب الدنيا والدين (ص ٢٣٧) ورواه ابن الأنباري في الوقف، والمرهبي في العلم، وابن عدي في الكامل، والخطيب البغدادي في الجامع عن عمر، وابن عساكر عن أنس، وهو حديث حسن (الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ١ / ٢٣) وشطر من الحديث في المحاسن والأضداد للجاحظ (ص٨)، بلفظ «رحم الله عبدا..».

الكلامِ ، كما استُعمل فيها رُخَصُ الأفعالِ، ولذلك جاءت السُّنَّةُ بإرخاصِ الكذبِ فيها على وجهِ التوريةِ دونَ التصريحِ :

قال النبيُّ عليهِ السلامُ:
«الحَرْبُ خُدْعَةٌ»[1].

وإذا أمكنَ أنْ يكونَ ذلكَ بمواضعةِ غيرِهِ كانَ أَوْلَى [من] أنْ يكونَ ذلكَ بمباشرتِهِ بنفسِهِ[2]، فإنْ لم يجدْ من المباشرةِ بُدًّا وَرَّى وعَرَّضَ، ليكونَ التأويلُ لكلامِه محتملاً، والتصريحُ بالكذبِ عنهُ مشفياً، فيعذرُ إذا ظهرَ، ولا يتصور بالكذب إذا اشتهرَ، وليقلّلْ منه إلّا عند ضيقِ الخناقِ، فإنْ أكثرَ منهُ افتُضِحَتْ معاريضُهُ، فصار صريحاً، وَرُدَّ عليهِ فاسداً وصحيحاً.

وإنْ رخّصَ لنفسِه في التصريحِ بالكذبِ على غيرِ ما قلناهُ في الحربِ

---

(١) حديث: «الحرب خدعة» متفق عليه من حديث جابر بن عبدالله (انظر البخاري - جهاد - ٢/١١٤) و(مسلم - في متن شرح النووي - جهاد ١٢/٤٥) ورواه أبو داود (سنن ٣/٤٣/حديث رقم ٢٦٣٦) والترمذي - (السنن -جهاد ٣/١١٢ رقم ١٧٢٦) وقال: «وفي اللباب عن علي وزيد بن ثابت، وعائشة وابن عباس وأبي هريرة وأسماء بنت يزيد وكعب بن مالك وأنس بن مالك وهذا حديث حسن صحيح» (الموضع نفسه)، والحميدي (المسند ٢/٥١٩ رقم ١٢٣٧)، و(سنن ابن ماجة ٢/٩٤٥ رقم ٢٨٣٣ و٢٨٣٤)، قال ابن الأثير: «أخرجه الجماعة إلا الموطأ والنسائي»، وأورد له أسانيد (جامع الأصول ٣/١٨٩ رقم ١٠٥٤-١٠٥٦) ورواه أحمد المسند ١/٨١، ٩٠، ١١٣، ١٢٦، ١٣٤، ٢/٣١٢، ٣١٤، ٣/٢٩٧، ٣٠٨، ٦/٣٨٧، ٤٥٩) والبزار والطبراني في الكبير وابن عساكر (الجامع الصغير ١/١٥١) وأبو يعلي والطبراني في الأوسط بأسانيد (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٥/٣٢٠).
قال والحديث مثل من الأمثال السائرة (مجمع الأمثال ١/١٩٧ رقم ١٠٤٣)، وكتاب (الأمثال لأبي الوفاء محمد بن أحمد البساك ٣٩) و(أمثال أبي عبيد القاسم بن سلام ص٢) و(التمثيل والمحاضرة ١٥٢) و(الإيجاز والإعجاز ص٧) و(لباب الآداب ٣٣١) و(المثل المقارن ص٩٤).
وقد استشهد به المؤلف في أدب الوزير (ص١٩) قال ابن الأثير يروي بفتح الخاء وضمها مع سكون الدال، وبضمها مع فتح الدال، فالأول معناه: أن الحرب ينقضي أمرها بخدعة واحدة من الخداع: أي أن المقاتل إذا خدع مرة واحدة لم تكن لها إقالة، وهي أفصح الروايات وأصحها، ومعنى الثاني: هو الاسم من الخداع. ومعنى الثالث أن الحرب تخدع الرجال وتمنيهم ولا تفي لهم كما يقال فلان رجل لعبة وضحكة: أي كثير اللعب والضحك (النهاية في غريب الحديث ٢/١٤).

(٢) غ: لنفسه.

من التعريض المحتملِ صارَ بهِ موسوماً (١٥آ) وإليه منسوباً؛ لأنَّ الإنسانَ بما يسبقُ إليه يُعْرَفُ[١]، وبما يظهرُ من شِيَمِهِ يوصَفُ، وبذلكَ جرتْ عادةُ الخلقِ: أنّهم يعدّلونَ العادلَ بالغالبِ من أفعالِه، وربّما أساءَ. ويفسّقون الفاسقَ بالغالبِ من أفعالِه، وربّما أحسنَ. وقلّ ما يُمحَّضُ أحدُهما في الإنسانِ، وإنْ تمحّضَ نَدَرَ[٢] قال الشاعرُ: [من الرجز]

مَنْ لكَ بالمَحْضِ وليسَ مَحْضُ
يَخْبُثُ بعضٌ ويَطيبُ بَعْضُ[٣]

وقالَ أميرُ المؤمنينَ عمرُ رضي اللهُ عنهُ:

---

(١) قوله: «لأن الإنسان بما يسبق إليه يعرف..» أصله المثل «من أكثر من شيء عرف به» انظره في (الأمثال للبساك ١٠٦)، و(مجمع الأمثال، ٢ / ٣٢٨) وفيه أنه من أمثال المولدين و(غرر الحكم ٢٦٧) من أقوال علي رضي الله عنه بلفظه وفي (ص٢٩١ منه). بلفظ «من عرض نفسه للتهمة فلا يلومنَّ من أساء الظن به»، ومن أقوال عمر رضي الله عنه، (سيرة عمر ١٢٤).

(٢) قوله: «وبذلك جرت عادة الخلق أنهم يعدلون العادل بالغالب من أفعاله..»، قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «وليس أحد من الناس نعلمه إلا أن يكون قليلاً يمحض الطاعة والمروءة حتى لا يخلطها بمعصية ولا يمحض المعصية وترك المروءة حتى لا يخلطها بشيء من الطاعة والمروءة، فإذا كان الأغلب على الرجل، والأظهر من أمره الطاعة والمروءة قبلت شهادته، وإذا كان الأغلب على الرجل والأظهر من أمره المعصية وخلاف المروءة ردت شهادته»، (انظر الأم ٧ / ٤٨)، و(مختصر المزني من كلام الشافعي - على هامش الأم ٥ / ٢٥٦)، و(أدب القاضي للماوردي نسخة السليمانية - مخطوط - جـ٢ / الورقة ٩٨ب والورقة ١٠٢ب)، وقال الماوردي في شرح ذلك: «وهذا صحيح؛ لأن في غرائز الشيم دواعي الطاعات ودواعي المعاصي فلم يتمحض وجود أحدهما مع استجماع سببهما»، (أدب القاضي، ٢ / الورقة ١٠٢ب)، ثم قال: «فوجب أن يعتبر الغالب من أحوال الإنسان فإن كان الأغلب عليه الطاعة والمروءة حكم بعدالته وقبول شهادته وإن عصى ببعض الصغائر، وإن كان الأغلب عليه المعصية وترك المروءة حكم بفسقة ورد شهادته، وإن أطاع في بعض أحواله..» (أدب القاضي حـ٢ الورقة ١٠٣آ).

(٣) قول الشاعر: «من لك بالمحض.. إلخ» البيت استشهد به الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص٢٩٠) وفي أدب القاضي من الحاوي الكبير (الجزء الثاني، الورقة ١٠٢ب)، ولم ينسبه لقائل في الموضعين، وهو من الأمثال البديعة السائرة انظر (زهر الربيع في المثل البديع ص٩٢)، غير منسوب لشاعر. والبيت في ط بلفظ «يخبث بعضاً».

لأنْ يضرَّني الصّدقُ وقلَّ ما يفعلُ، أَحَبُّ إليَّ من أنْ ينفعَني الكذبُ، وقلَّ ما يفعلُ.(١).

ولذلكَ قالَ النبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ:
«أعْظَمُ الخطايا اللِّسانُ الكَذُوبُ»(٢).

قالَ بعضُ الحكماءِ:
كذبُ المَلِكِ وغدْرُهُ من دلائلِ حادثٍ يحدثُ في ملكِهِ؛ لأنّه يُشْبِهُ تخليطَ العليلِ في العلّةِ يزيدُه مرضاً وفي بدنِهِ زَهَكاً(٣)

[الترغيب والترهيب]:

وإذا وُسِمَ بالصّدقِ، وقصَرَ كلامَه على المهمِّ، وكانَ تبشيرُهُ وتحذيرُه على حسبِ خطرِ الأمورِ التي يجري(٤) فيها وعدُهُ أو وعيدُه كانت ألفاظُهُ ألقاباً، وذمُّه عقاباً، فاستغنى عن كثيرٍ من الإرغابِ والإرهابِ.

وقد اختيرَ للملوكِ في الترغيبِ عذوبةُ الكلامِ، ولينُ الصوتِ؛ لأنه أرغبُ، وفي الجهارةِ بالترغيبِ تنجّح(٥)، وبالنعمةِ، وهي عنده أحفزُ(٦).

---

(١) قول عمر رضي الله عنه: «لأن يضرني الصدق وقل ما يفعل.. إلخ» ورد هذا القول في كتاب أدب الدنيا والدين (ص ٢٣٩) بلفظ: «لأن يَضُرَّنى الصِّدْقُ وقل ما يفعل، أحب إلي من أن يرفعني الكذب وقل ما يفعل، وفي أدب الوزير (ص٩) أيضاً، بلفظ «لأن يضعني الصدق وقل ما يفعل، أحب إلّي من أن يرفعني الكذب.. إلخ»، وهو بهذا اللفظ الأخير في كتاب (ألف كلمة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ص٨٥، رقم القول ٨٥٧)، والقول في ط بلفظ «.. الصدق وقل ما ضرك.. الكذب وقل ما نفعك».

(٢) حديث: «أعظم الخطايا اللسان الكذوب» استشهد به المؤلف في أدب الوزير، (ص١٩)، وأخرجه ابن لال عن ابن مسعود وابن عدي في الكامل عن ابن عباس، وهو حديث ضعيف، (الجامع الصغير ١ / ٤٧)، قال المناوي: أخرجه الحاكم (كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق، على هامش الجامع الصغير ١ / ٣٣) وأورده الغزالي على أنه أثر من أقوال علي رضي الله عنه (إحياء علوم الدين ٣ / ١٣٦).

(٣) زهك الشيء وسهكه: سحقه.

(٤) غ: تجري.

(٥) غ: تنجحا.

(٦) غ: وبالنغمة وهي عنده أحقر.

وفي الترهيبِ غلظةُ الكلامِ، وجهارةُ الصوتِ؛ لأنه أرهبُ، وفي لينِ الصوتِ بالترهيبِ ضعفٌ لمنه[1] وقدرتِه.

ويجبُ أنْ يكونَ وعدُه ووعيدُه بقدرِ الاستحقاقِ من غيرِ سَرَفٍ ولا تقصيرٍ، في ثوابٍ أو عقابٍ[2]؛ لتكونَ أقوالُه وفقَ أفعالِه التي تقدّرتْ بشرعٍ أو سياسةٍ، ولا تتجاوزَ محدودَها، ولا تفارقَ معهودَها.

حُكيَ أنّ أبا بكر الصّديق رضيَ اللهُ تعالى عنهُ، كَتَبَ إلى (١٥ب) عكرمةَ بنِ أبي جهلٍ[3]، وهو عامِلُهُ على عُمَانَ[4]:

إيّاكَ أنْ توعدَ على معصيةٍ بأكثرَ من عقوبتِها، فإنّك إن فعلتَ أثمتَ، وإنْ تركتَ كذبْتَ[5].

* * *

---

(١) غ: ضعف المنة.

(٢) قوله: «ويجب أن يكون وعده ووعيده بقدر الاستحقاق..»، قال ابن المقفع: على الملوك«أن لا يتركوا محسناً بغير جزاء ولا يقروا مسيئاً ولا عاجزاً على الإساءة والعجز، فإنهم إن تركوا ذلك تهاون المحسن واجترأ المسيء، وفسد الأمر وضاع العمل»، (الأدب الصغير، ٥٢-٥٣).

(٣) عكرمة بن أبي جهل (واسم أبي جهل عمرو) بن هشام بن المغيرة القرشي، كان كأبيه أشدّ الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أسلم عام الفتح وخرج إلى المدينة ثم وجهه أبو بكر رضي الله عنه، إلى قتال أهل الردة وفي الفتوحات، فاستشهد وقيل توفي في سنة ١٥هـ من خلافة عمر رضي الله عنه، انظر بعضاً من أخباره في الإصابة ٢ / ٤٨٩-٤٩٠، رقم الترجمة ٥٦٤٠، الاستيعاب - على هامش الإصابة - ٣ / ١٤٨-١٥١، أسد الغابة، طبعة الشعب ٤ / ٧٠-٧٣، رقم الترجمة ٣٧٣٥.

(٤) عمان: (بضم العين وفتح الميم المخففة)، وهي كورة عربية على ساحل بحر اليمن، والهند تحت البصرة، (انظر تاريخ الطبري ٢ / ٢٤٣، ٢٥٦)، و(اللباب في تهذيب الأنساب ٢ / ٣٥٦).

(٥) كتاب أبي بكر رضي الله عنه، إلى عكرمة تجده بلفظه في (لباب الآداب ٣٣٦).

[الفصل التاسع]
[توقّي الغضب]

[الحذر من الغضب]:

ويحذرُ الغضبَ[1]، ويتوقّاه، فإنّ نفورَ فورتِه واشتطاطَ حدتِه يسلبانِ صوابَ ذوي الألبابِ، ولا يتهذّبُ لهم خطابٌ، ولا يتحصّل لهم جوابٌ، ولا يتقدّرُ لهم عقابٌ، وقلَّ ما يسلمُ مع الغضب رأيٌ من[2] زللٍ، وكلامٌ من خطلٍ، وفعلٌ من عسفٍ، وحقٌّ من حرفٍ، ودينٌ من جرحٍ[3]، وعرضٌ من قدحٍ، وجَدٌّ[4] من طيشٍ، وعددٌ من هيشٍ[5]، فهو شرٌّ باهرٌ[6] متسلطٌ، وأضرٌّ معاندٍ مورطٌ، لا تعصى بوادرُه إن غلَبَ، ولا تحصى فواقِره[7] إن وثبَ، وما اشتملت عليه هذه الأخطارُ، وتقابلتْ فيه هذه المضارُّ، كانَ التحرّزُ من خطرِهِ حَزْماً، والسلامةُ من ضررِهِ غنماً، وليس ذلك إلّا من كان العقلُ قائِدَهُ، والتوفيقُ رائِدَه، فملكَ زمامَ نفسِه حتى أطاعته، وراضَ شماسَها[8] حتى أجابَتْهُ، فإنْ منيَ به الملكُ قبضَ نفسَه عن الانقيادِ لهُ حتى يزولَ عنهُ اختلاطُ نفرتِه، واشتطاطُ قدرتِهِ. ثم يتصفحُ الذنبَ الذي أغضبَه بعد سكونِ جأشِه، ويقابلُ عليه بقدرِ استحقاقِه إنْ لمْ يرَ له في العفوِ مدخلاً، ولا في الصفحِ والتجاوزِ وجهاً، ليقفَ على الصوابِ في قضيتِه،

---

(١) غ: ويحذر الكذب، والتصحيح من السياق ومن ط. وحول الغضب عقد المؤلف في أدب الدنيا والدين فصلاً (انظر من ٢٢٨-٢٣٧)، وعقد الجاحظ فصلاً عنه في كتاب التاج في أخلاق الملوك (ص٩١-٩٤) قال فيه: «ومن أخلاق الملك سرعة الغضب، وليس في أخلاقه سرعة الرضا» (التاج ٩١).

(٢) غ: مع زلل.

(٣) غ: حرج.

(٤) غ: حسد.

(٥) هيش: الحركة والاضطراب، يقال هاش القوم: إذا تحركوا وهاجوا وبابه باع.

(٦) باهر: غالب وبابه قطع.

(٧) فواقر: جمع فاقرة وهي الداهية التي تكسر الفقار.

(٨) شماسها: يقال رجل شموس: أي صعب الخلق.

وعلى العدلِ في مؤاخذتِه، فلا شيء أضرَّ بالملكِ من أنْ تخفى عليهِ حقائقُ الذنوبِ، ولا يقفَ منها على مقاديرِ الحدودِ.

قال النبيُّ عليهِ السلامُ:
«إذا استشاطَ السلطانُ تسلطَ الشيطانُ»[١].

وقال سليمانُ بن داودَ عليهِ السلامُ:
غَضَبُ الملك كالأسدِ الذي يزأرُ.

وحكي أنّ بعضَ ملوكِ الفرسِ كتبَ كتاباً، ودفعهُ إلى وزيرهِ، وقالَ: إذا أنا غضبتُ، فناولْني هذا، وكانَ فيه مكتوباً[٢]: (١٦آ)**مالكَ والغضبِ؟** إنّما أنتَ بشرٌ، ارحمْ من في الأرضِ يرحَمْكَ من في السماءِ[٣].

وكان يفعلُ هذا ليزولَ عنهُ الغضبُ، فيستبينَ له الصوابُ حذراً من قبحِ آثارهِ، وشدةِ إضرارِهِ. فإذا استطفأ ثائرَ الغضبِ، واستكفَّ بادرةَ الاشتطاطِ، ثم استعطَفَهُ المغضبُ، واسترضاهُ، فمن كرمِ الشيمةِ، وحسنِ العاطفةِ أن يلينَ لهُ، ويرضى عنه.

---

(١) حديث «إذا استشاط السلطان تسلط الشيطان» أخرجه الإمام أحمد عن عطية السعدي بهذا اللفظ (مسند أحمد ٤ / ٢٢٦) ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٨ / ٧١) ورواه الطبراني في الكبير عن عطية السعدي وهو حديث صحيح (الجامع الصغير ١ / ١٩).

(٢) غ: مكتوب، والتصحيح من ط.

(٣) قوله: «وحكي أن بعض ملوك الفرس كتب كتاباً.. الخ» انظره في أدب الدنيا والدين (٢٣٥)، وفيه اختلاف فيما يأتي: «وزير له.. فناولنيه.. وكان فيه مالك والغضب ..»، و(سراج الملوك ٨٨)، وقد أورده ابن قتيبة بلفظ: «دفع أردشير الملك إلى رجل كان يقوم على رأسه كتاباً، وقال له: إذا رأيتني قد اشتد غضبي فادفعه إليّ. وفي الكتاب: أمسك فلست بإله، إنما أنت جسد يوشك أن يأكل بعضه بعضاً، ويصير عن قريب للدود والتراب» (عيون الأخبار ١ / ٢٧٣)، وانظره بهذا اللفظ في (أقوال متفرقة لأردشير ملحقة بكتاب عهد أردشير ص ٨٨) وانظره بلفظ آخر في سراج الملوك (٧١، ٨٥)، وفيه أيضاً أنه «قال شريح بن عبيد: لم يكن في بني إسرائيل ملك إلا ومعه رجل حكيم إذا رآه غَضْبان كتب له ثلاث صحائف في كل صحيفة: ارحم المسكين، واخش الموت، واذكر الآخرة، فكلما غضب الملك ناْوله صحيفة حتى يسكن غضبه»، (سراج الملوك ٧٠)، وأورده ابن الجوزي بلفظ آخر (المصباح المضيء في خلافة المستضيء جـ١، الورقة ٤٨٢، وفيها تخريجه).

قيلَ[١]: مِنْ أعجبِ شيء أنْ يكونَ الرجلُ يُلْتَمَسُ رضاه فلا يرضى، وأعجبُ منه أن يُلْتَمَسَ رضاه فيغضبَ[٢].

قال بعضُ الحكماءِ:

منْ لمْ يقبَلِ التوبةَ عَظُمَتْ خطيئتُه، ومن لم يُحْسِنْ إلى التائبِ قَبُحَتْ إساءتُه[٣].

فإنْ أحبَّ أنْ يتدرّجَ إلى الرّضا لئلاّ يصلَ بينَ ضدين، قدّمَ مباديَهُ، وسهّل دواعيَهُ، وكانَ في السرِّ راضياً، وفي الظاهرِ مغاضِباً[٤]، ليظهرَ الرضا عن أحوالٍ متقاربةٍ، وتنتقلَ إليهِ بعدَ أمورٍ متناسبةٍ، فليسَ بمستبعدٍ إذا كانَ بطيءَ الرّضا، غيرَ أنَّ من أخلاقِ الملوكِ سرعةَ الغضبِ، وليْسَ من أخلاقِهم سرعةُ الرضا.

والعلةُ في ذلكَ لِما قد استقرّ في القلوبِ من هيبتِهم، وأذعنتْ به النفوسُ من طاعتِهم لا يلاقونَ ما يكرهونَ، ولا يرونَ إلاّ ما يؤثِرون، فإذا بَدَرَ[٥] ما يُغضِبُهم خرجَ عن عرفِهم، فتعجّلَ[٦] به غضبُهم، وما يرضيهم داخلٌ في عرفِهم، فلم يتعجّلْ فيهِ رضاهُمْ.

ومَنْ عداهُمْ في الأمرَيْنِ بخلافِهم، فلذلكَ وَقَعَ الفرقُ بينَ الملوكِ

---

(١) ط: قيل في سالف الحكم...

(٢) قولهم: «من أعجب شيء..»، ذكر هذا القول ابن المقفع بلفظ: «وقد كان يقال: إنه من العجب أن يطلب الرجل رضى صاحبه ولا يرضى، وأعجب من ذلك، أن يلتمس رضاه فيسخط» (كليلة ودمنة، طبعة دار العهد الجديد، ص١٠١).

(٣) قول بعض الحكماء: «من لم يقبل التوبة.. الخ»، أورده الرخجي غير منسوب وفيه «.. ومن لم يحن إلى التائب لؤمت طبيعته»، (أحسن المحاسن ١٥٧)، وأورده الآمدي من كلام علي رضي الله عنه بلفظ «شر الناس من لا يقبل العذر ولا يقبل الذنب»، (غرر الحكم ١٩٦) وقال الشافعي: «من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضي فلم يرض فهو جبار» (سراج الملوك ٨٦).

(٤) غ: مغاضباً.

(٥) غ: ندر.

(٦) غ: فيعجل.

وغيرِهم في الرضا والغضبِ، فإنْ لم يظهرْ غضبُهم فهو لسياسةٍ وحزمٍ همْ فيهِ مع كونِهِ فيهمْ بينَ أمرَين:

إمّا أنْ يوطّئوا أنفسَهم للصفح عنهُ، وإمّا أنْ يؤخّروا (١٦ب) الأمرَ إلى وقتِ الانتقامِ.

والأولُ كرمٌ ورأفةٌ.

والثاني حميّةٌ وتقويمٌ.

[الحذر من المحل واللجاج]:

ثم كذلك المَحَلُ واللّجاجُ[1]، يجب أن يحذَرَه، فهو أليفُ الغضب، وحليفُ العطبِ؛ لأنّه يركبُ من الأمورِ أصعبَها، ويفارقُ من الآراءِ أصوبَها، وقلّ ما[2] أجدَى اللجاجُ إلّا شرّاً، وأقلّ الأمرينِ خيراً، وكفى بلجاجِهِ مضرّةً ومعرّةً أنّه إنْ أكذَبَه الظنُّ تُورِكَ، وإنْ ساعدهُ القضاءُ شورِكَ، فيصيرُ بالمتاركةِ معذوراً، وفي المشاركةِ ممكوراً.

قال الشّاعرُ: [من الكامل]

وإذا رأيتَ أخاكَ لَجَّ فَلِنْ لَهُ
حتّى يعودَ إلى الطريقِ الأقْصدِ

إنَّ اللجوجَ يلجُّ إنْ لاجَجْتَهُ
مثلَ الشهابِ يلجُّ للمستوقِدِ

فإذا انقادَ إلى الأمرِ الأرفقِ، وساعدهُ الرأيُ الأوفقُ، لم يعدمْ دركاً إنْ أنجحَ، وعاذراً إنْ أكدحَ.

قال الشّاعرُ: [من الطويل]

ليبلُغَ عُذراً أو يصيبَ رغيبةً
ومبلغُ نفسٍ عذرَها مثلُ منجحِ[3]

---

(١) المحل: المكر والكيد والجدال. واللجاج: التمادي في الخصومة.

(٢) غ: ولقل ما.

(٣) قول الشاعر: «ليبلغ عذراً.. إلخ» البيت ساقه الماوردي مثلاً من الأمثال في كتابه (الأمثال والحكم، الورقة ١٤ب) ونسبه إلى عروة بن الورد وهو في ديوان عروة، (طبع المطبعة =

وروي عن النبيّ صلى اللهُ عليهِ وسلّم أنّه قالَ:

«إنَّ الرفقَ لم يكنْ قطّ في شيء إلاّ زانَهُ، ولا نُزِعَ من شيءٍ إلاّ شانَهُ»[١].

وليكنْ مساهلاً للزمانِ في طلبتِهِ، مباشراً[٢] للقدرِ في إرادتِهِ،

= الأهلية، بيروت، ص٨)، بلفظ «أو تصيب» وفي شرح ديوانه لابن السكيت، (مطبوع ضمن مجموع بالمطبعة الوهبية، ص٣٩)، وقد ورد منسوباً إليه بلفظه في شرح ديوان الحماسة (١ / ٤٦٥)، والتذكرة السعدية (١ / ٣٠٥) وفيها تخريج، والتمثيل والمحاضرة بلفظه مرة ومرة بلفظ «أو يصيب خصاصة» (ص٥٧)، ونهاية الأرب (٣ / ٦٥) بلفظ «أو ينال»، وشعراء النصرانية (٩٠٣)، والأغاني (٣ / ٧٣)، بلفظ «أو يصيب غنيمة»، وشرح ديوان امرىء القيس (٥٢) بلفظ «أو ينال»، وذكره ابن قتيبة منسوباً إليه مرة بلفظ «لتبلغ عذراً أو تفيد غنيمة» (عيون الأخبار، ٢ / ١٩٤)، ونسبه مرة أخرى إلى أوس ابن رشيق منسوباً إلى أبي العيال (العمدة ١ / ٤٨) وربما كان ذلك متأتياً من ذكر ذي العيال في البيت الذي يروى قبله، وهو قوله:

ومن يك مثلي ذا عيال ومقتراً   من المال يطرح نفسه كل مطرح

وقد ورد الشطر الثاني من البيت غير منسوب في لباب الآداب (ص ٤٢٧).

(١) حديث: «إن الرفق لم يكن قط في شيء إلاّ زانه..»، رواه الإمام مسلم عن عائشة مرفوعاً بلفظ «إن الرفق لا يكون في شيء إلاّ زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»، (صحيح مسلم بشرح النووي ١٦ / ١٤٦) ورواه أبو داود عنها بلفظ «يا عائشة ارفقي، فإن الرفق لم يكن في شيء قط إلاّ زانه، ولا نزع من شيء قط إلاّ شانه» (سنن أبي داود، ٣ / ٣، رقم الحديث ٢٤٧٨)، ورواه أحمد بأسانيد كثيرة (المسند ٦ / ٥٨، ١١٢، ١٢٥، ١٧١، ٢٠٦، ٢٢٢) عن عائشة، ورواه البزار من حديث أنس مرفوعاً وفيه زيادة بلفظ «ما كان الرفق في شيء إلاّ زانه، ولا كان الخرق في شيء إلاّ شانه، وإن الله رفيق يحب الرفق» بسند فيه كثير بن حبيب، وثقه ابن أبي حاتم، وفيه لين وبقية رجاله ثقات (مجمع الزوائد، ٨ / ١٨) ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث أنس هذا، إلاّ أن فيه (الفحش) مكان (الخرق) وليس فيه الزيادة (الترغيب والترهيب، ٣ / ١٨٠)، وروي بأسانيد أخر (المقاصد الحسنة ١١٤، رقم ٢٢٥)، والعسكري عن أنس، والبيهقي عن ابن مسعود وغيرهم، (كشف الخفاء ١ / ٢٦٧-٢٦٨، رقم الحديث ٧٠٦)، ورواه عبد بن حميد والضياء عن أنس بلفظ «ما كان الرفق في شيء إلاّ زانه، ولا نزع من شيء إلاّ شانه» في حديث صحيح (الجامع الصغير ٢ / ١٤٧)، وقد أصبح معنى هذا الحديث مثلاً من الأمثال بلفظ «ما دخل الرفق في شيء إلا زانه»، (التمثيل والمحاضرة ٤٢٦)، والحديث في (ط) بلفظ، «.. لم يكن في شيء قط.. ولا نزع منه..»، ثم جاء فيه بعده «ومبلغ نفس عذرها مثل منجح» وهو الشطر الثاني لبيت عروة الذي مرَّ قبل قليل. ثم ورد بعده «قال بعض الحكماء: إذا لم يساعد الجد فالحركة خذلان»، ثم ورد قوله: «قال أقضى القضاة: ليكن مساهلاً.. الخ».

(٢) ط: مساعدا..

ولا يطلبُ من الأمورِ متعوراً[1]، ولا متعذّراً[2]، ولا يطلبُ منها مـدْبراً، ولا مولّياً، فإنْ خاشَنَهُ[3] الدهرُ لانَ، وإنْ عارضَهُ الدهرُ استكانَ؛ فمطاولُ الدهرِ مغلولٌ، ومعانِدُ القدرِ مخذولٌ.

قالَ بعضُ الحكماءِ[4]:

من استعانَ بالرأيِ مَلَكَ، ومنْ كابَرَ الأمورَ هَلَكَ[5].

---

(١) ط: متقوراً. غ: معوراً، والمتعور المتداول.

(٢) ط: معتذراً ولا يلتمس.

(٣) ط: حاسنه.

(٤) ط: بعض البلغاء.

(٥) قولهم: «من استعان بالرأي ملك، ومن كابر الأمور هلك»، أورده الماوردي منسوباً إلى بعض الحكماء أيضاً في كتابه (أدب الوزير ص٧)، وفي أمثالهم: «خاطر من استغنى برأيه» (التمثيل والمحاضرة ٤١٨). ومن أقوال علي رضي الله عنه: «الاستبداد برأيك يذلك ويهويك في المهاوي»، (غرر الحكم ٣٥) و«من أطاع ربه ملك، ومن أطاع هواه هلك» (٢٦٥)، و«من استغنى بعقله ضل، ومن استبد برأيه زل» (ص٢٦٦)، و«من استبد برأيه فقد خاطر وغرر» ص٣٠٠، و«لا تستبد برأيك فمن استبد برأيه هلك» (ص٣٣٦). وانظر كتاب (٢٠٠٠ كلمة للإمام علي ص٨٤، رقم ١٩٧٧). و«من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها»، (نهج البلاغة بشرح ابن أبي الحديد ٤ / ٣٢٠). ومن أقوالهم: «من استبد برأيه هان على أعدائه»، (أحاسن المحاسن ١٦٣). و«من استغنى برأيه فقد خاطر بنفسه» (نهاية الأرب ٦ / ٧٠) و«إذا استبد الرجل برأيه عميت عليه المراشد» (نهاية الأرب ٦ / ٧٠).

وقد جاء في نسخة ط بعد هذا القول بيت شعر هو:

فـاقبَـلْ من الـدهـرِ مـا أتـاكَ بـهِ ... مـن قَـرَّ عـيـنـاً بـعـيـشِـهِ نَـفَـعَـهْ

وهو بيت للأضبط بن قريع بن عوف السعدي التميمي الشاعر الجاهلي من المعمرين، ترجم له في الأغاني ١٦ / ١٥٤، والشعر والشعراء (السقا) ١٤٣، الخزانة ٤ /٥٩١، وله شعر في حماسة ابن الشجري ١ / ٤٧٣، والحماسة البصرية ٢ / ٢، وعده السجستاني من المعمرين (ص٨)، وقد ورد البيت في التمثيل والمحاضرة (٦٠) بلفظ «واقبل»، وحماسة الظرفاء (١ / ١٥٤) وفيها تخريج، والحماسة البصرية (٢ / ٣) وفيها «اقنع من العيش..»، والشعر والشعراء (السقّا) ص١٤٤ وفيه «وخذ من الدهر..»، ونهاية الأرب (٣ / ٦٩ و٨ / ١٨٩)، والإيجاز|والإعجاز (٣٩)، والحماسة الشجرية (١ / ٤٧٤) بلفظ «اقبل.. بعينه نفعه» والمعمرين (ص٨)، ومجالس ثعلب (٤٨٠)، والبيان والتبيين (٣ / ٣٤١) بلفظ «وخذ..»، والأمالي (١ / ١٠٧) والأغاني (١٦ / ١٥٤)، والعقد الفريد، العريان، (٢ / ١٤٧ و٨ / ١٥٨) وفيه «ارض من الدهر..» والمحاسن والمساوىء للبيهقي (٢٩٨)، والمستطرف (١ / ٣٢) والأمثال والحكم (الورقة ١٣٢).

قال الشاعرُ[1]: [من الكامل]

ومكلِّفُ الأيامِ ضدَّ طباعِها   متطلّبٌ في الماءِ جذوةَ نارِ

(١٧آ)

وإذا رجوتَ المستحيلَ فإنّما   تبني الرجاءَ على شفيرٍ هارِ[2]

---

(١) قوله: «قال الشاعر..» قلت هو أبو الحسن علي بن محمد بن فهد التهامي الشاعر المقتول سراً في سجنه، بالقاهرة، سنة ٤١٦هـ، والتهامي نسبة إلى تهامة وهي جبال مشهورة، وقد تطلق على مكة أيضاً، ولذا قيل للنبي صلى الله عليه وسلم (تهامي) لأنه منها، ولد التهامي ونشأ باليمن وسافر إلى الشام ثم العراق وإلى الجبل، ولقي الصاحب بن عباد، وانتحل مذهب الاعتزال، وأقام ببغداد وروى شيئاً من شعره ثم عاد إلى الشام وتنقل في بلادها، وكانت نفسه تحدثه بمعالي الأمور، وكان أديباً فاضلاً متورعاً، متديناً، متقشفاً. أنظر أخباره في مقدمة ديوانه المطبوع بالإسكندرية سنة ١٨٩٣، العبر ٣ / ١٢٢، تاريخ بغداد لابن النجار (محفوظ، الورقة ١٣آ، ١٥ب)، وفيات الأعيان ٣ / ٦٠-٦٢، رقم الترجمة ٤٤٤.

(٢) قول الشاعر: «ومكلف الأيام ضد طباعها.. إلى آخر البيتين» في ديوان أبي الحسن التهامي (ص٢٧) من قصيدة يرثي بها ابناً صغيراً له وهي من أشهر شعره ومطلعها:

حكم المنية في البرية جار   ما هذه الدنيا بدار قرار

وقد نالت هذه القصيدة إعجاب الأدباء على مر العصور، فقد خمسها عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري الديريني الشيخ الزاهد المتوفى ٦٩٤هـ، إذ قال في تخميس مطلعها:

سلِّم أمورك للحكيم الباري   تسلم من الأوصاب والأوزار
وانظر إلى الأخطار في الأقطار   حكم المنية في البرية جار
ما هذه الدنيا بدار قرار

في قصيدة طويلة ورد فيها تخميس البيتين اللذين استشهد بهما الماوردي على النحو التالي:

لا تغترر بوميضها وخداعها   فوراء مبسمها نيوب سباعها
اذ لم تعرّف فترها من باعها   ومكلف الأيام ضد طباعها
متطلب في الماء جذوة نار

لا ترج من جذب المطالب مغنمًا   فلربما جرَّ التحيل مغرما
وإذا رضيت الحكم عشت مكرماً   وإذا رجوت المستحيل فإنما
تبني الرجاء على شفير هار

(انظر طبقات الشافعية الكبرى، طبعة الحسينية، حـ٥ ص٧٥)، وقد ورد البيتان في وفيات الاعيان ٣ / ٦١، منسوبين له مع أبيات أخرى وأوردها ابن النجار (تاريخ بغداد، نسخة مصورة في المجمع العلمي العراقي عن نسخة المكتبة الظاهرية، الورقة ١٣ب-١٤آ).

وليعلمْ أنَّ الأمورَ التي تدبّرها مما لا تمضي إلاّ بفرطِ الصرامةِ وشدةِ الهيبةِ التي هي قاعدةُ الملكِ وأسُّ السلطنةِ، وذلكَ لا يكونُ إلاّ لمنْ خيفَ غضبُه وخشيتْ سطوتُهُ.

وليجعلْ بدلَ الغضبِ تغاضباً لا غضباً[١]، لأنَّ التغاضبَ فعلُه، يقدرُ أنْ يقفَ منه على الحدّ المطلوبِ، ويعرفَ منه حقائقَ الذنوبِ، والغضبُ انفعالٌ فيهِ اضطرّ إليهِ، لا يقدرُ أنْ يقفَ منه على قدرِ حاجتِه، ولا يقتصرَ منهُ على قدرِ كفايتِه، حتى يتجاوزَ إلى الحدّ المضرِ والطيش المعرِّ.

ولقد أصابَ منْ كانتْ عقوبتُه للأدبِ، وأخطأَ من كانتْ عقوبتُه للغضبِ، وهذا مما ذكرنا في معنى الطبعِ والتطّبعِ.

قال الشاعرُ: [من الوافر]

فلمْ أرَ للسّيادةِ كالعوالي
ولا للثأرِ كالقومِ الغضابِ[٢]

وعلى هذا القياسِ لا ينبغي أنْ يستفزَّهُ السرورُ[٣]؛ فتملأَ البشائرُ قلبَهُ، وتخلبَ الأفراحُ لبَّه، فيصيرَ بها طائشاً مرحاً، لا يلينُ إنْ صالَ، ولا يستقيمُ إنْ مالَ، فينسبهُ العدوّ إلى ضعفِ العزيمةِ ولينِ الهمةِ، وإنه لحقيقٌ بمناسبةِ إليهِ، ووسمِهِ به.

وإذا ضبطَ نفسَه عن هذه الحالِ، وتنزّهَ عن رذلِ المقالِ، وتصوّرَ أنَّ جميعَ البشائرِ - وإنْ جلَّتْ - محتقَرَةٌ، إذا قيستْ بعلوّ منزلتِه، وأضيفتْ إلى عظيمِ همتِهِ، كُفِيَ استفزازَ الفرحِ واهتزازَ المرحِ، فكانَ أشبَهَ بكمالِهِ وأليق باعتدالِهِ.

---

(١) قوله: «وليجعل بدل الغضب تغاضباً»، كرر الماوردي هذا المعنى في كتاب أدب الوزير بلفظ «وليكن غضبك تغاضباً» (أدب الوزير، ص٧).

(٢) قول الشاعر: فلم أر للسيادة كالعوالي.. لم أجده.

(٣) ط: يستفزه الطرب.

قالَ الشاعر[١]: [من الطويل]

ولستُ بمفراحٍ إذا الأمْرُ سرّني
ولا جازعٍ مِنْ صرفِهِ المتقلّبِ[٢]

* * *

(١) قوله: «قال الشاعر..» قلت: هو هدبة بن خشرم العذري شاعر أموي، كان صاحب زيادة بن زيد العذري فتنازعا، واستفحل النزاع فاتهم كل واحد منهما صاحبه بأخته ثم شج زيادة هدبة وبقي هدبة يغتنم الفرص لقتل زيادة، فقتله ثم حبس هدبة في سجن سعيد بن العاص بالمدينة ثم قتل به، انظر نبذة من أخباره في الأغاني، بيروت، ٢١ / ٢٧٦، الخزانة ٤ / ٨٢، الشعر والشعراء: ٥٨١، أمالي القالي ١ / ٧٢، وله شعر في التذكرة السعدية ١ / ٥٣٨، رقم ١٨٦ من النسيب، وحماسة ابن الشجري ١ / ٢٢٧، والماسة البصرية ١ / ٤٤، وانظر تخريج البيت، وقد دون المبرّد قصة قتله من الكامل ٤ / ٨٧.

(٢) قول الشاعر: «ولست بمفراح..» البيت استشهد به الماوردي في كتاب (الأمثال والحكم، والورقة ١٣آ) منسوباً إلى هدبة، وهو في الحماسة البصرية منسوباً إليه أيضاً (١ / ١١٥ وفيها تخريج) والشعر والشعراء (تحقيق السقا) ٢٥١، وحماسة الظرفاء (١ / ٥٠ الحماسية، رقم ٦٦) منسوباً إليه وفي تاريخ الطبري ٦ / ١٨٥، والعقد الفريد (١ / ١١٦، ٢ / ٢٩، ٣ / ١٣، ١٠٨)، منسوباً إليه أيضاً، وحماسة البحتري (١٧٨) كذلك. وفي الحماسة الشجرية (١ / ٤٧٤ غير منسوب وفيها تخريج). ونسب في عيون الأخبار (١ / ٢٧٦) إلى البعيث مرة، وإلى تأبط شراً مرة أخرى (١ / ٢٨١)، وهو في شعر تأبط شراً (١٥٣ و١٧٩)، والوساطة (٢١٣). ودوّن محمد بن شرف القيرواني في رسائل الانتقاد (ضمن رسائل البلغاء ص٣٣٣)، دون أن يعزوه إلى أحد، وقد دون المبرّد قصة قول الشاعر للبيت في (الكامل ٤ / ٨٦)، وفي ط ورد اللفظ «جازعاً» بالنصب.

[الـفصـل العاشر]

[الصبر][1]

[الصبر والامتثال]:

وكذلكَ الحوادثُ إذا طرقتْ ، والنوازلُ إذا أَلَمَّتْ، كانتْ سهلةَ الوطأةِ (١٧ ب) في جنبِ صبرِهِ، وشهامتِهِ، قليلةَ الأثرِ؛ لسعةِ صدرِهِ، وبعدِ همّتِهِ. فإنْ طرأ عليهِ منها طارِيءٌ بَانَ فَضْلُهُ على مَن سواهُ بالصّبْرِ والمسكةِ عندَ جزعِهم، والأناةِ والوقارِ عندَ خذلِهم، فيكونُ بصبرِهِ ممتثلاً أمرَ اللهِ تعالىٰ فيما أرادَ، راجياً للظفر فيما يقصدُه ويتوخّاه، فإنَّ تقلُّبَ الدنيا مألوفٌ، وأمنَها مخوفٌ، ولَقَلّ ما تساعدُ أحداً إلاّ بعدَ شُموسٍ[2]، ولا تحسنُ إليه إلاّ بعدَ بوسٍ، ولأنْ يرجوَ السعادةَ أولىٰ من أنْ يخافَ فواتَها، ويختمَ بها أولىٰ من الخاتمةِ بضدِّها.

قالَ بعضُ الأدباءِ: بالصّبْرِ على مواقعِ الكرهِ تُدركُ الحظوظُ[3].

قالَ الشاعرُ: [من الطويل]

إذا المــرءُ لَمْ يــأخُــذْ مــن الصّبــرِ حــظَّهُ
تــقــطّعَ مــن أســبــابِــه كــلُّ مُــبْــرَمِ

---

(١) حول الصبر عقد المؤلف فصلاً هو الفصل الثاني من آداب المواضعة والاصطلاح من كتابه أدب الدنيا والدين (٢٦٠-٢٦٢) قال أنوشروان: «الصبر له أربعة مواطن: ثبات، وكف، واحتمال، وإقدام. فالثبات على الكرائم، والكف عن المحارم والمآثم، والاحتمال للوازم فيها يوجب الفضل ويظهر المروءة، والإقدام على الجلائل التي فيها النجاة والفوز» (الحكمة الخالدة٥١).

(٢) شموس: يقال شمس الفرس شُموساً وشِماساً منع ظهره، ومن المجاز رجل شَموس أي صعب الخلق. وشُموس هنا بمعنى المنع.

(٣) قوله: «قال بعض الأدباء: بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ» أورده الماوردي بلفظه في أدب الدنيا والدين (٢٦١) والطرطوشي في سراج الملوك (٩٨) وفي كلاهما منسوب إلى بعض الحكماء،وهو عند الطرطوشي بلفظ «مواقع المكروه» وفي لباب الآداب بلفظ «عزيمة الصبر تطفيء نار الشر فإن الصبر على ما تكرهه وتجتويه يؤديك إلى ما تحبه وتشتهيه» (ص٦٩. وانظر أيضاً ص٦٠ منه) وأورده مرة أخرى بلفظه غير أن فيه «مواقع المكروه» (ص٢٩٤)، وفي : ط «قال بعض الحكماء. . .يدرك».

[أقسام الصبر]:

ولْيعلمِ الملكُ أنَّ الصَّبْر ينقسمُ ثلاثةَ أَقسامٍ[١]، وهو في كل قسم محمودٌ.

فأولُ أقسامِه: الصَّبُر علىٰ ما فاتَ إدراكُه من نيلِ رغائبَ، أو تقضّتْ أوقاتُه، من حلولِ مصائبَ، وبالصبرِ في هذا يستفادُ راحةُ القلبِ، وهدوءُ الجسدِ.

وفقدُ الصبرِ فيه منسوبٌ إلى شدةِ الأسى، وإفراطِ الحزنِ.

فإن صبَر طائعاً مسلّماً، ورضي بقضاءِ اللهِ مستسلماً، أُعينَ على خطبِهِ، ونفّسَ عن كربِه.

وإنْ ساعدَ جزعَه[٢] احتملَ همّاً لازماً، وصَبَرَ كارهاً آثماً[٣].

---

(١) قوله: «إن الصبر ينقسم ثلاثة أقسام...» فصّل المؤلف في أدب الدنيا والدين أقسام الصبر فجعلها ستة أقسام هي:-

أولها وأولاها: الصبر على امتثال ما أمر الله به والانتهاء عما نهى الله عنه.

الثاني: الصبر على ما تقتضيه أوقاته من رزية قد أجهده الحزن عليها، أو حادثة قد أكده الهم بها.

الثالث: الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوة، وأعوز نيله من مسرة مأمولة.

الرابع: الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها.

الخامس: الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها وينتظر من نعمة يأملها.

السادس: الصبر على ما نزل من مكروه أو حلّ من أمر مخوف.

(انظر تفصيل ذلك في صفحات ٢٦١-٢٦٤).

وقد قسمها الطرطوشي أربعة أقسام هي الأول والثالث والخامس والسادس مما ذكر في أدب الدنيا والدين (انظر سراج الملوك٩٨-١٠٠).

(٢) ط: وإن ساعد همه.

(٣) ورد في ط بعد هذا قوله: «وفي المعنى من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حالك صابراً حالك جازعاً. وحكم الصبر فيه...».

وحكمُ الصبرِ فيهِ: أنْ لا يَرىٰ أسفاً على رغبةٍ، ولا جَزَعاً من ذنكبةٍ، فإنّ الزمانَ نَحولٌ[١]، والهمومَ نزولٌ[٢].

قال الشاعر[٣]: [من الطويل]

وفي الصّبرِ عندَ الضّيقِ للمرءِ مخرجٌ
وفي طولِ تحكيمِ الأمورِ تجاربُ[٤]

وثاني أقسامه: الصّبرُ على ما نَزلَ من مكروهٍ، أوْ حَلَّ من أمرٍ مخوف (١٨آ)

وبالصّبرِ في هذا تتفتّحُ وجوهُ الآراءِ، وتُستدفَعُ مكايدُ الأعداءِ، وفي مثلِه قالَ اللهُ تعالى: «وآصْبِرْ على ما أصابَكَ إنَّ ذلكَ منْ عَزْمِ الأُمُورِ»[٥].

---

(١) نحول بفتح النون -فَعول من نحله إذا أعطاه، فالزمان كثير العطاء.

(٢) جاء في (ط) بعد هذا قوله؛ «وأنشدني بعض أهل الأدب:

هـوِّن عليك همـوماً كنت تـألفها والبـاب يفتـح بـين الشـد والغلق
واذكـر خـروجـك عـريـانـاً بـلا سبـد وبـدء خلقـك من مـاء ومـن علق

ويظهر أن الناسخ قد زادها، والسبد: يقال ماله سبد ولا لبد أي قليل ولا كثير، والسُّبد من الشعر واللبد من الصوف.

(٣) قوله: «قال الشاعر» ذكر الماوردي في كتابه الأمثال والحكم أن القائل هو الحارث بن حلزة (الورقة٦ب) والحارث بن حلزة أحد أصحاب المعلقات، انظر بعضاً من أخباره في الأغاني١١ / ٣٧، الشعر والشعراء -تحقيق السقا- ٥٣ شروح المعلقات، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية)١ / ١٠٣ الروائع للبستاني العدد٢٦، مقدمة ديوانه بقلم هاشم الطعان.

(٤) غ: تحليم الأمور والتصحيح من الأمثال والحكم (الورقة٦ب) إذ ذكره منسوباً إلى الحارث بن حلزة، ولم يرد هذا البيت في (ط) كما أنني لم أجد هذا البيت في المصادر التي بين يدي، إلاّ أن الجاحظ ذكر بيتاً ونسبه إلى الحارث بلفظ

إن السعيـد لـه في غيـره عـظة وفي التـجـارب تحكيـم ومعـتبـر

(البيان والتبيين٢ / ١٠٦) ووضعه جامع الديوان في ديوانه (ص٢٤) وخلا الديوان أيضاً من هذا البيت على الرغم من وجود سبعة أبيات بالوزن نفسه والقافية نفسها للحارث بن حلزة يخاطب بها عمرو بن هند ومطلعها:

ألا بـان بـالـرهن الغـداة الحبـائب كـأنـك معتـوب عـليـه وعـاتـب

(انظر الديوان ص٢١-٢٢ القصيدة رقم٨فيه).

(٥) سورة لقمان: آية١٧.

قالَ بعضُ الحكماءِ:
بمفتاحِ عزيمةِ الصبرِ تعالَجُ مغاليقُ الأُمورِ(١).
وَفَقْدُ الصّبرِ فيهِ منسوبٌ إلى الخرقِ والخورِ.
وحكمُ الصّبرِ فيه: أنْ لا يدهشَه ما هَجَمَ، ولا يذهلَهُ ما أَلَمَّ؛ فللنوائبِ قدرٌ معترضٌ، وأجلٌ مفترضٌ.

قالَ الشّاعِرُ(٢): [من الطويل]

أرىٰ كلَّ ريحٍ سوفَ تسكُنُ مرّةً
وكلُّ سحابٍ عنْ قليلٍ تَقَشَّعُ(٣)

---

(١) قوله: «قال بعض الحكماء: بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الأمور» تمثل به الماوردي في أدب الدنيا والدين (٢٦٤) ونسبه الطرطوشي بلفظه إلى الحكيم (سراج الملوك ص١٠٠) وقد جاء في معناه من أقوال الحكيم أرسطوطاليس: «الصبر على ما تكرهه وتجتويه يؤديك إلى ما تحبه وتشتهيه» (لباب الآداب٦٠) و«عزيمة الصبر تطفيء نار الشر؛ فإنّ الصَّبْرَ على ما تكرهه وتجتويه...» (ص٦٩).

(٢) قوله: «قال الشاعر...» قلت: ذكر الماوردي في كتابه (الأمثال والحكم الورقة ٣٢ب) إنه معن بن أوس، وهو معن بن أوس المزني الشاعر المشهور شاعر مجيد من مخضرمي الجاهلية والإسلام، مدح جماعة من الصحابة وهو صاحب اللامية المشهورة:

لعمري لا أدري وإني لأوجل على أيّنا تعدو المنية أول

وقد عمّر فادرك زمان ابن الزبير وكفّ بصره في أواخر عمره توفي سنة ٦٤هـ انظر ترجمته في الأغاني١٠ / ١٥٦، الإصابة٣ / ٤٧٥ رقم الترجمة٨٤٥٣، الخزانة ٣ / ٢٥٨، نكت الهيمان٢٩٤، جمهرة الأنساب١٩١، معجم الشعراء٣٢٢ وانظر بعضاً من أشعاره في البيان والتبيين١ / ٢،٣٧٢ / ٣،٣٥٢ / ٩، ٢٣١، ٢٣٧، ٢٣٨ والتمثيل والمحاضرة٦٥، والزهرة٢ / ٥٣، ٩٩، ١٠٦، ٢٠٣، ٢٦٨، والتذكرة السعدية١ / ٣٢٧ وديوانه مطبوع في أوروبا.

وقد نسب البيت أيضا إلى مسكين الدرامي الشاعر المشهور واسمه ربيعة بن عامر من شعراء العصر الأموي توفي ٨٩هـ ترجم له في الأغاني١٨ / ٦٨، معجم الأدباء١١ / ١٢٦، الخزانة٣ / ٦٠، طبات فحول الشعراء٢٥٩، جمهرة الأنساب٢٣٢، الشعر والشعراء (تحقيق السقا٢١٥) وقد طبع ديوانه في بغداد١٩٧٠ وله شعره في الزهرة٢ / ١٦٣، ٣٢٩ البيان والتبيين١ / ٣٢٢، ٣،٣٥١ / ٨١.

(٣) قول الشاعر: «أرى كل ريح...» البيت نسبه الماوردي كما مر إلى معن بن أوس (الأمثال والحكم٣٢ب).

وفي نسخة ط: «وكل سماء»

وثالثُ أقسامهِ: الصّبرُ في ما ينتظرُ ورودَهُ؛ من رغبةٍ يرجوها، أو يخافُ حدوثَهُ؛ من رهبةٍ يخشاها.

وبالصّبرِ والتلطفِ يدفعُ عاديةَ ما يخافُهُ من الشّرِّ، وينالُ نفع ما يرجوهُ من الخيرِ.

قالَ بعضُ الحكماءِ:

من استعانَ بالصّبرِ نالَ جسيماتِ الأمورِ(١).

وفَقْدُ الصّبْرِ فيهِ منسوبٌ [إلى الطّيشِ والهلعِ وحكمُ الصّبرِ فيهِ منسوبٌ](٢) إلى سكونِ الجأشِ(٣) في أملهِ، وقلّةِ الاستيحاشِ من وَجَلِهِ، فقضاءُ اللهِ مقدورٌ، وأَجَلُهُ مسطورٌ.

قالَ الشّاعرُ(٤): [من الرمل]

اصبري أيّتُها النّفْـ ـسُ فإنَّ الصّبْرَ أحْجَىٰ

= وقد ورد في ديوان مسكين الدارمي (ضمن القطعة ٤٢ ص٥١) بلفظ «وكل سماء لا محالة تقلع» وتجد مظان وجود القطعة في (ص٧٦-٧٧) منه فلتنظر هناك. وانظر أيضاً في الأشباه والنظائر للخالديين منسوباً إليه (١ / ٦٤)

وقد ورد البيت في البيان والتبيين (٢ / ٣٥٨) غير منسوب، وهو فيه بلفظ: «وكل سماء ذات درّ ستقلع».

ومثله ما كان يتمثل به ابن شبرمة إذا نزلت به نازلة وهو قوله:

فإن كانت الدنيا تحب فإنها سحابة صيف عن قليل تقشع

انظر أدب الدنيا والدين٢٤، آداب النفس٩٣، ثمار القلوب٦٥٣، التمثيل والمحاضرة٢٣٦، الكامل٢ / ٤٠، ٤٢، منتخبات سحر البلاغة١٦٨، البيان والتبيين٣ /١٤٦٠، العقد الفريد٣ / ١٧٦، المستطرف١ / ٨٧.

(١) قولهم: «من استعان بالصبر نال جسيمات الأمور» ورد في معناه قولهم: «من صبر نال المنى، ومن شكر حصن النعمى» (أدب الدنيا والدين ٢٦٣) وقد مرّ قبل قليل قول أرسطوطاليس: «الصبرعلى ما تكرهه وتجتويه يؤديك إلى ما تحبه وتشتهيه»(لباب الآداب ٦٠)، وقال أكثم بن صيفي: «من صبر ظفر» (سراج الملوك ٩٨).

(٢) الزيادة من ط.

(٣) ط: سكون الحال.

(٤) قوله: «قال الشاعر» ذكر الماوردي أنه ابن الرومي الشاعر المعروف (انظر أدب الدنيا والدين٢٧١) ولكنهما ليسا لابن الرومي بل هما لأبي تمام الطائي.

ربّما خابَ رجاءٌ وأتى ما ليسَ يُرْجَى[1]

فإذا[2] اشتدَّ الجزعُ والأذىٰ تذكر بقايا النعمةِ عليهِ، واعتبرَ بمن سلبَ ما هو فيهِ، فسيرىٰ منها عَزاءً[3] يخفّفُ أشجانَهُ ويقلّل[4] أحزانَه؛ فصفوُ الدنيا مشوبٌ بالكدرِ.

قالَ بعضُ العلماءِ:

من الدُّنْيا علىٰ الدُّنيا دليلٌ[5]

قالَ الشّاعرُ[6]: [من الطويل]

---

(١) قول الشاعر: «اصبري أيتها النفس...» تمثل الماوردي بالبيتين في الصبر على المصيبة وعدم الجزع وذلك في أدب الدنيا والدين (٢٧١) ونسبهما إلى ابن الرومي وجاء بهما بلفظهما وقد قلبت ديوان ابن الرومي بعناية كامل كيلاني فلم أجدهما ولم أيأس من العثور عليهما فقلّبت كثيراً من الدواوين حتى وجدتهما في ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي (ح٤ ص٥٠٤) وتخلل بينهما بيتان وهما:

نهنهى الحزن فإن الحزن إن لم ينه لجا
والبسي اليأس من النا س فإن اليأس ملجا

(٢) ط: فإذا زاد به الطمع واشتد به الجزع بذكر...

(٣) ط: عوضاً ويخفف.

(٤) غ ط: يقل.

(٥) قولهم: «من الدنيا على الدنيا دليل» انظره في أدب الدنيا والدين بلفظه مصدراً بقوله: «قيل في منثور الحكم...» (ص١٠٠).

(٦) قوله: «قال الشاعر» ذكر المؤلف أن الشاعر هو قيس بن الخطيم (الأمثال والحكم ٦٦آ) وهو قيس بن الخطيم بن عدي بن عمر الأوسي شاعر من أهل يثرب جعله ابن سلام من شعراء الطبقة الثانية، وسمي أبوه الخطيم لضربة خطمت أنفه، قتل أبوه وهو صغير وأدرك قيس الإسلام ولكنه لم يسلم وقتل قبل الهجرة وديوانه طبع في بغداد١٩٦٢ انظر بعضاً من أخباره في الأغاني٢ / ١٥٤، الخزانة٣ / ١٦٨، الإصابة ٣ / ٢٦٦ رقم الترجمة ٧٣٥٠، طبقات ابن سلام٨٩و١٧٦.

قلت وقد ينسب البيت إلى أبي تمام الشاعر المشهور (ديوان المعاني٢ / ٢٠٢) وهو حبيب بن أوس الطائي صليبة وقد نشرنا عنه مقالات متسلسلة في مجلة المعرفة البغدادية: ٩٦-١٩٦١ وانظر الكتاب الذي وصفه كوركيس عواد وميخائيل عواد بعنوان (أبو تمام حياته وشعره في المراجع العربية والأجنبية) بغداد (الإرشـاد ١٩٧١).

ومن عادةِ الأيّامِ أنَّ خطوبَها
إذا سرَّ منها جانبٌ ساءَ جانبُ[٣]

وأنشَدَ المعرّي[١] للمأمونِ:

(١) قول الشاعر: «ومن عادة الأيام...» تمثّل به الماوردي في أدب الوزير (ص٢٨) و(الأمثال والحكم٦٦آ) ونسبه إلى قيس بن الخطيم وذكره في أدب الدنيا والدين(١٣١) وذكر بعده بيتاً آخر هو قوله بعده:

وما أعرف الأيام إلاّ ذميمة ... ولا الدهر إلاّ وهو للثأر طالب

ولم ينسبهما لقائل، والبيت في نهاية الأرب (٦ / ١١٠) منسوبٌ إليه غير أنني لم أجد هذا البيت في ديوان قيس بن الخطيم الذي جمعه الدكتور ابراهيم السامرائي وأحمد مطلوب.

وقد ذكره أبو هلال العسكري مع بيت آخر قبله هو:

على أنها الأيام قد صرن كلها ... عجائب حتى ليس فيها عجائب

ثم أتى بالبيت بلفظ «...إن صروفها...» ونسبهما إلى أبي تمام (ديوان المعاني٢ / ٢٠٢).

ولم أجدهما في ديوانه بشرح الخطيب التبريزي.

وقد أخذ الشاعر أبو إبراهيم إسماعيل بن أحمد الشاشي الشطر الثاني فقال في الأخلاء:

بلى كلهم مثل الزمان تلونا ... إذا سر منهم جانب ساء جانب

(انظر خاص الخاص١٩٦)، ومن شعر أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد (المتوفى٣٢٨) في هذا المعنى:

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة ... إذا اخضر منها جانب ساء جانب

فلا تفرحن منها لشيء تفيده ... سيذهب يوماً مثل ما أنت ذاهب

وما هذه الأيام إلاّ فجائع ... وما العيش واللذات إلاّ مصائب

(أنظر معجم الأدباء -رفاعي-٤ / ٢١٨) وأدب الدنيا والدين (٢٦٨) والعقد الفريد (٣ / ١٧٥) وشرح نهج البلاغة٢ / ٢٤٠

وقال عمرو بن معدي كرب:

فرعت به كالليث يلحظ قائمًا ... إذا ريع منه جانب بعد جانب

(انظر ديوان عمرو بن معدي كرب ص٣٣) والشعر والشعراء تحقيق السقا (١٣٦).

(٢) قوله: «وانشد المعري» كذا في الأصل غ ولم يذكر ذلك في ط ولعل فيها تصحيفاً؛ لأن المعري لم يدرك المأمون فلم ينشد أمام المأمون أولاً، ولأنني قد راجعت من كتب أبي العلاء المعري: رسالة الغفران بتحقيق بنت الشاطىء، رسائل أبي العلاء المعري تحقيق مرغليوث (أكسفورد ١٨٩٨)، رسالة الهناء تحقيق كامل كيلاني (بيروت بدون تاريخ)، رسالة في تعزية أبي علي بن أبي الرجال في ولده أبي الأزهر تحقيق إحسان عباس (ط١ مطبعة الاعتماد بمصر بلا تاريخ) رسالة الملائكة، ورسائل أبي العلاء مع داعي الدعاة ورسائل أخرى (المكتب التجاري =

كَـذَبَتْـك نـفـسُـكَ أيُّـهـا الـدّهْـرُ
لـكَ أنْ تَـجـورَ وعـنـدي الـصَّـبْـرُ
آلَيْـتُ لا أنـهـاكَ عـنْ خَـطَلٍ
حـتّـىٰ يـردَّكَ مَـنْ لَـهُ الأمْـرُ

* * *

= بيروت بلا تاريخ)، لزوم ما لا يلزم تحقيق إبراهيم الأعرابي (مكتبة ومطبعة دار صادر بيروت بلا تاريخ)، سقط الزند (دار صادر بيروت ١٩٥٧)، زجر النابح تحقيق أمجد الطرابلسي (المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٦٥)، فائت شعر أبي العلاء جمع عبد العزيز الميمني (المطبعة السلفية بالقاهرة ١٩٤٥)، أبو العلاء وما إليه عبد العزيز الميمني (المطبعة السلفية بالقاهرة ١٩٤٤)، تعريف القدماء بأبي العلاء بإشراف طه حسين (الدار القومية ١٩٤٤)، الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره محمد سليم الجندي (ج ١-٣ دمشق ١٩٦٢-١٩٦٤)، أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري ليوسف البديعي تحقيق إبراهيم الكيلاني (مطبعة الترقي دمشق ١٩٤٤ ح ١-٤).

كل ذلك راجعته فلم أجد لهذين البيتين ذكراً.

[الفصل الحادي عشر]

[كتمان السر][١]

[الكتمان والإفشاء]:

وليسَ يصحّ الصبرُ في الأمورِ بتركِ التسرّعِ إليها دونَ كتمانِ السرِّ فيها؛ فهو أقوى أسبابِ الظفرِ بالمطالبِ، وأبلغُ في كيدِ[٢] العدوِّ الموارِبِ.

قال[٣] النبيُّ عليهِ السلامُ:

«استعينُوا على الحاجاتِ بالكتمانِ، فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ»[٤].

---

(١) حول كتمان السر عقد المؤلف فصلاً هو الفصل الرابع من آداب المواضعة من كتاب أدب الدنيا والدين ص. ٢٧٩-٢٨٢، وعقد الجاحظ فصلاً في كتابه التاج في أخلاق الملوك ص. ٩٤-٩٩.

(٢) ط: عند.

(٣) ط: وقيل روي عن النبي...

(٤) حديث: «استعينوا على الحاجات بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود» أخرجه الطبراني في معاجمه الثلاثة عن معاذ بن جبل بلفظ «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود» وفي إسناده سعيد بن سلام، قال العجلي لا بأس به، وكذبه أحمد وغيره وبقية رجاله ثقاة، إلّا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ. وأخرجه في الأوسط عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لأهل النعم حساداً فاحذروهم» وفي سنده إسماعيل بن عمرو البجلي وهو ضعيف وقد وثقه ابن حبان (مجمع الزوائد ١٩٥/٨) و(المقاصد الحسنة ٥٦/١ رقم ١٠٣) وأخرجه العقيلي في الضعفاء وابن عدي في الكامل وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان كلهم عن معاذ بن جبل وأخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب عن عمر والخطيب البغدادي في التاريخ عن ابن عباس واخرجه الخلعي عن علي وهو حديث ضعيف(الجامع الصغير٤٠/١) وأخرجه ابن ابي الدنيا والعسكري والقضاعي عن معاذ بسند فيه سعيد بن سلام، وأخرجه العسكري أيضاً من غير طريقة بسند ضعيف وفيه انقطاع بلفظ «استعينوا على طلب حوائجكم بكتمانها فإن لكل نعمة حسدة»(كشف الخفاء١/١٣٥رقم٣٤٢) وقد أورد الماوردي الحديث بسند عن عطاء عن عمر بلفظ «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها» في أدب الوزير(٥٣) وفي الامثال والحكم(الورقة ٣٤ب) ونصيحة الملوك (الورقة ١٨٤)وأورده(بلفظه المثبت في المتن في كتابه أدب الدنيا والدين (٢٧٩) وانظره أيضا في سراج الملوك ١٠٣ والمستطرف ٢٠٧/١ وقد أورده الثعالبي ضمن أمثال الرسول صلى الله عليه وسلم بلفظ «استعينوا على الحوائج بالكتمان» التمثيل والمحاضرة(ص ٢٨و ٤١٩) وورد في ص. ٤٦٧ منه بلفظ «على حوائجكم..» وهو في لباب

وقالَ(١) أميرُ المؤمنينَ عليٌّ كرّمَ اللهُ وَجْهَهُ:
سِرُّكَ أسيرُكَ، فإذا تكلَّمْتَ بهِ صِرْتَ أسيرَهُ(٢).

قالَ أنوشروان:
مَنْ حصَّنَ سِرَّهُ فلهُ بتحصينِه خصلتان: الظَّفَرُ بحاجَتِهِ، والسلامةُ من السَّطَوَاتِ(٣).

وكتمانُ السرِّ: ما صِيْنَتْ بهِ الأقوالُ(٤) من الإذاعةِ، وسُترتْ به الأفعالُ من الإشاعةِ؛ فلم تُرَ آثارُه، ولم تنمّ أخبارُهُ، فإنْ لم تعمّ لم تنمّ، ولقلَّ ما أنجحَ من أفشى(٥) السرَّ فرامَ، أو خلا منه مرامٌ، فإنْ لَها عنْ قبضِ

= الآداب(٢٣٨) بلفظ «...فكل ذي...» وانظره في (ص.٣٣٣ منه) وفي عيون الأخبار(١/٣٨) والمحاسن والمساوىء(٢/٤٠٣)

(١) ط: وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

(٢) قول عليّ رضي الله عنه: «سرك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره» دونه الماوردي بلفظه إلّا أنه وضع (فإن) بدل(فإذا) وذلك في أدب الدنيا والدين(٢٧٩) وفي غرر الحكم ودرر الكلم نجد هذا القول بصيغ متعددة منها قوله: «الكلام في وثاقك ما [لم] تتكلم به فإذا تكلمت به صرت في وثاقه» (ص.٥٣) وقوله«سرك سرورك - كذا - إن كتمته، وإن أذعته كان ثبورك»(ص.١٩٢) وبهذا اللفظ ورد في كتاب ٢٠٠٠ كلمة للامام علي(ص.٦٧ رقم ١٥٤٥)، وقوله «سرك أسيرك، فإن أفشيته صرت أسيره» (غرر الحكم ١٩٣) وباللفظ الذي جاء في المتن نجده في لباب الآداب(ص.٢٣٩) منسوبا إليه وفي سراج الملوك(١٠٣).

وقد نظم أحدهم هذا المعنى فقال:

صن السر عن كل مستخبر وحاذر فما الحزم إلّا الحذر
أسيرك سرك إن صنته وأنت أسيرٌ لَهُ إن ظهر

فانظرهما غير معزوين لاحد في نهاية الأرب (٦/٨٣).

(٣) قول أنوشروان: «من حصن سره...» نجده بنفس اللفظ منسوباً إليه في سراج الملوك(١٠٣) والمستطرف(١/٢٠٧) وأدب الدنيا والدين(٢٧٩) ونهاية الأرب (٦/٨٢) وهو فيه بلفظ«... من تحصينه إياه خلتان: أما الظفر بما يريد وأما السلامة من العيب والضرر إن أخطأه الظفر»، وفي لباب الآداب(ص.٢٣٩) بزيادة هي: «وإظهار الرجل سر غيره أقبح من إظهار سر نفسه لأنه يبوء بإحدى وصمتين: إما بالخيانة إن كان مؤتمناً أو النميمة إن كان متبرعاً».

(٤) ط: أقواله عن الإذاعة وسترت به أفعاله عن الإشاعة.

(٥) ط: مع إفشاء السر مرام.

عنانِهِ، وسها عن حفظِ لسانِهِ، بَدَرَ سرُّه فاستضرّ وألِفَ إرسالَهُ فاستمرَّ، ولم يبقَ مصونٌ إلا انهتكَ، ولا مستورٌ إلاَّ افتضحَ، فبودِرَ قبلَ بدارِهِ، وعوجِلَ قبلَ حذارِهِ، وصارَ إفشاء سرهِ أنكى فيهِ من مكرِ عدوِّهِ؛ لأنّه إنْ اختصَّ بإفشاء سرِهِ آختصّ بما قدّمناه من ضرِّهِ، وإنْ كانَ مستودعا عنده لغيرِهِ صارَ مستودعُه بعد المودّةِ عدوّاً يطلبُ ثأرَهُ، ويستقبلُ نفارَه.

قالَ الشّاعرُ:[1] [من الطويل]

فلا تأمنَنَّ الدهرَ حرًّا ظلمتَهُ
فما ليلُ مظلومٍ كريمٍ بنائمِ[2]

ولهذا الحذرِ تواصى به الناسُ حزماً وعزماً، واتفقوا عليه قولا وعملًا. (١٩آ)

حكي أنّه تذاكرَ ناسٌ من أهلِ الفضلِ كتمانَ السرِّ في مجلسِ عبدِ اللهِ بن طاهرٍ[3]، فقالَ عبدُ اللهِ بنُ طاهرٍ:

ومستودعي[4]! سرًّا تضمنْتُ سِرَّهُ[5]
فأودعْتُهُ في مستقرِّ الحشا قَبْرا

---

(١) قوله«قال الشاعر» قلت هو عمرو بن براقة الهمداني أو ابن براق، وهو أحد عدائي العرب وشعرائهم الشجعان الفاتكين، ذكره تأبّطَ شراً في قصيدته الأولى من المفضليات بقوله:

ليلة صاحوا وأغروا بي سراعهم　　　بالعيكتين لدى معدي بن براق

وبراقة أمة، انظر بعضاً من أخباره وأشعاره في الأغاني ١١٣/٢١ والزهرة ٣٥٧/٢، والوحشيات ٣١، والسمط٧٤٩، والبيان والتبيين١٣٨/٢، وحماسة ابن الشجري٢١٠/١.

(٢) قول الشاعر: «فلا تأْمَنَن الدهر...» ذكر الماوردي هذا البيت في الأمثال والحكم الورقة ٥٣آ منسوباً إلى عمرو بن براقة الهمذاني ولم ينسبه في أدب الوزير ص.١٦ إلى قائل.

(٣) عبد الله بن طاهر مرت ترجمته(ص ٣٩) وقد وردت العبارة في ط على الصورة التالية: حكي أن بعض الناس تذاكر ذات يوم في مجلس عبد الله بن طاهر كتمان السر وحفظه من الإذاعة والنشر فقال عبد الله...

(٤) ط. فمستودعي.

(٥) غ: ستره والتصحيح من ط ومصادر التخريج.

فقالَ ابنُه عبيدُ الله[١]:

ومـا الـسـرُّ فـي قـلبي كـثـاوٍ بـقـبـرِهِ
لأنـي أرى الـمـقـبـورَ يـنـتـظرُ الـنَّـشْـرا
ولـكـنَّـنـي أُخْـفـيـهِ حـتَّـى كـأنـنـي
مـنَ الـدّهـرِ يـومـاً مـا أحـطتُ بـهِ خُـبْـرا[٢]

---

(١) عبيد الله بن عبد الله بن طاهر الخزاعي - أبو أحمد - صاحب شرطة بغداد زمن المأمون والأديب ذو التآليف الكثيرة منها الإشارة في أخبار الشعر ورسالته في السياسة الملوكية، وكتاب مراسلاته لعبد الله بن المعتز، وكتاب البراعة والفصاحة، وله ديوان شعر. ولد سنة ٢٢٣هـ وتوفي سنة ٣٠٠هـ ببغداد ودفن بمقابر قريش، وقد كان حسن الترسل لطيف الشعر حسن المقاصد جيد السبك انظر ترجمته في الأغاني ٤٢/٨ - ٤٦، الفهرست ١٧٦ وفيات الأعيان ٣٠٤/٢ - ٣٠٦ رقم الترجمة ٣٣١، علم التاريخ عند المسلمين (ترجمة الدكتور صالح العلي) ٢٩٣ وانظر بعض أقواله في التمثيل والمحاضرة ١٠٣، ١٤٨، ١٨٣، ٤٣٠، ثمار القلوب ٢٠٩، ٢٩٢، ٥٧٦، ٦١١، ٦٣٤، ٦٤٦، ٦٦٦، ٦٩٣، وسترد له أبيات أخرى في هذا الكتاب إن شاء الله.

(٢) الأبيات أوردها المؤلف في أدب الدنيا والدين(ص. ٢٨٢)باضطراب، إذ قدم الثالث على الثاني، وإنها كلها من قول ابنه أعني عبيد الله وفيها(... من مستقر... في قلبي كميت بحفرة لأني أرى المدفون... أخفيه عني...) وبالنظر لحصول هذا الاضطراب في طبعات أدب الدنيا والدين فقد قال المرحوم الشيخ مصطفى السقا في حاشية ص.٢٨٢ منه ما يلي: «في هامش [الطبعة] الأميرية عند هذا الموضع بقلم المرحوم العلامة الأستاذ الشيخ أحمد ابراهيم ما نصه: لا يخفي ما في هذه الأبيات من الاضطراب وعدم التماسك، والرواية الصحيحة ما ذكره الصفدي في شرح لامية العجم نقلاً عن صاحب هذا الكتاب، قال ما نصه: وحكى الماوردي أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر، فقال:

ومستودعي سراً تضمنت سره فأودعته من مستقر الحشا قبرا

فقال ابنه وهو صبي:

وما السر في قلبي كثاو بحفرة لأني أرى المدفون ينتظر الحشرا
ولكنني أخفيه عني كأنني من الدهر يوماً ما أحطت به خبرا

(حاشية أدب الدنيا والدين ٢٨٢) والظاهر أن الصفدي نقلها من كتاب تسهيل النظر هذا أو من نسخة قديمة من كتاب أدب الدنيا والدين لم تتلاعب بها أوهام النساخ.

ولقد أورد الأمير أسامة بن منقذ البيتين الثاني والثالث ونسبهما إلى عبد الله بن طاهر وفيه(... لأني رأيت الميت ينتظر النشرا) و (... بما كان منه لم أحط ساعة خبرا) (لباب الآداب ٢٤١) وأورد الغزالي هذه الأبيات ونسب الأول لابن المعتز ولم ينسب البيتين إلى أحد بل رواهما بزيادة بيت ثالث (انظر إحياء علوم الدين ١٧٩/٢).

[من يستودع السرّ.]:

واعلمْ أنّ من [الأسرارِ ما](١) لا يستغنى فيها عن مطالعةِ خليطٍ(٢) مساهمٍ، واستشارةِ ناصحٍ مسالمٍ، فليختَرْ لها أميناً، فإنّ الركونَ إلى حسنِ الظنِّ ذريعةٌ إلى إفشاء السرِّ، وأكثرُ ما يؤتى العاقلُ في أسرارِهِ من حسنِ ظَنِّهِ واغترارِه؛ فليسَ كلُّ من كانَ على الأموالِ أميناً يجبُ أنْ يكونَ على الأسرارِ مؤتَمَنا، والعفّةُ عن الأموالِ أيسرُ من العفةِ عن إذاعةِ الأسرارِ؛ لأنّ الإنسانَ قد يذيعُ سرَّ نفسِه بمبادرةِ لسانِه، وسقطِ كلامِه، ويشحُّ باليسيرِ(٣) من مالِهِ ضنًّا بهِ، وحفظاً لهُ، ولا يرى ما أضاعَ من سرِّهِ كبيرا(٤)، في جنبِ ما حفظهُ من يسيرِ مالِهِ، مع عِظَمِ(٥) الضررِ الداخلِ عليهِ؛ فمِنْ أجلِ ذلكَ كأنَ أمناء الأسرارِ أشدَّ تعذرا، وأقلَّ وجودا من أُمَناء الأموالِ.

ولذلك علتان:
أحداهما: أَنَّ الضررَ في إضاعةِ الأموالِ عاجلٌ، والضررَ في إذاعةِ الأسرارِ آجلٌ، ونفسُ الإنسان موكلةٌ بالأذى، وإنْ حلّ ما مضى.

والثانيةُ: أنَّ السرَّ سهلُ الخرُوجِ مع البروزِ لا يوجدُ لإذاعتهِ مسٌّ، فهو ينطلقُ إنْ لمْ يحفظْهُ حزمٌ، ولا يقهرهُ عزمٌ، والمالُ صعبُ المنطلقِ(٦)، وثيقُ المجمعِ، لا يبدو إلاَّ بسماحةِ نفسٍ، يتقابلُ فيها الشحُّ والسخاء، ويترجَّحُ فيها المنعُ والعطا،؛ وفرقٌ بين ما هو مبذولٌ إلاَّ بمانعٍ، وبينَ ما هو ممنوعٌ إلاَّ بباذلٍ.

---

(١) الزيادة من أدب الدنيا والدين ص. ٢٨٠ وفيه هذا الكلام بنصه.
(٢) في أدب الدنيا والدين ص. ٢٨٠: (مطالعة صديق).
(٣) غ: (ويشح على اليسير) والتصحيح من أدب الدنيا والدين ٢٨٠.
(٤) غ: (كثيرا) والتصحيح من أدب الدنيا والدين ٢٨٠.
(٥) غ: (عظيم) والتصحيح من أدب الدنيا والدين ٢٨٠.
(٦) غ: المطلق.

وإذا كانَ أمناء الأسرارِ بهذا العوزِ تَلَوَّمَ[١] قبلَ الاختبارِ (١٩ب) حتى يظفرَ بمن تصفو ضمائِرُهُ، وتسلمُ سرائِرُهُ؛ ليقلَّ حَذَرُهُ، وإنْ لم يسلمْ من الحذرِ؛ لأنّه مستسلمٌ، والاستسلامُ غررٌ[٢]، وقد قال النبيُّ عليهِ السلامُ:

«احذرْ ممنْ تثقُ بهِ كأنَّك تحذرُ ممنْ لا تثقُ بهِ»[٣].

[التحفظ في إيداع السر]:

فإذا ظفرَ بهذا الأمينِ المعوزِ، أودعهُ سرَّه إيداعَ متحرِّزٍ متحفظٍ، فإنْ وجدهُ متطلّعاً إليه ومُؤْثِراً[٤] للوقوفِ عليهِ، حذرَهُ وتوقّاهُ؛ فإن طالبَ الوديعةِ خائنٌ، ومستدعي الأمانةِ ظنينٌ.

قالَ الشاعرُ[٥]: [من الرمل]

لا تُذِعْ سرًّا إلى طالبِهِ
إنّما الطالبُ للسرِّ مُذيعٌ[٦]

---

(١) غ: ملوم، والتلوم: الانتظار والتمكث.

(٢) من صفات أمين السر قال الماوردي: «أن يكون ذا عقل صاد، ودين حاجز، ونصح مبذول، وود موفور، وكتوماً بالطبع، فإن هذه الأمور تمنع من الإذاعة، وتوجب حفظ الأمانة؛ فمن كملت فيه فهو عنقاء مغرب» أي لا وجود له (انظر أدب الدنيا والدين ص. ٢٨٠)

(٣) حديث «احذر ممن تثق به كأنك تحذر ممن لا تثق به» أورده الماوردي في الأمثال والحكم الورقة ٦٢ب بلفظ «احذر من تثق به فإنك...» ولم يذكر راويه.

(٤) ع. وموتورا.

(٥) قوله: «قال الشاعر» قلت هو صالح بن عبد القدوس - أبو الفضل - البصري، أحد الشعراء اتهمه المهدي بالزندقة فأمر بقتله مع إعجابه بغزارة أدبه وعلمه وبراعته وحسن بيانه وكثرة حكمته وذلك في سنة ١٦٧هـ وديوانه مطبوع مع الدراسة التي قدمها له عبد الله الخطيب بالبصرة ١٩٦٧ انظر أخباره في تاريخ بغداد ٣٠٣/٩، فوات الوفيات ٣٩١/١، معجم الأدباء ٦/١٢ نكت الهميان ١٧١، رسالة الغفران ٣١، طبقات الشعراء لابن المعتز ص. ٩٠ ميزان الاعتدال ٢٩٧/٢ رقم الترجمة ٣٨١٠.

(٦) البيت: «لا تذع سراً...» أورده الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص. ٢٨١) بلفظ «... منك فالطالب للسر مذيع» ونسبه إلى صالح بن عبد القدوس، وانظره في ديوان

ثم لا فسحةَ في إبداء الأسرارِ مع الاضطرارِ إلّا لمستشيرٍ؛ ليأمنَ عثارَها، ويتوقّى أخطارَها.

ويسرُّها إلى المستشارِ بالكنايةِ دونَ الصريحِ، ويشيرُ إليها بالتعريضِ دونَ الفصيحِ؛ إذا كانت أحوالُ التعريضِ ممكنةً، وشواهدُ الكنايةِ فيها محتملةً؛ ليأمنَ عواقبَ الإذاعةِ من ذوي الظنةِ، والاستطالةِ بالإدلالِ من ذوي[1] العفّةِ؛ فإنَّ للزمانِ تغيّراً، وللإخوانِ تنكّراً.

قال بعضُ الحكماء:
من أفشى سرَّه كَثُرَ عليهِ المتآمرونَ[2].

و[في منثورِ الحكمِ][3]:
من ضاقَ صدرُه اتّسعَ لسانُهُ[4].

= صالح بن عبد القدوس (ص. ١١٩) بلفظ «... منك إن الطالب السر مذيع» وبعده بيت آخر هو قوله:

وأمت سرك إنّ السر إن جاوز اثنين سينمى ويشيع

وهما بلفظ الديوان في لباب الآداب(٢٤٠) وحماسة البحتري(٢٢٧) منسوبين إليه فيهما وعنهما نقل جامع الديوان، وقد نثره الأبشيهي ونسبه إليه فجاء به بلفظ: «لا تودع سرك إلى طالبه؛ فالطالب للسر مذيع ولا تودع مالك عند من يستدعيه؛ فالطالب للوديعة خائن» (المستطرف ٢٠٨/١). وأورده الطرطوشي منسوباً إليه وهو فيه بلفظ «والطالب للسر مذيع» (سراج الملوك ١٠٥) والعرب تقول: «من ارتاد لسره موضعا فقد أذاعه» (عيون الأخبار ٣٨/١).

(١) غ: من ذي.

(٢) قول بعض الحكماء: «من أفشى سره كثر عليه المتآمرون» تجده في أدب الدنيا والدين ٢٨١ بلفظه منسوباً لبعض الحكماء أيضاً، وسراج الملوك ١٠٤، ومجمع الأمثال ٣٢٧/٢، وقد جعله من أمثال المولدين بلفظه «من أفشى سره كثر المستأمرون عليه».

(٣) الزيادة من ط.

(٤) قوله: «من ضاق صدره اتسع لسانه» أورده أبو حيان التوحيدي بلفظه ولم ينسبه لقائل (الإمتاع والمؤانسة ١٤٧/٢)، وأورده أبو أحمد الحسن بن سعيد العسكري بلفظ «من ضاق قلبه اتسع لسانه» ولم ينسبه لقائل (رسالته في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم ٢١٩) ومن أمثال العرب وحكمهم: «صدرك أوسع لسرك» (الحكمة الخالدة ١٩٨) و (التمثيل والمحاضرة ٣١٧) و (مجمع الأمثال ٣٩٦/١ رقم ٢٠٩٧) و (العقد الفريد ٨١/٣).

قال الشّاعرُ[1]: [من الطويل]

إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسِهِ
فَصَدْرُ الذي يُسْتَوْدَعُ السرَّ أَضيَقُ[2]

[وقالَ بعضَ الشعراء [3] - من المتقارب -

أَلَمْ تَرَ أنَّ وشاةَ الرجا........لِ لا يتركونَ أديماً صحيحا

---

(١) قوله «قال الشاعر» قلت هو العتبي: محمد بن عبيد الله من ولد عتبة بن أبي سفيان، كان هو وأبوه أديبين فصيحين، وكان العتبي شاعراً، أصيب ببنين له فكان يرثيهم، وكان الأغلب عليه الأخبار، وأكثر أخباره في بني أمية وأيامهم توفي سنة ٢٢٨هـ له من الكتب: كتاب الخيل، كتاب الأعاريب وأشعار النساء اللاتي أحببن ثم أبغضن، وكتاب الأخلاق. انظر ترجمته وشيئاً من أخباره في الفهرست ١٨٢، وفيات الأعيان ٥٢٢/١، المعارف(عكاشة) ٥٣٨، شذرات الذهب ٦٥/٢، المرزباني ٤٢٠، تاريخ بغداد ٣٢٤/٢، الأعلام ١٣٩/٧، وانظر مصادر التخريج.

(٢) البيت «إذا ضاق صدر المرء...» أتى به الماوردي بلفظه بعد بيت آخر هو:

إذا المرء أفشى سره بلسانه ولام عليه غيره فهو أحمق

دون أن ينسبهما لقائل، وذلك في كتابه أدب الدنيا والدين(٢٨٠)، وقد ورد البيت بلفظه مع خمسة أبيات أخرى منسوبة إلى العتبي في المحاسن والأضداد للجاحظ(ص.٣٣) والمحاسن والمساوىء للبيهقي (٤٠٦/٢) والكامل للمبرد (٢١١/٢).

وربما كان الشاعر قد اقتبسه من شاعر قبله بدليل قوله قبل هذا البيت:

وحسبك في ستر الأحاديث واعظاً من القول ما قال الأريب الموفق

وقد ورد البيت «إذا ضاق...» غير منسوب في لباب الأرب(٢٤٠) ونهاية الأرب(٨١/٦) والمستطرف (٢٠٨/١) وسراج الملوك(١٠٤) والعقد الفريد(٧٧/١) وشرح نهج البلاغة (٣٧/٤).

ولعل البيت مأخوذ من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما أفشيت سري الى أحد قط فأفشاه فلمته إذ كان صدري به أضيق» أو من قول سقراط: «إذا ضاق صدرك بسرك فصدر غيرك أضيق» (مختار الحكم ١١٠) و (لباب الآداب ٢٤١) وقال عمرو بن العاص: «ما استودعت رجلاً سراً فأفشاه فلمته، لأني كنت أضيق صدراً حين استودعته» وتمثل:

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها فسرك عند الناس أفشى وأضيع

(عيون الأخبار ٤٠/١) و (نهاية الأرب ٨١/٦، ٨٣) و (العقد الفريد ٧٦/١).

(٣) قوله: «قال بعض الشعراء» قلت هو النابغة الذبياني الشاعر المشهور وأحد أصحاب المعلقات، وصاحب الاعتذاريات انظر بعضاً من أخباره في الأغاني ١٥٤/٩ الشعر والشعراء ٣٨، شروح المعلقات، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان - الترجمة العربية - ٨٨/١، اللباب في تهذيب الأنساب ٥٢٨/١ وديوانه مطبوع في باريس وفي بيروت والقاهرة.

فــلا تُــفْشِ سِــرَّك إلاَّ إلَـيْـكَ فـإنَّ لكـلِّ نصيـحٍ نصيحـا][(١)]

قالَ بعضُ البلغاء[(٢)]:

إذا وَقَفَت الرعيّةَ على أسرارِ الملوكِ هانَ عليها أمْرُها.

ولا عُذْرَ لِمنْ ظَفِرَ بسرٍّ لم يؤمنْ عليهِ أن يذيعَه، كما لا عذرَ لمنْ ظَفِرَ بمالٍ لم يؤتمنْ عليهِ أنْ يستبيحَهُ.

وليكنْ في حفظِهما على حكم المؤتَمَن، يقضي على نفسِه(٢٠آ) في الأمانةِ بالوفاء وفي اللقطِ والضّوالِّ الشاردةِ بالأداء.

ومما يجبُ على الملكِ أنْ يحفظَه على نفسِه من أسرارِها أن يروضَها بفضلِ حزمِه، ويأخذَها بقوةِ عزمِه، حتى لا يظْهَرُ[(٣)] في وجهه إمارةُ سخطٍ ولا رضا، ولا يعرفُ منه آثار حزن ولا سرور، فيُظهرُ ما في نفسِه وهو كامنٌ، وينمُّ عليه وهو آمنٌ، فيظُنُّ أنّه قد كَتَمَ سرَّه وقد ذاعَ، وطوى ما في نفسِه وقد شاع.

وليكنْ متشاكلَ الأحوالِ، متماثلَ الأوصافِ؛ ليكونَ كتومَ النفسِ، كما كانَ كتومَ اللسانِ، ولا يبدو من نفسِه ما يكرهُ أن يظهرَ على لسانِه، ليُكملَ كتمانَ أسرارِه في الحالين.

وإنَّ أسوأَ العيوبِ حالاً، وأظهرَها وبالاً، أنْ يُعرَفَ ما في نفسِه من غيرِ اختبارِه؛ فيعلمَهُ الثقةُ، والظنينُ، ويشتركُ فيه الخائنُ والأمينُ، وهو لو أسرَّهُ إلى أحدٍ فأذاعَه لاستكبرَهُ منه، ولرأى في موجبِ السياسةِ

---

(١) قوله: «ألم تر أن وشاة الرجال...» إلخ البيتين زيادة من (ط) وفيها (... لا يدعون) والتصحيح من مصادر التخريج وهما للنابغة كما قلنا إلاّ أنهما ليسا في ديوانه، وقد وردا منسوبين إليه في كتاب الزهرة ٢/٢٦٥ وقد رجح محققاه الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور نوري حمودي القيسي أنهما ليسا له (انظر كتاب الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني – القسم الثاني ص. ٢٦٥ وفي حاشيتها تخريج للبيتين ومظان وجودهما فلتراجع هناك) وقد أوردهما الماوردي في أدب الدنيا والدين منسوبين إلى أنس بن أسيد، بتقديم الثاني على الأول بلفظ «ولا تفش...... فإني رأيت وشاة...»

(٢) ط: قال بعض الحكماء.

(٣) حتى لا يظهر بضم الراء على أن (حتى) عاطفة.

ومقتضى الحزمِ أن يؤاخِذَهُ به، ويعاقِبَهُ عليهِ. فكيفَ يرضى من نفسِه ما يستكرِهُ من غيرِهِ؟ ويتسامحُ [في] ما يعاقبُ عليه؟ كلّا. ولئنْ كانَ مرامُه صعباً، فهو سهلٌ على من ساعدَهُ الطبعُ، ثم على من تطبّعَ بهِ عندَ نفورِ الطبعِ، فيصيرُ طبعاً وتطبّعاً يسهلُ على ذي الحزمِ إذا صادفَ عزماً؛ فإنّ الكرهَ يسهلُ بالمرونِ عليهِ.

فإذا ضبطَ من نفسِه ما ينكرُ آثارَه، ويُنِمُّ أسرارَهُ كان أفضلَ حزماً، وأقوى عزماً، ممن كتمَ سرَّه بلسانِه، فإذا ساعدَهُ الأمرانِ لم ينمَّ لهُ سرٌّ، ولم يعرفْ له غَوْرٌ.

* * *

[الفصل الثاني عشر]

[المشورة]

[فوائد المشورة]:

وينبغي للملكِ أنْ لا يمضيَ الأمورَ المستبهمةَ بهاجسِ رأيهِ، ولا ينفذَ عزائمَهُ المحتملةَ ببداهةِ فكرِه؛ تحرّزاً من إفشاءِ سرِّه، وأنفةً من الاستعانةِ بغيرِه، حتى يشاورَ ذوي الأحلامِ والنهىٰ، ويستطلعَ برأيِ ذوي الأمانة والتقىٰ (٢٠ ب) ممَّنْ حنّكتْهُم التجاربُ، فارتاضوا بها، وعرفوا مواردَ الأمورِ [و] حقائقَ مصادرِها؛ فإنه ربما كانَ استبدادُه برأيِهِ أضرَّ عليهِ من إذاعةِ سرهِ، وليسَ كلُّ الأمورِ أسراراً[١] مكتومةً، ولا الأسرارُ المكتومةُ بمشاورةِ النصحاءِ فاشيةً معلومةً.

قال النبيُّ عليهِ السلامُ

«ما سعدَ أحدٌ برأيهِ ولا شقىٰ عن مشورةٍ»[٢]

وقال لمعاذِ بن جبلٍ[٣]:

«استشرْ، فإنَّ المستشيرَ معانٌ، والمستشارَ مؤتمنٌ، واحذر الهوىٰ، فإنّه قائدُ الأشقياءِ»[٤]

---

(١) غ: أسرار.

(٢) حديث «ما سعد أحد برأيه ولا شقى عن مشورة» أصبح معناه مثلاً من الأمثال وقد جاء في أمثال أبي عبيد «ما هلك أحد عن مشورة» (ص١٤) وأدب الدنيا والدين٢٧٥ ورواه البيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب مرسلاً (الجامع الصغير٢ / ٢١).

(٣) مَعاذ بن جبل الصحابي الجليل شهد المشاهد كلها مع الرسول صلى الله عليه وسلم وبعثه صلى الله عليه وسلم قاضياً إلى اليمن، توفي في طاعون عمواس بالأردن سنة ١٨هـ وله خمس وثلاثون سنة تقريباً، انظر الإصابة ٣ / ٤٠٦ رقم٨٠٣٩، الاستيعاب٣ / ٣٣٥، أسد الغابة٥ / ١٩٤ رقم٤٩٥٣، تذكرة الحفاظ١ / ١٩ رقم٨، أدب القاضي للماوردي١ / ١٣٢ هامش.

(٤) حديث «استشر فإن المستشير معان والمستشار مؤتمن» رواه أبو داود عن أبي هريرة (سنن٤ / ٣٣٣ رقم٥١٢٨) والدارمي عن أبي مسعود الأنصاري (سنن الدارمي ٢ / ٢١٩) والترمذي عن أم سلمة وابن مسعود وأبي هريرة وابن عمر (ح٤ ص٢٠٧-٢٠٨ رقم ٢٩٧٦، ٢٩٧٧)وقد رواه بقية الأربعة والطبراني في الأوسط وفي الكبير بحديث حسن=

وقد قيل:

الاستشارةُ عينُ الهدايةِ، وقد خاطرَ من استغنىٰ برأيهِ(١).

قال بعضُ الحكماء:

حقٌّ على العاقلِ أنْ يضيفَ إلى رأيهِ آراءَ العلماءِ، ويجمعَ إلى عقلهِ عقولَ الحكماءِ، فالرأيُ الفذُّ(٢) ربّما زلَّ، والعقلُ الفردُ ربَّما ضلَّ(٣).

ويعتمدُ على استشارةِ من صلاحُه [يكون] موصولاً بصلاحهِ(٤)، إذا كانَ عريّاً من الهوىٰ؛ [فالهوىٰ] مَخْدَعَةُ الألبابِ، ومَضَلَّةُ الصّوابِ.

= (الجامع الصغير٢ / ١٨٦) وأحمد (مسند أحمد٥ / ٢٧٤) وقد رواه الماوردي عن سهل بن يوسف عن أبيه عن عبيد بن صخر قال: قال رسول الله (ص) لمعاذ... في الأمثال والحكم الورقة ٥٥آ وفي أدب الدنيا والدين عن محمد بن المنكدر عن عائشة (ص٢٧٨). وقوله: «المستشير معان والمستشار مؤتمن» أحد الأمثال التي قالها النبي صلى الله عليه وسلم فانظره في التمثيل والمحاضرة٢٨، والإيجاز والإعجاز٧، ولباب الآداب٣٣٣.

(١) قوله: وقد قيل: الاستشارة عين الهداية...» انظره في أدب الدنيا والدين بلفظه مصدراً بقوله: «قال بعض الحكماء» وقد ورد من أقوال علي رضي الله عنه «قد خاطر من استغنى برأيه» (كتاب ٢٠٠٠ كلمة ص٧٧ رقم١٨١١) بينما جعله ابن الأثير من ضمن أمثال المولدين بلفظ «خاطر من استغنى برأيه» انظر مجمع الأمثال ١/٢٦٢) وفي أقوال الحكيم أرسطوطاليس: «إذا استبد الملك برأيه عميت عليه المراشد» (لباب الآداب ٦٧) وبلفظ «ومن استبد برأيه خفت وطأته على أعدائه» (ص٦٨) وقد مرَّ قولهم «من استعان بالرأي ملك...» وسيرد قولهم «من استغنى برأيه ضل...».

(٢) غ: الفرد والتصحيح من ط ومن كتب التخريج والفذ: الفرد.

(٣) قول بعض الحكماء: «حق على العاقل أن يضيف...» أورده الأمير أسامة بن منقذ ضمن أقوال الحكيم أرسطوطاليس بلفظ: «الكسل يمنع من الطلب، والفشل يدفع إلى العطب، ومن حق العاقل أن يضيف إلى آرائه العلماء، ويجمع إلى عقله الحكماء، ويديم الاسترشاد بترك الاستبداد فالرأي الفذ ربما زل والعقل الفذ ربما ضل» (لباب الآداب٦١)، وتجد القول في أدب الدنيا والدين بلفظ «من حق العاقل...» وربما ينسب إلى علي رضي الله عنه قوله: «شاور ذوي العقول تأمن من الزلل والقدم» (غرر الحكم١٩٩) وقوله: «قد يزل الرأي الفذ وقد يضل العقل الفذ» (غرر الحكم٢٣١)، وقد ورد القول في ط بلفظ: «من حق العاقل...».

(٤) ذكر الماوردي في أدب الدنيا والدين أن هناك خصالاً للمشير عددها فقال: «فإذا عزم على المشاورة ارتاد لها من أهلها من قد استكملت فيه خمس خصال: إحداهن: عقل كامل، مع تجربة سالفة، فإنه بكثرة التجارب تصح الروية...، والثانية: أن يكون ذا دين وتقى، فإن =

والعـداوةُ تصـدُّ عن النصـحِ والإنصـافِ، وتبعثُ على الـغشّ والإجحافِ، ولا يصحُّ مع أحدِ هذينِ رأيٌ لمشيرٍ، ولا يخلصُ فيهما.

قال النبيُّ عَلَيهِ السّلامُ:

«حُبُّكَ ٱلشَّيْءَ يُعمي ويُصِمُّ»[1]

أي يعمي عن الرشدِ، ويصمّ عن الموعظةِ[2].

وكذلك حالُ البغضِ الذي هو ضدُّه، لأنّها خروجٌ من العدلِ إلى تقصيرٍ أو سرفٍ.

= ذلك عماد كل صلاح وباب كل نجاح...، والثالثة: أن يكون ناصحاً ودوداً فإن النصح والمودة يصدقان الفكرة ويمحضان الرأي...، والرابعة: أن يكون سليم الفكر من همّ قاطع، وغمّ شاغل، فإن من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأي ولا يستقيم له خاطر... والخامسة؛ ألاّ يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه، ولا هوى يساعده، فإن الأغراض جاذبة والهوى صادّ، والرأي إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد...» (ص٢٧٤-٢٧٥).

(١) في غ وط: حبك للشيء والتصحيح من الأمثال والحكم وأدب الدنيا والدين ومصادر التخريج.

وحديث «حبك الشيء يعمي ويصم» رواه أبو داود عن أبي الدرداء (سنن ٤ / ٣٣٤ رقم٥١٣٠) ورواه أحمد مرفوعاً وموقوفاً (مسند الإمام أحمد ٥ / ٦،١٦٤ / ٤٥٠) قال ابن حجر تعليقاً على رواية أحمد له: «والموقوف أشبه، قاله المنذري، وفي سنده أبو بكر بن أبي مريم وهو شامي صدوق طرقه لصوص ففزع فتغير عقله فعدوه في من اختلط (انظر أجوبة عن أحاديث وقعت في مصابيح السنة ووصفت بالوضع -ملحقة بآخر مشكاة المصابيح٣ / ٣١١) وهو في مصابيح السنة (مشكاة المصابيح٢ / ٥٩٥ رقم٤٩٠٨) ورواه عنه البخاري في التاريخ، والخرائطي في اعتلال القلوب عن أبي برزة وابن عساكر عن عبد الله بن أنيس في حديث حسن (الجامع الصغير١ / ١٤٦) ورواه العسكري وغيره وفي إسناده كلام (المقاصد الحسنة١٨١ رقم٣٨١) و(كشف الخفاء١ / ٤١٠ رقم١٠٩٥) وقد رواه الماوردي في الأمثال والحكم (الورقة ١٥آ) وأدب الدنيا والدين (ص٢١) وأدب الوزير (ص٢٤) وأورده الغزالي في نصيحة الملوك (ص٦٧) وهو مثل من الأمثال السائرة (مجمع الأمثال١ / ١٩٦ رقم المثل١٠٣٧) و(أمثال أبي عبيد ص١٤) والفاضل (١٢٢) والأمثال لأبي محمد بن أحمد البساك (ص٥٧) والمثل المقارن (٩٦) وآداب النفس (١٧) وهو من أمثال العشق والعشاق في التمثيل والمحاضرة (٢٠٩).

(٢) قوله «أي يعمى عن الرشد ويصم عن الموعظة» هو اللفظ نفسه الذي فسّر به الحديث في أدب الدنيا والدين (ص٢١) وقال العسكري: «إن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن من الحب ما يعميك عن طريق الرشد ويصمّك عن استماع الحق، وإن كان إذا غلب الحب =

وإذا ظفرَ بالرأيِ ممنْ لا يراهُ للمشورةِ أهلاً أخفاهُ، حتى لا يتخطّى عليهِ غيرُ أهلِه، ولم يستنكفْ من العملِ بهِ؛ فإنّ القرائحَ ليستْ على قدرِ الأخطارِ والرُّتَب، وإنّما هي ذخائرُ مستودعةٌ فيمن مُنِحَها من نَبيهٍ وخاملٍ؛ كما قالَ النبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم:

«النّاسُ معادنُ كمعادنِ الذهبِ والفضةِ»(١)

فلا يتصوّرْ قبحَ الحاجةِ إلى رأيٍ من قلَّ، فليسَ يـرادُ للمباهـاةِ والافتخارِ، فتلتمسُ فيه أعيانُ ذوي الأخطارِ، وإنما يرادُ للصّوابِ والانتفاعِ كالضّالّةِ (٢١ آ) لا يمنعُهُ منْ أخذِها مهانةُ ملتقطِها، وكاللؤلؤةِ لا يمنعهُ من لبسِها ذلةُ غائصِها، وكفى بالإنسانِ سعادةً أن تسهلَ عليه المطالبُ، فيدركَ مرادَه بأهونِ سعيٍ، وأقلِّ عناءٍ.

وليسَ عليهِ إذا عمِلَ بالرأيِ أن يعـزِيَه(٢) إلى قـائلِهِ، وينسبَه إلى صاحبِهِ فيوتهنَ بمهانتِه، ويعابَ بذلتِه، وإنما يتنبّهُ به على صوابِ ما يأتي وسدادِ ما يريدُ.

= على قلبه ولم يكن له رادع من عقل أو دين أصمه حبه عن العذل وأعماه [عن] الرشد... وقال ثعلب: معناه أن العين تعمى عن النظر إلى مساويه، وتصم الأذن عن استماع العذل فيه... وقيل معناه: يعمى ويصم عن الآخرة» (كشف الخفاء١ / ٤١١)، و(المقاصد الحسنة١٨١) وقال ابن حجر: «ومعنى هذا الحديث أنه خبر يراد به النهي عن اتباع الهوى؛ فإنه من يفعل ذلك لا يبصر قبيح ما يفعله، ولا يسمع نصح من يرشده، وإنما يقع ذلك لمن لم يفتقد أحوال نفسه والله أعلم» (أجوبة عن أحاديث وقعت في مصابيح السنة ووصفت بالوضع ملحقة بكتاب مشكاة المصابيح٣ / ٣١١) وقال أبو الوفاء محمد بن أحمد البساك: «يعني يخفي عليك من مساوئه، ويصم أذنك عن سماع العذل فيه» (الأمثال ص٥٧).

(١) حديث «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة» رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة بلفظه غير أنه قدم الفضة على الذهب، وفيه زيادة هي «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» (صحيح مسلم بشرح النووي١٦ / ١٨٥) ورواه أبو دواد (جامع الأصول٧ / ٣٥٩ رقم٤٧٨٧) والإمام أحمد (المسند٢ / ٥٣٩) والعسكري (المقاصد الحسنة٤٤١ رقم١٢٣٨) وللديلمي عن ابن عباس (كشف الخفاء٢ / ٤٣٢ رقم٢٧٩٣) والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس (الجامع الصغير٢ / ١٨٨) وقد رواه الماوردي في الأمثال والحكم (الورقة١٠ب)، وهو مثل من الأمثال السائرة (التمثيل والمحاضرة٢٣) و(مجمع الأمثال٢ / ٤٤٩).

(٢) يعزيه: ينسبه من باب عدا ورمى.

وقد رويَ عن النبيّ عليهِ السلامُ أنّه قالَ:
«كلمةُ الحكمةِ ضالّةُ الحكيم حيثُ ما وجدَها فهو أحقُّ بها»(١)

قالَ بعضُ البلغاءِ:

من كمالِ عقلِك استظهارُك على عقلِك(٢).

و[قالَ بعضُ البلغاءِ:](٣)

إذا أشكلت(٤) عليكَ الأمورُ، وتغيرّ لك(٥) الجمهورُ، فارجعْ إلى رأيِ

---

(١) حديث «كلمة الحكمة ضالة حيث ما وجدها فهو أحق بها» رواه ابن ماجة عن أبي هريرة بلفظ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيث ما وجدها فهو أحق بها» (سنن٢ / ١٣٩٥ رقم الحديث٤١٦٩) وقوله: الكلمة الحكمة أي ذات الحكمة. ورواه الترمذي عن أبي هريرة أيضا بلفظ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث ما وجدها فهو أحق بها» قال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه وإبراهيم بن الفضل المخزومي ضعيف في الحديث» (سنن٤ / ١٥٥ رقم الحديث٢٨٢٨)، وقد رواه ابن عساكر عن علي في حديث حسن بلفظ «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها» (الجامع الصغير٢ / ٩٨)، وقد رواه البيهقي في المدخل والعسكري من حديث إبراهيم بن الفضل عن سعيد المقبرى عن أبي هريرة، ولفظ العسكري والقضاعي: «كلمة الحكمة ضالة كل حكيم، فإذا وجدها فهو أحق بها» وقد روي بألفاظ أخرى (انظر المقاصد الحسنة١٩١ رقم٤١٥) و(كشف الخفاء١ / ٤٣٥ رقم١١٥٩)، وقد ورد شطر الحديث في أمثال أبي عبيد (ص٥) ومجمع الأمثال (١ / ٢١٤ رقم١١٥٢) والإيجاز والإعجاز (ص٧) ولباب الآداب (ص٤٢٢) وفي رسالة أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم (ص٢٢٠) والتمثيل والمحاضرة (ص٢٥) وغرر الحكم (ص٤٣، ١٧٤، ٢٠٥) وكتاب ٢٠٠٠ كلمة (ص٥٥ رقم١٢٢٦) وكتاب مشكاة المصابيح (١ / ٧٥ رقم الحديث٢١٦) والأمثال والحكم (الورقة٨ب).

(٢) قول بعض البلغاء «من كمال عقلك استظهارك على عقلك» أورده عبد الواحد الآمدي بلفظه ونسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه (غرر الحكم٣٠٦) وأورد من أقواله قوله: «العاقل من اتهم عقله، ولم يثق بكل ما تسول له نفسه» (ص٤٤) وأورده أبو الحسن الرخجي دون نسبة إلى أحد بلفظ: «من كمال عقلك استظهارك على أملك» (أحاسن المحاسن ص١٦٥).

(٣) الزيادة من ط ومن أدب الدنيا والدين.

(٤) غ: اشتكلت وما أثبتناه عن ط وأدب الدنيا والدين.

(٥) غ: وتغير عليك وما أثبتناه عن ط وأدب الدنيا والدين.

العقلاءِ، وافزعْ إلى استشارةِ العلماءِ، ولا تأنفْ من الاسترشادِ، ولا تستنكفْ من الاستمدادِ؛ فَلأَنْ تسألَ وتسلمَ خيرٌ من أنْ تستبدَّ وتندمَ(١).

قال بعضُ العلماءِ:
من استغنىٰ برأيِهِ ضلَّ، ومن اكتفىٰ بعقلِهِ زلَّ(٢).

وإذا لم يأتِهِ الرأيُ عفواً، ولا وَصَلَ إليهِ من غيرِهِ تبرّعاً، أكثرَ من استشارةِ ذوي الألبابِ، ولا سيّما في الأمرِ الجليلِ، والخطْبِ المستبهمِ، فإنَّ لكلِّ عقلٍ ذخيرةً من الصّوابِ، وحَظًّا من التدبيرِ، ولقلّ ما فَضَلَ عن الجماعةِ رأيٌ لا يعرفُ صوابهُ، ويشكلِ عليهم أمرٌ لا يُفهَمُ جوابُهُ.

وليكنْ أهلُ المشورةِ متصافينَ في المَحبّةِ، براءً من عداوةٍ أو بغضةٍ؛ ليعرفَ كلّ واحدٍ منهمْ لصاحبِهِ بالصوابِ إذا ظفرَ بهِ، ولا يبعثهُ الحسدُ والعنادُ على ردّهِ؛ فإنْ تعاندوا شغلهُمْ العنادُ عن الاجتهادِ، فلنْ يَحْظَوْا برأيٍ، ولم يظفروا بصوابٍ، لالتباسِ الرأيِ بنفورِ العنادِ.

وينبغي أنْ يجمعهَم على المشورةِ في (٢١ ب) بديهةِ الرأيِ؛ ليجتهدَ

---

(١) قول بعض البلغاء «إذا أشكلت عليك الأمور...» أورده الأمير أسامة بن منقذ ضمن أقوال الحكيم أرسطوطاليس في كلام طويل وقد جاء هذا القول بلفظه وفيه «...إلى استشارة النصحاء...» (لباب الآداب٦٩) والقول بلفظه في أدب الدنيا والدين٢٧٦.

(٢) غ: بعقله ضل. والتصحيح من أدب الدنيا والدين والأمثال والحكم وكتب التخريج.
وقول بعض العلماء: «من استغنى برأيه ضل، ومن اكتفى بعقله زل» أورده المؤلف في أدب الدنيا والدين (ص٢٧٦) مصدراً بقوله: «وقال بعض الأدباء» وغير منسوب في الأمثال والحكم (الورقة٦آ) بلفظ: «من استغنى برأيه ذل ومن اكتفى بعقله زل»، وأورده ابن مسكويه ضمن حكم العرب وأمثالها بلفظ: «من استغنى بعقل نفسه اختل، ومن أعجب برأيه ضل» (الحكمة الخالدة١٩٨) ومن أقوال عليّ: «من ملكه هواه ضل، ومن ملكه الطمع ذل» (غرر الحكم٢٦٤) و«من أطاع ربه ملك ومن أطاع هواه هلك» (٢٦٥) و«من استغنى بعقله ضل، ومن استبد برأيه زل» (ص٢٦٩) وقد ورد هذا القول بلفظ «من أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل» (سراج الملوك ص٢٨)، وأورده الميداني ضمن أمثال المولدين بلفظ «من أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعلمه زل» (مجمع الأمثال٢ / ٣٢٧و٤٥٨)، ومن أمثال العجم: «خاطر من استغنى برأيه» (خاص الخاص ١٧) والإمتاع والمؤانسة٢ / ١٥٠).

كلُّ واحدٍ منهم رأيَهُ، ويستكملَ خاطرَهُ؛ ليتخصّصَ برتبةِ المجيبِ، ويجمعَ في حظوةِ المصيبِ.

فإنْ اجتمعوا في ابتداءِ الرأيِ كانوا فيه بينَ أمرين:

إما أنْ يقودَهم أولُ رأيٍ منهمْ إلى متابعتِهِ، فيصيروا مفوّضين لرأيِ واحدٍ قلّدوهُ، وهم أكفاءُ، وتابعوه وهم نظراءُ.

وإما أنْ يختلفوا؛ فيتنابذوا، ويتشاغلَ كلُّ واحدٍ منهم بنصرةِ رأيه، حقّا كانَ أو باطلاً؛ فيخرجَ بالمناظرةِ عن حكمِ المجتهدِ، والمنابذةِ عن حكمِ المتأيّد.

وكما أنّ الأصوبَ إفرادُهم في ابتداءِ الرأيِ، فكذلك الأصوبُ أنْ لا يطّلِعَ بعضُهم على استشارةِ بعضٍ؛ ليجتهدَ كلُّ واحدٍ منهم فكرَهُ، ويستنفِدَ[١] وسعَهُ، حتى إنْ حظيَ بدركِ الصوابِ، تخصصَ برتبةِ التعويلِ، وتميّزَ بنباهةِ القبولِ.

وليكنْ - مع ذلك - غيرَ وانٍ في الفكرِ، ولا مقصّرٍ في الارتئاءِ، تعويلاً على رأيِ من شاورَه؛ لئلا يصيرَ في الرأي مفوضاً، وفي الأمرِ مقلّداً.

[مباحثة ذوي الرأي]:

قال بعضُ الحكماءِ:

الاستسلامُ إلى رأيِ المشيرِ هو العدلُ الخفيّ[٢].

وإذا أظهروا كواملَ آرائِهم، عَرَضَها على عقلِه، وسَبَرها[٣] بفكرِه، وتصفّح مباديها وعواقبها، وسألهم عن أسبابِها ونتائجِها، وباحَثَهُمْ عن أصولِها وفروعِها سؤالَ منصفٍ لا متعنتٍ، وطالِبٍ للصوابِ، لا للردّ، ليستوضحَ الحقَّ من الباطلِ، ويعلمَ الصحيحَ من الفاسدِ، ولا يبدي لهم رأيَهُ إنْ خالفهم، ولا أنّهُ يأخذُ بهِ ويعملُ عليهِ إن وافقَهم؛ ليجريَ الأمرُ على

---

(١) غ: ويستفد.
(٢) ط: العزل الخفي.
(٣) غ: سيرها.

استبهامِه، حتى يعملَ بهِ، ليظهرَ بالفعلِ دون العزمِ، ليستفيدَ بذلك أربعَ خصالٍ[١]:

إحداهن: صوابُ رأيه وصحةُ رويّتِهِ.

والثانيةُ: معرفةُ عقلِ المشيرِ وصوابِ رأيِهِ.

والثالثةُ: وضوحُ ما استعجَمَ (٢٢ آ) من الرأيِ، وانفتاحُ ما استغلقَ من الصوابِ.

والرابعة: طيُّ عزمِهِ عن الإشاعةِ، والتحرّزِ فيهِ من خطرِ الإشاعةِ.

فإذا تقرّر لهُ الرأيُ الذي لا يخالطُه فيهِ ارتيابٌ، ولا تعارضُه فيه شبهةٌ أمضاهُ، ولم يؤاخذْهم بعواقبِ الإكداءِ ودركِ الزللِ، فإنما على الناصحِ الاجتهادُ، وليسَ عليه ضمانُ النجحِ، لأن أقضيةَ اللهِ خافيةٌ، وأقدارَه غالبةٌ لا يدفعُها رأيُ مجتهدٍ، ولا يصدُّ عنها رويّةُ مناصحٍ، فَلَمْ يتوجّه إليه لومٌ إن أكدىٰ، ولم يقدحْ فيه ذمٌّ إن أخطأَ.

قالَ بعضُ الحكماءِ:

الحوائجُ تُطلبُ بالعناءِ، وتُدْرَكُ بالقضاءِ[٢].

قال الشاعر[٣] [من الطويل]

---

(١) قوله: «أربع خصال» ذكر في أدب الدنيا والدين أنه «يستفيد بذلك-مع ارتياضه بالاجتهاد - ثلاث خصال:

إحداهن: معرفة عقله وصحة رويته.

والثانية: معرفة عقل صاحبه وصواب رأيه.

والثالثة: وضوح ما استعجم من الرأي، وافتتاح ما أغلق من الصواب» (أدب الدنيا والدين٢٧٧).

(٢) قول بعض الحكماء: «الحوائج تطلب بالعناء، وتدرك بالقضاء» أورده الماوردي بلفظه قائلاً: «قيل في منثور الحكم...» (أدب الوزيرص١٦) وقد ورد هذا القول غير منسوب أيضاً في رسالة (كلمات مختارة ص٤٠) بلفظ: «الحاجات تطلب بالرجاء وتدرك بالقضاء» وفي التمثيل والمحاضرة بلفظ «الحوائج تطلب بالرجاء وتدرك بالقضاء (ص٤٦٧).

(٣) قوله: «قال الشاعر» قلت هو ضرار بن الخطاب الفهري الفارس الذي لم يكن في قريش أشعر منه وبعده ابن الزبعري، وكان من الفرسان، وقد قاتل المسلمين أشد القتال في الوقائع أحد والخندق وأسلم يوم الفتح، وقتل شهيداً باليمامة سنة١٣هـ. انظر ترجمته في=

ألـم تـرَ أنّ الـدهـرَ يلعـبُ بـالـفـتـىٰ
ولا يـمـلكُ الإنـسـانُ دفـعَ الـمـقـادرِ[1]

ومتى عُرفَ منهُ تعقّبُ المشيرِ بلومٍ أو ذمٍّ أُسلمَ إلى رأيِه، وهو ملومٌ، ووكلَ إلى تدبيرِهِ وهو مذمومٌ فبقي بالمتاركةِ فرداً لا يعاضَدُ، ومهملاً لا يساعَدُ، وبه من الحاجةِ إلى مشورةِ ذوي الرأيِ ما لا يجدُ منه بدًّا.

قال الشاعر[2]: [من البسيط]

مـن كـانَ ذا عَـضُـدٍ يـدركْ ظـلامـتَـه
إنّ الـذليـلَ الـذي ليسـتْ لـه عَـضُـدُ[3]

= الاستيعاب (على هامش الإصابة ٢/٢٠١-٢٠٢، الاصابة٢ / ٢٠١-٢٠٢ أيضاً، أسد الغابة٣ / ٥٣-٥٤ طبقات الشعراء لابن سلام٦٨، المعارف (عكاشة) ٦٨، وله أبيات في الحماسة الشجرية١ / ٥٦، وابن أبي الحديد ٣/٣٠٩، الأغاني ١٠/٥، حماسة البحتري ٢٧.

(١) قول الشاعر: «ألم تر أن الدهر...» أورده الماوردي في الأمثال والحكم (الورقة٢٦آ) منسوباً إليه.

(٢) قوله: «قال الشاعر» قلت هو الأجرد الثقفي من شعراء العصر الأموي وقد وفد على عبد الملك بن مروان، واسمه مسلم بن عبد الله بن سفيان انظر نبذة من أخباره في الشعر والشعراء (تحقيق السقا) ص٢٨٣، ألقاب الشعراء٣١١ معجم ألقاب الشعراء١٢، وقد ينسب البيت إلى المتلمس (جرير بن عبدالمسيح) الذي كان ينادم عمرو بن هند وقصته في صحيفته مشهورة انظر الشعر والشعراء٥٢، الأغاني٢١ / ١٢٠، طبقات ابن سلام٥٨، معجم ألقاب الشعراء٢١٢.

(٣) قول الشاعر: «من كان ذا عضد...» أورده المؤلف في الأمثال والحكم (الورقة١٩آ) ونسبه إلى الأجرد الثقفي. والبيت قد أورده الجاحظ مع بيت آخر هو قوله:

تنبو يداه إذا ما قلّ ناصره ويأنف الضيم إن أثرى له عدد

منسوبين إلى الأجرد أيضاً (البيان والتبيين١ / ٦٧و٣ / ٣٢٥) وهما في عيون الأخبار (جـ٣ ص٢) والشعر والشعراء (٢٨٣) وفيه قصة، والعقد الفريد - العريان- (٢ / ٢٦٥) منسوبين إليه في الجميع.

وقد ورد البيت منسوباً إلى المتلمس في ديوانه - بعناية ك. موفرز - (ص٢٠٩) وفي التذكرة السعدية (١ / ٣٦٥) مع بيتين هما:

ولا يقيم على ضيم يسام به إلاّ الأذلاّن عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشجّ فلا يرثي له أحد

انظر بشأن البيتين الأخيرين كليات أبي البقاء -بولاق١٢٨١- (ص١٠٧) وشرح نهج البلاغة (١ / ٣٠١).

فَضَعُفَتْ مِنّتُهُ بالمتاركةِ، وقلّتْ مساعدتُه بالإهمالِ، فتموّجتْ[١] به الخطوبُ، وتنكّرتْ عليهِ القلوبُ.

قال بعضُ الحكماءِ:

لو كانت الملوكُ تعرفُ مقدارَ حاجتِهم[٢] إلىٰ ذوي الرأيِ من الناسِ مثلِ الذي يعرفُ أهلُ الرأيِ من حاجتِهم[٣] إلىٰ الملوكِ، لم أَرَ عجباً أنْ ترىٰ[٤] مواكبَ الملوكِ علىٰ أبوابِ العلماءِ، كما ترىٰ[٥] مواكبَ العلماءِ علىٰ أبوابِ الملوكِ[٦]. (٢٢ ب)

* * *

= وقد ورد البيت غير منسوب في خاص الخاص (ص٢١) وفيه (يدفع ظلامته) وانظر حول البيت الحيوان (٣ / ٤٥)، العمدة(١ / ٢٥٧)، نهاية الأرب (٢ / ١١٤)، التمثيل والمحاضرة(٣١٥)، وقد أصبح شطره الثاني مثلاً من الأمثال (مجمع الأمثال ١ / ٢١ رقم ٥٤) ويضرب لمن يخذله ناصره.

(١) غ: فتموحت، بالحاء المهملة وهذه العبارة ليست في ط.

(٢) غ: حاجتها، والتصحيح من آداب النفس وفي ط: حاجاتها.

(٣) غ: حاجته، والتصحيح من ط ومن آداب النفس.

(٤) ط: لم أر عجباً ترا -كذا- وفي غ: يرى.

(٥) غ: يرى.

(٦) قول بعض الحكماء: «لو كانت الملوك تعرف مقدار حاجتهم.. إلخ» أورد السيد محمد العيناتي العاملي هذا القول ونسبه إلى كسرى في وصيته إلى الهرمزان بلفظ: «وفي وصية كسرى إلى الهرمزان: أما بعد فإنه لو كان الملوك يعرفون من حاجتهم إلى ذوي الرأي مثل الذي يعرف أهل الرأي من حاجتهم إلى الملوك لم يكن عجباً أن ترى مواكب الملوك على أبواب العلماء كما ترى مواكب العلماء على أبواب الملوك» (آداب النفس ص٢٥) وقد نقل الماوردي تعليلاً منسوباً إلى بزرجمهر بلفظ: «وقيل لبزرجمهر: العلم أفضل أم المال؟ فقال: بل العلم. قيل فما بالنا نرى العلماء على أبواب الأغنياء، ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء؟ فقال: ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال، وجهل الأغنياء بفضل العلم» (أدب الدنيا والدين ص٢٦).

[الفصل الثالث عشر]
[الأخلاق المتقابلة في الملوك]

ولْيَعْلَم الملكُ أنَّ أربعةَ أخلاقٍ متقابلةٍ ليسَ يعرىٰ منها أو من أبدالِها ملكٌ؛ فإن استعملتْ في مواضعِها ووقفَ منها على حدودِها حُمِدَتْ، وإن استُعملتْ في غير مواضعِها، أو خرجتْ عن حدودِها إلى زيادةٍ أو تقصيرٍ ذُمَّتْ:

[١ - الرقة والرحمة]:

فأحدُها الرقةُ والرحمةُ، تُحمدُ عند اعتدالِها، وفي موضعِها، وتُذَمُّ عند غَلَبَتِها وميلِها؛ لأنّها إذا غلبتْ أفضتْ إلى تركِ الحدودِ، وإضاعةِ الحقوقِ، وذلكَ داعٍ إلى هياجِ طباعِ المفسدينَ، وتحريكِ مطامعِ المتقلبينَ، فينحلّ من عرى السياسةِ ما كان بالرهبةِ ملتئما، وتَخَوُّفِ العقوبةِ منتظما.

ومن نُسِبَ إلى رحمةٍ تبطلُ حدًّا، أو تضيعُ حقًّا، أو تُحْدِثُ فساداً، كانَ الفسادُ عليهِ أعودَ، وهو لنظرِهِ وسياستِهِ أفسد، وصارَ - كما قاله المتقدمون - كالطبيب الذي يرحمُ العليلَ من مرارةِ الدواءِ، وألمِ الحديدِ، فتوديه رحمتُه إلى هلَكتِهِ، وتسوقُهُ الشفقةُ إلى منيّتِهِ، فتصيرُ رحمتُه له أبلىٰ من قسوتِهِ، ورفقُهُ بهِ أضرُّ من غلظتِه.

والرحمةُ خلقٌ مركّبٌ من الودِّ والجزعِ.

[٢ - القسوة والغلظة]:

ثم الخلقُ الثاني المقابلُ لهذا الخلقِ وهو القسوةُ والغلظةُ فإنّها إذا غلبَتْ أفضتْ إلى مجاوزةِ الحدودِ في الحياةِ، وعقوبةِ الأخيارِ المبراةِ، والمواخذةِ بالتهمِ والظنونِ، والتسويةِ بين الشكِ واليقينِ، فلا يأمنُ سليمٌ،

ولا يتمّيزُ سقيمٌ، وفي ذلكِ من فسادِ السياسةِ بإيحاش المؤانسينَ، وخبثِ سرائرِ المناصحينَ ما يجعلُ كلَّ وليٍّ خصماً، وكلَّ معينٍ ألتا[١].

وربّما ظنّ بعضُ الولاةِ أنّ القساوةَ صرامةٌ، فعدلَ عن الاقتصادِ والسدادِ إلى ضدِّهما، وتجاوزَ حكمَ الدينِ والسياسةِ إلى غيرهما، ولا خيرَ (٢٣ آ) في العدولِ عن واحدٍ منهما، وقد قالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم:

«أشدُّ النّاسِ عذاباً يومَ القيامةِ أشَدُّهم عذاباً للناسِ في الدّنيا»[٢]

وإنما الصرامةُ قلةُ الغفلةِ عن الجرائرِ، ومعرفةُ الأمورِ على الحقائقِ، حتى لا يتدلّسَ عليه السقيمُ بالسليمِ، والخائنُ بالأمينِ، ولا يتصوّر الخالعَ بصورةِ الطائعِ.

والقساوةُ تهونُ في الحدودِ، وتعدٌّ في الحقوقِ، يبعثهُ عليه اتباعُ شهوتِه، وتحكيمُ سطوتِه.

وإذا اعتدلَ فيه هذانِ الخلقانِ فَرَقَّ لأهلِ الحقِّ، وعنّفَ لأهلِ الباطلِ، اعتدلتْ سيرتُه، وصحّتْ سياستُه.

والقسوةُ خلقٌ مركبٌ من البغضِ والجرأةِ.

[٣ - السماحةُ والعطاءُ:]

ثم الخلقُ الثالثُ وهو السماحةُ والعطاءُ فإن وقفَ على حدِّه[٣]،

---

(١) ألتاً كذا في الأصل غ وليست في ط. والألت البهتان وربما كانت مصفحة عن (ألِمًا) وصف من الألم.

(٢) حديث: «أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة أشدهم عذاباً للناس في الدنيا» أورده المؤلف في كتابه الأمثال والحكم (الورقة٤٩آ) بلفظه وقد سقطت منه عبارة (في الدنيا) ولم يذكر راويه. وقد رواه الإمام أحمد وابن حبان عن خالد بن الوليد والحاكم عن عياض بن غنم وهشام بن حكيم في حديث صحيح (الجامع الصغير١ / ٤٢) وانظر أيضاً (التيسير بشرح الجامع الصغير١ / ١٥٤) وقد أخرجه عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده عن خالد بن الوليد بلفظه: «أشد الناس عذاباً عند الله يوم...إلخ» (المسند١ / ٢٥٥-٢٥٦الحديث رقم٥٦٢) وهو في مسند أحمد بالإسناد نفسه (مسند أحمد ٤/ ٩٠).

(٣) قوله: «وقف على حده...» أي تعريفه، وهو هنا سيذكر حدّ السخاء الذي دوّنه في أدب =

وهو بذلُ ما يحتاجُ إليهِ عندَ الحاجة، وإيصالُه إلى مستحقّهِ بحسبِ الطاقةِ، كانَ محمودَ البذلِ، مشكورَ العطاءِ.

وإنْ تجاوزَ هذا الحدَّ فأعطىٰ في غيرِ حقٍّ، وبذلَ من غير تقديرٍ، صارَ منسوباً إلى التبذيرِ والإضاعةِ، وصارَ بإزاءِ تبذيرِهِ حقوقٌ مضاعةٌ.

قيلَ: كلُّ شَرَفٍ فبإزائهِ حقٌّ مضيَّعٌ(١).

وإذا انتشرَ أنَّ أموالَهُ تُنالُ بغيرِ استحقاقٍ، وتدركُ بغيرِ سعيٍ، ثارتْ به مطامعُ المحتذين(٢)، وتكاثرتْ عليهِ وفودُ السائلينَ. الذينَ ألفوا كَلَفَ الاحترافِ، واستبدلوا به دنيَّ الاقترافِ، فإنْ رامَ رضى جميعهم لم يُطِقْ؛ لاتّساعِ آمالهم، وقوةِ أطماعِهم، ولو أطاقَ لأفسدَ سعيَ اتباعِهِ، وتخبثتْ نيّاتُ أشياعِه؛ إذ سوّىٰ في العطاءِ بينهَم، وبينَ منْ لمْ يَسْعَ (٢٣ ب) سَعْيَهم، ولا سَدَّ في الموازرةِ والمظاهرةِ مَسَدَّهم.

قال بعضُ الحكماءِ:

لا خيرَ في السَّرَفِ ولا سَرَفَ في الخيرِ(٣).

= الدنيا والدين (ص١٦٩). وقد عقد الجاحظ فصلاً للسخاء والحياء في كتاب التاج في أخلاق الملوك (ص١٣٩).

(١) قوله: «قيل كل سرف فبإزائه حق مضيّع» أورده الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص١٧١) ونسبه إلى معاوية، وهو في التمثيل والمحاضرة (ص٣١) منسوب إلى معاوية أيضاً وأورده فيه بلفظ: «ما رأيت تبذيراً إلّا وإلى جانبه حق مضيع» وأورده ابن مسكويه في حكم العرب وأمثالها السائرة مرتين في كتابه الحكمة الخالدة ولم ينسبه لقائل في الموضعين أحدهما بلفظ «مع كل سرف حق مضيع» (ص١٧٧) والثاني بلفظ «مع كل شرف حق مضيع» بالشين وهو تصحيف (ص١٩٨).

(٢) المحتذون جمع محتذ وهو طالب العطاء: يقال: أحذيته أحذية إحذاء أعطيته ومنه حديث: «مثل الجليس الصالح مثل الداري إن لم يحذك من عطره علقك من ريحه» أي إن لم يعطك (النهاية في غريب الأثر١ / ٣٥٨) مادة (حذا).

(٣) قوله: «قال بعض الحكماء: لا خير في السرف ولا سرف في الخير» أورده الماوردي في أدب الدنيا والدين مرتين ونسبه في الأولى إلى المأمون وهو فيها بلفظه (ص١٧١) ونسبه في الثانية إلى الحسن بن سهل إذ ورد أنه قال: «إذا لم أعط الا مستحقاً فكأني أعطيت غريماً، وقال: «الشرف في السرف، فقيل له: لا خير في السرف. فقال: ولا سرف في الخير»(ص١٧٥) وأورده صاحب رسالة كلمات مختارة بلفظ: «قال ثعلب: قلت للحسن بن سهل وقد كثر =

وإنْ خصَّ بالعطاءِ قوماً وحَرَمَ قوماً لم يكنْ بينَ من أعطاهُ وهو غيرُ مستحقٍ، وبينَ من حَرَمَهُ فرقٌ، ولحقهُ من ذمّ من حرمهُ أضعافُ ما لحقهُ من حمدِ من وَصَلَهُ، وليسَ يمنعُ هذا من التبرع بالصلة، ومنْ مراعاةِ من أَمَتَّ بجرمةٍ إذا ظهرتْ أسبابُها، وتَلَوّحَ صوابُهَا، لأنَّ الملوكَ مطالبُ ذوي الحاجاتِ، وذخائرُ ذوي الحُرُماتِ. وهذا في حقوق الساَسةِ من الواجباتِ:

والسخاءُ خلقٌ مركّبٌ من الحياءِ والإيثارِ.

[٤ - البخلُ والإمساكُ]:

ثم الخلقُ الرابعُ المقابلُ لهذا الخلقِ وهو البخلُ والإمساكُ المؤدي إلى تفريقِ النصحاءِ، وتنكرِ الألباءِ، واستطالةِ الأعداءِ، فإنّ الأموالَ تصيرُ إلى الملوكِ لتوضعَ في حقِهّا، وتفرّقَ على مستحقِهّا، لا ليعدلَ بها عن العطاءِ إلى المنعِ، وعن التفرقةِ إلى الجمعِ.

وقد قيلَ:

مَنْ جَمَعَ المالَ لنفعِ غيرِهِ أطاعوهُ، ومن جَمَعَهُ لنفعِ نفسِهِ أضاعوه[١].

= عطاؤه: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير، فردّ اللفظ واستوفى المعنى(ص٣٤) وسراج الملوك (ص٩١)، وأورده الثعالبي بلفظ «وكان الحسن بن سهل يقول: الشرف في السرف، فإذا قيل له: لا خير في السرف، قال: ولا سرف في الخير، فيرد اللفظ ويستوفي المعنى»(كتاب من غاب عنه المطرب(ص٢٩٠)»وكتاب(التمثيل والمحاضرة ص١٣٥)وكتاب (الإيجاز والإعجاز ص٢٥) وكتاب (خاص الخاص ص٨) وفي أقوال علي رضي الله عنه «ليس في سرف شرف» وهو مناقض لما سبق (انظر غرر الحكم٢٥٨) وكأن يقال: «الشرف في السرف» (عيون الأنباء١ / ٣٤٢) وقد نظم هذا المعنى محمد بن حازم فقال:

لا الفقر عار ولا الغنى شرف ... ولا سخاء في طاعة سرف

مالك إلاّ شيء تقدمه ... وكل شيء أخره تلف

انظر سراج الملوك٩١).

(١) قوله: «من جمع المال لنفع غيره أطاعوه...» أورده عبد الواحد الآمدي ضمن الأقوال المنسوبة لعلي رضي الله عنه بلفظ «من جمع المال لينتفع به الناس أطاعوه، ومن جمع لنفسه أضاعوه» (غرر الحكم٢٨٢) وهو غير منسوب في أحاسن المحاسن بلفظه وفيه «...لنفع الناس أطاعوه...» (ص١٦٢).

وإذا شحَّ ومنعَ اعتقدَ كلُّ ممنوعٍ أنَّه غريمٌ مماطلٌ، مستحقٌّ مدفوعٌ، لا يعذرُ إن مُنِعَ، ولا يَشكُرُ إن أعْطِيَ، يرىٰ أنَّ أيامَ السلامةِ مغرمٌ، وأنَّ أيامَ الاختلاطِ مغنمٌ، فهو على رصدٍ من تقلّبِ الزمانِ، وتَوَقُّعِ الغِيَرِ والحدثانِ، ثم تدعوه الضرورةُ إنْ تطاولتْ بهِ المدةُ إلى الخيانةِ في أمانتِه، والغشِّ في نصيحتِه، وقبولِ الرِّشا في مضرّتِه، فيعكِسُ[1] عليهِ قواعدَ دولتِه، ويُفْسِدُ له[2] نظامَ مملكتِه.

قال بعض الحكماء:

إذا بَخِلَ (٢٤ آ) الملكُ كَثُرَتْ أراجيفُ النّاسِ عليهِ، وفسدَتْ مودّتْهم له[3].

وإذا اعتدلَ فيه هذانِ الخلقانِ في العطاءِ والمنعِ، فلم ينقبضْ في حقٍّ، ولم ينبسطْ في باطلٍ وسرفٍ، صَلُحَ واستصلحَ.

وقال هشامُ بنُ عبدِ الملكِ[4]:

إنّا لا نعطي تبذيراً ولا نمنعُ تقتيراً، إنّما نحنُ خُزّانُ اللهِ عزّ وجلّ، فإذا أَحَبَّ[5] أعطينا، وإذا كرهَ أبَيْنا، ولو كانَ كلُّ قائلٍ يصدقُ، وكلُّ سائلٍ يستحقُّ ما جبهنا قائلاً، ولا رَدَدْنا سائلاً[6].

والبخلُ خلقٌ مركبٌ من القحّةِ والأسفِ.

---

(١) غ: فينعكس.

(٢) غ: ويفسدها نظام.

(٣) قولهم: «إذا بخل الملك كثرت أراجيف الناس عليه...» أورده أبو حيان التوحيدي منسوباً إلى أفلاطون بلفظ «إذا بخل الملك بالمال كثر الإرجاف به...» (الإمتاع والمؤانسة٢ / ٤٦). وقال ابن المقفع فيما قال: «...وليس له أن يبخل؛ لأنه أقل الناس عذراً في تخوف الفقر...» (الأدب الكبير١١٤).

(٤) هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي المتوفى ١٢٥هـ انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢٤٧-٢٥٠.

(٥) غ: فإذا شاء أعطينا، والتصحيح من الأمثال والحكم.

(٦) قول هشام: «إنّا لا نعطي تبذيراً...» تجده في كتاب الأمثال والحكم للماوردي (الورقة ٦٣ب) بلفظه نفسه منسوباً إليه.

فهذهِ أخلاقٌ إذا أخذَ الملكُ نفسَه بتعديلها فيه اتّسقتْ له السياسةُ العادلةُ، وانتظمتْ له السيرةُ الفاضلةُ.

فإن خرجَ الملكُ عن القصدِ والاعتدالِ المحمودِ في العطاءِ والمنعِ إلى أحد[1] الطرفينِ المذمومينِ من زيادةٍ في العطاءِ بسخائِهِ، أو زيادةٍ في المنعِ ببخلِهِ، فقد تنقسمُ أحوالُ الملوكِ فيها أربعةَ أقسامٍ:

أحدُهما: ملكٌ سخيٌّ على نفسهِ سخيّ على رعيتهِ.

والثاني: ملكٌ بخيلٌ على نفسهِ بخيلٌ على رعيتهِ.

والثالثُ: ملكٌ سخيٌّ على نفسهِ بخيلٌ على رعيتهِ.

والرابعُ: ملكٌ بخيلٌ على نفسهِ سخيٌّ على رعيتهِ.

وقد اختلفتْ طوائفُ الأممِ: أيُّ الأربعةِ أقربُ إلى الصوابِ، وأبعدُ من العيبِ، وإنْ لم يخلُ بالخروجِ عن الاعتدالِ من خطإٍ وعيبٍ على أربعةِ آراء:

فرأيُ الرومِ: أنّ أقربَهم إلى الصوابِ وأبعدَهم من العيبِ هو البخيلُ على نفسِه وعلى رعيتِه؛ لأنّه مستبْقٍ وغير مستهلكٍ.

ورأيُ الهندِ: أنّ أقربَهم إلى الصّوابِ وأبعدَهم من العيبِ هو السخيّ على نفسه السخيُّ على رعيتِهِ، لِأنه منتفعٌ ونافعٌ.

ورأي الفرسِ: أن أقربهم إلى الصوابِ وأبعدهم من العيبِ هو السخيُّ على نفسِه البخيلُ (٢٤ ب) على رعيتِهِ؛ لأنهم يَرَوْنَ تنعيمَ النفوسِ من الواجباتِ، فكانَ حقُّ نَفْسِه أحقَّ بِهِ من حقِّ غيره[2].

ورأيُ العربِ: أنَّ أقربَهم إلى الصوابِ، وأبعدَهم من العيبِ هو البخيلُ على نفسِهِ السخيُّ على رعيتِه؛ لأنَّه إيثارُ غيرِهِ على نفسِه.

---

(١) غ أخذ- بالذال المعجمة.

(٢) مثل هذا الرأي نجد رأياً لسقراط إذ يقول: «من بخل على نفسه فهو على غيره أبخل، ومن جاد على نفسه فذلك المرجو جوده» (مختار الحكم ومحاسن الكلم٩٣) ولعلي رضي الله عنه: «من بخل على نفسه كان على غيره أبخل» (غرر الحكم٢٨٣) وهذا القول الأخير غير منسوب في (أحاسن المحاسن١٥٨).

وقد جاءَ القرآنُ بما يظهرُ هذا [في] قولِ اللهِ عزَّ وجلّ:

«وَيُؤْثِرُوْنَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَنْ يُوْقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ»[١].

وقد ظهرَ ذلكَ في أشعارِ العربِ حتىٰ قالَ بعضُهم[٢]: [من الطويل]

وإنَّـكَ إنْ أَعْـطَيْـتَ بَـطْنَـكَ هَـمَّـهُ
وَفَـرْجَـكَ نـالا مُـنْـتَـهَـىٰ الذَّمِّ أجْـمَـعَـا[٣]

* * *

(١) سورة الحشر آية رقم ٩.

(٢) قوله: «قال بعضهم...» قلت هو حاتم الطائي الشاعر المشهور وكان أحد أجواد العرب وبه يضرب المثل في الكرم وله صلة بعبيد بن الأبرص والنابغة، وابنه عدي الصحابي الجليل، أنظر أخباره في: الشعر والشعراء٧٠-٧٥، الأغاني بولاق١٦ / ٩٦-١١٠، (ساسي): ١٦/ ٩٣-١٠٦، أمالي القالي٣/ ١٥٤-١٥٨، تاريخ دمشق لابن عساكر ٣/ ٤٢١-٤٢٩ خزانة الأدب١ / ٤٩٤، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية)١ / ١١١-١١٢ وديوانه طبع في لندن١٨٧٢، ولاهور١٨٧٨ وطبعات أخرى كثيرة منها في ليبزج١٨٩٧، وضمن مجموع بالمطبعة الوهبية بالقاهرة١٢٩٣ ودار الكاتب العربي بيروت١٩٦٨ وفي هذه الطبعة مقدمة عن حياته في٢٣ صفحة.

(٣) قوله: «وإنك إن أعطيت بطنك همه... الخ البيت» تجد هذا البيت في ديوان حاتم الطائي المطبوع ضمن مجموع بالمطبعة الوهبية ص١١٤ مع ثلاثة أبيات وهي -أعني الأبيات الأربعة- في شرح ديوانه (دار الكاتب العربي) ص٦٩ والبيت فيه بلفظ «وإنك مهما تعط بطنك سؤاله...» وفي البيان والتبيين٣ / ٣٠٨ منسوباً إليه مع أربعة أبيات بلفظ «وإنك مهما تعط بطنك سؤاله...» وبهذا اللفظ الأخير ورد في شرح نهج البلاغة٤ / ٣٨٠، ٤٧٦ وهو منسوب إليه في الموضعين، وورد في موضع آخر منه بلفظ «فإنك إن أعطيت نفسك سؤالها...» (٤ / ٣٨١) وغير منسوب في موضع رابع (١ / ٢٧٤) وقد ورد في الشعر والشعراء (السقا) ص٧٥ بلفظ «فإنك إن أعطيت بطنك سؤاله» وفي التذكرة السعدية ١ / ٣٤٧ بلفظ...«...سؤاله» وكذا في تثقيف اللسان١٧٤ وهو في هذا الأخير غير منسوب لأحد، وقد أورده الثعالبي منسوباً إليه بلفظ «وأنت إذا أعطيت بطنك سؤاله» في التمثيل والمحاضرة ص٥٥ وقد أورده الماوردي في كتابيه أدب الدنيا والدين ص٢٠١ والأمثال والحكم الورقة٣٢ب دون أن ينسبه إلى أحد في الموضعين.

[الفصل الرابع عشر]
[الوفاء بالعهد]

[مزايا الوفاء بالعهد]:

وَلْيَعَلَمِ الملكُ أنَّ من قواعدِ دولتِهِ الوفاءَ بعهودِه؛ فإنَّ الغدرَ قبيحٌ، وهو بالملوكِ أقبَحُ، ومضرٌّ، وهو بالملوكِ أَضَرُّ؛ لأنَّ مَنْ لم يوثَقْ منه بالوفاءِ على بذلِه، ولم يتحققْ منه تصديقُ قولِهِ بفعلِه، وَوُسِمَ بنقضِ العقودِ، ونكثِ العهودِ، قلَّ الركونُ إليهِ، وكثُرَ النفورُ منهُ وعنهُ.

وانعقادُ الملكِ إنّما يكونُ بالركونِ الموجبِ للاستسلامِ والطاعةِ الباعثةِ على النصرةِ[١]؛ ليصيرَ الناسُ مع الملكِ من بينِ مستسلمٍ إليهِ، وناصرٍ لهُ، وبهذينِ يكونُ الملكُ منعقداً.

فإذا نفرهُمُ الغدرُ، انتقضتْ قواعدُه؛ لزوالِ الاستسلامِ، وقلةِ التناصرِ.

وإذا عرفَ الأعداءُ الوفاءَ منهُ لانوا، وطالَ عليهِمْ بالنصرةِ[٢] فهانوا، وقوبلَ على غدرِهِ بمثلِهِ، فدانَ له الناسُ بمثلِ ما دانَ:

وقد قالَ النبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ:
«كَمَا تَدِينُ تُدانُ»[٣]

---

(١) غ: النصيرة

(٢) غ: بالصبرة.

(٣) حديث «كما تدين تدان» أورده البخاري تعليقاً في كتاب التفسير من صحيحه (صحيح البخاري٣ / ٦٤). والحديث رواه أبو نعيم والديلمي من حديثه وحديث غيره كلاهما من جهة مكرم بن عبد الرحمن الجوزجاني عن محمد بن عبد الملك الأنصاري عن نافع عن ابن عمر رفعه في حديث لفظه: «البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، فكن كما شئت فكما تدين تدان» ومن هذا الوجه أورده ابن عدي في الكامل وضعف محمداً، لكن أخرجه البيهقي عن أبي قلابة مرسلاً، وأخرجه غيره (انظر المقاصد الحسنة ص٣٢٦ رقم٨٣٤) وكتاب (كشف الخفاء٢ / ١٨٣-١٨٤ رقم١٩٩٦) ورواه عبد الرزاق في الجامع بلفظ «البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان» عن =

قالَ الشاعِرُ[1]: [من الطويل]

وعنـدِي قـروضُ الـخيـرِ والشـرّ كـلِّهـا
فـبُؤسـىٰ لـدى بؤسـي ونُعمىٰ بـأنعـمِ[2]

فإذا لا شيءَ أضَرَّ بالملكِ من الغدرِ، ولا أنفعَ لهُ من الوفاءِ.

[مساوىء الغدر]:

وربّما استسهلَ غَدْرَهُ، ينتهزُها فرصةً، فسامَحَ نفسَه بها، وجعلَها من الذنوبِ المكَفَّرةِ بالتوبةِ، ولا يعلمُ أنّها أنكىٰ في مملكتِهِ من عدوٍّ (٢٥ آ) قاهرٍ، ومتغلبٍ جائرٍ؛ لأنهمْ قدْ وَسَمُوهُ بها، وإنْ نَدَرَتْ، واكتفَوا بها وإن

= أبي قلابة مرسلاً في حديث حسن (الجامع الصغير١ / ١٢٧) ووصله أحمد في الزهد بإثبات أبي الدرداء (التيسير بشرح الجامع الصغير١ / ٤٣٩) وقد أورده الماوردي عن طريق محمد بن عبد الملك المدائني عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الذنب لا ينسى والبر لا يبلى والديان لا يموت، فكن كما شئت، وكما تدين تدان» (أدب الدنيا والدين ص٨٧) و(أدب الوزير ص١٤) وأورده عبد الواحد الآمدي موقوفاً على علي بلفظ «كما تدين تدان» (غرر الحكم٢٤٨) وانظر كتاب (٢٠٠٠ كلمة ص٨٠ رقم١٨٩٣) وقد ورد كمثل من الأمثال (معجم الأمثال٢ / ١٥٥ رقم٣٠٩٤) و(خاص الخاص ص٢٤) وقد نظم بعضهم هذا الحديث فقال:

أحسن وأنت معان يا أيها الإنسان
إن الأيادي قروض كما تدين تدان

(انظر التمثيل والمحاضرة ص٤٣٢).

(١) قوله: «قال الشاعر» قلت هو أوس بن حجر بن عتاب الشاعر الجاهلي المشهور كان زهير ربيبه وراويته، نادم ملوك الحيرة، وكان عاقلاً في شعره كثير الوصف لمكارم الأخلاق، وقد سبق إلى دقيق المعاني وإلى أمثال كثيرة وقد نشرت أشعاره في فينا١٨٩٢ انظر نبذة من أخباره في الأغاني (بولاق)١٠ / ٦-٨، (ساسي)٥-٨، الشعر والشعراء (السقا)٤٧-٤٩، الموشح للمرزباني٦٣، خزانة الأدب٢ / ٢٣٥، معاهد التنصيص١ / ١٣٢، سمط اللآلي٢٩٠، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية١١٢-١١٣).

(٢) قول الشاعر: «وعندي قروض الخير... إلخ» ذكره الماوردي في الأمثال والحكم (الورقة٥٣آ) منسوباً إلى أوس بن حجر، وقد جاء به بلفظه الموجود هنا، وقد ذكره البحتري منسوباً لأوس أيضاً بلفظ: «... والشر مثله... لأنعم» (الحماسة٢٥٢). وقد أورده ابن السكيت مع بيت آخر بعده ونسبها لأوس أيضاً بلفظ: =

شذّتْ، ولا يقبلونَ توبتَه، ويجعلونَ ما يعقبُها من الوفـاءِ اضطراراً، ومن العُذْرِ اختياراً، فلا يكونُ في وفائهِ مشكوراً ولا في عُذْرهِ معذوراً.

وقد قيلَ:

ما لغادرٍ عاذرٌ

وربما تأوّل الملكُ في غدرهِ تأويلاً بجعلُهُ عذراً لنفسه، فلا يجدُ من الناسِ عاذراً، ولا يكـونُ عندهم إلاّ غـادراً، لأنّهم يحملونَ الأمورَ على ظواهرِها، ولا يكشفونَ عن غوامضِها، فيقضونَ بسقمِ الظاهرِ على سلامةِ الباطنِ، وبفسادِ العيانِ على صلاحِ الكامنِ، تغليباً على السرائرِ.

وما ينفعُه أنْ يعذرَ نفسَهُ، وهو عندَ الناسِ غيرُ معـذورٍ، ويشكرُهَـاَ وهو عندهم غيرُ مشكورٍ.

قال بعضُ الحكماءِ:

الوفاءُ من الملوكِ يجلبُ إليهم نفوسَ الرّعايا وأموالَها، وقلةُ الوفاءِ يقبضُ نفوسَ الرّعايا وأموالَها[1].

* * *

= فعندي قروض الخير والشر كلهـا فبـوسٌ لـدى بؤسي ونعـمى لأنـعم
ومـا أنـا إلاّ مسـتـعـد كـما أرى أخـا شُـرَكيِّ الورد غـير معـتّـم
(انظر كنز الحفاظ بتهذيب الألفاظ لابن السكيت بتهذيب الخطيب التبريزي ص٤٠٦) وقد أخذ هذا المعنى حسان بن ثابت فقال:
فكـلَّ معـدّ قـد جـزينـا بصنعـهِ فبؤسى ببؤسـاهـا وبـالنعمِ أنـعـما
(انظر ديوان حسان١ / ٣٦).

(١) قول بعض الحكماء: «الوفاء من الملوك. . . الخ» أورده المبشر بن فاتك منسوباً إلى أفلاطون ضمن حكمه وآدابه بلفظ: «الوفاء من الرؤساء يجلب إليهم تعزيز الرعايا بأنفسهم وأموالهم، وحسد الملوك يخفي بهجة الملك» (مختار الحكم ومحاسن الكلم ص١٦٨).

[الفصل الخامس عشر]
[الحسد][١]

[تجنب الحسد]:

ومما يجبُ على الملكِ: أنْ يحفظَ نفسَه من الحسدِ؛ فإنه خلقٌ دنيٌّ، وطبعٌ رديٌّ، فهو في عمومِ الناسِ مذمومٌ، وفي أخلاقِ الملوكِ أذمُّ؛ لأنّ قدرَ الملكِ يجلُّ عن دناءتِه[٢]، ومنزلةَ المحسودِ مستصغرةٌ في عظمِ همتِهِ.

قال بعضُ الحكماءِ:

حسدُ الملوكِ يخفي بهجةَ الملكِ[٣].

ولو لم يكنْ في الحسدِ من الذمّ إلّا ما يُفضي إليهِ من تفضيلِ المحسودِ لكفى ذا القدرِ خمولاً[٤]، وذا الفضيلةِ نقصاً[٥]، فكيف بأثرِهِ إذا وصمَ، وبضررِهِ إذا قصمَ؟.

قال ابنُ المقفّع:

الحسدُ والحرصُ يكثرُ الذنوبَ، وأصلُ المهالكِ، أما الحسدُ فأهلكَ إبليسَ، وأما الحرصُ فأخرجَ آدمَ من الجنّةِ.

وفي الحسدِ نَوْعا ذَمٍّ: يختصُّ أحدُهما بظاهِرِهِ، والآخرُ بباطِنِهِ:

فأمّا الأخصُّ بالظاهرِ: فهُجْنُهُ إذا عُرِفَ، وقُبْحُهُ إذا وُصِفَ؛ لأنّه في

---

(١) عن الحسد عقد المؤلف فصلاً في الحسد والمنافسة، وهو الفصل السادس من باب أدب النفس من كتاب أدب الدنيا والدين (من ص ٢٤٤-٢٤٩)، وقال في تعريفه: «وحقيقة الحسد شدة الأسى على الخيرات تكون للناس الأفاضل، وهو غير المنافسة» (ص ٢٤٥).

(٢) غ: دناءة.

(٣) قولهم: «حسد الملوك... إلخ» أورده المبشر بن فاتك منسوباً إلى أفلاطون بلفظه ضمن كلام مرّ قبل قليل، (مختار الحكم ١٦٨).

(٤) غ: حمولاً.

(٥) غ: نقضاً.

الظاهرِ شدّةُ الأسىٰ على (٢٥ب) الخيرِ أنْ يكونَ للناسِ الأفاضلِ[1]، وظاهِرُ هذا قبيحٌ إذا ذُكِرَ، وشائعٌ إذا سُتِرَ[2]، وخاصةً الملوكُ الذين هم أُسُّ الفضائلِ، ومعدنُ الخيراتِ.

وأما الأخصّ بالباطنِ[3]: فكدُّ القلبِ بغمِّهِ، وهدُّ الجسدِ بسقْمِهِ، لا يجدُ لقلبِهِ سلوًّا، ولا لجسدِهِ هدوًّا، وهذا عذابٌ جَنَتْهُ يداهُ، والمحسودُ قريرُ العينِ، وادعُ الجسدِ، قد ضرّ ولم يستضرّ.

وقيلَ:

ليسَ في خصالِ الشرّ شيء أعدلُ من الحسدِ؛ لأنَّهُ يبدأ بإضرارِ الحاسدِ قبلَ المحسودِ[4].

[المنافسة]:

وأما المنافسةُ[5]: فهي غيرُ الحسدِ، فلا بأسَ أنْ ينافسَ الأكفاءَ في فضائِلِهم، ويتشبّهَ بالأخيارِ في محاسِنهم، ويجتهدَ إن لم يزدْ عليهم أنْ لا يقصّرَ عنهم، فما تكاملَ فضلُ الأخيارِ[6] إلاّ بالاقتداءِ بالأخيارِ؛ لأنّ لكلِّ نفسٍ في الخيرِ حظّا مطبوعاً، وحظًّا مكتسبا؛ فإذا اجتمعا تكاملَ الخيرُ بهما.

---

(١) قوله: «لأنه في الظاهر شدة الأسى على الخير أن يكون للناس الأفاضل» هو نفس ما عرف به حقيقة الحسد (في أدب الدنيا والدين ٢٤٥) وقد جاء فيه بلفظ «وحقيقة الحسد شدة الأسى على الخيرات تكون للناس الأفاضل».

(٢) غ: سرّ.

(٣) غ: الباطل.

(٤) قوله: «وقيل: ليس في خصال الشر شيء أعدل من الحسد...» ذكر الماوردي هذا القول في أدب الدنيا والدين (٢٤٥) ونسبه إلى معاوية بلفظ: «ليس في خصال الشر أعدل من الحسد، يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود»، قيل لأنوشروان: «هل يقدر الحاسد أن يضر المحسود؟ قال: كيف يقدر على ذلك وهو لا يصل إلى ذلك إلاّ بشر يصل إلى نفسه، وإن زالت نعمة المحسود لم تصل إليه» (الحكمة الخالدة ٥٩).

(٥) قوله: «المنافسة غير الحسد» سيذكر بعد قليل الفرق بينهما.

(٦) غ: الأجناد.

والعربُ تقولُ:

لولا الوئام لهلَكَ الأنامُ[١].

أي لولا الناسُ يرىٰ بعضُهم بعضاً فيقتدي به[٢] في الخيرِ، وينتهي بهِ عن الشرِّ لهلكوا.

قيلَ لعيسىٰ بنِ مريمَ عليهِ السلام[٣]:

من أدَّبَكَ؟.

قال:

ما أدَّبَني أحَدٌ، [ولكنّي][٤] رأيتُ جهلَ الجاهلِ فاجتنبتُه[٥].

وربّما غلطَ قومٌ فظنّوا أنّ المنافسةَ في الخيرِ هيَ الحسدُ، وليسَ كما ظنّوا؛ لأنّ المنافسةَ طلبُ الشبيهِ بالأفاضل، [من غَيرِ إدخالِ ضررٍ عليهم،][٦]

---

(١) غ: لولا الأوام هلك الأنام، وفي طـ: قالت العرب: لولا الأنام هلك الأنام، والتصحيح من أدب الدنيا والدين ٩٦ إذ ذكره هناك بلفظه ومن كتب التخريج.

وقد ورد هذا القول في أمثال العرب (انظر كتاب الأمثال لأبي الوفاء محمد بن أحمد البساك ص ٩٣) وقال في شرحه: «الوئام: التشبه بالكرام، والوئام أيضاً: المباهاة، يقول: لولا تشبه اللئام بالكرام لهلكوا بخلا» ويروي المثل أيضاً بلفظ: «لولا اللئام لهلك الأنام» أي لولا الموافقة لهلك الناس (ص ٩٣ منه). وقد أورده أبو عبيد القاسم بن سلام بلفظ «لولا الكرام لهلك اللئام» (أمثال أبي عبيد ص ١٣) وفي مجمع الأمثال (٢ / ١٧٦ رقم ٣٢٣٥) بلفظه، وقال: الوئام: الموافقة، يقال واءمته مواءمة ووئاماً وهي أن تفعل مثل ما يفعل، أي لولا موافقة الناس بعضهم بعضاً في الصحبة والمعاشرة لكانت الهلكة، هذا قول أبي عبيد وغيره من العلماء، وأما أبو عبيد فإنه يروي «لولا الوئام لهلك اللئام» وقال: الوئام المباهاة، قال: إن اللئام ليسوا يأتونَ الجميل من الأمور على أنها أخلاقهم وإنما يفعلونها مباهاة وتشبيهاً بأهل الكرم، ولولا ذلك لهلكوا. ويروي «لولا اللئام لهلك الأنام» من قولهم: لاءمت بينهما، أي أصلحت من اللأم، وهو الإصلاح، ويروي اللوام بمعنى الملاومة من اللوم.

(٢) في أدب الدنيا والدين: «فيقتدي بهم في الخير لهلكوا» ص ٩٦.

(٣) غ: صلوات الله عليه وسلامه، وما أثبتناه عن طـ.

(٤) الزيادة من أدب الدنيا والدين ٢١٠ وليست في غ ولا في طـ.

(٥) في أدب الدنيا والدين: فجانبته، وفي طـ زيادة هي قوله «فصرت أديباً» والقول في أدب الدنيا والدين ص ٢١٠.

(٦) الزيادة من أدب الدنيا والدين ٢٤٥ وليست في غ ولا في طـ.

والحسدُ مصروفٌ إلى الضّرر؛ لأنَّ غايَتَه أنْ يعدَمَ الفاضلَ فضلَه، وإنْ لم يصرْ للحاسدِ مثلُهُ.

فهذا هو الفرقُ بين المنافسةِ والحسدِ[1].

فصارت المنافسةُ خيراً والحسدُ شرّاً.

[الامتنان]:

ومما هو جديرٌ بالملكِ أن يجتنبَ الامتنانَ بإنعامِهِ، والبذخَ بإحسانِهِ؛ لأنّه من ضيقِ النفسِ، وضعفِ المنّةِ، وهو تابعٌ لفسادِ الأخلاقِ، وملحقٌ بمساوىء الشّيَمِ، وفيهِ تكديرٌ للصّنيْعِ، وإحباطٌ للشّكرِ، وإغراءٌ بالذمّ، فينعكسُ عليهِ ما صنعَ، فيصيرُ مسيئاً (١٦أ) بإحسانِهِ، ومذموماً بامتنانِهِ، فيعتاضُ بالإحسانِ كفراً، وبالامتنانِ عصياناً، إلاّ[2] قوماً قد أظهروا[3] كُفْرَ إحسانِهِ، واستبطانَ عصيانِهِ، فيخرجُ الامتنانَ عليهم مخرجَ الوعيدِ والتهديدِ، مقابلةً على ما أضاعوهُ من شكرِ إحسانِهِ، فيكونُ ذلكَ منهُ استئنافَ إحسانٍ إليهم؛ لأنّهُ تقويمٌ على ميلٍ، وتأديبٌ على ذلكَ.

وحسبُك بذمّ الامتنانِ أنْ يصيرَ عصياناً.

قالَ الشاعرُ[4]: [من البسيط]

---

(١) العبارة من قوله: «وربما غلط قوم....» إلى هنا موجودة نصاً في كتاب أدب الدنيا والدين ٢٤٥.

(٢) غ: إلاّ أن قوماً. والتصحيح من السياق.

(٣) غ: أظهر.

(٤) قوله: «قال الشاعر» قلت هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي الشاعر المشهور بالملك الضليل، وشهرته بين الشعراء أشهر من قصيدته قفا نبك بين القصائد. انظر نماذج من شعره ونبذة من أخباره في الأغاني (بولاق) ٨ / ٧٢-٨٤، تاريخ دمشق لابن عساكر ٣ / ١٠٤-١١١ شرح شواهد المغني للسيوطي ٦-٩، الشعر والشعراء (السقا) ٣١-٣٧، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية) ٩٧-١٠١، وقد نشر ديوانه في باريس ١٨٣٧ بعناية دي سلان وشرح شروحاً عديدة.

أَفْسَـدْتَ بـالمـنِّ مـا أسْـدَيْتَ مـن حَسَـنٍ
لـيسَ الـكـريـمُ إذا أسـدى بِـمـنّـانِ[1]

* * *

(١) قول الشاعر: «أفسدت بالمن...» أورده الماوردي في أدب الدنيا (ص ١٨٨) دون أن يعزوه إلى أحد، وكذا في عيون الأخبار (٣ / ١٧٧) بلفظه غير منسوب وهو في شرح ديوان امرىء القيس (ص ٢١٦) قاله حين امتن عليه رجل من طيء بمنة، وهو فيه بلفظ «ما أدليت من نعم...».

[الفصل السادس عشر]

[تصفح الأعمال]

[اعتياد تصفح الأعمال]:

ليكنْ من دأبِهِ التصفّحُ في ليلِهِ أعمالَ نهارِهِ[1]؛ فإنَّ الليلَ أحضَرُ للخاطرِ، وأجمعُ للذّكرِ؛ ليكونَ ما فعلَهُ موقوفاً على استيضاحِ الرأيِ فيهِ، فإنْ كانَ صواباً أبرمَهُ وأمضاه، واقتفى أثَرَهُ فيما جانسَهُ وضاهاهُ. وإنْ كانَ قد مالَ فيهِ عن سَنَنِ الصوابِ، وزلَّ عن نهجِ الاقتصادِ، بادرَ إلى استدراكِهِ فيما أمكنَ، وانتهى عن مثلِهِ في المستقبلِ؛ ليكونَ بالماضي معتبراً، وبالمستأنفِ خبراً.

وليعلمْ أنّ ما صدرَ من أفعالِهِ لا يخلو من ثلاثةِ أحوالٍ:

إما أنْ يكونَ قد اقتصدَ فيها، ووقفَ منها على حدِّها، وهو العدلُ المقصودُ، والغرضُ المطلوبُ.

أو يكونَ قد أفرطَ فيها فزادتْ؛ أو قصّر فيها فنقصتْ، وكلاهما خروجٌ عن العدلِ، وميلٌ عن القصدِ.

فليعرفْ ذلكَ بسبرِهِ وتصفحِهِ، وليمضِهِ بعدَ العلمِ بصوابه.

قال النبيُّ عليهِ السلامُ:

---

(١) قال ابن المقفع: «وعلى العاقل أن يحصي على نفسه مساويها في الدين وفي الرأي وفي الأخلاق وفي الآداب، فيجمع ذلك كله في صدر أو في كتاب، ثم يكثر عرضه على نفسه، ويكلفها إصلاحه ويوظف ذلك عليها توظيفاً من إصلاح الخلة، أو الخلتين، والخلال في اليوم، أو الجمعة، أو الشهر، فكلما أصلح شيئاً محاه، وكلما نظر إلى ثابت اكتأب، وكلما نظر إلى محو استبشر» (الأدب الصغير ٤٤ وفي رسائل البلغاء ص ١٢).

«إذَا تَثَبَّتَّ أَصَبْتَ أو كدتَ تُصيبُ، وإذا استعجلتَ أخطأتَ، أو كدتَ تُخطىءُ»(١).

وليكنْ - مع ذلك - متصفّحاً لأفعال غيرِه، فما أعجبَهُ مِن جميلِها واستحسَنَهُ من فضائلِها بادَرَ إلى فعله، وزيّن نفسَهُ بالعمل به، فإنَّ السعيدَ من تصفَّحَ أفعالَ غيرِهِ فانتهى (٢٦ب) عن سيِّئها، واقتدى بَحَسَنِها، فنالَ هنيءَ المنافعِ، وأمِنَ خطرَ التجاربِ، ووصلَ إلى الصوابِ بغيرِ تكلّفٍ، وعملَ بالحزمِ من غير تعنّفٍ.

[قال النبيُّ عليهِ السلامُ:

«السَّعيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ»](٢).

وَوُجِدَ على حجرٍ بالهندِ مكتوبٍ:

---

(١) حديث «إذا تثبت أصبت...» أورده الماوردي في الأمثال والحكم بلفظه عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه (الورقة ٢٨ أ) وفي أدب الوزير بلفظ «من تأنى أصاب أو كاد ومن عجل أخطأ أو كاد» (ص ٥٣) ونقله عنه النويري (نهاية الأرب ٦ / ١٣٧) والحديث أخرجه البيهقي عن ابن عباس بلفظ «إذا تأنيت أصبت أو كدت تصيب، وإذا استعجلت أخطأت أو كدت تخطىء» كشف الخفاء ١ / ٨٨ رقم الحديث ٢١٥.

(٢) الزيادة من ط وليست في غ.

وحديث «السعيد من وعظ بغيره» ذكره الماوردي في الأمثال والحكم بلفظه وفيه زيادة «والشقي من شقى في بطن أمه» وقد جاء به مروياً عن مصعب بن منظور عن عقبة بن عامر (الورقة ٤٢ ب) وأدب الدنيا والدين ٣٢٦ وأخرجه مسلم في كتاب القدر من صحيحه (انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٦ / ١٩٣) في حديث طويل، قال السخاوي: رواه مسلم من حديث عمرو بن الحارث عن أبي الزبير المكي عن عامر بن واثلة عن ابن مسعود، وهو عند العسكري في الأمثال من حديث ابن عون عن أبي وائل، وعند القضاعي من حديث إدريس بن يزيد الأودي عن أبي إسحق عن أبي الأحوص كلاهما عن ابن مسعود به مرفوعاً وأخرجه كذلك البيهقي في المدخل، وكذا هو في مسند البزار من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعاً لكن بلفظ «السيد من سعد في بطن أمه» وسنده صحيح. وكذا أخرجه الطبراني في الصغير من هذا الوجه، لكن مقتصراً على «السعيد من سعد في بطن أمه» والعسكري من حديث عبد الله بن مصعب بن خالد بن زيد عن أبيه عن جده زيد بن خالد رفعه: «السعيد من وعظ بغيره» ورواه القضاعي من هذا الوجه بتمامه، ويروي من حديث عبد الله بن مصعب عن أبيه أيضاً فقال: عن عقبة بن عامر =

من اعتبرَ بغيرِهِ لم تُصِبْهُ محنةٌ[1].

قالَ الشاعرُ[2]: [من البسيط]

إنَّ السَّعيدَ لهُ في غيرِهِ عظةٌ
وفي التجاربِ تحكيمٌ وَمُعْتَبَرُ[3]

= بدل زيد وهما ضعيفان، ولذا قال ابن الجوزي في أمثاله: إنه لا يثبت كذلك مرفوعاً، وفيه مع ما قدمت نظر، بل قال شيخنا إنه صحيح، وسبقه لذلك شيخه العراقي» (المقاصد الحسنة ٢٤٠-٢٤١ الحديث رقم ٥٦١) و (كشف الخفاء ١ / ٥٤٨ رقم الحديث ١٤٧٥) قال السيوطي رواه الطبراني في الصغير في حديث صحيح بلفظ «السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه» (الجامع الصغير ٢ / ٣٧) والحديث مثل من الأمثال السائرة (أمثال أبي عبيد ص ٥) و(مجمع الأمثال ١ / ٣٤٣ رقم ١٨٣٩) بلفظه وفي التمثيل والمحاضرة (ص ٢٨) بلفظ «من اتعظ» وكذا في المكافأة (ص ١٤٧) وفي كتاب أبي العتاهية إلى سهل بن هرون بلفظ «السعيد من وعظ بغيره» (البصائر والذخائر ٤١) وانظر حوله (الأمثال للبساك ٤٢) و(الإيجاز والإعجاز ص ٧) وهو من أقوال عمر رضي الله عنه (انظر رسالة في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم ٢١٩)، وهو في الحماسة الشجرية ١ / ٢٧٥.

(١) قوله: «ووجد على حجر بالهند مكتوب...» في ط: قيل إنه وجد على حجر بالهند به... إلخ وقد ذكره المؤلف في الأمثال والحكم بلفظه وقصته (الورقة ٣٧ آ).

(٢) قوله: «قال الشاعر» قلت هو الحارث بن حلزة اليشكري وقد مرت ترجمته وذكر هبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسني أن قائله هو الحارث بن كلدة وربما كان ذلك تصحيفاً، (انظر الحماسة الشجرية ١ / ٢٧٤) على أن الجاحظ قد ذكر البيت ونسبه إليه بلفظ «وأنشدوا للحارث بن حلزة اليشكري» (البيان والتبيين ٢ / ١٠٦) وهو أسبق من صاحب الحماسة بلا شك. والحارث بن كلدة الثقفي طبيب عربي اشتهر بالطب في الجاهلية وعاش حتى أدرك معاوية. انظر أخباره في عيون الأنباء في طبقات الأطباء (بيروت) ٢ / ١٢، طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ص ٥٤ رقم ١٦، الإصابة ١ / ٢٨٨ رقم ١٤٧٥ والاستيعاب في هامشه في الصفحة نفسها.

(٣) قول الشاعر: «إن السعيد له في غيره عظة... إلخ البيت» أورده الماوردي في أدب الدنيا والدين (٣٢٧) دون أن يعزوه لقائل وقد أورده الجاحظ في البيان والتبيين ٢ / ١٠٦ مع بيت آخر منسوباً إلى الحارث بن حلزة وهو في الحماسة الشجرية ١ / ٢٧٤ مع ثلاثة أبيات نسبها إلى الحارث بن كلدة وقال عنه «هذا كقول رسول الله صلىّ الله عليه وسلَّم: «السعيد من وعظ بغيره» وعدّ جامع ديوان الحارث بن حلزة هذا البيت من منحول الشعر إلى الحارث (ديوان الحارث بن حلزة تحقيق هاشم الطعان ص ٢٣ رقم ١١).

ومن أقوالهم المشابهة لهذا المعنى:

في الشيب لي واعظٌ إن كنتُ متّعظاً
وفي التجاربِ لي ناهٍ ومزدَجرُ

[الحذر والاحتراس]:

ينبغي للسلطانِ أنْ لا يغفلَ عن الحذرِ والاحتراس؛ ليجعلَ التوكلَ على الأعذارِ وما تجري بهِ الأقدارُ طريقاً إلى إضاعةِ الحزمِ، فيستسلمَ لنوائبِ الدهرِ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ أمرنا بالتوكلِ بعد الإنذارِ، وندبَ إليهِ بعد الإعذارِ، بذلك أنزلَ كتابَه، وأمضىٰ سنّتَهُ فقالَ عز وجل:

«خُذُوا حِذْرَكُمْ»[1].

وقالَ:

«ولا تُلْقُوا بأيْدِيْكُمْ إلىٰ التَّهلُكَةِ»[2].

وقالَ النبيُّ عليهِ السلامُ:

«اعقِلها وتوكّلْ»[3].

وسئلَ: ما الحزمُ؟.

قالَ: «الحَذَرُ».

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ:

ما الحزمُ؟.

---

(١) سورة النساء آية ٧٠.

(٢) سورة البقرة آية ١٩٥.

(٣) حديث «اعقلها وتوكل» رواه الترمذي عن أنس بن مالك أنه قال: قال رجل يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل» وأضاف الترمذي: «قال عمرو بن علي، قال يحيى بن سعيد: هذا عندي حديث منكر» (سنن الترمذي ٥ / ٤١٧ رقم ٤١٠٧) قال السيوطي: «هو حديث ضعيف» (الجامع الصغير ١ / ٤٧) و(التيسير بشرح الجامع الصغير ١ / ١٧٥) قال السخاوي رواه البيهقي في الشعب وأبو نعيم في الحلية وابن أبي الدنيا في التوكل... وابن حبان في صحيحه، والطبراني في الكبير (المقاصد الحسنة ٦٥ رقم ١٢٨) و[كشف الخفاء ١ / ١٦١ رقم ٤١٨] وقد أصبح هذا الحديث مثلاً يضرب. «انظر كتاب الأمثال لأبي الوفاء محمد بن أحمد البساك (ص ٢١) وأمثال أبي عبيد (ص٢) والتمثيل والمحاضرة (ص ٢٣) وفيه «اعقل...» ومجمع الأمثال (٢ / ٢٦ رقم ٢٤٧٣).

قالَ: أنْ تحذَرَ ما يمكنُ كونُه.

قيل: فما العجزُ؟.

قال: [أنْ][1] تأمنَ ما يمكنُ كونُه.

وليعلمِ الملكُ أنّ شدةَ الاتقاءِ والحذرِ تدعو إلى [وقوعِ][2] ما يتّقي ويحذرُ؛ فإنّه ربّما عادَ عليهِ من استظهارِه فشلٌ، وداخَلَهُ من شدّةِ حذرهِ وجلٌ، فصارَ بهما عرضةً للنوائبِ، وهدفاً للمصائبِ، فتدخلهُ شدةُ اتقائِه فيما كانَ منه بدءُ إشفاقِه.

وقيلَ:

من التوقّي تركُ الإفراطِ في التوقّي[3].

وإذا أخَذَ بالحذرِ والاحتراسِ في مواضعِ الشدةِ، وعملَ على الجرأةِ والإقدامِ، عند انتهازِ الفرصةِ، فقد أخذَ بالحزمِ في شدتِهِ، وعملَ بالعزمِ عند فرصتِهِ.

قال طاهرُ بنُ الحسينِ[4]:[من البسيط]

---

(١) الزيادة من ط.

(٢) الزيادة من السياق.

(٣) قوله: «وقيل: من التوقي ترك الإفراط في التوقي» أورده الجاحظ منسوباً إلى محمد بن محمد الحمراني أو الحمراوي (البيان والتبيين ٢ / ١٠٤) وهو أحد النساك الذين أدركهم الجاحظ (البيان والتبيين ١ / ٣٦٥) وذكره مرة أخرى غير منسوب لأحد (١ / ٢١٠) بلفظه وهو في عيون الأخبار (٢ / ٦) وفي سراج الملوك (٢٠٠) دون عزو، وكذا في كتاب الأمثال لأبي الوفاء محمد بن أحمد البساك (١٠٩)، وقد جعله من الأمثال المعروفة، وقد أورده المبشر بن فاتك ضمن حكم وآداب أفلاطون بزيادة (إنّ) في بدايته في كتابه مختار الحكم ومحاسن الكلم (١٧٤) وأورده ابن مسكوية ضمن حكم العرب وأمثالها السائرة بلفظه في كتابه الحكمة الخالدة (ص ١٩٥).

(٤) طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن ماهان (أبو الطيب) الخزاعي بالولاء الملقب (ذو اليمينين) كان من أكبر أعوان المأمون في محاربة أخيه الأمين، ولد سنة ١٥٩هـ بخراسان =

رَكــوبُــكَ الأمــرَ مــا لــم تــبــدُ فــرصــتُــهُ
جــهــلٌ ورأيُــك فــي الإقــحــامِ تَــغْــريــرُ
فــاعمــلْ صــوابــاً وخــذْ بــالحــزمِ مــأثــرةً
فــلنْ يُــذَمَّ لأهــلِ الــحــزمِ تــدبــيــرُ[1]

[الوعد والوعيد]:

وعلىٰ هذا قياسُ ما قدّمنا معَ المنعِ والعطاءِ؛ لأنَّ لكلِّ فضيلةٍ حداً، وتجاوزُ الحدِّ نقصٌ في المحدودِ.

ليكنْ من عادةِ الملكِ إذا أرادَ المقابلةَ على الإحسانِ والإساءةِ، أنْ لا يَعِدَ محسناً بثوابٍ، ولا يتوعّدَ مسيئاً بعقابٍ، لأنّه على الأمرينِ قادرٌ، وفي الوعدِ بالثواب تكديرٌ، وفي الوعيدِ بالعقابِ تنفيرٌ، فاستغنىٰ بـالفعلِ عن القولِ، إلّا أنْ يجعلَ حمدَه ثواباً، وذمّه عقاباً، فيقتصرَ على الجزاءِ بالقولِ بحسبِ الإحسانِ والإساءةِ، ولا يغريه توعدٌ ولا وعيدٌ على زيادةٍ، وليعتمدْ

= وتوفي بمرو سنة ٢٠٧هـ مسموماً. له مجموع رسائل، ورسالته إلى المأمون مشهورة. انظر بعضاً من أخباره في الفهرست ١٧٦، وفيات الأعيان ٢ / ٢٠١-٢٠٦ رقم الترجمة ٢٨٦، العبر ١ / ٣٥١-٣٥٢، وانظر نماذج من توقيعاته في العقد الفريد (العريان) ٤ / ٣١١-٣١٢.

(١) قوله: «ركوبك الأمر. . . إلخ البيتين» مع بيتين آخرين بعث بها طاهر بن الحسين حين أخذ بغداد مع رسالة إلى إبراهيم بن المهدي دوَّنها ابن عبد ربه وقد جاءت عنده بلفظ:

ركوبك الهول ما لم تلق فرصته ... جهل رمى بك بالإقحام تغرير
فازرع صواباً وخذ بالحزم حيطته ... فلن يذم لأهل الحزم تدبير

وقد استشهد الماوردي بهذين البيتين ونسبهما لعبد الله بن طاهر (وهو ابنه) مع ثلاثة أبيات وقد جاءت بلفظ:

ركوبك الهول ما لم تبد فرصته ... جهل وأمرك بالإقدام تغرير
فكن مصيباً وخذ بالحزم مأثرة ... فلن يذم لأهل الحزم تدبير
فإن ظفرت بجهل ثم فزت به ... قالوا جهول أعانته المقادير
وإن ظفرت بحزم أو هلكت به ... فأنت عند ذوي الألباب معذور
أنكد بدنيا ينال المخطئون بها ... حظ المصيبين والمغرور مغرور

(انظر نصيحة الملوك للماوردي الورقة ٨٤ آ).

علىٰ الجزاءِ بالقولِ فيمن كانَ بالحقّ عَروفاً، وعنِ المالِ عَزوفاً؛ فإنّ تأثيرَ الكلامِ في الكرامِ أبلغُ من تأثيرِ الفعلِ باللئامِ.

وقد قالَ أنوشروان:

الناسُ ثلاثُ طبقاتٍ، تسوسُهم ثلاثُ سياساتٍ:

طبقةٌ من خاصةِ الأحرارِ، تسوسُهم باللينِ واللطفِ.

وطبقةٌ من خاصةِ الأشرارِ، تسوسُهم بالشدةِ والعنفِ.

وطبقةٌ هم العامةُ، تسوسُهم باللينِ والشدةِ؛ لئلا تحرجَهم الشدّةُ، ولا يبطرَهُمْ اللينُ(١).

* * *

(١) في غ: (لأن لا تحوجهم الشدة ولا ينظر باللين) والتصحيح عن لباب الآداب ٥٣ وتحرجهم بالحاء المهملة من الحرج.

وقول أنوشروان هذا رواه الأمير أسامة بن منقذ ونسبه إليه بلفظه، وفيه «... من خاصة الأبرار تسوسهم بالعطف واللين والإحسان... تسوسهم بالغلظة والشدة، وطبقة وهم العامة...» (لباب الآداب ٥٣) وأورده النويري وهو عنده بلفظه إلاّ أن فيه: «... طبقة هم خاصة الأشراف... وطبقة هم خاصة الأشرار تسوسهم بالغلظة والعنف...» (نهاية الأرب ٦ / ٤٤) وأورده السيد محمد العيناتي العاملي ونسبه إلى بعض حكماء الملوك وفيه «... من خاصة الأبرار يسوسهم القول المثبت الرشيد على رشده، الصارف بالمخطىء عن خطئه، وطبقة من خاصة الأشرار يسوسهم الفعل الناكل والعنف المستأصل، وطبقة هم العامة يسوسهم مرة هذا ومرة ذاك لئلا يخرجهم غلظة الفعل بلا إبقاء، ولا يخرجهم لين القول بلا إرهاب» (آدابِ النفس ص ٢٤)، ومن أقوال المأمون المشابهة لهذا المعنى قوله:

«الإخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه، وطبقة كالدواء لا يحتاج إليه إلّا أحياناً، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبداً»، (عيون الأخبار جـ٣ ص١).

[الفصل السابع عشر]

[الطيرة والفأل][1]

[اعتقاد الطيَرة]:

وليعلم الملكُ أنّ من أقوىٰ الأمورِ في نقض العزائم: اعتقادَ الطيرةِ؛ فإنّه لا شيء أضرَّ بالرأيِ، ولا أفسَدَ للتدبيرِ منها، مع ورودِ السنّةِ باجتنابِها، والنهيِ عنها، فما الأقدارُ إلّا بقضاءٍ محتومٍ، وأجلٍ معلومٍ.

قال الشّاعرُ: [من الكامل]

ما للرجالِ مَعَ القضاءِ تحيُّلٌ
ذهبَ القضاءُ بحيلةِ المحتالِ[2]

[(٢٧ آ)]
ومن ظنَّ[3] أنّ الطيرةَ تردُّ قضاءً، أو تدفعُ مقدوراً فقد جهلَ.

إنّ أقضيةَ اللهِ نافذةٌ بأمرِهِ، وجاريةٌ على قدرِهِ، فليحذَرِ الطيرةَ، ولا يجعلْ لنقضِ عزائمهِ أسباباً، ولا لفسادِ الرأيِ عللاً، وليمضِ الأمورَ على مقتضىٰ أحوالِها.

قيلَ:

---

(١) حول الطيرة والفأل عقد الماوردي فصلاً في كتابه أدب الدنيا والدين (٢٨٧-٢٩٠).

(٢) قول الشاعر: «ما للرجال مع القضاء...» أورده الماوردي في الأمثال والحكم (الورقة٤٧آ) على أنه مثل من الأمثال وقال إنه تمثل به مروان وأورده بلفظه وفيه «... مع القضاء محالة» وسيأتي به مرة أخرى بلفظه في هذا الكتاب، وقد أوردته نسخة ط قبل فصل الطيرة والفال بلفظ «... مع القضاء محالة» والشطر الأول من هذا البيت من أمثال العرب وقد أورده الميداني بلفظ «ما للرجال مع القضاء محالة» وقال: المحالة: الحيلة، ومنه قولهم: المرء يعجز لا محالة». (مجمع الأمثال٢ / ٢٨٩رقم ٣٩٣٨). وشطره الثاني ورد غير منسوب في الإمتاع والمؤانسة (٢ / ١٤٨) بلفظ «...بحيلة الأقوام» وهو مأخوذ من قولهم: «إذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة» (سراج الملوك ١٧٥).

(٣) قوله: «ومن ظن..» إلخ عبارته في أدب الدنيا والدين: «ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيب غراب يرد قضاء أو يدفع مقدوراً فقد جهل» (ص٢٨٧).

الخيرةُ في تركِ الطيرةِ[1].

ولينسبْ ما جَرَّهُ القضاءُ وساقَهُ القدرُ إلى مدبِّرِ الأمورِ ومقلِّبِ الدهورِ؛ فما لمتطيِّرٍ عيشٌ يصفو من وَجَلٍ، ولا عزمٌ يخلو من فشلٍ، فيحسمْ وساوسَ الشيطانِ عن نفسِه؛ فما جعلَ اللهُ لِما استأثرَ لعلمِهِ من الغيوبِ بشيراً، ولا نذيراً، وإنّما وَكَلَهُ إلى عقولٍ يتدبرونَ بها، ويعملونَ بموجبِها، ولم يجعلْ للطيرةِ فيها حظّاً.

وقد قالَ الشاعرُ[2]: [من الطويل]

وما عاجلاتُ الطيرِ تُدني من الفتى ... رشاداً ولا عنْ ريثِهنَّ يَخيبُ

[وربَّ أمورٍ لا تضيرُكَ ضيرةً ... وللقلبِ من مخشاتِهن وجيبُ][3]

[التفاؤل]:

فأما الفألُ فمحمودُ الأثرِ، مؤنسُ الخبرِ؛ لأنّ فيهِ تنفيذَ الآراءِ، وتقويةَ العزائمِ، فصارَ في موافقةِ الرأيِ على ضدِّ الطيرةِ في مخالفةِ الرأيِ؛ فلذلكَ نُدبَ إلى الفألِ، ومُنِعَ من الطيرةِ.

---

(١) غ: قبل الخبرة... بالباء في الموضعين.

(٢) قوله: «قال الشاعر...» قلت هو ضابيء بن الحارث البرجمي الشاعر المقذع، له شعر كثير سجنه عثمان لجناية كانت منه، مات في السجن سنة ٣٠هـ انظر أخباره في الإصابة ٢ / ٢٠٧ رقم٤٢٠٦، الشعر والشعراء (السقا)١٢٦، طبقات الشعراء لابن سلام ص٦٤ وقد جعله في الطبقة التاسعة الخزانة٤ / ٨٠، الأعلام٢ / ٣٠٥، معاهد التنصيص١ / ١٨٦، الحيوان١ / ٣٦٩ وله شعر في حماسة البحتري ص٥ وفي الزهرة (النصف الأول) ص٢١٠، وانظر التخريج.

(٣) الزيادة من ط. وقد ذكر الماوردي هذين البيتين في الأمثال والحكم (الورقة١٣آ-١٣ب) ونسبها إلى ضابيء بن الحارث وأورد الثاني مع بيت آخر هو قوله:

ولا خير في من لا يوطن نفسه ... على نائبات الدهر حين تنوب

(الورقة٦٦ب) ونسبها إليه أيضاً. وهذه الأبيات من قصيدته التي قالها في الحبس حين حبسه عثمان ومنها البيت الذي يستشهد به كثيراً وهو:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإني وقيّاراً بها لغريب

وقد وردت القصيدة في مراجع ذكرها محقق التذكرة السعدية زميلنا الأستاذ عبد الله الجبوري (٣٦٧/١)، فلتراجع هناك.

تفاءلَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم في غزواتِهِ وحروبِه، ولم يتطيّرْ[1]، فافترقا في النصّ والتعليلِ، واختلفا في المدلولِ والدليلِ.

قيلَ:

لا تحرّكْ من الأمورِ ما كانَ ساكناً، ولا نظهرْ منها ما كانَ كامناً، فتعجِّلَ تحقيقَ الحذرِ وتقدّمَ بادرةَ الخطرِ[2].

وليتركْ الأمورَ على مطاوي الدعةِ، ومجاري[3] السلامةِ، ما لم يبلغْهُ اضطرارٌ، ولا تسقْهُ إليه أقدارٌ؛ فقد قيلَ في منثورِ الحكمِ:

لا تفتحْ باباً يُعْيِيْكَ سدُّهُ، ولا ترمِ سهماً يُعْجِزُكَ ردُّه، ولا تُفْسِدْ أمراً يُعْيِيْكَ (٢٨ آ) إصلاحُه، ولا تغلقْ باباً يُعْجِزُكَ افتتاحُهُ[4].

قال الشاعر: [من الطويل]

فإيّاكَ والأمرَ الذي إنْ توسّعتْ
مواردُه ضاقتْ عليكَ المصادرُ[5]

---

(١) قوله: «تفاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبه ولم يتطير» انظر تفصيل ذلك في أدب الدنيا والدين٢٨٩.

(٢) قوله: «قيل لا تحرك من الأمور ما كان ساكناً...» نسب الثعالبي هذا القول إلى أنو شروان وجاء به بلفظه (غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ص٦٠٧) ونسب قولاً آخر يتعلق به في معناه إلى هرمزد بلفظ «لا تحركنّ ساكناً، وسكن كل متحرك» (التمثيل والمحاضرة١٣٨) وأورد شطره الأول الميداني ضمن أمثال المولدين غير منسوب لأحد بلفظ «لا تحركن ساكناً» (مجمع الأمثال٢ / ٢٥٩).

(٣) غ: مجار. وليست في ط.

(٤) قوله: «قيل في منثور الحكم: لا تفتح باباً يعييك سده...» أورده الأمير أسامة بن منقذ ضمن أقوال الحكيم أرسطوطاليس بنفس لفظه (لباب الآداب٦٠) وأورده الرخجي غير منسوب وفيه «...يفوتك صلاحه...باباً لا يمكنك افتتاحه» (أحاسن المحاسن١٦٤) وأورد عبد الواحد الآمدي مقاطع منه ونسبها إلى علي رضي الله عنه بلفظ «لا تغلق باباً يعجزك افتتاحه» (غرر الحكم٣٣٣) و«لا ترم سهماً يعجزك رده» (٣٣٤) و«لا تحلّنّ عقداً يعجزك إيثاقه، ولا توحش امرءاً يسوؤك فراقه» (٣٣٤) و«لا تبسطن يدك على من لا تقدر على دفعها عنه» (٣٣٥)، وانظر القول بلفظه غير منسوب لقائل في المستطرف(١ / ٢٦).

(٥) غ: مصادره ضاقت عليك الموارد والتصحيح من ط ومن السياق ومن مصادر التخريج.

فـمـا حَـسَـنٌ أنْ يـعــذرَ الــمـرءُ نـفــسَــهُ
وليسَ لــهُ مـن ســائـرِ الـنــاسِ عــاذِرُ[١]

* * *

(١) قول الشاعر: «فإياك والأمر الذي إن توسعت... الخ» أوردهما الماوردي في كتاب أدب الدنيا والدين (٣٢٧) دون أن يذكر قائلها وكذا ذكرهما صاحب التذكرة السعدية (١ / ٢٧٥) وفيها تخريج فلينظر ولم يذكر القائل.

[الفصل الثامن عشر]
[الملوك قدوة للناس]

[البدء بالنفس]:

لا يحسنُ بالملِك أنْ يأمرَ بالمعروفِ إلاّ بدأ بفعلِهِ، ولا ينهىٰ عن منكرٍ، إلاّ بدأ بتركِهِ، ولا يَلُمْ أحداً فيما لا يلومُ عليه نفسَهُ، ولا يستقبحْ منه ما لا يستقبحْه من نفسهِ، ولا يأمرْهُم بالبرِّ بما لا يأمرُ به نفسَهُ؛ فإن الناسَ على شاكلةِ ملوكِهم يجرونَ[١]، وبأخلاقِهِم يستنُّونَ؛ لأنّهم أعلامٌ متبوعةٌ، ومناهجُ مشروعةٌ.

قال بعضُ الحكماءِ:
أصلحْ نفسَكَ لنفسِكَ يكنْ الناسُ تبعاً لَكَ[٢].

---

(١) قوله: «إن الناس على شاكلة ملوكهم يجرون...» أصله حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «أعمالكم عمالكم وكما تكونوا يول عليكم» الإيجاز والإعجاز (ص٦) والتمثيل والمحاضرة (ص٢٣) والمقاصد الحسنة (٣٢٦ رقم٨٣٥) وكشف الخفاء (١٨٤ رقم١٩٩٧)، قال الطرطوشي: «لم أزل أسمع الناس يقولون: أعمالكم عمالكم وكما تكونوا يول عليكم، إلى أن ظفرت بهذا المعنى في القرآن. قال الله تعالى: «وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً» (سراج الملوك١١٦) ومن أمثال المولدين «الناس على دين الملوك» (مجمع الأمثال٢ / ٣٥٨).

(٢) قولهم: «أصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعاً لك» وفي ط: «تكن النفس تبعاً لك» أورده الماوردي في نصيحة الملوك (الورقة١٨آ) ضمن كلام الحكيم أرسطوطاليس بنفس اللفظ، وأورده أيضاً في أدب الدنيا والدين (٣٢٨) ولم ينسبه لقائل، وقد أورده الطرطوشي بلفظه ونسبه إلى الخليل بن أحمد (سراج الملوك١١٧) ونسبه كل من الأمير أسامة بن منقد (لباب الآداب٤٤٩) والمبشر بن فاتك (مختار الحكم١٩٣) إلى الحكيم أرسطوطاليس بلفظه وفيه «...بنفسك» ضمن كلام طويل، ونسبا قولاً آخر في معناه إلى أفلاطون بلفظ: «من قام من الملوك بالعدل والحق ملك سائر رعاياه...» ضمن كلام طويل أيضاً (لباب الآداب٤٤٩ ومختار الحكم ١٤٩) ونسبه الميداني إلى أبي بكر الصديق وجاء به بلفظ «أصلح نفسك يصلح لك الناس» (مجمع الأمثال٢ / ٤٥١) وعند الرخجي غير منسوب بلفظ «من أصلح نفسه صلحت رعيته» (أحاسن المحاسن١٦٢) وفي لباب الآداب في موضع آخر ضمن أقوال الحكيم أرسطوطاليس بلفظ «حاجة السلطان إلى صلاح نفسه أشد من حاجته إلى صلاح رعيته، وفائدته في إحسان سيرته أعظم من فائدته في ثبات وطأته؛ لأنه إذا أصلح نفسه صلحت رعيته...» (ص٥٨)، وأخرج ابن الجوزي عن كعب الأحبار أنه قال: « الرعية تصلح بصلاح الوالي وتفسد بفساده» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء (١ / ٤٧٠) وفيها تخريجه.

وقالَ المأمونُ:

أَسْوَسُ الملوكِ من ساسَ نفسَهُ لرعيَّتِهِ، فأسقطَ عنهُ مواقعَ حُجَّتِها، وقطعَ مواقعَ حجتِهِ عنها[1].

قال بعضُ الحكماءِ:

أفضلُ الملوكِ من أبقىٰ بالعدلِ ذكرَهُ، واستعملهُ الناسُ بعدَهُ[2].

والملكُ الفاضلُ هو الذي يحوشُ الفضائلَ، ويجودُ بها على من دونَهُ، حتى تكثرَ في أيامِهِ، ويتجملَ بها من لم تكنْ فيهِ.

وجديرٌ بمن أَمَرَ بصلاحٍ أنْ يكونَ أحقَّ بفعْلِهِ، وبمن نهىٰ عن فسادٍ أنْ يكونَ أحقَّ بتركِهِ، ولأنْ كانَ علوُّ القدرِ لا يزيدهُ تحفّظا لم ينقص.

قال الشاعر[3]: [من الكامل]

---

(١) قوله: «قال المأمون: أسوس الملوك... الخ» روى النويري هذا القول بلفظه وفيه «... مواقع حجتها عنه...» (نهاية الأرب ٦ / ٤٤) ومن كلام علي رضي الله عنه: «أعقل الملوك من ساس نفسه للرعية بما يسقط عنه حجتها، وساس الرعية بما تثبت به حجته» (غرر الحكم٩٩) و«حق على الملك أن يسوس نفسه قبل جنده» (غرر الحكم١٧٠) و(كتاب ٢٠٠٠ كلمة ص٥٤ رقم١٢٢٤) و«من ساس نفسه أدرك السياسة ومن بذل ماله استحق الرياسة» (غرر الحكم٢٧٠)، ومن أقوال العجم: «أسوس الملوك من قاد أبدان الرعية إلى طاعته بقلوبها» (عيون الأخبار١ / ٨) والترجمة والنقل (ص٢٥٩) وسراج الملوك (ص١١٨).

(٢) قول بعض الحكماء: «أفضل الملوك من أبقى بالعدل ذكره...» ذكره المبشر بن فاتك على أنه لأفلاطون بلفظ «أفضل الملوك من بقي بالعدل ذكره، واستملى بعده فضائله» (مختار الحكم١٥٢) وكذا نسبه الأمير أسامة بن منقذ إليه بلفظ مقارب من ذلك وهو قوله: «أفضل الملوك من بقي بالعدل ذكره، واستملى منه من يأتي بعده» (لباب الآداب٤٥٦) ولم ينسبه في (ص٧١ منه) ومن كلام علي رضي الله عنه: «أفضل الناس سجية من عم الناس عدله» (غرر الحكم٩٠) و«أجل الملوك من ملك نفسه وبسط منه العدل» (ص٩٤) و«خير الملوك من أمات الجور وأحيى العدل» (ص١٧٤).

(٣) قوله: «قال الشاعر» قلت ينسب هذا البيت لشعراء كثيرين ورد في شعرهم:
فقد نسبه الماوردي إلى المتوكل الليثي (الأمثال والحكم الورقة٥٢ب) وهو المتوكل بن عبد الله بن نهشل -كناني، يكنى أبا جهمة مدح معاوية ويزيد انظر أخباره في الأغاني١٢ / ١٦٠ طبقات ابن سلام٢٠٩ وجعله في الطبقة السابعة من الإسلاميين وديوانه طبع في بغداد أخيراً. ونسبه يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري إلى أبي الأسود الدؤلي (تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب -في أسفل كتاب سيبويه- ١ / ٤٣٤) وأبو =

لا تـنـهَ عـن خـلقٍ وتـأتـيَ مـثـلَهُ
عـارٌ عـليـكَ إذا فـعـلتَ عـظيـمُ][1]

وقالَ الشاعرُ: [من الطويل]

لـكَ الخيـرُ لُمْ نفسـاً عليـكَ ذنـوبَهـا
ودَعْ لـومَ نـفسٍ مـا عـليـكَ مـليـمُ
وكيفَ تـرىٰ في عيـنِ صـاحبِـك الـقـذىٰ
ويـخفـىٰ قـذىٰ عـينـيـك وهـو عـظيـمُ[2]

[الرجوع إلى الحق]:

لا يأنفُ من حقٍّ إن لزمَ، أو حجةٍ إن قامتْ؛ فإنّ الرجوعَ إلى الحقّ أولىٰ من (٢٨ ب) العدولِ إلى باطلٍ قد كان ناهياً عنه، وربّما منعتْهُ القدرةُ من الاعترافِ بما لا يهواهُ، وأخذتْهُ العزةُ أن يلينَ بمن سواهُ، فعاندَ الحقَّ

= الأسود واسمه ظالم بن عمر المتوفي ٦٧هـ المترجم له في معجم الأدباء١٢/ ٣٤، ومقدمة ديوانه الذي حققه الأستاذ عبد الكريم الدجيلي وطبعه ببغداد.
ونسبه ابن عبد البر إلى العرزمي (جامع بيان العلم وفضله١ / ١٩٥) والعرزمي اسمه عبد الملك بن أبي سليمان الكوفي أحد المحدثين الكبار توفي ١٤٥هـ (انظر العبر١ / ٢٠٤).
ونسب مرة أخرى إلى سابق البربري (فصل المقال٨٥) وهو أبو سعيد سابق بن عبد الله الشاعر الأموي المشهور بالمواعظ والحكم ترجم له عبد الله كنون في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق م٤٤ ص٢٣-٢٤.
ونسب للطرماح (ديوان أبي الأسود ٢٣١) وهو الطرماح بن حكيم الطائي المتوفي حوالي ١٠٥هـ المترجم له في الشعر والشعراء (السقا)٢٢٨ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان١ / ٢٤٤ وديوانه مطبوع في لندن١٩٢٧ وفي دمشق١٩٦٨.
ونسب للأخطل (الكتاب ١ / ٤٣٤) ونسب لآخرين (حماسة الظرفاء١ / ١٧٢).

(١) البيت: لاتنه عن خلق... الخ زيادة من ط وليس في غ وقد أورده الماوردي في الأمثال والحكم (الورقة ٥٢ب) منسوباً إلى المتوكل الليثي، والبحتري أيضاً (الحماسة ١٧٣) وديوانه٢٨٣، والأغاني١٢ / ١٦٠، والحماسة البصرية٢ / ١٥، وهو في ديوان أبي الأسود٢٣١و٢٣٣، والعقد الفريد (العريان)٢ / ١٦٦، ٢ / ٢١٥، ومجمع الأمثال٢ / ٢١٣ رقم٣٥٠١، شرح نهج البلاغة٤ / ٢٢٧، ديوان الأخطل٣٩٧، جامع بيان العلم وفضله١ / ١٩٥و١٩٦، حماسة الظرفاء١ / ١٧٢ وفيها تخريج.

(٢) هذان البيتان لم يذكرا في ط.

ونبذهُ، واستقلّ المحقّ ورفضه، ولم يرَ للمحقِّ حقّاً فمرحَ، ولئنْ طالَ لسانُ الملكِ فلسانُ الحقِّ أطولُ، ولئنْ وجبتْ طاعتُهُ فطاعةُ الحقِّ أوجبُ.

قالَ بعضُ الألبّاءِ:

من خادَعَ الحقَّ خُدِعَ، ومَنْ صارعَهُ صُرِعَ[١].

قال الشاعر[٢]:

متى ما تَقُدْ بالباطلِ الحقَّ يأبَهُ
وإنْ قُدْتَ بالحقِّ الرواسيَ تنقَدِ[٣]

ولئن يحتجّ لنفسهِ لمن علمَ وضوحَ حجتِه وظهرَ عجزُه عن إبانتِه أليقُ بسلطانهِ، وأحمدُ لزمانهِ، فإنّ كلَّ امرئٍ إنما يخاطبهُ تأصفرِ لسانهِ، ويقبضُ

---

(١) قوله: «من خادع الحق خدع، ومن صارعه صرع» أورده الرخجي غير منسوب بلفظ «من خادع الله خدع، ومن صارع الحق صرع» (أحاسن المحاسن١٦٠) وفي أدب الدنيا والدين لبعض الحكماء: «من تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان» (ص٩٣) وقد أورده ابن مسكويه ضمن حكم العرب وأمثالها السائرة بلفظ «من صارع الحق ذل ومن أكثر المزح مل، ومن ترك الكبر جلّ» (الحكمة الخالدة١٩٨) ومن أقوال علي: «من خادع الله خدع، من صارع الحق صرع» (غرر الحكم٢٦٦) و«من عاند الحق صرعه، ومن اغتر بالأمل خدعه» (ص٢٦٩) و«من صارع الحق صرعه» (كتاب ٢٠٠٠ كلمة ص٥١ رقم١١٥٣) ومجمع الأمثال (٢/٤٥٤، ٤٥٨) وقد جاء القول في ط بلفظ: ومن صارع الحق صرع.

(٢) قوله: «قال الشاعر» قلت هو قيس بن الخطيم بن عدي بن عمر الأوسي شاعر من أهل يثرب من شعراء الطبقة الثانية، وسمي أبا الخطيم لضربة خطمت أنفه. أدرك قيس الإسلام ولكنه لم يسلم وقتل في الهجرة لكثرة ملاحاته الخزرج الذين قتلوا أباه وهو صغير. انظر أخباره في الأغاني (ساسي) ٢ / ١٥٤-١٦٤، معجم المرزباني٣٢١-٣٢٢، طبقات الشعراء لابن سلام ص٨٩، ١٧٦، الخزانة٣ / ١٦٨-١٦٩، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية) ١ / ١١٤-١١٥ وقد نشر ديوانه في ليبزيك١٩١٤ وفي بغداد١٩٦٢.

(٣) قول الشاعر: «متى ما تقد بالباطل...» البيت أورده الماوردي في الأمثال والحكم منسوباً إلى قيس بن الخطيم (الورقة٢٠آ) وهو من قصيدة طويلة مطلعها:

تروح من الحسناء أم أنت مغتد   وكيف انطلاق عاشق لم يزود

انظرها في ديوانه الذي جمعه الدكتور ابراهيم السامرائي والدكتور أحمد مطلوب ص٤٤-٤٧ رقم القصيدة٦ وقد ورد البيت صفحة٤٦ منه. والبيت في التذكرة السعدية١ / ٣٣٢ منسوبا إليه.

نفسَه عن إقامةِ الحجةِ عليهِ، يراعي حقَّ نفسِه في ضبطِ شهواتِه؛ فإنّها من نتائجِ الهوىٰ المذمومِ المذهلِ عن زواجرِ العقولِ فيأتي منها [ما] لم يكنْ في العقلِ قبيحاً، ولا في الشرعِ محظوراً.

قال بعضُ العقلاءِ[١]

إذا تفرَّغَ الملكُ لِلَهْوِهِ[٢]، تفرّغَتِ الرعيةُ لإفسادِ[٣] ملكِه[٣].

[قال بعضُ البلغاءِ][٤]

من آثَرَ اللّهْوَ ضاعتْ رعيّتُهُ، ومن دوامَ السّكرَ فسدتْ رويّتُهُ[٥].

[الاعتدال]:

وليقفْ في مباحِ الشّهواتِ علىٰ حدٍّ معتدلٍ بين منزلتين متقابلتين: منعٍ وتمكينٍ؛ ليصلَ بالتمكينِ إلى لذتهِ، ويقفَ بالمنعِ على مصلحتهِ. ولأنْ يميلَ إلى المنعِ فيتوفَّرَ على سياستهِ خيرٌ من أنْ يميلَ إلى التمكين، فينهمكَ في لذّتهِ؛ لأنَّ زمانَ السياسة جدٌّ، وزمانَ اللّهوِ هزلٌ، والجدُّ حقٌّ، والهزلُ باطلٌ، والقيامُ بالحقِّ أولىٰ من الانهماكِ[٦] في الباطلِ. (٢٩ آ)

قال بعضُ الحكماء:

منْ قويَ على نفسهِ تناهىٰ في القوةِ، ومنْ صبرَ على شهوتهِ، بالغ في المروّةِ[٧].

---

(١) ط: بعض الحكماء.

(٢) ط: للشهوة.

(٣) غ: لفساد ملكه وما أثبتناه عن ط، وقد أورد الماوردي ما يشبه هذا القول في نصيحة الملوك مما ينسب إلى أردشير في عهده: «إن اللعب واللهو ليس من أخلاق الملوك وأنهما يضران بأسباب المملكة مؤذنان بخرابها مؤدّيان إلى تداعيها» (الورقة ٣٤ب).

(٤) الزيادة من ط.

(٥) قولهم: «من آثر اللهو ضاعت رعيته...» أورده الرخجي غير معزو بما نصه «من أكثر اللهو من السلاطين ضاعت رعيته، ومن داوم الشك فسدت رويته» (أحاسن المحاسن ١٦٥).

(٦) غ: الاهمال.

(٧) قولهم: «من قوي على نفسه تناهى في القوة... ورد هذا القول ضمن الأقوال المنسوبة للإمام علي رضي الله عنه بلفظ «من قوي على نفسه تناهى في القوة ومن صبر على شهوته تناهى في المروة» (غرر الحكم ٢٧٤) وورد أيضاً بلفظ «أجلّ الناس من وضع نفسه، وأقوى

[وقيلَ في منثورِ الحكمِ :
أيدي العقولِ تُمسِكُ أعنّةَ الأنْفسِ][(١)]

[السواسية]:

وربّما اختصَّ بعضُ الملوكِ في اللذاتِ بما يحظرهُ على من سواهُ لينفردَ باللذةِ كما تفرّدَ بالقدرةِ، ويأسىٰ أنْ يشاركَهُ فيها من لا يساويه في الرتبةِ، فيخالفُ عدلَ السياسةِ وصوابَ التدبيرِ؛ لأنّه يوغرُ الصدورَ وينشيء النفورَ؛ لما جُبلتْ عليهِ القلوبُ من بغضِ من استبدَّ واستأثَرَ، وتوقعِ الخيرِ بمنْ استباحَ ما حظرَ.

وربّما عوجلَ بالغوائلِ، فانَّ نوازِعَ الشهواتِ تبعثُ على التوصّلِ إليها بكلِ حقٍّ وباطلٍ، فيصيرُ الخطرُ في حَظْرِها يكدّرُ اللذةَ [في] استباحتِها، ولو أباحَ ما استباحَ لكانَ أصفىٰ للذمةِ، وأسلمَ في عاقبتهِ.

فليكنْ ما استباحَهُ من اللذاتِ مباحاً للعمومِ ، ولو أطاعتْهُ نفسُه على أنْ يمنعَها من اللذاتِ التي لا يقدرُ من دونَهُ عليها كانَ أبلغَ في استعطافِ القلوبِ، وطمس العيوبِ.

كتبَ الإسكندرُ[(٢)] إلى معلمِهِ[(٣)] يسترشدهُ في تدبيرِ ملكِهِ فكتبَ إليهِ في جملةِ رسالتهِ:

الناس من قوي على نفسه» (ص٨٩) وقد ورد هذا القول في غ بلفظ: «. . . ومن صدّ عن شهوته» وما أثبتناه عن ط.

(١) الزيادة من ط وليست في غ.

(٢) الإسكندر بن فيلبش أو فيلبس أول ملك من ملوك اليونانيين وأعظمهم على ما ذكره بطليموس تتلمذ على معلمه أرسطوطاليس، امتد سلطانه إلى فارس والهند والصين ومصر والشام توفي في بابل سنة ٣٢٤ قبل الميلاد وقد ذكره المؤرخون العرب كثيراً وأثنوا عليه وربما لقبوه بذي القرنين، انظر نماذج من أقواله وبعضاً من أخباره في مروج الذهب١ / ١٧٩-١٨٧، التمثيل والمحاضرة١٣٣، ١٣٧، ١٧٦-١٧٧، نهاية الأرب ٦ / ١٦، العقد الفريد١ / ٢٨، ٢٩، ١٤٥، ١٤٦، البيان والتبيين١ / ٨١، ٢٠٤٠٧ / ٦٥، مختار الحكم ص٢٢٢-٢٥١، الحكمة الخالدة٢١٩.

(٣) معلم الإسكندر هو أرسطوطاليس حكيم اليونان والفيلسوف الكبير صاحب مدرسة المشائين، خلف عدداً من المؤلفات في المنطق والطبيعيات والإلهيات والأخلاق توفي سنة ٣٢٢ قبل الميلاد، انظر شيئاً من مؤلفاته وأخباره في الفهرست٣٥٩-٣٦٦، أخبار الزمان =

لا تتناولْ من لذيذِ(١) العيشِ ما [لا](٢) يمكنُ أوساطُ أصحابِك تناولَ مثلِهِ؛ فليسَ مع الاستبدادِ محبةٌ، ولا مع المواساةِ بغضة(٣).

[محاسبة النفس]:

ليكنْ من دأبِ الملكِ تهذيبُ نفسِهِ بِسَبْرِ أخلاقِهِ، وتصفحِ أحوالِهِ وأفعالِهِ؛ فإنّه لا يحبذُ عليها بإنكارٍ، وإن استنكرتْ، ولا يواجهُ عليها بإكبارٍ وإنْ أكبرتْ، ولا يسمعُ لها بذمٍّ وإن ذمتْ، ولا يلقىٰ فيها إلّا بما يرضيهِ من سدادِ مختلِّها (٢٩ ب) وصلاحِ معتلِّها.

فإن تركَ نفسَهُ وهو متروكٌ محتشمٌ، وأهملَها وهو مطاعٌ معظمٌ، قادهُ الهوىٰ في القدرةِ إلى مساويء الأخلاقِ، وساقهُ الإهمالُ والمتاركة إلى قبائحِ الأفعالِ.

قال بعض الألبّاءِ:

من عملَ عملاً في السّرِّ يستحيي منه في العلانيةِ، فليسَ لنفسِهِ عندهُ قدرةٌ(٤).

= للمسعودي٩٤، تاريخ الفلسفة في الإسلام تأليف دي بور وترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة ط١ ص٢٧ وما بعدها، مختار الحكم ١٧٨-٢٢٢، الحكمة الخالدة٢٦٦-٢٨١، عيون الأنباء في طبقات الأطباء١ / ٨٤-١٠٥، طبقات الأدباء٢٥.

(١) غ: لذة والتصحيح من ط.

(٢) الزيادة من ط، وعبارة غ: لاتتناول من لذة العيش ما يمكن تناوله أوساط أصحابك تناول مثله...

(٣) كتاب أرسطوطاليس إلى الإسكندر تجد مقاطع منه في مختار الحكم١٩٦، ٢٠٥، ٢١٥، ٢١٨، ٢١٨، الحكمة الخالدة٢١٩، عيون الأنباء في طبقات الأطباء١ / ٩٩، نهاية الأرب ٦ / ١٦.

(٤) قوله: قال بعض الألباء: «من عمل عملاً في السرّ...» ورد في أدب الدنيا والدين أنه «سئل محمد بن علي عن المروءة؟ فقال: ألا تعمل في السر عملاً تستحي منه في العلانية» (ص٢٩٩) وقد ورد القول غير منسوب لقائل في (٢٢٧) وفي (مختار الحكم ٢٩٨)، وفي حاشيته أنه لإسقلبيوس (المصدر نفسه) وفي التمثيل والمحاضرة أن أنوشروان قال: «المروءة ألّا تعمل عملاً تستحي منه في العلانية» (ص٤٢١-٤٢٢) ومن أقوال علي رضي الله عنه: «جماع المروءة أن لا تعمل في السر ما تستحي منه في العلانية» (غرر الحكم١٦٥) ونسبه الثعالبي في الإيجاز والإعجاز إلى اسفندياذ (أحد ملوك العجم) وأتى به بلفظ «لا تعمل في السر ما تستحي منه في العلانية» (ص١٠) وأورده ابن قتيبة من كلام محمد بن عمران التيمي بلفظ «ما شيء أشد حملاً عليّ من المروءة، قيل: وأي شيء المروءة؟ قال: لا تعمل شيئاً في السر تستحي منه في العلانية» (عيون الأخبار١ / ٢٩٥).

فيهذبُ الملكُ نفسَهُ بنفسِهِ، ويستعينُ في صلاحِها بحزمِهِ، ويراقبُ وليَّهُ كما يراقبُ عدوَّهُ، ولا تحدثُ[١] له الثقةُ والأنسةُ والانبساطُ، تركَ التحفظِ عند وليٍّ، أو نسيبٍ[٢]، فمن عَرَفَ منهم زلَّتَهُ استقلَّ هيبتَهُ.

وقد يصيرُ الموالي المؤنسُ عدوّاً وموحشاً، فينمُّ بما علمَ.

قالَ بعضُ العلماءِ[٣]:

ليكن استحياؤُكَ من نفسِكَ أكثرَ من استحيائِكَ من غيرِكَ[٤].

وقيلَ:

ما أحْبَبْتَ أنْ تسمعَهُ أُذناكَ فأْتِهِ، وما كرهتَ أن تسمعَهُ أذناكَ فاجتنبْهُ[٥].

* * *

فهذِهِ جملةٌ كافيةٌ في أخلاقِ الملكِ الرشيدِ،
واللهُ وليُّ التوفيقِ
والتسديدِ[٦]

---

(١) غ: يحدث.

(٢) غ: نسب.

(٣) ط: بعض الحكماء، وكذا في أدب الدنيا والدين.

(٤) قولهم: «ليكن استيحاؤك من نفسك أكثر من استيحائك من غيرك» أورده المؤلف بلفظه في أدب الدنيا والدين (٢٢٧) غير منسوب لأحد. ومن كلام علي: «أحسن الحياء استيحاؤك من نفسك» (غرر الحكم٩١) و«غاية الحياء أن يستحي المرء من نفسه» (٢٢٢) و«من تمام المروءة أن تستحي من نفسك» (٣٠٤).

(٥) قوله: «ما أحببت أن تسمعه أذناك...» أورد الماوردي هذا القول على أنه حديث من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك في أدب الدنيا والدين (٢٢٦) وهو من الأمثال السائرة فانظره في أمثال أبي عبيد (ص١٥) ومجمع الأمثال (٢ / ٤١١ رقم٤٦٣٩).

(٦) ورد في ط قوله: فصل: قد مضى الكلام في أخلاق الملك. وأما الكلام في سياسة الملك فروي عن النبي عليه السلام أنه قال: «من سار فيمن بين ظهريه بسيرة حسنة...» إلخ الحديث الذي سيرد بعد قليل إن شاء الله تعالى.

الباب الثاني
في سياسة الملك(١)

[تمهيد]:

قالَ أقضى القضاةِ رَحِمَهُ اللهُ:

حقٌّ على منْ مكّنَهُ اللهُ تعالى من أرضِه وبلادِه، وائتمنه على خلقِهِ وعبادِهِ، أنْ يقابلَ جزيلَ نعمتِهِ بحسنِ السريرةِ، ويجريَ من الرعيةِ بجميلِ السيرةِ.

قالَ اللهُ تعالى: (٣٠آ)

«يا داودُ إنّا جعلناكَ خليفةً في الأرضِ، فاحكُمْ بينَ النّاسِ بالحقِّ ولا تتّبعِ الهوى»(٢).

وقال عزّ وجلّ:

«ولا تنسَ نصيبَكَ من الدّنْيا، وأحسنْ كما أحسنَ اللهُ إليكَ»(٣).

---

(١) في سياسة الملك قال أفلاطون:
«السياسة خمسة أنواع:
أولها: السياسة الكلية: وهي الشاملة لجوامع الكليات. وهي التي تقول بأن الناموس الأجل تولى إحكامها وإتقانها.
والثانية: الملكية: وهي التي يسوس لها الملك رؤساء المدن.
والثالثة: المدنيّة: وهي التي يجب أن يساس بها سكان المدينة.
والرابعة: البيتية: وهي التي يتولاها رب كل منزل في أهله.
والخامسة: البدنيّة: وهي التي تجب على كل واحد في بدنه ونفسه».
(انظر السعادة والإسعاد ٢٠٩-٢١٠).

(٢) سورة ص، آية ٢٦.

(٣) سورة القصص، آية ٧٧.

ورويَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنّه قالَ:

«من سارَ فيمنْ بينَ ظهريهِ بسيرةٍ حسنةٍ كانَ لهُ أجرُها وأجرُ من عملَ بها إلى يومِ القيامةِ من غيرِ أن ينقصَ من أجورِهم شيءٌ، ومن سارَ فيمنْ بينَ ظهريهِ بسيرةٍ سيئةٍ كانَ عليهِ وزرُها ووزرُ العاملين بها إلى يومِ القيامةِ من غيرِ أنْ ينقصَ من أوزارِهم شيءٌ»[١].

ورويَ عن عمرَ رضي الله عنه أنّه قالَ:

لو ضاعتْ سخلةٌ على شاطِىء فراتٍ لخشيتُ أن يسألَني اللهُ عليها[١].

وحكي أنّ عثمانَ بنَ عبد اللهِ وقفَ على محمدِ بنِ سماعةَ[٢] القاضي وهو في مجلس قضائهِ يحكمُ بينَ الناسِ فقال:

---

(١) حديث: «من سار فيمن بين ظهريه بسيرة حسنة.. الخ» الحديث رواه مسلم عن جرير بن عبد الله في العلم من كتاب الصحيح بلفظ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء» (صحيح مسلم بشرح النووي ١٦ / ٢٢٥-٢٢٦) وانظر (رياض الصالحين ١٠٢). ورواه الترمذي في العلم عنه (سنن ٤ / ١٤٩، رقم ٢٨١٥)، قال وفي الباب عن حذيفة، هذا حديث حسن صحيح. ورواه النسائي في الزكاة، وابن ماجة في السنة (ذخائر المواريث ١ / ١٨١، رقم ١٦٤١)، و(الترغيب والترهيب ١ / ٤٢-٤٣) وفي الباب عن أبي جحيفة في الطبراني في الأوسط، وعن واثلة بن الأسقع في الطبراني في الكبير وغيرهما، (مجمع الزوائد ١ / ١٦٧-١٦٨)، و(كشف الخفاء ٢ / ٣٥٣، رقم ٢٥٠٩).

(٢) قوله: وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لو ضاعت سخلة..» أخرجه ابن الجوزي في السيرة بألفاظ مختلفة منها قوله: «لو ماتت شاة على شاطيء الفرات ضائعة لظننت أن الله عزّ وجلّ سائلي عنها يوم القيامة» وأخرجه عن داود بن علي. وفي لفظ آخر عن عبد الله بن عمر: «لو مات جدي بطف الفرات لخشيت أن يحاسب الله به عمر»، وعن علي رضي الله عنه قال: «رأيت عمر بن الخطاب رضوان الله عليه على قتب يعدو فقلت يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ فقال: بعير ندّ من إبل الصدقة أطلبه، فقلت: لقد أذللت الخلفاء بعدك، فقال: يا أبا الحسن لا تلمني، فوالذي بعث محمداً بالنبوة لو أن عناقاً (أي سخلة) ذهبت بشاطيء الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة»، (سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي طبعة الدار القومية، ص١١٣)، و(كتاب ألف كلمة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ص٦٩، وص٩٠).

(٣) محمد بن سماعة: هو أبو عبد الله محمد بن سماعة بن عبيد بن هلال بن وكيع بن بشر =

إسمَعْ - لا سَمِعْتَ - يا ابنَ سماعة، وأنشدَ يقولُ: [من الوافر]

لـقـد كـلِّفْـتَ يـا مـسـكـيـنُ أمـراً
تـضـيـقُ لـهُ قـلوبُ الـخـائـفـيـنـا[1]

أتـعـلَمُ أنَّ ربَّ الـعـرشِ قـاضٍ
وتـقـضـي أنـتَ بـيـنَ الـعـالـمـيـنـا

فقامَ ابنُ سماعة من مجلسِهِ، ودموعُه تجري[2] على خدّيه[3].

فليسَ أحدٌ [أجدرَ] بالحذرِ والإشفاقِ، وأولى بالنصبِ والاجتهادِ ممنْ تقلّدَ أمورَ الرعيةِ؛ لأنّها أمانةُ اللهِ التي أمّنَهُ عليها، ورعيتُه التي استرعاه فيها واستخلفَه على أمورِها، وهو تعالى وليّ السؤالِ عنها.

ولأنّه سبحانَه حَسَمَ موادَّ الاعتراضِ منها على أفعالِهِ وكفَّ ألسنتَها عن ردِّ ما رآهُ في اجتهادِهِ، وأوجبَ عليها طاعتَه، وألزمَهـا الانقيادَ لحكمِـه، وأمَرَهُـمْ أنْ يتصرّفوا بين أمرِهِ ونهيِهِ فقالَ تعالى:

«يا أيُّها الذينَ آمنوا أطِيعُوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكمْ»[4].

= التميمي، أخذت عن الليث بن سعد وأبي يوسف ومحمد بن الحسن وكتب النوادر على أبي يوسف ومحمد وروى الكتب والأمالي، وهو من الحفاظ وأحد أصحاب الرأي، ولي القضاء ببغداد للمأمون بعد يوسف بن أبي يوسف، فلم يزل ناظراً إلى أن ضعف بصره فاستعفاه، وتوفي بعد تركه القضاء بمدة طويلة في سنة ٢٣٣هـ، وكان مولده سنة ١٣٠هـ وله كتب مصنفة، وأصول في الفقه، انظر ترجمته وأخباره في: أخبار القضاة لوكيع ٣ / ٢٨٢، ٢٨٩، ٣٢٦، الفهرست ٣٠٣، تاريخ بغداد ٥ / ٣٤١-٣٤٢، رقم الترجمة ٢٨٥٩، تاج التراجم ٥٤-٥٥، طبقات ابن سعد ٥ / ٣٢١، أخبار قضاة بغداد وحكامها للدروبي بتحقيقنا (مخطوط) رقم الترجمة ١٦، طبقات أصحاب الحنفية لحنائي زادة، (مخطوط)، الورقة ٨ب-٩آ، الجواهر المضيئة ٢ / ٥٨، رقم ١٨٩.

(١) غ: الخافقينا والتصحيح من ط.

(٢) ط: جارية:

(٣) غ: على خده.

(٤) سورة النساء، آية ٥٨.

وجعلَ صلاحَ جماعَتِهم بصلاحِه، وفسادَ أمورِهم بفسادِه، لأنّهُ قلبٌ، وهُمْ أطرافٌ، وقطبٌ وهم أكنافٌ. (٣٠ب).

قال بعضُ العقلاء:

رشادُ الوالي خيرٌ من خصبِ الزمانِ[١].

وأرشدُ الولاةِ من حَرَسَ بولايتِه الدينَ، وانتظَمَ بنظرِه صلاحَ المسلمينَ؛ لأنّ الدينَ يُصلحُ سرائرَ القلوبِ، ويمنعُ من ارتكابِ الذنوبِ، ويبعثُ على التألّهِ والتناصفِ، ويدعو إلى الألفةِ والتعاطفِ، وهذه قواعدُ لا تصلحُ الدنيا إلّا بها، ولا يستقيمُ الخلقُ إلّا عليها، وإنما السلطنةُ زمامٌ لحفظِها، وباعثٌ على العملِ بها، ولو أهملوا، ونوازِعُ الأهواءِ جاذبةٌ، واختلافُ الآراءِ متقاربةٌ، لتمارَحُوا، وتغالَبُوا، ولما عُرِفَ حقٌّ من باطلٍ، ولا تميّزَ صحيحٌ من فاسدٍ، وليسَ في العقلِ ما يجمعُهم على حكمٍ يتساوى فيه قويُّهم وضعيفُهم، ويتكافأ فيهِ شريفُهم ومشروفُهم، فلذلكَ وقفتْ مصالحُهم على دينٍ يقودُهم إلى جمعِ الشملِ واتفاقِ الكلمةِ، وينقطعُ به تنازعُهم، وتنحسمُ بهِ موادّ أطماعِهم واختلافهم، وتصلُحُ به سرائِرُهم، وتنحفظُ به أمانتُهم.

---

(١) قولهم: «رشاد الوالي خير من خصب الزمان»، ورد في عهد أردشير مبدوءاً بقوله: «وقد قال الأولون منا: رشاد الوالي خير للرعية من خصب الزمان» (عهد أردشير ص **٥٣** الفقرة ٣) ومن هنا نسب إلى أردشير في الإيجاز والإعجاز، ص١٢، بلفظ «عدل السلطان خير من خصب الزمان» ونسبه المسعودي إلى كسرى أنوشروان بلفظ «صلاح أمر الرعية أنصر من كثرة الجنود وعدل الملك أنفع من خصب الزمان»، (مروج الذهب ١ / ٢٧٠)، وورد منسوباً إلى أمثال الفرس في التمثيل والمحاضرة (٤٣)، وورد غير منسوب في غرر السير ٤٨٣، ومحاضرات الراغب الأصفهاني ١ / ١٦٣، والإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٤٩، والمستطرف ١ / ١٠١، والمصباح المضيء في خلافة المستضي ١ / ٤٢٤، ٤٥١ وفي هذا المعنى ورد قول عمرو بن العاص «إمام عادل خير من مطر وابل، وأسد حطوم خير من إمام غشوم، وإمام غشوم خير من فتنة تدوم»، انظر في التمثيل والمحاضرة (٣١) وغاية الأدب (٢٥٧) والإيجاز والإعجاز (ص١٢)، والمحاضرات ١ / ١٦٩، ونسبه عبد الواحد الآمدي إلى عليّ رضي الله عنه (غرر الحكم ٣٥)، وكذا في سراج الملوك ٥٢، وقد نسب القول الأخير إلى أردشير (غرر أخبار ملوك الفرس ٤٨٣، ولباب الآداب ٣٤٦، والعقد الفريد ١ / ٧، والكامل للمبرّد ١ / ٢٦٩.

وربّما أهْمَلَ بعضُ الملوكِ الدّينَ، وعوّل في أمورهِ على قوتِه، وكثرةِ أجنادِهِ، وليسَ يعلمُ أنّ أجنادَه إذا لم يعتقدوا وجوبَ طاعتِه في الدّينِ كانوا أضرَّ عليهِ من كلّ ضدٍّ مباينٍ، لاقتراحِهم عليهِ ما لا ينهضُ بِهِ، وتحَكُّمِهم عليهِ بما لا يثبتُ لهُ، فإنْ سمعوا بنابغٍ نبغَ عليهِ، قويَ طمعُهم في اجتياحِ أموالِهِ، ولم يقنعْهُمْ استيعابُ حالِـه، وكانَ منهم على شفـا جَرفٍ هـارٍ، لا يأمنُ سطوتَهم به.

وقد قيلَ:

من جعلَ ملكَهُ خادماً لدينِهِ انقادَ لهُ كلُّ سلطانٍ، ومن جعلَ دينَه خادماً لملكِه طمعَ فيهِ كلُّ إنسانٍ[١].

* * *

(١) قوله: «وقد قيل: من جعل ملكه خادماً لدينه انقاد له كل سلطان..»، أورده الأمير أسامة بن منقذ بهذا اللفظ ولم ينسبه لمعين بل قال: «وقال حكيم آخر..» (لباب الآداب ٥٤)، وقد ذكر المبشر بن فاتك هذا القول منسوباً إلى أرسطوطاليس بلفظ: «أي ملك أخدم ملكه دينه فهو مستحق للرياسة، وأي ملك جعل دينه خادماً لملكه، فالملك آفة له» (مختار الحكم ١٩٢)، وقد أورده عبد الواحد الآمدي بلفظه ضمن أقوال الإمام علي رضي الله عنه، (غرر الحكم ٢٩٥) وأورد في موضع آخر من كلامه أيضاً: «إن جعلت دينك تبعاً لدنياك أهلكت دينك ودنياك وكنت في الآخرة من الخاسرين، وإن جعلت دنياك تبعاً لدينك أحرزت دنياك ودينك، وكنت في الآخرة من الفائزين» (ص١٢٣-١٢٤) وانظر ما يشبهه من (ص٢٠٢، ٢٠٣). وأورده أبو الحسن بن الحسين الرخجي غير منسوب بلفظ: «كل ملك جعل ملكه خادماً لدينه انقاد له كل سلطان، ومتى جعل دينه خادماً لملكه طمع فيه كـل إنسان» (أحاسن المحاسن ١٥١).

[الفصل التاسع عشر]
[أن يكونَ الملكُ أفضلَ الناس ديناً]

[الدين والملك]:

ينبغي(١) للملكِ أنْ يأنفَ من أنْ يكونَ (١٣١) في رعيتِهِ من هو أفضلُ ديناً منه، كما يأنفُ أن يكون في رعيتِهِ(٢) [من هو](٣) أنفذُ أمراً منه.

وقالَ أردشير بنُ بابكَ(٤) في عهدِهِ(٥) إلى ملوكِ فارس:

---

(١) ط: قال بعض الحكماء: ينبغي للملك أن يأنف أن يكون...

(٢) غ: فيهم.

(٣) الزيادة من ط.

(٤) أردشير بن بابك: وأردشير: بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح الدال المهملة وكسر الشين المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء، قاله الدارقطني الحافظ، وقال غيره: معناه دقيق وحليب، ومثيل معناه دقيق وحلو، وهو لفظ أعجمي مكون من لفظتين (أرد) وهو عندهم الدقيق و(شير) الحليب، و(شيرين): الحلو، والله أعلم. وقال بعضهم: أزدشير بالهمزة والزاي، قال ابن مكي الصقلي: «والصواب أردشير بن بابك براءين وفتح الباء» (تثقيف اللسان ٦٥)، وانظر (مجلة لغة العرب ١ / ١٥٢)، وأردشير هذا هو أحد ملوك الفرس الذي أباد ملوك الطوائف، ومهد الملك لنفسه، واستولى على الممالك، حكم بعد أردوان بن بهرام واستمر في حكمه ١٤ سنة وجاء من بعده ابنه سابور، انظر حوله وفيات الأعيان ٢ / ١٠٠-١٠١، ضمن الترجمة ٢٤١، ٣ / ٤٨١ ضمن الترجمة ٦٢٠، وغرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبي ٤٧٣-٤٨٦، وتاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ٤٢-٤٤، مروج الذهب ١ / ١٤٥-١٥٥، وانظر نماذج من أقواله وأخباره في تاريخ الطبري ٢ / ٣٧-٤٣، (١ / ٨١٣-٨٢٢، طبعة أوروبا)، التنبيه والإشراف ٩٨، البدء والتاريخ ٣ / ١٥٦، التاج في أخلاق الملوك: ٢٥، ٢٧، ٤٧، ١١٨، ١٥٥، العقد الفريد ١ / ٢٧، ٢٩، ٤٨، ١٤٨، التمثيل والمحاضرة ١٣٦، ثمار القلوب ١٧٨، مقدمة كتاب عهد أردشير للدكتور إحسان عباس.

(٥) عهد أردشير: كان الملك من ملوك فارس يعهد إلى من بعده من الملوك عهداً يكون لهم إماماً ومرشداً، ويكون واجباً عليهم أن يدمنوا قراءته ويكثروا تدبره، فعهد أردشير وصية جامعة لمؤسس دولة جمع فيها تجاربه ومعرفته منسقة، فلا غرابة إذا ما صار لديهم دستوراً يحاط بالإجلال والتقديس؛ لما امتاز به أردشير من الذكاء، وبعد النظر، والعدالة، والحزم، فكان وثيقة سياسية هامة، تبين جوانب الفكر السياسي آنذاك، وقد ترجم إلى العربية في دور مبكر، يرجح أنها كانت في أواخر العصر الأموي، (انظر مقدمة عهد أردشير، ص٣٥)، وظل هذا العهد متناثراً بين ثنايا الكتب، ولم ينشر - إذا استثنينا منتخب العلامة أحمد تيمور =

إنّ الدّينَ والمُلْكَ(١) تَوْأَمانِ لا قوام لأحدهما إلّا بصاحبه؛ لأنَّ الدِّينَ أُسٌّ، والملك حارسٌ(٢)، ولا بدَّ للملكِ من أسِّه، ولا بدّ للأُسِّ(٣) من حارسِه؛ لأنَّ ما لا حارسَ(٤) له ضائعٌ، وما لا أُسَّ له منهدمٌ(٥).

= باشا منه الذي طبعه سنة ١٣١٨هـ - حتى قام الدكتور إحسان عباس أخيراً بتحقيقه وطبعه بمطبعة دار صادر، بيروت، طبعته الأولى سنة ١٩٦٧.

قال المبرّد: «ويروى أن المأمون أمر معلم الواثق بالله - وقد سأله عما يعلمه إياه - أن يعلمه: كتاب الله جلّ اسمه، وأن يقرئه عهد أردشير، ويحفظه كتاب كليلة ودمنة» (الفاضل ص٤).

(١) غ: الملوك، وما أثبتناه عن ط وعن مصادر التخريج.

(٢) غ: حادث.

(٣) ط: للدين، وما أثبتناه عن غ، وعن مصادر التخريج.

(٤) غ: حادث.

(٥) قول أردشير: «إن الدين والملك توأمان..» وردت هذه الفقرة في عهد أردشير بلفظ: «واعلموا أن الملك والدين أخوان توأمان لا قوام لأحدهما إلّا بصاحبه؛ لأن الدين أسّ والملك عماده، ثم صار الملك بعد حارس الدين، فلا بدّ للملك من أسّه، ولا بد للدين من حارسه؛ لأن ما لا حارس له ضائع، وما لا أسّ له مهدوم»، (انظر عهد أردشير ص٥٣، الفقرة رقم ٤)، وقد استشهد الماوردي بنصوص من هذا العهد في كتابه نصيحة الملوك، (الورقة ٦ب، ٢١آ)، وقد وردت هذه العبارة في كثير من المصادر على صور مختلفة: ففي رسائل البلغاء: (ط٣ ص٣٨٢): «الدين أساس الملك، والملك حارس الدين، فلا يقوم أحدهما إلّا بالآخر..» وفي عيون الأخبار «إن الملك والدين أخوان لا غنى بأحدهما عن الآخر، فالدين أسّ والملك حارس، وما لم يكن له أسّ فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع..»، (جـ١ ص١٣)، وأيضاً في (ص٥ منه)، وتجد العبارة كما وردت في العهد في مروج الذهب (١ / ١٥٤) وأنها من وصية أردشير لابنه سابور، وهي في لباب الآداب (ص١٨)، وفيها زيادة، ونهاية الأرب (٦ / ٣٥)، والمستطرف (١ / ٨٧)، والعقد الفريد (١ / ٢٧) وفيه: «إن الملك والعدل أخوان..»، وفي سراج الملوك (٦١)، وغرر الخصائص (٦٣)، ومحاضرات الراغب الإصفهاني (١ / ١٦٧)، وقد ورد مقطع منه في التاج في أخلاق الملوك (ص٣) غير منسوب، وفي الترجمة والنقل عن الفارسية منسوباً إلى أنوشروان بلفظ: «إن قوام الملك إنما هو الدين، فإذا ضعف الدين ضعف الملك» (ص١٠٥)، والسعادة والإسعاد منسوباً إليه في كلام طويل (ص٢٠٧)، وتفسير روح البيان للشيخ اسماعيل حقي البزوسوي (المطبعة العثمانية ١٣٣٠هـ، جـ١، ص٣٩٢)، في تفسير آية: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض»، (آية ٤٠، من سورة الحج)، وانظر شرح نهج البلاغة (٤ / ١٣٦) وقد تكلم الغزالي بمعناها (نصيحة الملوك ٥١)، قال ابن الجوزي معلقاً على هذا العهد: «قلت وهذا الذي قاله صحيح؛ فإن الأصل الملة والدين، والأنبياء تسوس بالترهيب والتشويق الأخراوي، ولما لم يكف ذلك في ردع النفوس لقوة غلبة الطباع، ردعت =

[الدفع عن الدين بالملك]:

وكتبَ حكيمُ الرّوم[١] إلى الإسكندر:

إدفعْ عن دِينِكَ بملكِكَ، ولا تدفعْ بدينِكَ عن ملكِكَ، وصيِّرْ دنياكَ وقايةً لآخرتك، ولا تصيّرْ آخرتَكَ وقايةً لدنياكَ[٢]

وكيفَ يرجو من تظاهرَ بإهمالِ الدينِ استقامةَ ملكٍ، وصلاحَ حالٍ، وقد صارَ أعوانُ دولتِهِ أضدادَها، وسائرُ رعيّتِهِ أعداءَها، مع قبحِ أثرِهِ وشدَّةِ ضررِهِ، وبذلكَ قالَ النبيُّ عليهِ السلامُ:

«[إنّكم] ستحرصونَ على الإمارةِ، ثم تكونُ حسرةً وندامةً يومَ القيامةِ، فنعمت المرضعةُ وبئستِ الفاطمةُ»[٣].

= بالتحذير الدنياوي كالقتل والحد، قال الله عز وجل: «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد» - الحديد: ٢٥- فالأمراء يدعون ما أمرت به الشرائع من الردع، فعلمت أن السلطنة شرعية، فيجب أن تكون السياسة فيها قائمة على حدّ العدل، فإن مالت إلى الظلم صار الوالي متصرفاً بهواه لا بأمر الشرع، فخرجت الولاية إلى مقام الهوى والطبع»، (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ١ / ٤٤٩-٤٥٠).

(١) قوله: «حكيم الروم» قلت هو أرسطوطاليس وقد مرت ترجمته وترجمة الإسكندر.

(٢) كتاب أرسطوطاليس إلى الإسكندر «ادفع عن دينك بملكك..» ذكره المبشر بن فاتك منسوباً إليه بلفظ «صيرّ دنياك وقاية لآخرتك، وصيرّ آخرتك وقاية لدنياك، وقدم مجلس من كان معروفاً بالورع واقض حوائج العامة بهم» (مختار الحكم ١٩٣)، وأورد عبد الواحد الآمدي قولاً لعلي رضي الله عنه بلفظ (صيرّ الدين حصن دولتك والشكر حرز نعمتك، فكل دولة يحوطها الدين لا تغلب، وكل نعمة يحرزها الشكر لا تسلب» (غرر الحكم ٢٠٢)، وورد القول غير منسوب في أحاسن المحاسن بلفظ «ذب بملكك عن دينك، ولا تذب بدينك عن ملكك، واجعل دنياك وقاية لأخراك، ولا تجعل آخرتك وقاية لدنياك، فمن ذب بملكه عن دينه عز نصره، ومن وقى آخرته بدنياه جلَّ قدره»، (ص١٦١).

(٣) حديث «إنكم ستحرصون على الإمارة..» رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة بلفظ «إنكم ستحرصون على الامارة وستكون ندامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة»، (صحيح البخاري ٤ / ١٥٨ - باب الأحكام) والنسائي من حديث أبي هريرة في سننه في كتاب القضاة والبيعة بلفظ «إنكم ستحرصون على الإمارة وإنها ستكون ندامة وحسرة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة» (سنن ٨ / ٢٢٥ و٧ / ١٦٢)، وأحمد في مسنده مرتين: إحداهما بلفظ «وستصير ندامة وحسرة.. فبئست المرضعة ونعمت الفاطمة»، والثانية بلفظ «..حسرة وندامة.. نعمت المرضعة وبئست الفاطمة»، من حديث أبي هريرة (مسند أحمد ٢ / ٤٤٨، ٤٧٦).

وقد قيلَ:

المُلكُ خليفةُ اللهِ في بلادِهِ، ولن يستقيمَ أمرُ خلافتِه مع مخالفتِه[1].

فالسعيدُ من وقى الدينَ بملكهِ، ولم يوقِّ الملكَ بدينِه، وأحيى السنةَ بعدلِه، ولم يمتْها بجورِهِ، وحرسَ الرعيةَ بتدبيرِهِ، ولم يضعْها بتدميرِهِ؛ ليكونَ لقواعدِ ملكهِ موطِّداً، ولأساسِ دولتِهِ مشيِّداً، ولأمرِ اللهِ في بلادِهِ ممتثلاً، فلن يعجزَ اللهَ استقامةُ الدينِ عن سياسةِ الملكِ وتدبيرِ الرعايا.

* * *

---

(١) قولهم: «الملك خليفة الله في بلاده..» أورده الأمير أسامة بن منقذ بلفظ «..لأن السلطان خليفة الله في أرضه..» ضمن قول طويل للحكيم أرسطوطاليس، (لباب الآداب ٥٨)، وانظر (ص٧٢ منه) منسوباً إلى الحكماء. ومن كلام أنوشروان: «الملوك خلفاء الله في أرضه» وقال: «الملوك أمناء الله في أرضه، وأولى الأمور بالمؤتمن حفظ ما اؤتمن عليه..»، (السعادة والإسعاد ٢٠٦-٢٠٨)، وفي (الترجمة والنقل عن الفارسية ص١٠٤-١٠٥)، وأورد الطرطوشي كلاماً طويلاً لسعد العشيرة حين دخل على بعض ملوك حمير جاء فيه «طاعة الأئمة فرض على الرعية، كما أن طاعة السلطان مقرونة بطاعة الله، اتقوا الله بحقه والسلطان بطاعته. من إجلال الله إجلال السلطان عادلاً كان أو جائراً..» (سراج الملوك ٥٩)، وأورده أبو الحسن محمد بن أبي ذر يوسف العامري النيسابوري ضمن أقوال أنوشروان بلفظ: «قال أنوشروان: إن الله تبارك وتعالى إنما خلق الملوك لتنفيذ مشيئته في خلقه، ولإقامة مصالحهم وحراستهم، فلذلك نقول بأنهم خلفاء الله في أرضه»، (السعادة والإسعاد ٢٠٦) وفي الحديث: «إنما السلطان ظلّ الله ورمحه في الأرض»، (المقاصد الحسنة ١٠٥، رقم ٢٠٧) و(كشف الخفاء ١ / ٢٤٦، رقم ٦٤٥) و(نهاية الأرب ٦ / ١٢)، ومن كلام كعب الأحبار: «السلطان ظل الله في أرضه»، (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ١ / ٤٠١).

[الفصل العشرون]
[قواعد الملك][1]

ثم أقول:
- إنّ قواعدَ الملكِ مستقرةٌ على أمرين:
- تأسيسٍ.
- وسياسةٍ.

---

(١) ذكر المؤلف هذه القواعد في أدب الدنيا والدين بتفصيل آخر إذ يقول:
«إعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة، وأمورها ملتئمة ستة أشياء هي قواعدها وإن تفرعت وهي:
دين متبع.
وسلطان قاهر.
وعدل شامل.
وأمن عام.
وخصب دائم.
وأمل فسيح...»
وأخذ يشرح كل قاعدة من هذه القواعد. (انظر ص.١١٩ وما بعدها).

[تأسيس الملك وأقسامه][١]:

فأمّا تأسيسُ الملكِ فيكونُ في تثبيتِ أوائلهِ ومباديهِ، وإرساءِ قواعدهِ ومبانيهِ.

وتنقسم ثلاثةَ أقسامٍ:
تأسيسُ دينٍ.
وتأسيسُ قوةٍ. **(٣١ب)**
وتأسيسُ مالٍ وثروةٍ.

[تأسيس الملك على الدين]:

فأما القسمُ الأولُ، وهو تأسيسُ الدين فهو أثبتُها قاعدةً، وأدومُها مدةً، وأخلصُها طاعةً.

وليسَ يخلو انتقالُ الملكِ به من ثلاثةِ أسبابٍ:

أحدُها:

أن يخرجَ الملكُ من منصبِ الدينِ حتى يتولّى عليهِ غيرُ أهلهِ، ويظهر منه خلافُ عقدهِ، فتنفرُ منه النفوسُ إن لانَ، وتعاندهُ إن خشنَ، تعصيه

---

(١) أورد الأمير أسامة بن منقذ للحكيم أرسطوطاليس قولاً فيه أقسام الملوك على النحو التالي: - «قال الحكيم:
اعلم أن الملوك ثلاثة: ملك دين، وملك حزم، وملك هوى. فأما ملك الدين فإنه إذا قام لأهله دينهم، وكان دينهم هو الذي يعطيهم الذي لهم، ويلحق بهم الذي عليهم أرضاهم ذلك، وأنزل الساخط منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم.
وأما ملك الحزم فإنه يقوم به الأمر ولا يسلم من الطعن والسخط، ولن يضر طعن مع حزم القوي.
وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار الدهر». (لباب الآداب ٧٤)، وفي الأدب الكبير من كلام ابن المقفع ضمن رسائل البلغاء، وفي سراج الملوك(٥٤) وعيون الأخبار (ج١ ص٢) منسوباً فيهما إلى ابن المقفع.

القلوبُ وإن أطاعتهُ الأجسادُ، فيتطلبُ الناسُ للخلاصِ منه أسباباً، ويفتحونَ للوثوبِ عليهِ أبواباً، يستهلونَ فيها بذلَ النفوسِ والأموالِ؛ حفظاً لدينِهم، فيصيرُ ملكُه عرضةً للطالبِ، وحريمُهُ غنيمةً للسالبِ، وقد قالَ حكيمُ الرومِ:

لا يزالُ الجائرُ من الملوكِ ممهّلاً، حتى يتخطى إلى أركانِ العمارةِ، ومباني الشريعةِ، فإذا قصدَها اقتربتْ مدتُهُ.

والسبب الثاني:

أن يكونَ الملكُ ممن قد استهانَ بالدِّينِ، وهوّنَ[1] أهلَه، فأهملَ أحكامَه، وطمسَ أعلامَه، حتى لا تؤدى فروضُه، وتوفى حقوقُه، إمّا لضعفِ عزمِهِ في الدينِ، وإما لانهماكِهِ في اللذاتِ، فيرى الناسُ أنَّ الدينَ أقومُ، ولحقوقهِ وفروضهِ ألزمُ، فيصيرُ دينُه مذحولاً[2]، وملكه محلولاً.

قال بعضُ الحكماء:

إذا أقبلتِ الدولةُ خدمتِ الشهواتُ للعقولِ، وإذا أدبرتْ خدمتِ العقولُ للشهواتِ[3].

والسبب الثالث:

أنْ يكونَ الملكُ ممن قد أحدثَ بدعةً في الدينِ شنعةً، واختارَ فيه أقوالاً بشعةً، يُفضي استمرارُها إلى تبديلِهِ، ويؤولُ إلى تغييرِهِ وتعطيلِهِ، فتأبى نفوسُ الناسِ بغيرِ دينٍ قد صحّ لهم معتقدُهُ، واستقرتْ في القلوبِ أصولُهُ وقواعدُهُ، فيصيرُ دينُه مرفوضاً، وملكُهُ منقوضاً.

فإذا طرأ على الدين هذه الأسبابُ الثلاثةُ، ونهضَ إلى طلب الملكِ

---

(١) غ: وهو من أهله وهو تصحيف.

(٢) مذحولاً: الذحل: الحقد والعداوة.

(٣) قولهم: «إذا أقبلت الدولة... الخ» أورد هذا القول المبشر بن فاتك ضمن آداب ومواعظ أفلاطون بنفس ألفاظ المقطع الأول، أما المقطع الثاني منه فبلفظ: «... وإذا أدبرت خدمت العقول الشهوات» (مختار الحكم ١٣٨).

من يقومُ بنصرةِ الدينِ، ويدفعُ(٣٢آ) تبديلَ المبتدعينَ، ويجري فيهم على السَّنَنِ المستقيم، أذعنتِ النفوسُ لطاعتهِ[١]، واشتدَّتْ في مؤازرتِهِ ونصرتِهِ، ورأوا أن بذلَ النفوسِ له من حقوقِ اللهِ المفترضةِ، وأنّ النصرةَ له من أوامرِهِ الملتزمةِ، فملكَ القلوبَ والأجسادَ، واستخلصَ الأعوانَ والأجنادَ، فإن نالوا معه من الدنيا حظًّا، وجمعوا به بين صلاحي الدينِ والدنيا، صارَ مجتذباً[٢] إلى الملكِ لا جاذباً، ومرغوباً إليه لا راغباً، ولانَ لَهُ كلُّ صعبٍ، وهانَ عليه كل خطبٍ، وتوطّد له من أسِّ الملكِ ما لا يقاومُ سلطانَه، ولاً تُغَلُّ أعوانُه؛ لفرقِ ما بين ملكِ الطالبِ والمطلوبِ، وتباين ما بينَ طاعةِ الخاطبِ والمخطوبِ.

[تأسيس الملك على القوة]:

وأما القسمُ الثاني، وهو تأسيسُ القوّةِ، فهو أنْ يُحَلَّ نظامُ الملكِ إما بالإهمالِ والعجزِ، وإما بالظلمِ والجورِ، فينتدبُ لطلبِ الملكِ أولو القوةِ، ويتوثبُ عليه ذو القدرةِ، إما طمعاً في الملكِ حينَ يضعفُ، وإما دفعاً للظلمِ حين استمرَّ.

وهذا إنما يتمُّ لجيشٍ قد اجتمعتْ فيهم ثلاثُ خلالٍ:

كثرةُ العددِ.

وظهورُ الشجاعةِ.

وتفويضُ الأمرِ الى مقدّمٍ عليهم إمّا لنسبٍ وأبوّةٍ، وإما لفضلِ رأيٍ وشجاعةٍ.

فإذا توثّبوا على الملكِ بالكثرةِ، واستولوا عليه بالقوةِ كانَ ملكَ قهرٍ.

فإن[٣] عدلوا مع الرعيّةِ، وساروا فيهم بالسيرةِ الجميلةِ صارَ ملكَ تفويضٍ وطاعةٍ؛ فَرَسا وَثَبَتَ.

---

(١) غ: أذعن في النفوس بطاعته.
(٢) غ: محتذياً.
(٣) غ: وإن.

وإنْ جاروا وعسفوا، فهيَ حولةُ توثّبٍ، ودولةُ تغلّبٍ، يبيدها الظلمُ، ويزيلُها البغيُ، بعد أنْ تهلكَ بهم الرعايا، وتخربَ بهم البلادُ.

[تأسيسُ الملكِ على المالِ والثروةِ]:

وأما القسمُ الثالثُ فهو تأسيسُ المالِ والثروةِ، فهو أن يكثرَ المالُ في (٣٢ب) قومهِ، فيحدثَ لهم بعلوّ الهمةِ طمعاً في الملكِ، وقلَّ أن يكونَ هذا الأمرُ إلاّ فيمن له بالسلطنةِ اختلاطٌ، وبأعوانِ الملكِ امتزاجٌ، فيبعث مطامعَ الراغبِينَ فيهِ على طاعتهِ، وتسليمِ الأمرِ إلى زعامتهِ.

وبعيدٌ أن يتمَّ ذلك إلاّ عندَ ضعفِ الملكِ ووهائـهِ، وفسادِ أعـوانهِ وزعمائهِ. وقيلَ في منثورِ الحكم:

المالُ ربّما سوَّدَ غيرَ السيّدِ، وقوى غيرَ الأيّدِ[١].

فإذا انتقلَ به الملكُ كان أوهى الأسبابِ قاعدةً وأقصرَها مدةً؛ لأنّ المالَ ينفذُ مطامعَ طالبيهِ، ويذهبُ باقتراحِ الراغبينَ فيهِ.

وقد قيلَ:

من ودَّكَ لأمرٍ ولّى مع انقضائه[٢].

قال سليمانُ بنُ داودَ عليهِ السلامُ:

---

(١) قلهم: «المال ربما سوّد غير السيّد...» ورد هذا القول في رسالة كلمات مختارة غير منسوب لأحد وبلفظ: «ربما سوّد المال غير السيد وقوى غير الأيد» (ص.٢١) وفي الإمتاع والمؤانسة (٢/١٤٩) ومن كلام علي: «الغني يسوِّد غير السيد. المال يقوي غير الأيّد» (غرر الحكم ٣١) والأيّد، بوزن جيد، القوي.

(٢) قولهم: «من ودّك لأمر ولّى مع انقضائه» قال أبو حيان: «وجد على خاتم ملك الهند: من ودَّك لأمر ولّى عند انقضائه» (البصائر والذخائر ١٤٦) وفي آداب النفس منسوباً إلى حكيم بلفظه (١/٨٥)، وفي هذا المعنى يقول صالح بن عبد القدوس: «شر الإخوان من كانت مودته مع الزمان، إذا أقبل، فإذا أدبر الزمان أدبر عنك، فأخذ هذا المعنى الشاعر فقال:

شـر الأخـلاء مـن كـانت مـودتـه ... مع الـزمـان إذا مـا خـاف أو رغبـا
إذا وتـرت امـرءاً فـاحـذر عـداوتـه ... من يـزرع الشوك لا يحصـد بـه عنبـا
إن العـدو وإن أبـدى مـسـالمـة ... إذا رأى منـك يـومـاً فـرصـة وثبـا

وقد اورد عبد الواحد الآمدي هذا القول ضمن أقوال علي رضي الله عنه بلفظ: «من وادّك لأمر ولّى عند انقضائه» (غرر الحكم ٢٨١) وفي موضع آخر «من رغب فيك عند إقبالك زهد =

الذي يتوكّلُ على غِنائِهِ سقوطُهُ سريعٌ.

فإن اقترنَ بسببٍ يقتضي ثبوتَ الملكِ [ثَبَتَ] وإلاّ فهو وشيكُ الزوالِ، سريعُ الانتقالِ.

واعلمْ أنّ الدولةَ تبتدىء بخشونةِ الطباعِ، وشدةِ البطشِ؛ لتسرعَ النفوسُ إلى بذلِ الطاعةِ، ثم تتوسّطُ باللينِ والاستقامةِ؛ لاستقرارِ الملكِ، وحصولِ الدعةِ، ثم تختمُ بانتشارِ الجورِ وشدةِ الضعفِ؛ لانتقاضِ الأمرِ، وقلةِ الحزمِ.

وبحسبِ هذهِ الأحوالِ الثلاثةِ يكونُ ملوكُها في الآراء والطباعِ.

وقد شبّه المتقدمونَ الدولةَ بالثمرةِ؛ فإنّها تبدو حسنةَ الملمسِ، مرةَ الطعمِ، ثم تدركُ فتلينُ وتستطابُ، ثم تنضجُ فتكونُ اقربَ للفسادِ والاستحالةِ.

وكما تُبْتَدَأُ الدولةُ بالقوةِ، وتختمُ بالضعفِ، كذلكَ تُبْتَدَأُ بالوفاء وتختمُ بالغدرِ؛ لأن الوفاء مشيّدٌ، والغدرَ مشرِّدٌ[1].

* * *

= فيك عند إدبارك» (ص. ٢٩٠) ونسبه الثعالبي إلى بلهرا ملك الهند بلفظ: «من ودُّك لأمر أبغضك عند انقضائه» (الإيجاز والإعجاز ١١).

(١) قوله: «وكما تبتدأ الدولة بالقوة وتختم بالضعف... إلخ» أورد المبشر بن فاتك قولاً لأفلاطون قريباً من هذا المعنى وهو قوله: «الدولة تبتدأ بالعدل والرهبة، فإذا توسط أمرها سيست بالرغبة والرهبة، وإذا قرب زوالها سيست بالرغبة والمحاباة...» (مختار الحكم ١٦٣).

[الفصل الحادي والعشرون]
[سياسة الملك]

[قواعد سياسة الملك]:

وأمّا سياسةُ الملكِ بعد تأسيسِه واستقرارِه (٣٣آ) فتشتملُ على أربعَ قواعد[1]، وهي:

عمارةُ البلدانِ.

وحراسةُ الرعية.

وتدبيرُ الجندِ.

وتقديُر الأموالِ.

[١ - عمارة البلدان]:

فأما القاعدةُ الأولى، وهي عمارةُ البلدانِ، فالبلادُ نوعان

مزارعُ.

وأمصارٌ.

---

(١) غ: أربعة قواعد. وقوله «وأما سياسة الملك بعد تأسيسه واستقراره فتشتمل على أربع قواعد» لم تذكر نسخة ط هذه الأمور. وقد جاء في أدب الدنيا والدين ما نصه: «والذي يلزم سلطان الأمة من أمورها سبعة أشياء: أحدها: حفظ الدين من تبديل فيه، والحث على العمل به من غير إهمال له، والثاني: حراسة البيضة، والذب عن الأمة من عدو في الدين، أو باغي نفس أو مال، والثالث: عمارة البلدان باعتماد مصالحها، وتهذيب سبلها ومسالكها، والرابع: تقدير ما يتولاه من الأموال بسنن الدين من غير تخويف في أخذها وإعطائها، والخامس: معاناة المظالم والأحكام بالتسوية بين أهلها واعتماد النصفة في فصلها، والسادس: إقامة الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها، والسابع: اختيار خلفائه في الأمور، أن يكونوا من أهل الكفاية فيها، والأمانة عليها» (أدب الدنيا والدين ١٢٣).

ومن كلام أنوشروان في واجبات الملك: «وأول ما يجب على الملوك إقامة الدين...» السعادة والإسعاد (٢٠٦-٢٠٨) والترجمة والنقل عن الفارسية (١٠٥)، وقال أفلاطون: «وأول ما يجب على الملك أن يأخذ به رعيته الإيمان بالله» السعادة والإسعاد (٣٤٠).

[آ - عمارةُ المزارعِ]:

فأما المزارعُ فهي أصولُ الموادِ التي يقومُ بها أودُ الملكِ، وتنتظمُ بها أحوالُ الرّعايا، فصلاحُها خصبٌ وثراء، وفسادها جدبٌ وخلاء، وهي الكنوزُ المدخورةُ، والأموالُ المستمدةُ، وأيّ بلدٍ كثرتْ ثمارُه ومزارعُه استقلّ بخيرِه، وفاضَ على غيره، فصارتْ الأموالُ إليهِ تجلبُ، والأقواتُ منهُ تطلبُ، وهو بالضدّ، إن قلّتْ أو اختلّتْ.

فلزمَ مدبّرُ الملكِ فيها ثلاثةُ حقوقٍ:

أحدها: القيامُ بمصالحِ المياهِ التي هو عليها أقدرُ، ولها أقهرُ، حتى تدرّ فلا تنقطع، وتعمّ فلا تمتنع، ويشترك فيها القريبُ والبعيدُ، ويستوي في الانتفاعِ بها القويّ والضعيفُ.

فإن أهملتْ حتى قلّتْ، وتغالبَ الناسُ عليها بسطوةٍ وقوةٍ، اختلّ نظامُها، وفسدَ التئامُها، واستبدّ فيها من استطالَ، وتحكّم في الأموالِ والأقواتِ، فضيّقَ على الناسِ لسعتهِ، وهزّهم لمنفعتهِ، وصارَ خصبُه جدباً، وخطبُه صعباً.

والحق الثاني: عليهِ أن يحميهَم من تخطّفِ الأيدي لهم، ويكفّ الأذى عنهم، فإنّهم مطامعُ أولي السلاطةِ، ومأكلةُ ذوي القوةِ، ليأمنوا في مزارعِهم، ولا يتشاغلوا بالذبّ عن أنفسِهم، ولا يكون لهم غيرُ الزراعة عملاً؛ لأنّ لكلّ صنعةٍ أهلاً فيستكثروا من العمارةِ، ويتّسعوا في الزراعةِ، فيكونوا عوناً وعواناً لمن عداهم.

وقالَ النبيّ عليه السلام:

«التمسوا الرزقَ في خبايا الأرضِ، الزرع»[١]

والحقّ الثالث: عليه تقديرُ ما يؤخذُ منهم بحكمِ الشرعِ وقضيةِ العدلِ (٣٣ ب) حتى لا ينالَهم في قدرِها حيفٌ[٢]، ولا يلحقَهم في أخذِها عسفٌ؛ فإنّهم لا يصلونَ إلى إنصافِهِ إلا بعدلِه؛ لتذعنَ نفوسُهم ببذلِ الحقِّ منها طوعاً، ويكونَ لهم في تخفيفِ الكلفِ عنهم فضلٌ[٣]، فإنّ الزمانَ باتساعِهم خصبٌ، والملكُ باستقامةِ أمورِهم ملتئمٌ.

فإن حيفَ عليهم في القدرِ، أو عسفَ بهم في الأخذِ انعكسَ الصّلاحُ إلى ضدّهِ، فدانوا وأدانوا، وصارتْ ولايةَ فهرٍ تخرجُ من سيرةِ العدلِ والإنصافِ.

ثم هم لإخلالهم واختلالهم من وراءِ نفورٍ وجلاءٍ.

قال سليمانُ بن داودَ عليهِ السلامُ:

اشربِ الماءَ من ينبوعِك، وليفضْ ماؤُك في أسواقِك ليكونَ[٤] ينبوعُك مباركاً.

---

(١) حديث «التمسوا الرزق في خبايا الأرض، الزرع» رواه الدارقطني والبيهقي عن عائشة (كشف الخفاء١ / ٢٠٣ رقم٥٢٩) وروى بلفظه، وقد يروي بلفظ «اطلبوا» عند أبي يعلي والطبراني والبيهقي بسند ضعيف (نفس المصدر ١ / ١٥٤ رقم٣٩٦) وانظر أيضاً المقاصد الحسنة (ص٨٣ ضمن الحديث رقم١٦٢) والجامع الصغير (١ / ٤٤) وقال النسائي هذا حديث منكر (التيسير بشرح الجامع الصغير١ / ١٦٤) وقد ذكر الماوردي هذا الحديث في أدب الدنيا والدين (١٩٤) والأمثال والحكم (الورقة٤١ب) وأدب الوزير (٢٠) وانظره في ثمار القلوب (٥٠٩) والتمثيل والمحاضرة (ص٢٦) وفيه «يعني الحرث» وفيه أيضاً أنه من أمثال الفلاحة والزراعة (ص١٩٤، ٢٥٢) وخاص الخاص (٨١) ومن كلام عمر بلفظ «ابتغوا الأرزاق. . .» (ألف كلمة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ص٧).

(٢) غ: حوف.

(٣) غ: فضلاً.

(٤) غ: ليكن.

قال بزرجمهر:
مَنْ عَمّرَ بيتَ المالِ من ظُلمِ رعيتِه كمنْ طيَّنَ سطحَه من قواعدِ بيتِه[١].

وكتبَ زيادٌ[٢] إلى عمّالِه على السوادِ:
أحسِنوا إلى المزارعين؛ فإنّكم لا تزالونَ سِماناً ما سمِنوا[٣].

[ب - عمارة الأمصار]:

وأمّا الأمصارُ فهي الأوطانُ الجامعةُ.
والمقصودُ بها خمسةُ أمورٍ:
أحدها: أن يستوطنَها أهلُها طلباً للسكونِ والدعةِ.

---

(١) قول بزرجمهر: «من عمر بيت المال...» أورده الثعالبي ونسبه إلى أنوشروان بلفظ: «إن الملك إذا كثرت أمواله مما يأخذ من رعيته كان كمن يعمر سطح بيته بما يقتلع من قواعد بنيانه» (ثمار القلوب١٧٩) و(التمثيل والمحاضرة١٣٧) و(نهاية الأرب٦ / ٨) وبلفظ: «مثل الملك الذي يعمر خزائنه بأموال رعيته كمثل الذي يطين سطح بيته بالتراب الذي يقتلعه من أساسه» (الإيجاز والإعجاز ١٤).

ومن كلام جعفر بن يحي الذي ساقه الطرطوشي بقوله: «...ومثل من كلف الرعية من الخراج فوق طاقتها كالذي يطين سطحه بتراب أساس بيته» (سراج الملوك١٢٣) وانظر المستطرف١ / ١٠٨).

ومن كلام كسرى في قصة طريفة بينه وبين عجوز وابنتها في العدل والخصب: قال: «إن الملك إذا عمر بيوت أمواله بما يأخذ من الرعية كان كمن يعمر سطح بيته بما يقلعه من قواعد بنيانه» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء١ / ٥٠٦).

(٢) زياد: هو زياد بن أبي سفيان، كان من الدهاة الخطباء الفصحاء. ضرب به المثل في حسن السياسة ووفور العقل وحسن الضبط لما يتولاه، مات سنة ثلاث وخمسين وهو أمير المصرين الكوفة والبصرة ولم يجمعا قبله لغيره وخطبته البتراء مشهورة انظر شيئاً من أخباره في الإصابة (١ / ٥٦٣ رقم٢٩٨٧)، الاستيعاب (على هامش الإصابة) (١ / ٥٤٨-٥٥٥) أسد الغابة٢ / ٢٧١ رقم١٨٠٠ (طبعة الشعب)، وانظر نماذج من أقواله في التمثيل والمحاضرة٣٢، ٤٠، ١٣٤، البيان والتبيين ١ / ٧٣، ١١٨، ١٦٥، ١٩٦، ٢٩٦، ٢٦٠، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٩٥، ٢ / ٦، ٦١، ٦٥، ٦٦، ٨١، ٩٥، ١١٢، ١١٤، ١٤٥، ١٩٤، ٢٠٠، ٢١٠، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٧١، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٢٠، ٣ / ٢٤٠، ٢٩٤.

(٣) قوله: كتب زياد إلى أعماله على السواد: «أحسنوا إلى المزارعين...» انظر هذا الكتاب بلفظه منسوباً إليه في عيون الأخبار (١ / ١٠) وسراج الملوك (١٢٣) بلفظ «لم تزالوا».

والثاني: حفظُ الأموالِ فيها من استهلاكٍ وإضاعةٍ.
والثالث: صيانةُ الحريمِ والحرمِ من انتهاكٍ ومذلةٍ.
والرابع: إلتماسُ ما تدعو إليهِ الحاجةُ من متاعٍ وصناعةٍ.
والخامس: التعرضُ للكسبِ وطلبِ المادةِ.

فإن عُدمَ فيها أحدُ هذهِ الأمورِ الخمسةِ، فليستْ من مواطنِ الاستقرارِ، وهي منزل قيعة ودمار[1].

قال الزّبير بن العوامِ[2] رضي اللهُ عنهُ: سمعتُ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ يقولُ:

«إنّ البلادَ بلادُ اللهِ، فحيثُ ما وجدتَ خيراً فاحمدِ اللهَ وأقمْ»[3]

وحظّ السلطانِ في عمارةِ (٣٤ آ) البلدانِ والأوطانِ أوفى من حظّ رعيتهِ؛ لأنّه أصلٌ هم فروعُه، ومتبوعٌ هم أتباعُه.

[شروط إنشاء الأمصار]:

والذي يُعتبرُ في إنشائِها ستةُ شروطٍ:
أحدُهما: سعةُ المياهِ المستعذبةِ.
والثاني: إمكان[3] الميرة المستمدة.
والثالث: اعتدالُ المكانِ الموافقِ لصحةِ الهوىٰ والتربةِ.

---

(١) غ: منزل قلعة ووقار، وهو تصحيف، والقيعة كما في الصحاح مثل القاع، وبعضهم يقول هو جمع.

(٢) الزبير بن العوام الصحابي الجليل وأحد المبشرين بالجنة المقتول سنة ٣٦هـ انظر الإصابة١ / ٥٢٦-٥٢٨ رقم٢٧٨٩، الاستيعاب١ / ٥٦٠-٥٦٥، أسد الغابة١ / ٢٤٩ - ٢٥٢ رقم ١٧٣٢، طبقات خليفة بن خياط ١٣، ١٨٩، ٢٩١، تاريخ خليفة بن خياط٢٧، ٤٥، ٦٤، ٧٨، ١١٤، ١١٩، ١٢١، ١٦٠-١٦٨، ١٨٦.

(٣) حديث: «إن البلاد بلاد الله...» رواه أحمد والطبراني من حديث الزبير بسند ضعيف ولفظه عندهما: «البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله فأي موضع رأيت فيه رفقا فأقم» (المقاصد الحسنة١٤٧ رقم٣٠٤) وبلفظ «فحيثما أصبت خيرا فأقم» (الجامع الصغير١ / ١٢٨) و(كشف الخفاء١ / ٣٤٢ رقم٩٢٤) و(التيسير بشرح الجامع الصغير١ / ٤٤١).

(٤) غ: أركان الميزة.

والرابع: قربُة مما تدعو الحاجةُ إليه من المراعي والأحطاب.

والخامس: تحصينُ منازلِه من الأعداءِ والزُّعّارِ[١]

والسادس: أن يحيطَ به سوادٌ يعينُ أهلَه بموادِّهِ.

فإذا تكاملتْ هذه الشروطُ الستّةُ في إنشاءِ مصرٍ، استحكمتْ قواعدُ تأبيدِهِ، ولم يَزُلْ إلاّ بقضاءٍ محتومٍ، وأجلٍ معلومٍ

[ما على منشيء المصرِ في حقوق ساكنيه]:

ثم على منشيء المصرِ في حقوقِ ساكنيهِ ثمانيةُ شروطٍ:

أحدها: أن يسوقَ إليه ماءَ الساريةِ إن بعدتْ أطرافهُ، إما في أنهارٍ جاريةٍ، أو حياضٍ سائلةٍ، ليسهلَ الوقوفُ إليه من غيرِ تعسّفٍ.

والثاني: تقديرُ طرقـهِ وشوارعـهِ، حتى تتناسبَ ولا تضيقَ بـأهلِها، فيستضرّ المارُّ بها.

والثالث: أن يبني جامعاً[٢] للصلواتِ في وسطهِ؛ ليقربَ على جميع أهلِهِ، ويعمّ شوارعَه بمساجدِهِ.

والرابع: أن يقدرَ أسواقَهُ بحسبِ كفايتِهِ، وفي مواضعِ حاجتهِ.

والخامس: أن يميزَ خـططَ أهلِهِ، وقبائـلَ ساكنيـهِ، ولا يجمعَ بينَ أضدادٍ متنافرين، ولا بينَ أجناسٍ مختلفين.

والسادس: إن أرادَ الملكُ أن يستوطنَهُ سكنَ منه في أفسح أطرافهِ، وأطافَ به جميعَ خواصّهِ، ومن يكفيه[٣] من أمرِ أجنادِهِ، وفرقّ باقيَهم في بقيةِ أطرافهِ، ليكفوهُ من جميع جهاتِهِ، وخصّ أهله بالعدلِ، وجعلَ وسطَهُ بعوامِّ أهلِهِ (٣٤ ب) ليكونوا مكنوفين بهم، وليقلّ ركوبَه فيهم، حتى لا يلينَ في أعينهم.

---

(١) الزعّار: جمع زَعِر، والزَّعر: الرجل الذي فيه زعَارة، والـزّعارّة -بتشديد الراء- شراسة الخلق.

(٢) غ: جامع.

(٣) غ: يكتنفه.

والسابع: أن يحوطَهم بسورٍ إن تاخموا عدواً، أو خافوا اغتيالاً، حتى لا يدخل عليهم إلّا من أرادوه، ولا يخرج عنهم إلّا من عرفوه؛ لأنّه دارٌ لساكنيه، وحرزٌ لمستوطنيه.

والثامن: أن ينقل إليهِ من أعمالِ أهلِ العلومِ والصنائعِ ما يحتاجُ أهلُه إليه؛ حتى يكتفوا بهم، ويستغنوا عن غيرِهم.

فإذا قامَ منشِئُه بهذه الشروطِ الثمانيةِ فيه، فقد أدّىٰ حقَّ مستوطنيهِ، ولم يبقَ لهم عليه إلّا أن يسيَر فيهم بالسيرةِ الحسنىٰ، ويأخذَهم بالطريقةِ المثلىٰ، وقد صارَ من أكملِ الأمصارِ وطناً، وأعدلها مسكناً.

[أنواع الأمصار]:

والأمصارُ نوعانِ:

مصرُ مزارعَ وسوادٍ.

ومصر فرصةٍ وتجارةٍ.

[مصر المزارع والسواد]:

فأما مصرُ المزارعِ والسوادِ، فهو أثبتُ المصرينِ أهلاً، وأحسنُهما[١] حالاً، وأولاهما[٢] استيطاناً؛ لوجودِ موادّه فيه، واقتناءِ أصولهما منه.

[من شروط مصر المزارع والسواد]:

ومن شرطهِ: أن يكونَ في وسطِ سوادِهِ، وبينَ جميعِ أطرافهِ، حتى تعتدلَ موادّه منها، وتتساوىٰ طرقهُ إليها، وهو موفورُ العمارةِ ما كانَ سوادُه عامراً.

فإن نالَ أهلَه فيه حيفٌ، فرّقَهُم الحيفُ في سوادِهِ، فأصابوا عيشاً، ودافعوا من زمانِ الحيفِ وقتاً. وإن جار السوادُ على أهلهِ كان لهم في المصرِ أمنٌ وملاذٌ، ويكونُ كلُّ واحدٍ منهما للآخر معاذاً[٣].

---

(١) غ: وأحسنها.
(٢) غ: وأولاها.
(٣) غ: معاذ.

[مصر الفرصة والتجارة]:

وأما مصرُ الفرصةِ والتجارةِ فهو من كمالِ الإقليم، وزينةِ الملكِ؛ لأنّه مقصودٌ بتحفِ البلادِ، وطرفِ (٣٥ آ) الأقاليمِ، فلا يعوذُ فيه مطلوبٌ، ولا ينقطع عنه مجلوبٌ.

[شروط هذا النوع من الأمصار]:

والمعتبر فيه ثلاثةُ شروطٍ:

أحدها: أن يتوسطَ أمصارَ الريفِ، ويقربَ من بلادِ المتاجرِ، فلا يبعدَ على طالبهِ، ولا يسبقَ على قاصدهِ.

والثاني: أن يكونَ على جادةٍ تسهل مسالِكُها، ويمكنُ نقلُ الأثقالِ فيها، إما في نهرٍ، أو على ظهرٍ. فإن توعرتْ مسالكهُ، وأجدبتْ مفاوزهُ، عدلَ الناس عنهُ إلاّ من ضرورةٍ.

والثالث: أن يكونَ مأمونَ السبلِ لأهلِ الطرقاتِ، خفيفَ الكلفِ، قليلَ الأثقالِ؛ فانّه ليس يأتيهِ إلاّ جالبٌ مجتازٌ يطلبُ من البلادِ أجداها، فإن توعّر هُجِرَ.

وهذا أكثرُ البلدينِ طالباً، وأنشرُهما في الأقاليمِ ذكراً.

وهو معدٌّ لمطالبِ الملوكِ، لا لموادّهم، فإنْ استمدّوه وتحيّفُوهُ بالمكوسِ والأعشارِ نفروا عنه.

وإنْ وجدوا سواهُ صارَ لأهلِ الضروراتِ دونَ الاختيارِ[1]، ولا دوامَ لأوطانِ الإضرارِ، ولا يبعدُ أن يندرسَ، فيلحقَ المضطرُّ بالمختارِ، وإنْ لم يستدركهُ سلطانُه بتخفيفٍ وإنصافٍ؛ لأنّ [أمواله][2] أموالَ تجارةٍ منتقلةٍ،

---

(١) غ: الاختبار.

(٢) الزيادة من السياق.

لا يشقّ عليهم تحويلُها، فهم(١) يستوطنونَ من البلادِ أعدلَها، ويقصدونَ من المتاجرِ والمعاملاتِ أسهلَها، فإن نبا بهم وطنٌ، فكُلُّ البلادِ لهم وطنٌ.

قالَ الشاعر(٢): [من الكامل]

وآتْـرُكْ مـحـلَّ الـسّـوءِ لا تَـحْـلُلْ بـهِ
وإذا نَـبَـا بِـكَ مـنـزلٌ فـتـحـوّلِ(٣)

---

(١) غ: فهو.

(٢) قوله: «قال الشاعر..» قلت إن البيت للشاعر قيس (أو عبد قيس) بن خفاف بن عمرو بن حنظلة البرجمي التميمي والبراجم من بني تميم، شاعر مجيد، له المفضليتان ١١٦، ١١٧، وهما الأصمعيتان ٨٧ و٨٨، وتدلان على خلق رفيع، وكان جاهلياً، انظر بعضاً من أشعاره في الحماسة الشجرية١ / ٤٦٨، وحماسة الظرفاء١ / ١٥٣، وعن نسبته انظر اللباب١ / ١٣٣، وربما نسب لشعراء آخرين. انظر مصادر التخريج.

(٣) قوله: «واترك محل السوء...» إلى آخر البيت نسبه الماوردي في كتابه الأمثال والحكم إلى قيس بن خفاف البرجمي (الورقة٤٦ب) وجاء به بلفظه، وكذا في الحماسة البصرية (٢ / ١٦) وفي الحماسة الشجرية مع قصيدة (١ / ٤٦٩) منسوباً إلى عبد قيس بن خفاف وكذا في حماسة البحتري (١٧٩) بلفظ «احذر محل السوء...» وهو كذلك عند المفضل الضبيّ منسوباً إلى عبد قيس أيضاً ضمن ثمانية عشر بيتاً بلفظه (المفضليات٢ / ١٨٥ رقم القصيدة١١٦ من تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون وص٧٥١ من طبعة كارلوس يعقوب لايل بمطبعة الآباء اليسوعيين بيروت) وقد أورده ابن منظور في قصيدة من ١٤ بيتاً منسوبة إلى عبد القيس بن خفاف (لسان العرب -دار صادر- مادة كرب١ / ٧١٢) قال ناشره حول هذا الاسم: «كذا في التهذيب، والذي في الحكم: قال خفاف بن عبد القيس البرجمي» (المصدر نفسه) وانظر تهذيب اللغة (مادة كرب١٠ / ٢٠٦) والبيت في حماسة الظرفاء (١ / ١٥٣) وفيها تخريج ضمن أحد عشر بيتاً منسوبة إلى عبد قيس الحنظلي لابنه جبيل بلفظ «واحذر محل السوء... فإذا...» وقد ورد شطره الثاني غير منسوب في التمثيل والمحاضرة (ص٤٠٠) وقد ورد البيت غير منسوب أيضاً في الأشباه والنظائر للخالديين (١ / ١٩٤) وقال محققه: إنه لعنترة وذكر تخريجاً له، كما ذكر أنه ينسب إلى عبد قيس (انظر حاشية ١ / ١٩٤) قال الخالديان: «ويروى أن هبنقة القيسي الذي يحمق سمع منشداً ينشد هذا البيت، فقال: أخطأ القائل. قيل له: ولم؟ قال: لأن أهل السجون قد نبا بهم منزلهم ولا يقدرون على التحول، ولكن الصواب أن يقول:

إذا كنت في دار يهينك أهلها ولم تكن مكبولاً بها فتحول

(الأشباه والنظائر١ / ١٩٤ والتذكرة السعدية١ / ٣١٣. وفي الحماسة البصرية من شعر المقنع الكندي (٢ / ٣) ونسبه في موضع آخر إلى أبي المياح العبدي (٢ / ٢٣) وهذا المعنى قد طرقه الشعراء كثيراً قال مسكين الدارمي:

=

[٢ - حراسة الرعية[1]]

وأمّا القاعدةُ الثانيةُ [وهي حراسةُ الرعيةِ] فلأنّهم - لأماناتِ اللهِ التي استودعَه حفظَها، واسترعاهُ القيامَ بها، لا يقدرونَ على الدفعِ عن أنفسهم إلّا بسلطانهِ، ولا يصلون إلى العدلِ والتناصفِ إلّا بإحسانهِ، وهو منهم بمنزلةِ وليّ اليتيمِ المندوبِ لكفالتهِ، والقيِّم بمصالحهِ، يلزمه - بحكمِ الاسترعاءِ والأمانةِ - أنْ يقوّمَ زللهُ، ويصلحَ خللَهُ، ويحفظَ أموالَه، ويثمِّرَ موادّه، كذلكَ مكانهُ من رعيتهِ في الذبِّ عنهم، والنظرِ لهم، والقيامِ (٣٥ ب) بمصالحهم[2]، فإنّ النفعَ بصلاحِ أحوالِهم عائدٌ عليهِ، والضررَ [بفسادِها][3] متعدٍّ إليهِ، فلن توجدَ استقامةُ ملكٍ فسدتْ فيه أحوالُ الرعايا.

= أقيم بدار الحي ما لم أهن بها وإن خفت من دار هواناً تركتها
(أنظر الأشباه والنظائر١ / ١٩٥) وفيه أبيات أخرى بهذا المعنى. وقال العباس بن مرداس.
وإن بوّؤوكَ مبركاً غير طائلٍ غليظاً فلا تنزل به وتحوّلِ
(شرح ديوان الحماسة١ / ٤٣٤)، وقال حزن بن جناب التميمي:
وإن خفت من دار هواناً فولّها سواك وعن دار الأذى فتحوّلِ
(التذكرة السعدية١ / ٣٢٢) وبلفظ «وإن خفت من أمر فواتاً فوله...» منسوباً إلى منقر بن فروة المنقري (البيان والتبيين٣ / ٢٢٨).

(١) حول حراسة الرعية قال أنوشروان:
«الرعايا أربعة أقسام:
فقسم منها أهل الدين، وهم أصناف: الحكام والعباد والنساك والمعلمون.
وقسم المقاتلة، وهم صنفان: فرسان ورجالة.
والقسم الثالث: الكتّاب، وهم أصناف: فمنهم كتّاب الرسائل، وكتّاب الخراج، وكتّاب الشروط.
والقسم الرابع: الخدم وهم الزراع والرعاة والصناع والتجار»
(السعادة والإسعاد ص٢٠٩).

(٢) قال ابن المقفع: «حق الوالي أن يتفقد لطيف أمور رعيته فضلاً عن جسيمها؛ فإن للطيف موضعاً ينتفع به، وللجسيم موضعاً لا يستغنى عنه، ليتفقد الوالي -فيها يتفقد من أمور الرعية- فاقة الأحرار منهم فليعمل في سدها، وطغيان السفلة منهم فليقمعه» (الأدب الكبير١١٦).

(٣) الزيادة من حاشية غ.

[ما يلزم الملوك في حق الاسترعاء]:

والذي يلزمُ الملكَ في حقوقِ الاسترعاءِ عليهم عشرةُ أشياءَ[1]:

أحدها: تمكينُ الرعيةِ من استيطانِ مساكنِهم وادعينَ.

والثاني: التخليةُ بينَهم وبينَ مساكنِهم آمنين.

والثالث: كفُّ الأذىٰ والأيدي الغالبةِ عنهم.

والرابع: استعمالُ العدلِ والنصفةِ معهم.

والخامس: فصلُ الخصامِ بين المتنازعين منهم.

والسادس: حملُهم على موجبِ الشرعِ في عباداتهم ومعاملاتِهم.

والسابع: إقامةُ حدودِ الله تعالى، وحقوقِه فيهم.

والثامن: أمنُ سبلِهم ومسالِكهم.

والتاسع: القيامُ بمصالِحهم في حفظِ مياهِهم وقناطِرهم.

والعاشر: تقديرُهم وترتيبُهم على أقدارِهم، ومنازِلهم، فيما يتميزون به من دينٍ وعملٍ وكسبٍ وصيانةٍ.

فإذا قامَ فيهم بهذه الحقوقِ، فهي السياسةُ العادلةُ، والسيرةُ الفاضلةُ التي تستخلصُ بها طاعةُ الرعيةِ، ويُنتظمُ بها صلاحُ المملكةِ.

وإن أخلّ بها كانَ وإيّاهم على ضدّها.

قال أردشيرُ بنُ بابكَ:

---

(١) قوله: «عشرة أشياء...» ذكر المؤلف في أدب الدنيا والدين ص١٢٣ أن الذي يلزم سلطان الأمة من أمورها سبعة أشياء سبق أن نقلناها في حاشية موضوع (فصل سياسة الملك بعد تأسيسه) فلتراجع. وقد سئل أنوشروان: ما الذي يجب على الملوك للرعية، وما الذي يجب للرعية على الملوك؟ قال: للرعية على الملوك أن ينصفوهم وينتصفوا لهم، ويؤمنوا سربهم، ويحرسوا ثغورهم، وعلى الرعية للملوك النصيحة والشكر» (الحكمة الخالدة ص٥٦).

سعادةُ الرعيةِ في طاعةِ الملكِ، وسعادةُ الملكِ في طاعةِ المالكِ[١].

قال بعضُ الألبّاء[٢]:

إذا لم يكنْ في سلطانِ الملكِ سرورٌ لرعيّتِه كانَ ملكُه ظلماً[٣].

حكي أنّ أنوشروانَ أنفذَ[٤] رسولاً إلىٰ ملكٍ قد أزمع[٥] على محاربتِهِ، وأمره أن يتعرفَ سيرتَه في نفسِه ورعيّتِه، فرجعَ [إليه][٦] وقال:

وَجَدْتُ عندَه[٧] الهزلَ أقوىٰ من الجدّ، والكذبَ أكثرَ[٨] من الصّدقِ، والجورَ أرفعَ[٩] من العدل.

فقال أنوشروان: رزقتُ الظفرَ عليهِ[١٠]، سر[١١] إليهِ، وليكن عملُك في

---

(١) من قوله «قال سليمان بن داود عليه السلام: الذي يتوكل على غنائه سقوطه سريع...» إلى هنا ليس في ط.

وقول أردشير بن بابك: «سعادة الرعية...» استشهد به الماوردي في كتابه نصيحة الملوك وإنه من كلام أردشير في عهده وجاء به هناك بلفظ: «سعادة الرعية في طاعة الملوك وسعادة الملوك في طاعة الله المالك» (الورقة٢٩ب)، وقد أورد الجاحظ هذا القول منسوباً إليه بلفظ «...في طاعة الملوك، وسعادة الملوك...» (التاج في أخلاق الملوك ص٢)، وقد أورده ابن الجوزي منسوباً إليه بلفظ: «سعادة الرعية في طاعة الملوك، وسعادة الملوك في طاعة الله» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء١ / ٤٠١).

(٢) ط: بعض الحكماء.

(٣) قولهم: «إذا لم يكن في سلطان الملك سرور لرعيته كان ملكه ظلمًا» أورده المؤلف في كتابه أدب الوزير بلفظه وفيه (...سرور الرعية...) (ص١٦) ومن أقوال عمر في هذا المعنى: «أشقى الولاة من شقيت به رعيته» (التمثيل والمحاضرة٢٩) و(مجمع الأمثال٢ / ٤٥١) و(الإيجاز والإعجاز ٨).

(٤) في نصيحة الملوك: وجّه.

(٥) في سراج الملوك: قد أجمع.

(٦) الزيادة من سراج الملوك وليست في غ ولا في ط ولا في نصيحة الملوك.

(٧) في نصيحة الملوك: الهزل عنده.

(٨) في نصيحة الملوك: أكثر عنده.

(٩) في نصيحة الملوك وسراج الملوك: أوقع وما أثبتناه عن غ وط.

(١٠) في سراج الملوك؛ الظفر به.

(١١) في نصيحة الملوك: ثم دعا بعض قواده فقال له: سر إليه...

محاربتِه بما هو [١] أضعفُ عندَهُ، وأقلُّ، وأوضَعُ، فإنّك منصورٌ عليه [٢]، وهو مخذولٌ.

فسارَ إليه فظفرَ بِه [٣] واستولى على ملكه [٤].

[٣ - تدبير الجند]:

وأمّا القاعدةُ الثالثةُ - وهي تدبيرُ الجندِ - فلأنَّ بهم مَلَكَ(٣٦آ) حتى قهرَ، واستولى على قدرٍ، فإن صلحوا كانتْ قوتُهم لهُ، وإن فسدوا صارتْ قوتُهم عليهِ.

وبعيدٌ ممن كان معهُ فصارَ عليهِ أن يرى معه رشداً.

[شروط تدبير الجند]:

وتدبيرُهم الذي يحقظُ عليهم طاعتَهم، ويستخلصُ به نصرتَهم، يكون بأربعةِ شروط، إن استكملَها صلحوا به، واستقاموا له، وإنْ أخَلَّ بها فَسَدوا عليه، وأفسدوا ملكهُ.

أحدها: تقويمُهم بالأدبِ الذي يحفظُ عليهِ وفورَ نجدَتِهم، وكمالَ تجنيدِهم، ليصلَحَهُمْ بذلكَ لأنفُسِهم، ثم لنفسِه، ثم لرعيتِه.

---

(١) في نصيحة الملوك وسراج الملوك: بما هو عنده أضعف، وفي ط بما هو أضعف وأقلّ.

(٢) (عليه) ليست في نصيحة الملوك ولا في سراج الملوك.

(٣) في نصيحة الملوك وسراج الملوك فقتله.

(٤) في نصيحة الملوك: على مملكته. وقوله: «حكي أن أنوشروان أنفذ رسولاً إلى ملك قد أزمع على محاربته... الخ» أوردها الماوردي في كتابه نصيحة الملوك (الورقة٣٧آ) ورواها الطرطوشي قائلاً: «وقال الوضاحي: وجه أنو شروان...» (سراج الملوك١٨٨) ونجد مثل هذا الأمر ما رواه ابن مسكويه عن بعض قدماء الملوك أنه كان «إذا أراد محاربة ملك وجه من يبحث عن أخباره وأخبار رعيته... الخ» (الحكمة الخالدة ١٨٧) وابن عبد ربه في (العقد الفريد١ / ١٤٨).

فأما صلاحهم لأنفسهم، فيكونُ بثلاثةِ أشياء:

أحدها: معطاةُ ما يحتاجُ إليه أجنادُ الملوكِ من الارتياضِ بالركوبِ، والخبرةِ بالحروبِ؛ لأنّها صناعةٌ تجمع بين علمٍ وعملٍ.

والثاني: اختصاصُهم بالجنديةِ، واقتصارُهم عليها؛ حتى لا ينقطعوا عنها بكسبِ سواها، فيصيروا مقصرين فيها.

والثالث: أن يقفوا في اللذاتِ على اعتدالٍ مباحٍ، لا يقطعونَ إليها فتلهيهم، ولا يمنعونَ منها فتغريهم.

وأما صلاحهم لنفسِه: فيكون بثلاثةِ أشياء:

أحدها: أن تستقرَّ محبتُه في نفوسِهم حتى ينصحوه.

والثاني: أن تعظمَ هيبتُه في قلوبهم حتى يطيعوه.

والثالث: أن يعتقدوا أنَّ صلاحَ ملكِهِ عائدٌ عليهم، وفسادَه متعدٍّ إليهم.

وأما صلاحُهم(١) **لرعيته**: فيكونُ بثلاثةِ أشياءَ:

أحدها: أن يكفَّ نفسَه عن أذاهم.

والثاني: أن يذبَّ عنهم من أرادهم.

والثالث: أن يكونَ عوناً لهم على منافعِهم.

فإذا صحَّ لهُ حملُهم على هذا التأديبِ، واستقاموا على هذا التهذيبِ، كانوا أصلحَ جندٍ لأسعدِ ملكٍ.

---

(١) غ: إصلاحه.

كتبَ الإسكندرُ إلى معلمهِ يسترشده [في جنده][١]، فكتبَ إليه:

تفقّدْ جندَك؛ فإنهم أعداءُ ينتقمُ بهم من أعداء.
ومعناه[٢]: أنهم اعداء إذا فسدوا ينتقم بهم من أعداء إذا صلحوا.

والشرط الثاني:

أن يرتّبوا على حسبِ عنائهم[٣] في الحروب، وذبّهم عن الملكِ، ومسارعتِهم إلى الطاعةِ، حتى يعلموا أن سعيَهم مشكور[٤]، ونصحهم مذخور[٥] (٣٦ب)، يتقدمون به، ويتجازون[٦] عليه؛ فإن ذلك مفضٍ بهم إلى ثلاثِ خصالٍ تصلحُ بها أمورهم، وينتظمُ بها تدبيرُهُمْ:

إحداهن: أن يزدادَ محسنُهم طاعةً ونصحاً، طلباً للزيادة في التقديم، ورغبةً مضاعفةِ الجزاءِ.

والثانية: أن يرغبَ من قصّر منهم[٧] أو أساءَ، في مثلِ ما نالهُ المحسنُ من منزلةٍ وجزاءٍ؛ فيتأسّى به في الطاعةِ، ويساويه في المناصحة.

والثالثة: أن يكفَّ المقصّرُ عن طلبِ ما لا يستحقُّه، ويتأخرَ عن مقامٍ لا يستوجبُه، ويرضى بالخمولِ إن صغرتْ همّتُه، ويقنعَ بالتقصيرِ إن ضعفت منّتُه، فإن حرّكتْهُ حميةٌ لم يتردد[٨] إنْ لم يزدْ.

---

(١) الزيادة من ط.
(٢) في ط: قال أقضى القضاة: معناه أنهم...
(٣) غ: غناهم.
(٤) غ: مشكوراً.
(٥) غ: مذخوراً.
(٦) غ: ويتجاوزن.
(٧) غ: عنهم.
(٨) غ: لم يسترد.

والشرط الثالث:

أن يقومَ بكفاياتهم؛ حتى لا يحتاجوا؛ فإنّ الحاجةَ تدعوهم إلى خصلةٍ من ثلاثٍ، لا خيرَ في واحدةٍ منهنّ:

إمّا أن يتسلطوا على أموالِ الرعيةِ.

وإمّا أن يعدِلوا إلى من يقومُ لهم بالإكفاءِ.

وإما أن يشتغلوا بمكسبٍ فيوهنوا، وإذا احتيجَ إليهم لم يغنوا، ما بذلوا انفسهم إلّا لقيامهِ بكفايتهم.

وقد قيلَ:

من وثقَ بإحسانِك أشفقَ على سلطانِك.

ومتى اقتطعهم طلبُ الكسبِ ضعفَ في أنفسهم رجاؤه، وقلّ في أعينهم عطاؤه، ثم [إن][1] بدر عليهم العطاء فلا يحوجون[2] إلى المطالبةِ؛ فإنّ المطالبَ جريء، وفي جرأتهم خرقٌ للحشمةِ، ووهنٌ للهيبةِ، وقلّ ما يختلّ الملك إلّا بمثلِهِ؛ لأنّ بهم تدفع الخطوبُ الملمّةُ، فإذا كانوا هم الخطبَ الملمَّ فبمن يدفعون إلّا بالتلطفِ والإنصافِ، فهم كالمثل السائرِ في قولِ الشاعر: [من البسيط]

بالملحِ يصلحُ ما يخشى تغيُّرُهُ
فكيفَ بالملحِ إنْ حلّتْ بهِ الغِيَرُ

وقد كانوا يرون القصدَ في إعطائِهم قدرَ الكفايةِ أوْلى من التوسعةِ عليهم بالزيادةِ؛ لأنّ الزيادةَ تؤولُ بهمْ إلى إحدى خصلتينِ مذمومتين:

---

(١) الزيادة من السياق وليست في الأصل.

(٢) غ: يحوجوا.

إمّا إلى صرفِها في الفسادِ ليفسدوا.

وإمّا إلى الاستغناءِ بها فيتقاعدوا.

حكى ابنُ قتيبةَ[١] أنَّ أبرويزَ[٢] (٣٧آ) قال لابنِهِ [شيرويه[٣] وهو في حبسه][٤]:

لا تـوسِّعَنَّ على جنـدِك[٥]؛ فيستغنـوا عنـك، ولا تضيِّقَنَّ عليهم؛ فيضجّوا منك، وأعطهم[٦] عطاءً قصداً، وامنَعْهُم منعاً جميلاً، ووسِّعْ[٧] لهم في الرجاءِ، ولا توسِّعْ عليهم في العطاء[٨].

---

(١) ابن قتيبة: هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الأديب والمؤرخ وصاحب التصانيف البديعة: المعارف، وأدب الكاتب، وعيون الأخبار، والشعر والشعراء، والإمامة والسياسة. وهو غني عن التعريف كان فاضلاً ثقة، ولد ببغداد سنة ٢١٣هـ وتوفي سنة ٢٧٠هـ وقيل ٢٧١ وقيل ٢٧٦ والأخير أصحها، وقتيبة تصغير قتبة بكسر القاف واحدة الأقتاب والأقتاب الإمعاء انظر أخباره في وفيات الأعيان ٢/٢٤٦-٢٤٧، رقم الترجمة ٣٠٤، ومقدمة عيون الاخبار بقلم أحمد زكي العدوي ١/١-٤٤، الفهرست ١٢١-١٢٢، تاريخ بغداد ١٠/١٧٠، شذرات الذهب ٢/١٦٩، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية) ٢٢١-٢٣٠، ومقدمة كتاب المعارف بقلم ثروت عكاشة.

(٢) أبرويز: هو أبرويز بن هرمز بن كسرى أنوشروان، أحد ملوك الفرس. ولي بعد خلع أبيه هرمز وملك ثماني وثلاثين سنة، حتى ضجر الناس منه فخلعوه ونصبوا ابنه شيرويه. انظر نبذة من أخباره في غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ص. ٦٦١-٧٢٧، وتاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ص. ١٩، المعارف ٦٦٥، مروج الذهب١/١٦٩-١٧٥.

(٣) شيرويه: هو شيرويه بن أبرويز وقد ملك بعد أبيه، ذلك أن أباه كان قد استعان بقيصر فانكحه قيصر ابنته فكان شيرويه ابن بنت قيصر، وقد خفف بعض الشيء على الناس، وإن كان قد قتل أباه وبعضاً من إخوته، وقد دام حكمه سبعة أشهر، انظر أخباره في غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ص. ٧٢٧، مروج الذهب ١/١٧٥، المعارف ٦٦٥، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ص. ١٩.

(٤) الزيادة من عيون الأخبار ومن سراج الملوك والعقد الفريد وليست في غ ولا في ط.

(٥) ط: على عبيدك.

(٦) في عيون الأخبار وغرر أخبار ملوك الفرس: أعطهم بسقوط الواو.

(٧) ط: وأوسع.

(٨) قوله: «حكى ابن قتيبة أن أبرويز قال لابنه...» روى ابن قتيبة ذلك في عيون الأخبار(١/١١)، وقال: «وقرأت في كتاب التاج...» ثم ساقه بلفظه، وروى ذلك أيضاً =

والشرط الرابع:

أن لا تنطويَ عنه أخبارُهم، ولا تخفى عليه آثارُهم، وهم رعاةُ دولتِهِ، وحماةُ رعيّتِه.

فإن تدلّسَ سقيمُهم، وستر جميلُهم للقبيح، سرى فيهم أخبثُ الأمرين؛ لأن الشرّ أنفرُ بين الخير، فمالوا وأمالوا.

وتلحقُهم ثلاثُ آفاتٍ خطرةٍ تقدحُ في صلاحِهم، وتمنعُ من فلاحهم:

إحداهن: أن يكرهوا زمن السلامةِ والمسالمةِ، ويستقلّوا مدة الدعةِ، لبوارِ نفاقِهم، وفتورِ أسواقِهم، فيجعلوا لفتقِ الرتوقِ أسباباً، ويفتحوا لمخارجةِ العدوِّ أبواباً يتوصّلون بها إلى مطامعَ حَسْمُها السلامُ والدِّعةُ، فإن استدركت غوائِلُهم، وإلّا فهم الخطبُ الأطمُّ، والفدحُ الأعمُّ.

والثانية:

أن يتوصلَ العدوُّ إلى استمالتهم لفرصةِ الغفلةِ عنهم، فإذا لم يمنعْهُ التيقظُ، ولم يكفهِ التحفظُ، وسهامُ الرغائبِ صائبةٌ، ظفرَ بكيدهِ فاصطلمَ، ومالَ به فاحتكم.

والثالثة:

أن يبعثهم الإغفالُ على التسلطِ، ويدعوَهم الإهمالُ إلى التبسطِ؛

= الثعالبي في غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم(٦٩٠) بلفظه أيضاً، وقد أورده الطرطوشي بنصه وفيه«ووسع لهم في الرخاء» بالخاء المعجمة الفوقية وهو تصحيف (سراج الملوك ١٢٢). وقد أورده ابن عبد ربه بلفظ: «لا توسعن على جندك سعة يستغنون بها عنك ولا تضيقن عليهم ضيقاً يضجون به منه، ولكن أعطهم عطاء قصداً، وامنعهم منعاً جميلاً وابسط لهم في الرجاء ولا تبسط لهم في العطاء» (العقد الفريد١/٣٠) وهو اللفظ نفسه الذي دونه النويري في نهاية الأرب(١٧/٦).

تـطاولاً للسلطنةِ؛ فـلا يقبضـوا يـداً عن إرادةٍ يستهلكـونَ بهـا الأمـوالَ، ويستأصلونَ بها الأحوالَ، فتكثرَ بهم الرزايا، وتهلكَ بهم الرعايا، ويكونوا أضرَّ بالملكِ من كلِّ متغلبٍ، وأذكى[1] فيه من كلِّ متوثبٍ، وهذا لا يَنْحَسِمُ إذا استمرَّ إلا بالزواجرِ القاهرةِ، وهمِّ يَدِهِ الباطشةِ، فيستعينُ بمستقيمهم إن ظفرَ بتسليمِ مستقيمٍ، وإلاّ فإلى عطبٍ يؤول [إلى][2] الفسادِ، فبعيدٌ أن يعمَّ فسادُهم وفي الملكِ ثباتٌ.

فإنْ (٣٧ب) أسعدَهُ الفضلُ بصلاحِهم استدرك ما يستأنفهُ بالبحثِ عن أحوالِهم المستقلة، ولم يغفلْ عن صغيرٍ لكبيرٍ، فإن كبارَ الأمورِ تبدو صغاراً كالنارِ يصير إغفالُ قليلها ضرّا ما لم يستدركْ.

وأصعبُ ما يعانيهِ المدبرُ للدولةِ سياسةُ الجند؛ لأن بهم يقهرُ حتّى يسوس، وإذا عجز بفسادِهم صارَ مقهوراً، وإن ساسهم بحزمِه حتى انقادوا كان لهم بِالقوةِ سلطاناً، وكانوا له بالطاعةِ أعواناً، وقد قيل:

من علاماتِ الدولةِ قلّةُ الغفلةِ[3].

[٤ - تقدير الأموال]:

وأما القاعدةُ الرابعةُ - وهي تقديرُ الأموالِ - فلأنّها الموادُّ التي يستقيمُ الملكُ بوفورِها، ويختلّ بقصورِها.

---

(١) غ: وأزكى وليست في ط.

(٢) الزيادة من السياق.

(٣) قولهم: «من علامات الدولة قلة الغفلة» ساق الماوردي هذا القول في أدب الوزير دون أن ينسبه لقائل وذلك بلفظ«من علامة بقاء الدولة قلة الغفلة» (ص.١٣٠)، ومن كلام علي رضي الله عنه: «من إمارات الدولة التيقظ لحراسة الأمور» (غرر الحكم ٣٠٤) و «من دلائل الدولة قلة الغفلة» (٣٠٥).

وقالوا: «من لم يستظهر باليقظة لم ينتفع بالحفظة» (سراج الملوك٥٧).

وتقديرُها على الملوكِ مستصعبٌ.

لأنّهم يَرَوْنَ - بفضلِ القدرةِ - بلوغَ كلِّ غرضٍ، ودركَ كلّ مطلبٍ، فإنْ وصلوا إليه بالأسهلِ الألطفِ، وإلّا توصّلوا بالأصعبِ الأعنفِ، وإن استباحوه شرعاً، وإلّا ارتكبوا[١] محذورَه، وكابدوا معسورَه.

فإن أقاموا بفضلِ الحزمِ على السياسةِ العادلةِ حتى وقفت بهم القدرةُ على تقديرِ الأموالِ أن يعتبرَ بما استدامَ حصولُه، ويسهلَ وصولُه، ولم يحتجْ معه إلى التماسِ معذر[٢]، وارتيادِ متعذرٍ، اعتدلتْ ممالكهُم، وتعدلتْ مطالبُهم، فلم يعجزوا عن حقٍّ، ولم يتعدَّوا إلى باطلٍ، وكان الظافرُ بهذه الحالِ منهم هو الملكُ السعيدُ، ورعيتُه به أسعدُ الرعايا، وكان المقصّر فيها على ضدّها.

قال لي بعضُ الملوكِ - وقد توفّر على لذتِه، ولامَ غيرَه من الملوكِ عليها، وكنتُ سفيراً بينهما: إنيّ قدّرتُ خرجي بدخلي، وجعلتُ لكلِّ خرجٍ دخلاً كافياً، واستَنَبْتُ فيه أمناءَ (٣٨آ) كُفاةً[٣]، وأذنتُ لمن قصّر دخلُه عن خرجِه أن يقترضَ من غيرِهِ ما يقضيه عند وفورِ دخلِه، ثم صرفتُ زمانَ التشاغلِ بِهِ إلى اللذةِ بعد إحكامِه، ونفسي ساكنةٌ [إلى][٤] انتظامِه؛ فإن الملكَ يرادُ للالتذاذِ بهِ، ولو لم أفعلْ هذا لكنتُ في التشاغلِ باللذةِ ملوماً. فإن كان هذا الملكُ قبلَ توفرِه على لذَّتِه قد أحكمَ ما أحكمْتُهُ[٥] لم يُلَمْ، وإن[٦] كان قد أهملَهُ فهو الملومُ دوني.

---

(١) غ: ارتكبوه.
(٢) غ: معوز.
(٣) ط: على امناء الكفاة
(٤) الزيادة من ط.
(٥) ط: أحكمت.
(٦) ط: وإن أهمل فهو الملوم.

فقلتُ له: قد لمتَ غيرَك بذنبٍ خلصتَ منه نفسَك، فجعلتَهُ[١] لنفسِك عذراً، ولغيرِك جرماً، ولعمري إن المستظهرَ أعذرُ من المسترسِلِ.

وأحجمتُ عن استيفاءِ مناظرتِهِ[٢] التزاماً لحشمتِه، وإن كانَ حجاجُه معتلاً، وعذرُه مختلاً؛ لأنَّ قليل الذل[٣] لا يعري [من][٤] قليل العذل.

[وجه تقدير الأموال]:

وإنْ كانَ تقديرُ الأموالِ قاعدةً، فتقديرُها معتبرٌ من وجهين:

أحدهما تقدير دخلها:

وذلك مقدّرٌ من أحد وجهين:

إما بشرعٍ وردَ النصّ فيه بتقديرِه، فلا يجوزُ أنْ يخالفَ.

وإما باجتهادٍ ولّاه العبدُ فيما أدّاهم الاجتهاد إلى وضعِه وتقديره، ولا يسوغ أن ينقضَ. وإذا ردّت إلى القوانين المستقرةِ ثمرتْ بالعدل وكان إضعافُها بالجورِ ممحوقاً.

والثاني تقدير خرجها:

وذلك مقدّرٌ من وجهين:

أحدهما: بالحاجةِ فيما كانتْ أسبابُه لازمةً أو مباحةً.

والثاني: بالمكنةِ حتى لا يعجز منها دخلٌ، ولا يتكلّف معها عسفٌ.

---

(١) ط: فجعلت.

(٢) ط: مناظراته.

(٣) ط: القليل الزلل.

(٤) غ: لا يعتري قليل والتصحيح والزيادة من ط، وهذه الحكاية تؤيد ما ذكره المترجمون للماوردي من أنه كان يقوم بمهمة السفارة بين الملوك.

[مقابلة الدخل بالخرج]:

ثم لا يخلو حالُ الدخلِ إذا قوبلَ بالخرجِ من ثلاثةِ أحوالٍ:

أحدها:

أن يفضلَ الدخلُ عن الخرجِ.

فهو الملكُ السليمُ، والتقديرُ المستقيمُ؛ ليكونَ فاضِلُ الدخلِ معدّاً لوجوهِ النوائبِ(٣٨ب) ومستحدثاتِ العوارضِ؛ فيأمنَ الرعيةُ عواقبَ حاجتهِ، ويثقَ الجندُ بظهورِ مكنتِه، ويكونَ الملكُ قادراً على دفعِ ما طرأ من خطبٍ، أو حدثَ من خرقٍ؛ فإنّ للملكِ فنوناً لا ترتقبُ، وللزمانِ حوادثَ لا تحتسبُ.

والحال الثانية:

أن يقصرَ الدخلُ عن الخرجِ.

فهو الملكُ المعتلُّ، والتدبيرُ المختلُّ؛ لأنَّ السلطانَ - بفضلِ القدرةِ - يتوصلُ إلى كفايتِه كيفَ قَدَرَ، فتأوّلَ ما وجبَ، ويطالبُ بما لا يجبُ، وتدعو الحاجةُ إلى العدولِ عن لوازمِ الشرعِ وقوانينِ السياسةِ إلى حرفٍ[1] يصلُ به إلى حاجتهِ ويظفرُ بإرادتِه، فيهلكُ معه الرعايا، وينبسطُ عليه الأجنادُ، وتدعوهم الحاجةُ إلى مثلِ ما دعتْهُ، فلا يمكنُ قبضُهم عن التسلطِ وقد تسلّطَ، ولا منعُهُم من الفسادِ وقد أفسَدَ.

فإن استدركَ أمرَهُ بالتقنّعِ، وساعدَهُ أجنادُه على الاقتصادِ، وإلاّ فإلى عطبِ ما يؤولُ الفسادُ.

والحال الثالثة:

أنْ يتكافأَ الدخلُ والخرجُ حتى يعتدلَ، ولا يفضلَ، ولا يقصرَ؛ فيكونَ الملكُ في زمانِ السلمِ مستقلاً، وفي زمانِ الفتوقِ والحوادثِ مختلاً، فيكونَ لكلِّ واحدٍ من الزمانين حكمُه. فإنْ ساعدَهُ القضاءُ بدوامِ السلم كان على

(١) حرف: وجه وقد سقط هذا الموضوع من ط.

دَعَتِهِ واستقامتِه، وإنْ تحركتْ به النوائِبُ، كدّهُ الاجتهادُ، وَثَلمَهُ الأعوانُ، فيجعلُ الملكُ ذخيرةَ نوائِبه في مثلِ هذه الأحوالِ الإحسانَ إلى رعيتِه، وتحكيمِ العدلِ في سياستِه؛ ليكونَ بالرعيةِ مستكثراً، وبالعدلِ مستمراً.

* * *

[الفصل الثاني والعشرون]
[أصل ما تبنى عليه السياسة العادلة]

وأصل ما تبنى عليه السياسةُ العادلةُ في سيرةِ الرعيةِ بعد حراستهِ الدينَ وتخيّر الأعوانِ أربعةٌ:

الرغبةُ.

والرهبةُ. (٣٩آ)

والإنصافُ.

والانتصافُ[١]

فأما [الرغبة]:

فتدعو إلى التآلفِ، وحسنِ الطاعةِ، وتبعثُ على الإشفاقِ، وبذلِ النصيحةِ، وذلك من أقوى الأسبابِ في حراسةِ المملكةِ.

فإنْ قبضَها عنهم زالَ حكمُها معهم، وتصنّعوا بالطاعةِ تربّصاً للدوائر، وسارعوا إلى المعصيةِ عند هجومِ النوائبِ، فهو منهم بين نفاقٍ وإنْ ساتروه، وبين شقاقٍ وإن جاهروه، ولا خيرَ في ما تردّدَ بين نفاقٍ وشقاقٍ.

وقال أبرويز:

أجهلُ الناسِ من يعتمدُ في أمورهِ على مَنْ لا يَأمَلُ خيرَهُ، ولا يأمَنُ شرَّهُ[٢].

وأما [الرهبة]:

فتمنعُ خلافَ ذوي العنادِ، وتحسمُ سعيَ أهلِ الفسادِ؛ حذراً من

---

(١) أصل هذا الكلام قول أرسطوطاليس للإسكندر: «تشكل بأشكال مختلفة من لين سياسة وغلظة؛ ليجتمع لك أمر الناس طوعاً من بعض، وكرهاً من آخرين... الخ» في أقوال كثيرة (انظر السعادة والإسعاد ٣٠١).

(٢) قول أبرويز: «أجهل الناس من يعتمد في أموره على من لا يأمل خيره ولا يأمن شره»، أورده الأمير أسامة بن منقذ بهذا اللفظ منسوباً إليه (لباب الآداب ٥٨).

السطوةِ؛ وإشفاقاً من المؤاخذةِ، وذلك أقوى الأسبابِ في تهذيبِ المملكةِ.

فإنْ زالتْ عنهم زالَ حكمُها معهم، فَلاَنَ، واشتدّوا وهانَ، واعتزّوا، فاستسهلوا معصيتَه، واستقلّوا طاعتَه، وصارتْ أوامرُه فيهم لغواً، وزواجِرهُ لهواً، وقد قيل:

من إماراتِ الجَدِّ حسنُ الجِدِّ[1].

وإذا جمعَ بينَ الرغبةِ والرهبةِ، قادَهم الرجاءُ إلى طاعتهِ، وصدَّهم الخوفُ عن معصيتهِ، وانبسطَ فيهم الأملُ، وكثرَ منهم الوجلُ، فعزّ سلطانُه، واستقامَ أعوانُه.

قال بعضُ الحكماءِ:

من أعرضَ عن الحَذَرِ والاحتراسِ، وبنى أمرَه على غير أساسٍ، زالَ عنهُ العزُّ، واستولى عليهِ العجزُ[2].

وأما [الإنصاف]:

فهو عادلٌ يفصلُ بين الحقِّ والباطلِ، يستقيمُ بهِ حالُ الرعيةِ وتنتظمُ به أمورُ المملكةِ؛ فلا ثباتَ لدولةٍ لا يتناصَفُ أهلُها، ويغلُبُ جورُها على عدلِها؛ فإنّ الندرةَ من الجور تؤثّرُ، فكيفَ به إذا كثرَ.

---

(١) قولهم: «من إمارات الجد حسن الجد» أورده الأمير أسامة بن منقذ ضمن أقوال أرسطوطاليس بلفظه (لباب الآداب ٦٨). قال الشيخ أحمد محمد شاكر في شرح هذا القول: «الجد الأولى بفتح الجيم بمعنى البخت والحظوة، والثانية بكسرها بمعنى الاجتهاد» (لباب الآداب حاشية ص٦٨).

(٢) قولهم: «من أعرض عن الحذر والاحتراس.. الخ» سيورده المؤلف مرة أخرى في هذا الكتاب بزيادة فيه وهي قوله: «فصار من يومه في نحس ومن غده في لبس»، وأورده في أدب الوزير (ص٢١) باللفظ الذي ورد هنا وفي الأمثال والحكم (الورقة ٥٢ب)، باللفظ الذي ورد هناك. وقد نسب الأمير أسامة بن منقذ هذا القول إلى الحكيم أرسطوطاليس بألفاظه وبزيادته باستثناء كلمة (الحذر) فإنها فيه بلفظ (الحزم)، (لباب الآداب ٦١)، وأورده النويري منسوباً لبعض الحكماء بزيادة هي قولهم: «وإن قدم لطوارئه حذر المتيقظ وتلقاها بعدّة المتحفظ رد بادرتها بعزم ذي حزم، قد حلب أشطر دهره وقام بواضح عذره»، (نهاية الأرب ٦ / ١٠٦).

ولو لم يتناصفْ أهلُ الفسادِ لما تمّ لهم فعلُ الفسادِ، فكيفَ بملكٍ قد استرعاه اللهُ صلاحَ عبادِهِ، ووكلَ إليهِ عمارةَ بلادهِ، إذا لم يحمل على التناصف والتعاطف، ومزجت (٣٩ب) فيه الأهواء بالمخرف[١]، وتحكمتْ القوةُ في منعِ الحقِ أن لا يوفى، وفي إحداثِ ما لا يستحقّ أن يستوفى، وتهارجَ الناسُ فيها بالتغالبِ، وتمازجوا فيها بالتطاولِ والتغاضبِ، هل يقتربُ بهذا الملكِ - وقد تعطلتْ هذه الأصولُ به - صلاحٌ؟ كلاًّ، لن يكونَ الباطلُ حقّاً، والفسادُ صلاحاً، وقد قال أردشير بن بابك:

إذا رغبَ الملكُ عن العدلِ رغبت الرعيّةُ عن الطاعةِ[٢].

قال الإسكندر لحكماءِ الهندِ:
أيما أفضلُ: العدلُ أم الشجاعةُ؟
قالوا:
إذا استُعملَ العدلُ استغنِيَ عن الشجاعةِ[٣].

---

(١) غ: بالخرف.

(٢) غ: عن الباطل والتصحيح مما سيورده المؤلف في هذا الكتاب إذ استشهد به مرة ثانية، ومن ط ومن كتب التخريج. وقوله: «إذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن الطاعة»، تجده في ثمار القلوب (١٧٨) بلفظه منسوباً إلى أردشير، وفي التمثيل والمحاضرة (ص١٣٦) بلفظ «عن طاعته»، ونسبه أيضاً إليه، وهو بهذا اللفظ الأخير في زهر الآداب (٢١٢) وأقوال أردشير (ملحقة بكتاب عهد أردشير)، ص١٠٢، رقم الفقرة ٢٦، والمستطرف ١ / ١٠١.

(٣) قول الإسكندر لحكماء الهند: «أيما أفضل العدل أم الشجاعة؟»، أورده الماوردي في أدب الدنيا والدين بزيادة هي قوله: «وحكي أن الاسكندر قال لحكماء الهند، وقد رأى قلة الشرائع بها: لَم صارت سنن بلادكم قليلة؟ قالوا: لإعطائنا الحق من أنفسنا، ولعدل ملوكنا فينا، فقال لهم: أيما أفضل: العدل أم الشجاعة؟..» (انظر ص١٢٥)، وأورده النويري بلفظ: «سأل الإسكندر حكماء بابل فقال: أيها أبلغ العدل أو الشجاعة.. وفيه: إذا استعملنا العدل استغنينا عن الشجاعة»، (نهاية الأرب ٦ / ٣٥)، وانظر (المستطرف ١ / ١٠١-١٠٢). وأورده الأمير أسامة بن منقذ بلفظه منسوباً إليه (لباب الآداب ٥٧)، وأورده الحسن بن الحسين الرخجي بلفظ: «وقد قيل إنه - أي الإسكندر - سأل من حضره من حكماء الهند: لَم سريتكم قليلة؟ فقالوا لإعطائنا الحق من نفوسنا وطاعتنا لملوكنا، وحسن سيرتهم وعدلهم فينا، فقال لهم: أيها أفضل العدل أو الشجاعة عند الحرب؟ فقالوا: من عدل استغنى عن الحرب، ومن استغنى عن الحرب استغنى عن الشجاعة» وأورده ابن =

قال بعضُ العلماءِ[١]:
الملكُ يبقى على الكفرِ ولا يبقى على الظلمِ[٢].

فأخذه بعضُ الشعراءِ فقالَ في ذلكَ:
عـليـكَ بـالـعـدلِ إنْ ولـيـتَ مـمـلكـةً
واحـذرْ من الجـورِ فيهـا غـايـةَ الـحَـذَرِ
فـالـملكُ يـبقـى على الـكفـرِ الـبهـيمِ ولا
يبقـى مـع الجـورِ فـي بـدوٍ وفي حَـضَـرِ

ولا ينقض[٣] هذا القول ما قدّمناه من اعتبارِ الدينِ في قواعدِ الملكِ؛ لأنّ الكفرَ تديّنٌ بباطلٍ، والإيمان تديّنٌ بحقٍّ، وكلاهما دينٌ معتقدٌ، وإن صحَّ أحدُهما وبطلَ الآخرِ.

وربما[٤] ظن من تسلّط بالسطوةِ من الولاةِ أنّه بالجورِ أقدرُ، وأقهَرُ، وأنّ أموالَه بالحيفِ أكثرُ وأوفَرُ، ويخفى عنه أنّ الجورَ مستأصلٌ، يقطعُ قليلُ باطِلِهِ كثيرَ الحقِّ في الأجلِ، ثم إلى زوالٍ يكون المآلُ، فقد قيلَ في حِكَمِ الفرسِ:

ستةُ أشياء لا ثباتَ لها:

= الجوزي بلفظ: قيل لأنوشروان: أي العدد أقوى؟ قال: العدل، وأول العدل أن يبدأ المرء بنفسه، فيلزمها كل خلة زكية وخصلة مرضية» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ١ / ٤٥١) وفيه تخريج.

(١) ط: بعض الحكماء.

(٢) قولهم: «الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم»، ورد هذا القول بلفظه دون نسبة إلى قائل في التمثيل والمحاضرة ١٣٠، والمصباح المضيء ١ / ٤٦١، ونسبه الثعالبي إلى النجاشي أحد ملوك الحبشة (الإيجاز والإعجاز ١٥)، وقد أورده الغزالي على أنه حديث نبوي بلفظه وفيه «مع الكفر.. مع الظلم»، (نصيحة الملوك ٤٤).

(٣) ط: قال أقضى القضاة: ليس ينقض..

(٤) ط: قال أقضى القضاة: وربما ظن...

ظلّ الغمامِ ، وخلةُ الأشـرارِ، وعشرةُ[١] النسـاءِ، والثناءُ الكـاذبُ، والسلطانُ الجائرُ، والمالُ الكثيرُ[٢]

وقالوا:
إنّ الجورَ يرفعُ [نفسَهُ.][٣]

وعلةُ هذا صحيحةٌ[٤]؛ لأن الجورَ مدرسةٌ[٥]، ولا يبقى مع الدارسِ ما يتوجّهُ الجورُ إليه، والعدلُ ثابتُ الأصولِ، نامي الفروعِ، مكينُ القوانين؛ فهو كالغـرسِ في الأرضِ، يعلو شجرُهُ، ويتـوالى ثمرُهُ، والجـورُ (٤٠آ) مستأصلٌ لما أنشأهُ العدلُ؛ فلا يدعُ له أصلًا ثابتاً ولا فرعاً نابتاً.

---

(١) وعشرة كذا في غ وط وفي مصادر التخريج عشق.

(٢) قوله: «وقد قيل في حكم الفرس: ستة أشياء لاثبات لها..» استشهد المؤلف بهذا القول في الأمثال والحكم (الورقة ٥١آ-٥١ب)، بلفظ «وعشق» وقد أورده ابن مسكويه ضمن وصايا الفرس بلفظ «خمسة أشياء لا بقاء لها ولا ثبات: ظل الغمام، وخلة الأشرار، وعشق النساء، والثناء الكاذب، والمال الكثير» (الحكمة الخالدة ٧٨)، وهو عند ابن المقفع بلفظ: «وقيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء: ظل الغمام، وخلة الأشرار، وعشق النساء، والثناء الكاذب، والمال الكثير» (الأدب الصغير، ضمن رسائل البلغاء، ٣٧)، ونجد القول عند ابن قتيبة بلفظ: «وفي كتاب للهند لا ثناء مع كبر، وفيه: ستة أشياء لا ثبات لها: ظل الغمام وخلة الأشرار، وعشق النساء، والمال الكثير، والسلطان الجائر، والثناء الكاذب»، (عيون الأخبار ٣ / ١٦٩)، وعند ابن عبد ربه: «ثلاثة لا بقاء لها: ظل الغمام، وصحبة الأشرار، والثناء الكاذب»، (العقد الفريد - تحقيق العريان - ٢ / ١١٠)، من أقوال بطليموس: «لا بقاء لظل الغمام، ولا لمودة الأشرار، ولا لأخوة أهل الرياء، ولا لمن سن سنة الجور» (مختار الحكم ٢٥٩)، ونجد معنى هذا الكلام في سراج الملوك ١٢.

(٣) الزيادة من ط. وقولهم: «إن الجور يرفع نفسه» نجد معناه في قول أنوشروان في كلام طويل يقول: «ويجب على الملوك أن يقيموا العدل الذي به صلاح الملك والمملكة؛ فإن العدل هو سبب عمارة المملكة، والجور سبب الخراب والبوار» (السعادة والإسعاد ٢٠٨)، والترجمة والنقل عن الفارسية (ص ١٠٥)، وقد وقع المأمون في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة: «يا عمرو أعمر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها» (سراج الملوك ص٥٣)، وقالوا: «الجور آفة الزمان»، (نهاية الأرب ٦ / ٤٠).

(٤) ط: صحيح.

(٥) غ: يدرسه، ومدرسة مفعلة (مصدر ميمي) من درس أي عفا.

ثم الإنصافُ[١] استثمارٌ، والعدلُ استكثارٌ، فيصيرُ [الإنسانُ][٢] بالإنصافِ مستثمراً، وبالعدلِ مستكثراً. وما نقصَ ملكٌ من إنصافٍ، ولا جاهٌ من إسعافٍ، وهما بالمزيدِ أجدر[٣]. وفرقٌ ما بين العدلِ والإنصافِ في الحقوقِ الخاصةِ.

وليسَ يخرجانِ بهذا الفرقِ من الاشتراكِ في الحقِ، كما أن بمثلِه يكونُ فرقٌ ما بينَ الجورِ والحيفِ، ولا يمنعُ من الاشتراكِ في الباطلِ.

وقد قيل:

من عدلَ في سلطانِهِ استَغنى عن أعوانِهِ[٤].

وقال جعفرُ بنُ يحيى[٥]:

[الخراجُ عمودُ الملكِ، و][٦] ما استُغزِرَ المالُ بمثلِ [العدلِ، وما استُنْزِرَ بمثلِ][٧] الجورِ[٨].

---

(١) ط: والإنصاف.

(٢) الزيادة من ط.

(٣) ط: احذر.

(٤) قولهم: «من عدل في سلطانه استغنى عن أعوانه» أورده الأمير أسامة بن منقذ بهذا اللفظ، ونسبه إلى الحكيم، أي أرسطوطاليس، (لباب الآداب ٥٨)، وأورده مرة أخرى منسوباً إليه أيضاً بلفظ: «وأي ملك عدل في حكمه وقضيته استغنى عن جنده ورعيته» (ص٦٥، ٧١)، وأورده عبد الواحد الآمدي بلفظه ضمن أقوال علي (غرر الحكم ٢٨٤) وأورده الرخجي غير منسوب وبنفس لفظه (أحاسن المحاسن ١٦٠)، وقد نسبه المسعودي إلى أنوشروان بلفظ: «صلاح أمر الرعية أنصر من كثرة الجنود، وعدل الملك أنفع من خصب الزمان»، (مروج الذهب ١ / ٢٧٠) وقد عد الطرطوشي قولهم «إصلاح الرعية خير من كثرة الجنود» من الأمثال (سراج الملوك ١١٤).

(٥) جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد، كان كاتباً بليغاً، قتل في نكبة البرامكة سنة ١٨٧هـ، انظر بعضاً من أخباره في تاريخ بغداد ٧ / ١٥٢، النجوم الزاهرة ٢ / ١٢٣، وفيات الأعيان ١ / ٢٩٢-٣٠٥، رقم الترجمة ١٢٩، العقد الفريد ١ / ٣٦، ٢٠٠، ٢٠١، ٣٠٩، ٣١١، ونماذج من توقيعاته في العقد - العريان - ٤ / ٣٠٨، البيان والتبيين ١ / ١٠٦.

(٦) الزيادة من مصادر التخريج وليست في غ ولا في ط.

(٧) الزيادة من ط، ومصادر التخريج وليست في غ.

(٨) قول جعفر بن يحيى: «الخراج عمود الملك..» ورد منسوباً إليه وفيه «عماد الملوك»، والإيجاز =

وأما [الانتصاف]:

فهو استيفاءُ الحقوقِ الواجبةِ، واستخراجُها بالأيدي العادلةِ؛ فإنّ فيه قوامَ الملكِ، وتوفيرَ أموالِه، وظهورَ عزِّه، وتشييد قواعدِه، وليسَ في العدلِ تركُ مالٍ من وجهةٍ، ولا أخذهُ من غيرِ وجهةٍ، بـل كلا الأمـرين عدلٌ، لا استقامةَ للملكِ إلّا بهما.

وكما أنّ الانتصافَ عدلٌ في حقوقِ الملكِ، ولما كان الحيفُ في حقوقِ الرعيةِ قبيحاً، كانَ الحيفُ في حقوقِ الملكِ أقبحَ؛ لأنّ يدَه أعلى، ونفعَ مالهِ أعمَّ.

وإنْ لم ينتصفْ لعجزٍ، كانَ ذلكَ من وهاءِ ملكهِ.

وإنْ لم ينتصفْ لإهمالٍ كانَ ذلكَ من ضعفِ سياستِهِ.

وإنْ لم ينتصفْ لتركٍ، كانَ ذلكَ من تبذيرِهِ وسرفِهِ، إلّا أنْ يكونَ عفواً لموجبٍ يندبُ إلى مثلِهِ، لا يخرجُ عن قانونِ السياسةِ، وهو منها، وليسَ بعامٍ فيلامُ.

فإذا ذهبتْ الأموالُ - أموالُ الملكِ - بأحدِ هذهِ الأسبابِ القاطعـةِ لموادِّهِ، زالَ عنه الرجاءُ، واشتدّ فيه الطمعُ، وصارَ على شفا جرفٍ، إن صَـدَعَـهُ خـطبٌ، أو قـارَعَـهُ (٤٠ب) ضِـدٌّ، فتلجئـهُ الحـوادثُ إذا تَـرَكَ ما يستحقُّ، إلى أنْ يأخذَ ما لا يستحقُّ، فيصيرُ في التركِ جائراً على ملكهِ،

= والإعجاز ص٢٥، وخاص الخاص ٩٠، والعقد الفريد ١ / ٣٦، عيون الأخبار ١ / ١٣، وفيه «بمثل الظلم» وسراج الملوك ١٢٣، في وصية طويلة، وقد ورد منسوباً إلى أنوشروان، وأنه من توقيعاته إلى ولاة الخراج (رسالة العسكري في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم ٢١٧)، وقد ورد منسوباً إلى أردشير بلفظه في غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ٤٨٤، وعين الأدب والسياسة (على هامش غرر الخصائص) ص١٤٧، وأقوال متفرقة لأردشير (ملحقة بآخر كتاب عهد أردشير ص١٠١، الفقرة٢٤)، وهو من أقوال الحكماء بهذا اللفظ عند ابن الجوزي والمصباح المضيء في خلافة المستضيء ٢ / ٥٣١، وقد ذكره الماوردي في كتابه نصيحة الملوك (الورقة ٥٥ب)، على أنه مما وقع به عبد الله بن طاهر. ثم أنه نثره في كتابه أدب الوزير بلفظ «واعلم أنك لن تستغزر موادك إلّا بالعدل والإحسان ولن تستندرها (بالدال) بمثل الجور والإساءة، لأن العدل استثمار دائم، والجور استئصال منقطع» (ص٤).

وفي الأخذِ جائراً على رعيّتِهِ، فلا ينفكُّ في الحالينِ من أنْ يكونَ خاطئاً ملوماً، وجائراً مذموماً.

قال بعضُ البلغاءِ:

لا يستغني الملكُ عن الكفاةِ، ولا الكفاةُ عن الإفضالِ، والإفضالُ عن المادةِ، ولا المادةُ عن العدلِ[١].

فالملكُ بغيرِ الكفاةِ[٢] مختلٌّ، والكفاةُ بغيرِ الإفضالِ مسلّطون[٣]، والإفضالُ بغيرِ المادةِ منقطعٌ، وإنّما يقيمُ الموادَّ تسليطُ العدلِ، وفي تسليطِ العدلِ حياةُ الدنيا، وبهاءُ الملكِ.

[و][٤] في هذا التنزيل تعليلٌ للعدل[٥]، فإنّه من قواعِدِ الملكِ[٦]؛

---

(١) قول بعض البلغاء: «لا يستغني الملك عن الكفاة..» ورد في ط بلفظ «.. ولا المادة عن المال ولا المال عن العدل»، وقد أورد المؤلف ما يشبه هذا القول ونسبه إلى أنوشروان بلفظ «إن الملك بالجنود، والجنود بالأموال، والأموال تستخرج من الأرضين، والأرضون تزكو بالعمارة، والعمارة لا تتم إلّا بالعدل»، (نصيحة الملوك، الورقة ٥٥ب - ٥٦آ)، ومروج الذهب ١ / ١٦٨، والترجمة والنقل عن الفارسية ١١٧، والمستطرف ١ / ١٠١، والمصباح المضيء في خلافة المستضيء ١ / ٤٥٠، باختلاف يسير.

وقد نسبه ابن عبد ربه إلى عمرو بن العاص بلفظ: «لا سلطان إلّا بالرجال، ولا رجال إلّا بمال، ولا مال إلّا بعمارة، ولا عمارة إلّا بعدل»، (العقد الفريد ١ / ٣٩)، وانظره أيضاً منسوباً إلى عمرو في كتاب الآداب لجعفر بن شمس الخلافة، ص٢٧ والنويري في نهاية الأرب (٦ / ٣٥)، وقال الطرطوشي: إن ذلك مما اتفق عليه حكماء العرب والعجم (سراج الملوك ٥٢)، وانظر معناه فيه في(ص٨٨)، وقد أورده الثعالبي في كتبه ونسبه إلى أردشير بلفظ «لا سلطان إلّا برجال، ولا رجال إلّا بمال، ولا مال إلّا بعمارة ولا عمارة إلّا بعدل وحسن سياسة»، (ثمار القلوب ١٧٨)، و(التمثيل والمحاضرة ١٣٦)، و(الإيجاز والإعجاز ١٢)، و(غرر ملوك الفرس ٤٨٢)، و(غرر الخصائص ٦٢)، ثم انظره في أقوال متفرقة لأردشير ملحقة بعهد أردشير ص٩٨، فقرة ١٦.

(٢) غ: كفاة.

(٣) غ: مبطلون والصواب ما أثبتناه عن ط.

(٤) الزيادة من ط وفيها: قال أقضى القضاة: وهذا التنزيل الواضح.. الخ ومعنى العبارة، إن في هذا الترتيب بيان سبب العدل وأهميته.

(٥) غ: العدل.

(٦) ط: من قواعد المصالح.

فإنّك لن تجدَ صلاحاً[١] كانَ الجورُ علّةَ وجودِهِ، ولا فساداً كانَ العدلُ علّةَ ظهورِهِ[٢]، وإنما تجتذبُ[٣] العلل[٤] [إلى][٥] الأصولِ نظائِرَها.

[شروط استقامة الملك بهذه القواعد الأربع]:

ولاستقامةِ الملكِ بهذه القواعدِ الأربعِ ثلاثةُ شروطٍ:

أحدها:

أن يقفَ منها على الحدِّ المقصودِ، وينتهيَ فيها إلى العرفِ المعهودِ.

فإنْ تجاوزَ فيها مسرفاً أو مقصّراً كان باللوم[٦] جديراً؛ فإنَّ الزيادةَ في الرغبةِ صرعٌ، والزيادةَ في الرهبةِ سلاطةٌ، وكذلكَ النقصانُ منهما يكونُ على ضدِّهما.

والثاني:

أنْ يستعملَها[٧] في مواضِعِها، ولا يعدِلُ بالرغبةِ إلى موضعِ الرهبةِ[٨]، ولا يستعْملُ الرهبةَ في موضعِ الرغبةِ؛ فيصيرَ تاركاً للرغبةِ والرهبةِ، وقد تكلّفَ[٩] عناءً ضاعتْ مغارِمُهُ، وبطلتْ مغانِمُه[١٠]، فهو كآكلِ الطعامِ من الظمأ، وشاربِ الماءِ من المجاعةِ، لا يرتوي بما أكلَ، ولا يشبعُ بما شربَ.

---

(١) ط: سلاحاً.
(٢) ط: علة وجوده.
(٣) ط: تحدث.
(٤) غ: عليك الأصول.
(٥) الزيادة من ط.
(٦) غ: اللوم. وهذه الفقرة ليست في ط.
(٧) غ: يستعملها. وهو تصحيف، وفي ط هنا قوله: قال أقضى القضاة في أثناء كلامه في هذا المعنى: ويجب أن يستعمل هذه الأمور في مواضعها.
(٨) ط: إلى محل الرهبة فيصير تاركاً للرغبة والرهبة.
(٩) ط: كلف.
(١٠) ط: وبطلت مغانمه، وهو على وجل من ضرره وحذر من خطره، فهو كآكل الطعام من الظمأ.

ثم هـو على وجلٍ من ضـررِهِ، وحذرٍ من خـطرِه، وقـد أحسنَ(١) المتنبّي(٢) في قولِه: [من الطويل]

وَوَضْـعُ النّـدى في مـوضـع السيفِ بـالعلى
(٤١آ) مضـرٌّ كـوضـعِ السيفِ في مـوضِـعِ النّدى(٣)

قالَ بعضُ الحكماءِ:

من سكراتِ السلطانِ الرضا عن بعضِ من يستوجبُ السخطَ، والسخطُ على بعضٍ من يستحقُّ الرضا(٤).

---

(١) ط: وقد أصاب.

(٢) المتنبّي: أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي الشاعر المشهور الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، المولود في سنة ٣٠٣هـ بالكوفة، والمتوفى سنة ٣٥٤هـ، انظر نماذج من أخباره في وفيات الأعيان ١ / ١٠٢-١٠٧، رقم الترجمة ٤٩، اللباب في تهذيب الأنساب ٣ / ١٦٢، وقد شرح ديوانه الواحدي والعكبري وابن جنى، ويقام مهرجان في بغداد هذه الأيام(سنة ١٩٧٥) احتفالاً به.

(٣) البيت في ديوانه ١ / ٢٨٨، و(الواحدي) ٥٣٣، واليازجي ٣٨٧، من قصيدة يمدح بها سيف الدولة، وفي كتاب المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام لعبد القاهر الجرجاني (ضمن الطرائف الأدبية) ص٢٠٨، وقد جعل الصاحب ابن عباد هذا البيت من الأمثال السائرة، (الأمثال السائرة من شعر المتنبي ص٤٨)، وانظر زهر الربيع في المثل البديع ص٨٦، وقد ورد في التمثيل والمحاضرة منسـوباً إليـه (١١١، ٢٩١)، مجمع الأمثال ١ / ١٤، وشرح مشكلات ديوان أبي الطيب المتنبي أو الفتح على فتح أبي الفتح لأبي علي ابن فورجة البروجردي (تحقيق الدكتور محسن غياض مجلة المورد المجلد الثاني العدد الثاني، ١٩٧٣ ص٩٧)، وقد جعل العلامة أبو علي محمد بن الحسن المظفر الحاتمي هذا البيت مأخوذاً من قول أرسطوطاليس: «من استعمل الفكر في موضع البديهة فقد أضر بخاطره وكذلك مستعمل البديهة في موضع الفكر»، (انظر الرسالة الحاتمية ص١٤٨-١٤٩)، ومعناه من الأمثال العالمية (المثل المقارن ١٠١، ١٥١) وهو في شرح نهج البلاغة ٣٨/٤، أسرار البلاغة ٢٤٠، الكشكول (مصر ١٣١٨)، ص١٣٨، نهاية الأرب ١٠٦/٣.

(٤) غ: والسخط عن بعض من يستحق الرضا، والتصحيح من ط ومن أدب الوزير (ص٥)، فقد استشهد المؤلف بهذا القول بلفظه هناك وقد سقطت منه كلمة (السخط)، وقد أورد أبو الحسن الرخجي قولاً مقارباً له دون أن ينسب لأحد بلفظ: «من عف عن مستحق العقوبة كان كمن عاقب من يستوجب الأجر والمثوبة» (أحاسن المحاسن ١٦٥).

والثالث:

أن يترجّى لها زمانَها[١]، ويتوقّعَ إبّانَها، حتى لا تضيعَ الرغبةُ والرهبةُ إن قدّمَهُما، ولا يقرَّ بأنْ آنَ آخرُهما؛ فإنَّ[٢] فِعْلَ الشيءِ في غيرِ زمانِهِ كصلاحِ المرضِ في غيرِ أوانِهِ، لا يقعُ من الانتفاعِ موقعاً، ولا يكونُ العملُ فيهِ إلّا ضائعاً. وقد قيلَ:

مَنْ أخّرَ العملَ عنْ وقتِهِ فليكنْ على ثقةٍ منْ فوتِهِ[٣].

وَلَيَسيْرُ[٤] ذلك في وقتِه أنْفَعُ من كثيرِهِ في غيرِ وقتِه.

وربّما ضرَّ كما يستضرّ بالدواءِ في الصحةِ، وإنْ كانَ نافعاً في المرضِ.

وإذا صادفَ بالرغبةِ زمانَها، ووافقَ بالرهبة أوانَها سَعِدَ بحزْمِهِ، وحظي بعزمِهِ، وطبّق مفاصِلَ أغراضِه، وبلغَ كنْهَ مرادِهِ.

* * *

(١) ط: قال: ويتوخى بها زمان الحاجة حتى لا تضيع الرهبة والرغبة وفعل الشيء في غير زمانه كعلاج المرض...

(٢) ط: وفعل، غ: وإن.

(٣) قوله: «من أخر العمل عن وقته...» استشهد به المؤلف في أدب الوزير على أنه من أقوال الحكماء بلفظ: «من أخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها»، (ص٥٣). ومن أقوال أرسطوطاليس في هذا المعنى قوله: «إياك والتأخير في أمورك، والتواني عنها فيما يحدث منها؛ فإنك إن فعلت ذلك كثرت عليك، ثم لم تجد لك بمباشرتها يداً، ويقدحك إن وكلتها إلى غيرك وتضيع من يدك...»، (مختار الحكم ١٩٠-١٩١)، وقيل لملك قد زال عنه ملكه: «ما الذي سلبك ما كنت فيه؟ قال: دفع عمل يوم إلى غد والتماس عذر بتضييع عمل»، (لباب الآداب ٣٩).

(٤) ط: قال أقضى القضاة: وليسير. والمعنى: ولقليل، واللام لام الابتداء.

[الفصل الثالث والعشرون]
[تهذيب الأعوان والحاشية]

[سياسة الملك بالأعوان والحاشية]:

وليعلمِ الملكُ أنّه لا استقامةَ لهُ، ولرعيّتِهِ، إلاّ بتهذيبِ أعوانِه وحاشيتِهِ؛ لأنّه لا يقدرُ على مباشرةِ الأمورِ بنفسِهِ، وإنّما يستنيبُ فيها الكفاةَ من أصحابِهِ[1]؛ لأنّ سياساتِ الملوكِ مقصورةٌ في مباشرتِهم لها على أمرين:

أحدهما: تدبيرُ أمورِ الجمهورِ[2] بآرائِهِم.

والثاني: استنابةُ الكفاةِ في تنفيذِها على أوامره.

وما سوى ذلكَ فالأعوانُ هم كفلاء مباشرتِها، وزعماء القيامِ بأعوامِها[3].

وقد شَبَّهَ المتقدمونَ السايسَ المدبِّرَ للمملكةِ في السلمِ والحربِ بالطبيبِ المدبِّرِ للجسدِ في حفظِ الصحةِ، وعلاجِ الأمراضِ: اليدين في بطشِهما بالجندِ والأعوانِ، والرجلين بالكراعِ (٤١ب)، والظهرَ والعينين بالحجابِ والحرسِ، والأذنين بأصحابِ البريدِ والأخبارِ، واللسانَ في نطقهِ بالوزراء والكتابِ، والأعضاء المجاورةَ في القلبِ بحاشيةِ الملكِ على طبقاتِهم في القربِ والبعدِ.

وحاجةُ الخاصةِ للعامةِ في الاستخدامِ كحاجةِ الأعضاء الشريفةِ إلى التي ليستْ بشريفةٍ؛ لأنّ بعضَ الأمورِ لبعضٍ سببٌ، وعوامُّ الناسِ لخواصِّهم عدةٌ، وبكلِّ صنفٍ منهم إلى الآخرِ حاجةٌ.

---

(١) قوله: «وإنما يستنيب فيها الكفاة من أصحابه...» قال ابن المقفع: «ولا عيب على الملك في تعيشه وتنعمه إذا تعهد الجسيم من أمره وفوض ما دون ذلك إلى الكفاة» (الأدب الكبير١١٥-١١٦).

(٢) غ: تدبير الأمور الجمهور.

(٣) غ: بأعوانها.

وإذا كان[1] أعوانه منه بمنزلة أعضائه التي لا قوام للجسد إلّا بها، ولا يقدر على التصرف إلّا بصحتها واستقامتها، وجب عليه تقويم عوجهم، وإصلاح فاسدهم؛ ليستقيموا، فيستقيم الملك بهم، كما لا تستقيم أفعاله إلّا باستقامة أعضائه من جسده.

قال النبي عليه السلام:

«العينان دليلان، والأذنان قمعان، واللسان ترجمان، واليدان جناحان، والكبد رحمة[2]، والطحال [ضحك، والرئة][3] نفس، والكليتان مكر، والقلب ملك، فإذا صلح الملك صلحت رعيته[4]، وإذا فسد الملك فسدت رعيته»[5].

فتشابهت أعضاؤه في حق نفسه بحواشيه في حق ملكه، ومن لم يستقم منهم من عوجه بعد التقويم، ولا[6] كف عن زيغة بعد التهذيب كان إبعاده منهم أسلم لبقية أعوانه كالسلع[7] التي تقطع من الجسد.

قال أبرويز[8]:

مَن اعتمدَ على كفاةِ السوء لم يخلُ من رأيٍ فاسدٍ، وظنٍّ كاذبٍ، وعدوٍّ غالبٍ[9].

---

(١) غ: كانوا.

(٢) غ: والكبد جمد والتصحيح من الجامع الصغير ٢ / ٧١ والتيسير٢ / ١٥٩.

(٣) الزيادة من الجامع الصغير ومن التيسير.

(٤) غ: الرعية.

(٥) غ: الرعية. وحديث: العينان دليلان والأذنان قمعان... الخ» أخرجه أبو الشيخ في العظمة وابن عدي في الكامل، وأبو نعيم في الطب عن أبي سعيد الحكيم عن عائشة، (الجامع الصغير٢ / ٧١). قال المناوي: «وسببه أنه دخل عليها كعب الأحبار فقال لها ذلك فقالت: هكذا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم» (التيسير بشرح الجامع الصغير ٢/١٥٩) وفي أمثالهم: «العين ترجمان القلب» التمثيل والمحاضرة٣٠٩ و«الأذن قمع الفؤاد» التمثيل والمحاضرة٣١١.

(٦) غ: وإلّا وهو تصحيف.

(٧) السلع: جمع سلعة وهي زيادة في البدن كالغدة تتحرك إذا حركت.

(٨) غ: برويز (بسقوط الألف).

(٩) قول أبرويز: «من اعتمد على كفاة السوء...» ذكره الماوردي بلفظه في أدب الوزير (٣٢)، =

[أصل ما يبني عليه قاعدة أمره في اختيارهم]:

وأصلُ ما يبني عليه قاعدةَ أمرِهِ في اختيارِ أعوانِهِ وكفاتِهِ: أنْ يختبرَ أهلَ مملكتِهِ، ويسبرَ جميعَ حاشيتِهِ، بتصفّحِ[١] عقولِهِم وآرائِهِم، ومعرفةِ هِمَمِهِم وأخلاقِهِم، حتّى يعرفَ بِهِ (٤٢آ) باطنَ سرائرِهِم، وما يلائمُ كامنَ شيمِهِم؛ فإنّه سيجدُ طباعَهم مختلفةً، وهِمَمُهُمْ متباينةً، ومِنَنُهُمْ متفاضلةً.

وقد قيلَ:

الهمّةُ رائدُ الجدِّ[٢]

فيصرّفَ كلَّ واحدٍ منهم: فما طُبِعَ عليه من خلقٍ، وتكاملتْ فيهم الآلةُ، وتخصّصتْ به من همة، فهي أحوال ثلاثٌ يجبُ اعتبارُها في كلّ مستكفٍ وهي:

الخلقُ، والكفايةُ، والهمةُ.

فلا يُعطي أحدَهم منزلةً لا يستحقّها لنقصٍ أو خللٍ، ولا يستكفيه أمرَ ولايتِه، ولا ينهضُ بها، لعجزٍ أو فشلٍ؛ فإنّهم آلاتُ الملكِ، فإذا اختلّتْ كانَ تأثيرُها مختلاً وفعلُها معتلاً.

= وأورده النويري بلفظه أيضاً منسوباً إلى أبرويز في نهاية الأرب (٦ / ١١٤) وقد أورده الأمير أسامة بن منقذ منسوباً إليه وبزيادة. وجاء به بلفظ «...ما ينجو من رأي فاسد، وظن كاذب، وعدو غالب، وأن مما يعود بنصح الولاة ويؤمنهم غدر الكفاة ربّهم (أي تربيتهم) لسالف النعم وحفظهم لواجب الذمم، وتعففهم عن أموال الخدم، وتصرفهم على شرط الكرم، فمن خافه وزيره ساء تدبيره، ومن طمع في أموال عماله ألجأهم إلى اقتطاع أمواله» (لباب الآداب٥٦) وستأتي قطعة من هذا الكلام بلفظ: «من طمع في أموال عماله...الخ» وقد أورد هذا القول أبو الحسن بن الحسين الرخجي منسوباً إلى بهرام جور بلفظ: «من اعتمد على كفاة السوء لم يخل من رأي فاسد، وظن كاذب، وأمل خائب، وعدو غالب» (أحاسن المحاسن١٤٦)

(١) غ: يتصفح.

(٢) قولهم: «الهمة رائد الجد» رائد بالدال كذا في الأصل غ وقد ورد أيضاً بهذا اللفظ في الأمثال والحكم (الورقة ٢٤ب-٢٥آ) أما في أدب الدنيا والدين فقد أورده المؤلف بلفظ «الهمة راية الجد» (ص٢٩١).

وفي عكس هذا القول أورد المؤلف قولاً منسوباً لبزرجمهر بلفظ «الهزل آفة الجد، والكذب عدو الصدق، والجور مفسدة الملك» (أدب الوزير ص٨) وفي سراج الملوك قال بزرجمهر: «المزح آفة الجد، والكذب عدو الصدق، والجور مفسدة الملك» (ص١٨٨).

قيل لبزرجمهر:

كيفَ اضطربَتْ أمورُ آلِ ساسانَ وفيهم مثلُكَ؟

قالَ:

لِأنهم استعانوا بأصاغرِ[١] العمّالِ على أكابرِ الأعمالِ، فآلَ أمرُهم إلىٰ ما آلَ[٢].

وقيلَ في منثورِ الحكمِ:

من استعانَ بأصاغرِ رجالهِ على أكابرِ أعمالهِ فقد ضيّعَ العملَ وأوقعَ الخللَ[٣].

وقيلَ[٤]:

من استوزرَ غيرَ كافٍ، خاطرَ بملكِهِ، ومن استشار غير أمينٍ[٥] أعانَ على هلكِهِ، ومن أسرّ إلى غيرِ ثقةٍ ضيّعَ سرَّهُ، ومن استعانَ بغيرِ مستقلٍّ أفسدَ أمرَهُ، ومن ضيَّعَ عاقلاً دَلَّ على ضعفِ عقلهِ، ومن اصطنعَ جاهلاً أعربَ عن فرطِ جهلِهِ[٦].

---

(١) ط بأصغر العمل على أكثر الأعمال.

(٢) قوله: «وقيل لبزرجمهر: كيف اضطربت...» أورد الطرطوشي هذا القول بلفظ: «وسئل بزرجمهر: ما بال ملك آل ساسان صار إلى ما صار إليه بعدما كان فيه من قوة السلطان وشدة الأركان؟ فقال: ذلك لأنهم قلدوا كبار الأعمال صغار الرجال» (سراج الملوك٥٥) وذكره في موضع آخر بلفظ: «وقد روي عن بزرجمهر وقد قيل له: ما بال ملك آل ساسان صار أمره إلى ما صار إليه؟ قال: لأنهم قلدوا كبار الأعمال صغار الرجال» (ص١٤١).

(٣) قولهم: «من استعان بأصاغر رجاله...» ليس هذا القول في ط، وقد ذكره أسامة بن منقذ ضمن أقوال أرسطوطاليس بلفظ: «من استعان بصغار رجاله على كبار أعماله ضيع العمل وأوقع الخلل» (لباب الآداب٦١) ورواه ابن الجوزي على أنه من أقوال الحكماء بلفظ: «من استعمل صغار الرجال على كبار الأعمال ضيع العمل وأوقع الخلل» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء١ / ٤٩٥).

(٤) ط: قال بعض البلغاء.

(٥) ط: غير مؤتمن.

(٦) قولهم: «من استوزر غير كاف خاصر بملكه...» أورد عبد الواحد الآمدي بعضاً من هذا القول ضمن أقوال علي رضي الله عنه بلفظ: «من خانه وزيره فسد تدبيره، ومن غش مستشيره سلب تدبيره» (غرر الحكم٢٧٠) وفي موضع آخر بلفظ: «من أسرّ إلى غير ثقة =

قال عبيدُ الله بنُ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ: [من البسيط]

لا بـدَّ لـلشـاةِ مـن راعٍ يـدبّـرهـا
فـكـيـفَ بـالـنّـاسِ إنْ كـانـوا بـلا والِ
وإنْ أُضِـيـفَ إلـىٰ الأذنـابِ أمـرُهُـمُ
دونَ الـرؤوسِ فـهمْ فـي حـالِ إهـمـالِ[1]

وكما أنّه لا يزيدُ أحدَهم على قدرِ استحقاقِهِ، فكذلك لا ينقصُه عن المنزلةِ التي يستحقّها بكفايتِهِ، ويستوجبُها بكمالِ آلتِهِ، ويترقّىٰ إليها بعلوِّ همتِهِ، فتضاعُ كفايتُهُ وتبطلُ (٤٢ب) آلتُهُ، فيصيرُ -لأنفةٍ من عملِهِ- متهاوناً، وباستقلالِهِ واحتقارِهِ متوانياً، فيختلُّ العملُ بكمالِهِ، كما اختلَّ عملُ العاجزِ بنقصِهِ، فيصيرُ الكمالُ فيه نقصاً في عملِهِ، والكفايةُ فيه عجزاً في نظرِهِ.

وإذا وافقَ بهمْ قـدرَ استحقاقِهم، فصـرفَ أكابـرَ العمّالِ في أكـابرِ الأعمالِ، وأصاغرَهُمْ في أصاغرِها، استقلّتْ أعمالُه، واستقامَ عَمَلُهُ.

وإنْ خالفَ، فالخللُ بالأمرينِ واقعُ، وكلاهُما بالعملِ مضرٌّ، وبالسياسةِ مُعِرٌّ.

وتدبيرُ هذا على امتيازِهِ حتّىٰ يوافقَ قدرَ استحقاقِهِ صعبٌ، إلّا على من كانَ صائبَ الفكرةِ، حسنَ الفطنةِ، صادقَ الفراسةِ، ثم ساعدهُ القضاء في تقديرِهِ، وأعانَهُ التوفيقُ في تدبيرِهِ، وإنْ كانَ تقديرُ الحظوظِ بحسبِ الفضائلِ متعذّراً، وإنما هيَ أقسامٌ جرّها قدرٌ محتومٌ، وساقَها حظٌّ مقسومٌ.

قال بزرجمهر:

يجبُ للعاقلِ أنْ لا يجزعَ من جفاء الولاةِ، وتقديمِهم الجهّال عليهِ

= ضيع سره، ومن استعان بغير مستقل ضيع أمره، ومن ضيع عاقلاً دل على ضعف عقله، ومن اصطنع جاهلاً برهن عن وفور جهله» (ص٢٧٥)، وفي أحاسن المحاسن غير منسوب بلفظ: «من استناب غير كاف خاطر بملكه، ومن استشار غير أمين أعانه على هلكه، ومن ضيع أمره ضيع كل أمر، ومن جهل قدره جهل كل قدر...» (ص١٦٤).

(١) قول عبيد الله: لا بد للشاة من راع يدبرها... أورد الماوردي هذين البيتين في كتابه (نصيحة الملوك الورقة١٣ب) دون أن ينسبها إلى قائل.

إذا[١] كانت الأقسامُ لم توضعْ على قدرِ الأخطارِ، وإن حكمَ الدنيا أن لا تعطي أحداً ما يستحقه لكن تزيدُه أو تنقصُه[٢].

وليحذر الملكُ توليةَ أحدٍ بشفاعةِ شفيعٍ[٣] أو لرعايةِ حرمةٍ، إذا لم يكنْ مضطلعاً بثقلِ ما ولي، ولا ناهضاً بعبء ما استكفي، فيختلّ العملُ لعجز عاملِه، ويفتضحُ العاملُ بانتشارِ عملِه، فيصيرُ الحزمُ بهما مضاعاً والهوىٰ فيهما مطاعاً، وليقضِ حقوقَ الحرمةِ بأموالِهِ في معونتِهم وتقريبِهم ومنزلتِهم، ففيهما حفاظٌ وأجزاء[٤]، وقد سلمتْ أعمالُه من خللِ العجزِ، وضياعِ التقصيرِ.

قالَ بعضُ الحكماء:

من قَلَّدَ لذي الرعايةِ نَدِمَ.

ومن قَلَّدَ لذي الكفايةِ سلِمَ[٥].

قيلَ في (١٤٣آ) حكمِ الفرس:

---

(١) إذا بالألف كذا في ط وفي غ وفي أدب الوزير (الأمثال والحكم: إذ).

(٢) قول بزرجمهر: «يجب للعاقل أن لا يجزع... الخ» أورده المؤلف منسوباً إليه بلفظه وفيه: «... وتقديمهم الجاهل... فإن حكم الدنيا أن لا تعطي أحداً ما يستحقه لكن تزيده وتنقصه» (أدب الوزير٤٥) و(الأمثال والحكم الورقة٣٦ب-٣٧آ)، وقد أورده أبو هلال العسكري منسوباً إليه بلفظ «لا ينبغي للعاقل أن يجزع من حط السلطان إياه عن منزلة رفع إليها خاملاً؛ فإن الأقدار لم تجر على قدر الأخطار».
وقد أورد ابن مسكويه هذا القول ضمن حكم الروم ونسبه إلى أرسطوطاليس بلفظ: «لا يوجد العاقل يجزع من جفاء الولاة وتقريبهم الجهلة دونه لعلمه بأن الأقسام لم توضع على قدر الأخطار» (الحكمة الخالدة٢٧٠).

(٣) قوله: «وليحذر الملك تولية أحد بشفاعة شفيع...» ورد في عهد علي رضي الله عنه الذي كتبه إلى مالك بن الحارث الأشتر حين ولّاه مصر في كلام طويل: «...ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثره؛ فإنهما جماع شعب الجور والخيانة، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام... إلخ» (نهاية الأرب٦ / ٢٥).

(٤) غ: وجرا.

(٥) قول بعض الحكماء: «من قلد لذي الرعاية ندم...» ورد في أحاسن المحاسن معناه بلفظ: «لا تستكف إلّا الكفاة النصحاء، ولا تستبطن إلّا الثقاة الأمناء... فمن أسلم لغير الكفاة أعماله ضيع ولايته وأمواله...» (ص١٦٦).

لا تستكفِينَّ مخدوعاً عن عقلِه، [والمخدوع][١] من بلغَ به قدراً لا يستحقّه، أو أثيبَ ثواباً لا يستوجبهُ [٢].

وعلى هذا الاعتبارِ لا يورثُ الأبناء منازلَ الآباء، إذا لم يتناسبوا في الطباعِ، كما لا يرثُ الأشرارُ مراتبَ الأخيارِ.

ولا يستعملُ في الكتبةِ من كان أبوه كاتباً إذ كانَ هو غيرَ كاتبٍ.

فإن أحبَّ مكافأةَ واحدٍ من هؤلاء لحقوقِ آبائِهم كافأهُ بما قدّمناه من المالِ والتقريبِ، دونَ الولايةِ والتقليدِ؛ ليكونَ قاضياً لحقوقِهم بمالِهِ، ولا يكونَ قاضياً لحقوقِهم بملكِهِ.

حكي[٣] أنه كان على بابِ كسرى[٤] ساجةٌ[٥] عليها مكتوب:
العملُ للكفاةِ، وقضاء الحقوقِ على بيوتِ الأموالِ[٦].

ومن رآهُ قد تصدّىٰ للمعالي وليسَ من أهلِها، وقد تطاولَ للرتبِ، ولم يؤهّل لها، فلا بأسَ باستكفائِه، إذْ كانَ على ما تصدّىٰ له مطبوعاً، ولما

(١) الزيادة من أدب الوزير والأمثال والحكم ولباب الآداب ونهاية الأرب.

(٢) قوله: «لا تستكفين مخدوعاً... الخ» أورده المؤلف في الأمثال والحكم (الورقة٥١آ) وأدب الوزير (ص٣٢) وأورد قولًا يشابهه في موضع آخر من أدب الوزير (ص٤٧) وقد جاء في لباب الآداب ما صورته: «وكتب بعض الحكماء إلى ملك زمانه: لا تستكفين في مهامك مخدوعاً عن عقله، والمخدوع عن عقله من بلغ به قدرٌ لا يستحقه، وأثيب ثواباً لا يستوجبه» (ص٣٩) وفي أحاسن المحاسن: «ولا تصطنع من خانه الأصل، ولا تدن من فاته العقل؛ لأن من خانه الأصل يغش من حيث ينصح، ومن لا عقل له يفسد من حيث يريد أن يصلح» (ص١٦٥) وقد أورده النويري مرة بلفظه منسوباً إلى بعض الحكماء (نهاية الأرب ٦ / ١١٥) ومرة أخرى بلفظ: وقيل للملك سلب ملكه: ما الذي سلبك ملكك؟ فقال: دفع شغل اليوم إلى غد، والتماس عدة بتضييع عُدَد، واستكفاء كل مخدوع عن عقله، والمخدوع عن عقله من بلغ قدراً لا يستحقه، أو أثيب ثواباً لا يستوجبه» (نهاية الأرب ٦ / ٤٥) و(العقد الفريد١ / ٥١).

(٣) غ: حتى والتصحيح من ط.

(٤) كسرى: وهو أبرويز بن هرمز بن أنوشروان، وقد مرت ترجمته، قال ابن قتيبة: «أبرويز بن هرمز ويعرف بكسرى... الخ» (المعارف -عكاشة- ٦٦٥).

(٥) ط: ساجة منقوشة بذهب عليها: العمل للكفاة...

(٦) قولهم: «العمل للكفاة وقضاء الحقوق على بيوت الأموال» لم أجده.

تطاولَ له مستحقاً، إذا نهزتهُ الهمّة، وساعدتهُ الآلةُ؛ فلا سبيلَ إلى نجباء الأولادِ نجباء على الأبدِ، وقد قيل:

من فاتَهُ حسبُ نفسِهِ لم ينفعْهُ حسبُ أبيهِ[١].

وعيّر رجلٌ سقراطَ بنسبهِ[٢]، فقال سقراطُ:

نسبُكَ إليكَ انتهىٰ ونسبي منّي ابتدا[٣].

قال أبو تمّام الطائي: [من الوافر]

إذا ما شئتَ حسنَ العلـ ... ـم منكَ بصالحِ الأدبِ

فممن[٤] شئتَ كنْ فلقدْ ... فلَحتَ بأكرمِ النسبِ

فنفسَك قطُّ أصلحها ... ودعني من قديم أبِ[٥]

وحكي في سيرةِ الأكاسرةِ: أنَّ بعضَ ملوكِهم مرّ بغلامٍ يسوقُ حماراً غيرَ منبعثٍ، وهو[٦] يعنّفُ عليهِ بالسَّوْقِ فقالَ:

-يا غلامُ أرفقْ بهِ.

فقالَ: أيها الملكُ في الرفقِ به مضرةٌ عليه، وفي العنفِ به إحسانٌ إليهِ.

---

(١) في معنى قوله «منْ فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب أبيه» جاء قولهم: «ليست الأنساب بالآباء والأمهات لكنها بالفضائل المحمودات» من أقوال علي رضي الله عنه (غرر الحكم٢٥٣).

(٢) غ: بنفسه.

(٣) قول سقراط: «نسبك انتهى ونسبي مني ابتدا» رواه المبشر بن فاتك بلفظ: «قال له رجل شريف الجنس وضيع الخلائق: لم تأنف -كذا ولعلها لم لم تأنف- يا سقراط من خساسة جنسك؟ فأجابه: جنسك عندك انتهى، وجنسي مني ابتدا» (مختار الحكم ص١٠٠) ونسبه مرة أخرى إلى ذيوجانس الكلبي حين عيره رجل شريف الجنس بضعة أمه فقال له: «أنا شرفي مني ابتدا، وأنت شرفك إليك انتهى» (ص٨٠) ورواه ابن حبان بلفظ: «تناظر شريفان، فقال أحدهما لصاحبه: إن شرفك إليك ينتهي، وشرفي مني يبتدي» (البصائر والذخائر ٥٥).

(٤) غ: فمن... فلجت.

(٥) قول أبي تمام: «إذا ما شئت حسن العلم... الخ» الأبيات في ديوانه بشرح الخطيب التبريزي تحقيق محمد عبده عزام مجلد٤ ص٥٩٣ في باب الزهد القصيدة رقم٤٨٥ وفيه: «إذا ما شئت حسن الدين...».

(٦) في سراج الملوك: وقد عنف عليه.

قالَ[١]: (٤٣ب) وما في الرفقِ به من المضرَّةِ؟

قال: يطولُ طريقُهُ، ويشتدُّ جوعُهُ[٢].

قال: وما في العنفِ من الإحسانِ؟

قال: يخفّ حملُه، ويطولُ أكلُهُ.

فأعجبَ الملكُ بكلامِهِ[٣].

قالَ: قد أمرت لكَ بألفِ درهمٍ.

قال: رزقٌ مقدورٌ، وواهبٌ مأجورٌ.

قال: وقد أمرتُ بإثباتِ اسمِك في حشمي.

قال: كفيت مؤونةً، ورزقت[٤] معونةً.

قال: ولولا أنّكَ حدثُ[٥] السنّ لاستوزرتُكَ.

قال: لنْ يعدمَ الفضلُ من رُزِقَ العدلَ[٦].

قال: فهل تصلحُ لذلك؟

قال: إنّما يكونُ الحمدُ والذمُّ بعد التجربةِ، ولا يعرفُ الإنسانُ نفسَهُ حتى يبلوَها[٧].

فاستوزرَهُ، فوجدَهُ ذا رأيٍ صليبٍ، وفهمٍ رحيبٍ، ومشورةٍ تقعُ مواقعَ التوفيقِ[٨].

وَلَقَلَّ ما يتكاملُ للملكِ الظَّفَرُ بكفاةِ أعمالـهِ، لكثرةِ الأعمـالِ وقلةِ الكفاةِ.

---

(١) في سراج الملوك: فقال الغلام يا أيها الملك في الرفق به مضرة عليه قال وما مضرته؟.

(٢) في سراج الملوك: تطول طريقه ويشتد جوعه، وفي العنف إحسان إليه، قال: وما الإحسان إليه.

(٣) في غ: كلامه وما أثبتناه عن سراج الملوك.

(٤) في سراج الملوك: ورزقت بها معونة.

(٥) في سراج الملوك: حديث.

(٦) في سراج الملوك: رزق العقل.

(٧) غ: يتلوها، وهو تصحيف.

(٨) قوله: «حكي في سيرة الأكاسرة أن بعض ملوكهم مرّ بغلام يسوق حماراً... الخ» القصة رواها الطرطوشي بلفظ «ومرّ بعض الملوك بغلام يسوق حماراً غير منبعث... إلخ» (سراج الملوك١٨٨).

فإذا ظفرَ بذي الكفايةِ لمنصبٍ اغتنمها، ولم يعطِّلْها، وأن استغنىٰ في الحالِ عنها؛ فإنّه لا يدري متى يحتاجُ إليها، ليكونَ ذخراً لحاجتِه، وَمَعَدّاً لطوارقِه، كما لا يضيعُ أموالَهُ إذا استغنىٰ عنها، ويعدّها ذخراً للحاجةِ، والكفاةُ أعوزُ من الأموالِ، والأموالُ أوجدُ من الكفاةِ، وبهم تجتذبُ الأموالُ، وتستجرُّ الأعمالُ، وإنْ تـرادَ[1] الأعمالُ للكفـاةِ دونَ النسبِ، وإنْ كانت الكفايةُ هي النسبَ، وحسبُ صاحِبِها ما يبلغُ بها إذا ساعدَهُ الجَدُّ، وإنْ كانت الكفايةُ من الجِدّ.

قيلَ في منثورِ الحكمِ:

من علامةِ الإقبالِ اصطناعُ الرجالِ[2]

وإن نفرتْ النفوسُ من هجومِ رتبتِهِ، ولم تذعنْ بالانقيادِ لطاعتِهِ، وُطِّنَتْ له النفوسُ بتدريجهِ فيها إلى رتبةٍ بعد رتبةٍ، حتى تصلَ إلى الكفايةِ من أقربِ مراقيها، فلا تنفر منه النفوسُ إذا (٤٤آ) رقاها، ولا تقف عن الطاعةِ له إذا علاها؛ ليكون على عملِه معاناً، والعملُ بتدريجهِ فيه مصاناً، فما أحدٌ يجمّ إلاّ عن غمضٍ، ولا ارتفعَ إلاّ عن خفضٍ، ولا يقدّم إلاّ من تأخيرٍ، ولا كملَ إلاّ عن تقصيرٍ، ومن خَبَرَ الزمانَ لم يستجهلْ أخبارَهُ، ولم يستهولْ آثارَهُ.

وقد قالَ النبي عليهِ السّلامُ:

«الناسُ بأزمنتِهم أشبه»[3].

---

(١) غ: يراد.

(٢) قوله: «قيل في منثور الحكم: من علامة الإقبال اصطناع الرجال» ذكره الماوردي في أدب الوزير بلفظه (ص١٦) وذكره في أدب الدنيا والدين مرتين إحداهما مصدرة بقوله: «قال بعض الحكماء...» (انظر ص١٦٦)، والأخرى مصدرة بقوله «قال بعض البلغاء..» (انظر ص٣٠٦) وقد ورد ضمن أقوال علي رضي الله عنه بلفظه (غرر الحكم٣٠٢) وبلفظ «لكل شيء فضيلة، وفضيلة الكرام اصطناع الرجال» (ص٢٥١) وقد ورد بلفظه غير منسوب في أحاسن المحاسن (١٦٣) ومرة أخرى غير منسوب أيضاً بلفظ: «رأس الفضائل اصطناع الأفاضل ورأس الرذائل اصطناع الأراذل» (أحاسن المحاسن١٥٧). وقد أورده الأمير أسامة بن منقذ منسوباً إلى أرسطوطاليس بلفظ: «من علامات...» (لباب الآداب ٦٨).

(٣) في ط: «الناس بأزمانهم أشبه» ورواه الماوردي في الأمثال والحكم بلفظ: «الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم» ولم يذكر اسم الراوي (الورقة ٦١ب) وهو مثل من الأمثال في التمثيل =

[من يتفقدهم الملك من أعوانه؟]:

وبالمَلِكِ أشدُّ الحاجةِ [إلى] أنْ يتفقّدَ أربعَ طبقاتٍ لا يستغني عن تفقّدِ أحوالِهم بنفسهِ؛ لأنّهم عمادُ مملكتِهِ، وقواعدُ دولتِهِ، ليستكفيَهم، وهو علىٰ ثقةٍ من سدادِهم وأمانتِهم، ويستعملَهم بعد علمِهِ بكفايتهم وشهامتهم:

فالطبقة الأولى الوزراء(١):

لأنهم خلفاؤه في سلطانهِ، وسفراؤه في أعوانهِ، وشركاؤه في تدبيرهِ، وأمناؤه على أسرارهِ.

ثم لهم مزيةُ الاستيلاء والتفويضِ؛ لأنَّ على ألسنتهم تظهر أقواله، وعلى أيديهم تصدرُ أفعالهُ.

فإذا باشروا عنه الأمورَ عادَ عليه خيرُها وشرُّها، وكان له نفعُها وضرُّها، وبقي عليه صفوُها وكدرُها؛ فإن أحسنوا نسبَ إليه إحسانُهم، وإن أساءوا أضيفتْ إليه مساوئهم، فيصيرُ بإحسانهم محموداً، وبإساءتهم مذموماً، وبسدادِهم مشكوراً، وبالتوائهم موتوراً، يخفي صلاحهُ بفسادِهم، ويبطل عدلُه بجورِهم، ويقلّ خيرُه بشرّهم، مع عظم الضررِ الداخلِ على مملكتِهِ،

= والمحاضرة (٣٠٥) باللفظ الأخير وهو من أمثال المولدين في مجمع الأمثال (٢ / ٣٥٨) والبيان والتبيين (٣ / ٢٩٤) قال الغزالي: «قالت الحكماء: الناس بملوكهم أشبه منهم بزمانهم، وقد جاء في الخبر أيضاً: الناس على دين ملوكهم» (نصيحة الملوك الغزالي٥٣) وقد أخرجه ابن الجوزي «عن مصعب بن سعد قال: قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه: الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم» (سيرة عمر بن الخطاب١٤٠)، قال السخاوي: «حديث الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم أورده الحافظ الصريفيني في بعض أجزائه من قول عمر بن الخطاب وقال: قال محمد بن أيوب: ارتحلت إلى يحي بن هشام الغساني من أجله» (المقاصد الحسنة٤٤١ رقم ١٢٣٥) وقيل إنه قول علي بن أبي طالب. قال القاري: وهو الأشهر الأظهر (كشف الخفاء٢ / ٤٣٠-٤٣١ رقم الحديث ٢٧٨٨).

(١) حول صفات الوزراء وضع الماوردي كتابه (أدب الوزير) المطبوع في مطبعة دار العصور الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩ / ١٣٤٨ بتصحيح حسن الهادي حسين فلينظر، ثم عقد فصلاً حول تقليد الوزارة في الأحكام السلطانية (ص٢٢-٢٩) وانظر الأحكام السلطانية لأبي يعلي (١٣-١٧)، وتجد أقوالاً لأنوشروان حول صفات الوزير في السعادة والإسعاد (ص٤٢٥-٤٢٦) وفي كتاب الترجمة والنقل عن الفارسية (ص١١٠) ونهاية الأرب (٦ / ٩٢-١٥١).

والقدحِ الموهنِ لدولتِهِ، والخللِ العائدِ على رعيتِهِ، فهو وملكهُ معهم على استقامةٍ ما استقاموا، وعلى اختلالٍ إذا فسدوا.

قال النبيّ عليهِ السلامُ:

«إذا أرادَ اللهُ بالملكِ خيراً جعلَ له وزيرَ صدقٍ، إن نسيَ ذكّرَهُ، وإن[1] ذَكَرَ أعانَهُ، وإذا أرادَ بِهِ (٤٤ب) غيرَ ذلكَ جعلَ له وزيرَ سوءٍ، إن نسيَ لم يذكّره، وإن ذكرَ لم يُعِنْهُ»[2].

[ووصى سابورُ بنُ أردشيرَ ابنَه في عهدِهِ فقال:

ليكنْ وزيرُك مقبولَ القولِ عندَكَ مكينَ المحلِّ من نفسِك يمنعُه مكانُه منك من الضراعةِ إلى غيرِك، حتى تبعثَه بكَ إلى محضِ النصيحةِ لكَ، والتجريد في منابذة عن عنتك أو نقض عهد حقك][3].

وذكرَ حكماءُ الملكِ[4] من صفاتِ اختبارِه أنْ يكونَ وافرَ العقلِ سليمَ الطبعِ، أديبَ النفسِ، معتدلَ الأخلاقِ، مناسبَ الأفعالِ، عاليَ الهمةِ، قويَّ المنةِ، سريعَ البديهةِ، مقبولَ الصورةِ، جزلَ الرأيِ، صائبَ الفكرةِ، كثيرَ التجربةِ، شديدَ النزاهةِ، قليلَ الشِّرَةِ، حسنَ التدبيرِ، تامَّ الصناعةِ.

---

(١) غ: وإذا والتصحيح من مصادر التخريج.

(٢) حديث: «إذا أراد الله بالملك خيراً...» رواه أبو داود في سننه عن عائشة بلفظ: «إذا أراد الله بالأمير خيراً... وإذا أراد الله به...» (سنن أبي داود٣ / ١٣١ رقم٢٩٣٢) والنسائي عنها بلفظ «من ولي منكم عملاً فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه» (سنن النسائي٧ / ١٥٩) وأحمد عنها أيضاً بلفظ «من ولاه الله عز وجل من أمر المسلمين شيئاً فأراد به خيراً جعل له وزير صدق فإن نسي ذكره وإن ذكر أعانه» (مسند الإمام أحمد٦ / ٧٠) والبيهقي في شعب الإيمان في حديث حسن (الجامع الصغير١ / ١٨) قال المناوي ضعفه العراقي (التيسير بشرح الجامع الصغير١ / ٦٦)، والحديث في لباب الآداب بلفظ «من أراد الله به خيراً جعل الله له وزير صدق صالحاً إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه» (ص٣٦) ورواه المنذري بلفظ أبي داود وذكر رواية النسائي قال ورواه ابن حبان أي بألفاظ النسائي (الترغيب والترهيب٣ / ٩٤).

(٣) الزيادة من ط وليست في غ وقوله وصى سابور... انظر هذا العهد لابنه في نهاية الأرب٦ / ١٨.

(٤) قوله: «وذكر حكماء الملك من صفات اختباره...» ذكر المؤلف كثيراً من أقوالهم في كتابه أدب الوزير (ص٢٣-٣٨) وذكر النويري بعضاً من ذلك (نهاية الأرب٦ / ٩٢-١٥١).

وهذه أوصافُ كمالٍ، يوفّقُ الله تعالىٰ لها من شاء، ويسعدُ بها من الملوكِ من أحبَّ.

والطبقةُ الثانيةُ القضاةُ والحكّام:

الذين هم موازينُ العدلِ، وتفويضُ الحكمِ إليهم، وحراسُ السنةِ باتباعها في أحكامهم، وبهم ينتصفُ المظلومُ من الظالمِ في ردّ ظلامتِهِ، والضعيفُ من القويِّ في استيفاء حقّهِ.

فإنْ قلَّ ورعُهم، وكثرَ طمعُهم، فأماتوا[١] السنَّةَ بأحكامٍ مبتدعةٍ، وأضاعوا الحقوقَ بأهواء متبعةٍ، فكانَ قدحُهم في الدّينِ أعظمَ من قدحِهم في المملكةِ، وإضرارُهم بالمملكةِ في إبطالِ العدلِ أعظمَ من إضرارِهم بالمتحاكمينَ إليهم في إبطالِ الحقّ.

وقد قيلَ:

من أقبحِ الأشياء سخفُ القضاةِ، وظلمُ[٢] الولاةِ.

وقال أنوشروان:

ما عَدَلَ من جارتْ قضاتُه، ولا صَلُحَ من فَسَدَتْ كفاتُه[٣].

والذي تقتضيهِ السياسةُ في اختيارِهم بعدَ الشروطِ المعتبرةِ فيهم بالشرعِ[٤] أنْ يكونَ القاضي حسنَ العلانيةِ، مأمونَ السريرةِ، كثيرَ الجدِّ،

---

(١) غ: فماتوا.

(٢) ط: وجور الولاة.

(٣) قول أنوشروان: «ما عدل من جارت قضاته ولا صلح من فسدت كفاته» أورده الرخجي منسوباً إليه بلفظ «. . . جارت ولاته. . .» (أحاسن المحاسن ص١٤٦).

(٤) قوله: «الشروط المعتبرة فيهم بالشرع» ذكر الماوردي شروط جواز ولاية القاضي هي على الإجمال سبعة:

١ - ذكاؤه وفطنته وصحة تمييزه، ولا يكتفي في ذلك بالعقل فقط.

٢ - الذكورة

٣ - الحرية.

٤ - الإسلام.

٥ - العدالة.

=

قليلَ الهزلِ، شديدَ الورعِ، قليلَ الطمعِ، قد صرفته القناعةُ عن الضراعةِ، ومنعتْه النزاهةُ من الشِّرَةِ (١٤٥آ) وكفّه الصبرُ عن الضجرِ، وصدّهُ العدلُ عن الميلِ، يستعينُ بدرسِهِ على علمِهِ، وبمذاكرتِهِ على فهمِهِ، لطيفَ الفطنةِ، جيّدَ التصورِ، مجانباً[1] للشُّبَهِ، بعيداً[2] من الرِّيَبِ، يشاورُ فيما أشكلَ، ويتأنّىٰ فيما أعضلَ، فلا معدلَ عمن تكاملَها، ولا رغبةَ فيمن أَخَلَّ بها.

والطبقة الثالثة: أمراء الأجناد:

الذين همْ أركانُ دولتِهِ، وحماةُ مملكتِهِ، والذابّون عن حريمِ رعيّتِه، والمالكونَ أعنّةَ أجنادِهِ، والعاطفونَ بهم على صدقِ نصرتِهِ وموالاتِهِ.

فإن استقامتْ له هذه الطبقةُ، استقامَ له جميعُ أعوانِهِ.

وإن اضطربتْ عليهِ فَسَدَ نظامُ تدبيرِهِ مع سائرِ أجنادِهِ؛ لأنّهم إلى طاعةِ أمرائِهم أسرعُ، ولقولِ زعمائِهم أطوعُ؛ فإنْ خافَ سطوةَ من بِهِ يسطو، ولم يأمنْ جانبَ من بِهِ ينجو، كانَ بملكِهِ مغْرِراً، وبنفسِهِ مخاطراً.

وقيلَ:

إنَّ الوفاءَ[3] لكَ بقدرِ الجزاء منكَ[4].

والمعتبرُ فيهم: النجدةُ، والحميّةُ، والوفاء، والمودّةُ، وظهورُ الطاعةِ منهم ولهمْ، ليكونوا بطاعتِهم منقادين، وبالطاعةِ لهم قائدينَ.

= ٦ - كماله في نفسه.

٧ - العلم بالأحكام الشرعية والعمل بأصول الشرع الأربعة: القرآن، والحديث، والإجماع، والقياس (انظر الأحكام السلطانية ٦٥-٦٦) وفصل فيها القول بإسهاب في (أدب القاضي ١ / ٦١٨-٦٤٣.

(١) غ: مجانب، وهو سهو.

(٢) غ: بعيد، وهو سهو.

(٣) غ: للوفاء، والتصحيح من ط.

(٤) ط: بقدر الوفاء منك. وقولهم: «إن الوفاء لك بقدر الجزاء منك» أورده الأمير أسامة بن منقذ ضمن قول الحكيم أرسطوطاليس بلفظ: «من أبلى حدته في خدمتك، وأفنى مدته في طاعتك، فارع ذمامه في حياته، وتكفل أيتامه بعد وفاته؛ فإن الوفاء لك بقدر الرجاء فيك...» إلخ في كلام طويل (لباب الآداب٥٩).

والطبقة الرابعة عمال الخراج:

الذين هم جباةُ الأموالِ، وعمّارُ الأعمالِ، والوسائطُ بينَه وبينَ رعيتِهِ.

فإنْ نصحوهُ في أموالِه، وعَدَلوا في أعمالِه، توفّرتْ خزائنُه بسعةِ الدخلِ، وعمّرتْ بلادُه ببسطِ العدلِ.

وقد قيلَ:

فضيلةُ السلطانِ عمارةُ البلدانِ[١].

وإن خانوه في ما اجتَنَبوهُ[٢] من أموالِه، وجاروا في ما تقلّدوه من أعمالِه، نقصتْ موادُّه، وخربت بلادُه، وتغيّر عليه -لقلة دخله- أعوانُه وأجنادُه، وتولد منه ما يكون[٣] محل فساد.

قال بعض العلماء: **(٤٥ب)**

ظلمُ العمالِ ظلمةُ الأعمالِ[٤].

وحكي أنَّ المأمون[٥] جلسَ ذاتَ يومٍ وأحضر العمّالَ فقبّلهم[٦] أعمالَ السوادِ، واحتاطَ في العقودِ، فلما فرغَ قامَ إليه[٧] بعضُ قضاتِه فقال:

---

(١) قولهم: «فضيلة السلطان عمارة البلدان» ورد ضمن أقوال علي رضي الله عنه بلفظه (غرر الحكم٢٢٧) وانظره في كتاب ٢٠٠٠ كلمة للإمام علي (ص٧٧ رقم١٨٠٤) وأورده الأمير أسامة بن منقذ ضمن أقوال أرسطوطاليس بلفظه (لباب الآداب٦٨)، وأخرج ابن الجوزي عن كعب الأحبار أنه قال: «الرعية تصلح بصلاح الوالي وتفسد بفساده» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء١ / ٤٧٠ وفيها تخريج).

(٢) غ: احتبوه، وليست في ط.

(٣) غ: ما ليس محل فساد. ولا يصح ذلك.

(٤) قولهم: «ظلم العمال ظلمة الأعمال» ورد في ط مصدراً بقوله قال بعض الحكماء، وهذا القول ورد في رسالة (كلمات مختارة ص٢١) غير منسوب لقائل.

(٥) قوله: «وحكي أن المأمون...» إلخ روى المؤلف هذه القصة في أدب الوزير بلفظ: «حكي أن المأمون عزم على تضمين السواد، وعنده عبيد الله بن الحسن العنبري القاضي فقال له: يا أمير المؤمنين إن الله دفعها إليك أمانة فلا تخرجها من يدك قبالة، فعدل عن الضمان» (أدب الوزير ص٣٧)، والحادثة بهذا اللفظ نقلها النويري عن أدب الوزير (نهاية الأرب ٦ / ١٢١).

(٦) قبلهم أعمال السواد: أي جعلها عليهم تضميناً.

(٧) ط: قام إليه عبيد الله بن الحسن العنبري القاضي فقال.

يا أميرَ المؤمنين: إن الله [قد][1] دفعها إليك أمانةً، فلا تخرجْها من يدكَ قبالةً، فقال: صدقتَ، وفسخَ ذلك.

وإنما[2] أرادَ القاضي أن تقبيلَ الأعمالِ [ذريعةً][3] إلى تحكّم[4] العمالِ، وتحكمهم سببٌ لخرابِ الأعمال.

فتنبه المأمونُ على مرادِه وعملَ برأيِهِ.

والمعتَبَرُ في أخيارِهم[5] أنْ يكونَ فيهم إنصافٌ، وانتصافٌ، وعمارةٌ، وخبرةٌ، ونزاهةٌ؛ لتدرَّ أموالُ الرعيةِ، وتتوفَّر أموالُ السلطنةِ.

[والطبقة الخامسة من يستخدمهم في شؤونه الخاصة]:

وها هنا طبقةٌ أخرىٰ يجبُ أنْ يتفقّدَ أحوالَهم بنفسِه، غيرَ أنّهم يختصّونَ بحراسةِ نفسِه، لا بسياسةِ ملكِهِ، وهم الذين يستخدِمُهُم في مطعمِهِ

---

(١) الزيادة من ط.

(٢) ط: وقال أقضى القضاة: وإنما أراد عبيد الله أن تقبيل...

(٣) الزيادة من ط.

(٤) غ،ط: تحكيم وهو تصحيف.

(٥) في اختيار عمال الخراج نقل ابن قتيبة عن كتاب أبرويز إلى ابنه شيرويه ما نصه:
انتخب لخراجك أحد ثلاثة:
إما رجلاً يظهر زهداً في المال ويدعي ورعاً في الدين، فإن من كان كذلك عدل على الضعيف، وانصف من الشريف، ووفر الخراج، واجتهد في العمارة، فإن هو لم يرع ولم يعف إبقاء على دينه ونظرا لأمانته كان حريا أن يخون قليلاً ويوفر كثيراً استسراراً بالرياء واكتتاماً بالخيانة، فإن ظهرت على ذلك منه عاقبته على ما خان، ولم تحمده على ما وفر، وإن هو جلّح في الخيانة وبارز بالرياء، نكلت به في العذاب واستنظفت ماله مع الحبس.
أو رجلاً عالماً بالخراج غنياً في المال مأموناً في العقل فيدعوه علمه بالخراج إلى الاقتصاد في الجلب والعمارة للأرضين والرفق بالرعية، ويدعوه غناه إلى العفة، ويدعوه عقله إلى الرغبة فيما ينفعه والرهبة مما يضره.
أو رجلاً عالماً بالخراج مأموناً بالأمانة مقتراً من المال فتوسع عليه في الرزق فيغتنم لحاجته الرزق، ويستكثر لفاقته اليسير ويزجي بعلمه الخراج، ويقف بأمانته عن الخيانة...
وذكر النويري أنه حكي أن الإسكندر كتب إلى معلمه أرسطوطاليس ليستشيره في عماله فكتب إليه: «إن من كان له عبيد فأحسن في سياستهم فولّه الجند، ومن كان له صنيعة فأحسن تدبيرها فوله الخراج» (نهاية الأرب ٦ / ١١٧).

ومشربِهِ وملبسِهِ، ومن يقربُ منه في خلوته؛ فإنّهم حصْنُهُ من الأعـداء، وجُنَّتُه[١] من الأسواء.

وقد اختارَ حكماء الملوكِ أنْ لا يستخدموا[٢] في مثلِ هذه الحالِ إلاّ أحدَ ثلاثةٍ:

إمّا من تربّىٰ مع الملكِ وألفَهُ.
وإما من ربّاهُ الملكُ على أخلاقِهِ.
وإمّا من ربّىٰ الملكَ في حجرِهِ.

فإن هؤلاء أهلُ صدقٍ في موالاتِه، ونصحٍ في خدمتِهِ، وعلوٍّ في حفاظِهِ وحياطتِهِ، ومن أجلِ ذلك وجبَ أنْ يكونَ إحسانُـه إليهم أفضلَ، وتفضّلُهُ عليهم أظهر، ويتولّى فعلَ ذلكَ بنفسِهِ، ولا يَكلُ مـراعاتهم إلى غيره، كما لم يُكل مراعاتُه إلى غيرهم، حتى لا يلجئهم إلى من يجتذبُ قلوبَهم بنفقتهِ فيما يلوه، ويكون من تقلّبِهم على عرضٍ[٣]، ومن تنكرهم على خطرٍ.

فقد قيل في سالف الحكم: (١٤٦آ)
ليس من استكرهَ نفسَه في حظِّك كمن كان حظّهُ في طاعتِك[٤].

[تفقده لمن سوى هؤلاء]:

ثم يتفقّدُ في من سوى هذه الطبقاتِ بحسب منازلهم من خدمتِه، فقد قيلَ:

---

(١) الجنة: بضم الجيم ما استترت به من سلاح.
(٢) غ: يستخدمون.
(٣) على عرض كذا في غ وليست في ط وربما كانت على حذر لتستقيم الفاصلة.
(٤) قوله: «فقد قيل في سالف الحكم: ليس من استكره...» أورد الأمير أسامة بن منقذ معنى هذا القول بلفظ: «قالت الحكماء: إن الملوك حقيقون باختيار الأعوان فيما يهتمون من أعمالهم وأمورهم من غير أن يكرهوا على ذلك أحداً فإن المكره لا يستطيع المبالغة في العمل» (لباب الآداب ٤٢).

من قضيتَ واجبَه أمِنْتَ جانِبَهُ(١).

وليكن اعتناؤه بمراعاتِهِ من استبطَنَهُ منهم أكثرَ؛ ليكونوا أخياراً مهذَّبين، وأصفياء مأمونين، فيسلمَ من مكرهِم، ويأمنَ من شرِّهِم، فقد رويَ عن النبيِّ عليه السلامُ أنّه قال:

«ما بعثَ اللهُ من نبيٍّ ولا استخلفَ من خليفةٍ إلّا كانت له بطانتانِ: بطانةٌ تأمره بالخيرِ وتحضّه عليه، وبطانةٌ تأمرهُ بالشرِّ وتحضّه عليه، والمعصومُ من عصمَهُ اللهُ تعالىٰ»(٢).

ويمنعُ كلّ أحدٍ من أعوانِهِ أنْ يتجاوزَ قدرَ رتبتِه، أو يتعدىٰ إلى غيرِ عملهِ [فيكون](٣) بعملهِ منفرداً وعلى رتبتِه مقتصراً.

وربما دلَّ بعضُهم بحظوةٍ نالها فتخطّىٰ بها إلى غير عملهِ، وتجاوزَ(٤) بها قدرَ رتبتِه، ثقةً بحسنِ رأيِ الملكِ فيه، وتعويلاً على مكانهِ منهُ. و[قد](٥) روي عن النبي عليه السلام أنّه قال:

«ما هلكَ امرؤ عَرَفَ قدرَه فانتشرَ بجناحٍ مهيضٍ وزاحم بجسدٍ مريضٍ»(٦).

---

(١) قولهم: «من قضيت واجبه أمنت جانبه» أورده الماوردي في أدب الوزير بلفظه مبدوءاً بقوله: وقد قيل في منثور الحكم (انظر ص٣٣).

(٢) حديث: «ما بعث من نبي ولا استخلف من خليفة إلّا كانت له بطانتان...» رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري بلفظه إلّا أن فيه «...تأمره بالمعروف...» بدل «...تأمره بالخير..» (صحيح البخاري٤ / ١٦٥ في كتاب الأحكام) وأخرجه أيضاً من حديثه في كتاب القدر بلفظ «ما استخلف خليفة إلّا له بطانتان بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه وبطانة...» (٤ / ٩٩) والنسائي عن أبي سعيد أيضاً وبلفظ المتن (سنن٧ / ١٥٨) وقد أورد لفظين للحديث أحدهما عن أبي هريرة والآخر عن أبي أيوب (سنن٧ / ١٥٨-١٥٩)، ورواه أحمد عن أبي هريرة في موضعين باختلاف (مسند أحمد ٢ / ٢٣٧، ٢٨٩) وعن أبي سعيد الخدري في موضعين أيضاً (٣ / ٣٩، ٨٨) وانظر أيضاً (الترغيب والترهيب٣ / ٩٤).

(٣) الزيادة من السياق.

(٤) غ: ويتجاوز.

(٥) الزيادة من السياق.

(٦) حديث: «ما هلك امرؤ عرف قدره...» أورده المؤلف في أدب الدنيا والدين (٢٩٢) وهو مثل من أمثال العرب: انظر أمثال أبي عبيد (ص١٣) بلفظ «لن يهلك امرؤ عرف قدره» =

فلا يلبثُ أن يهبطَ سريعاً، أو يخطَّ صريعاً، بعد مضرةِ إفراطِهِ، وهجنةِ انبساطِه.

وكذا عاقبةُ من عَدَلَ طورَه، وجهلَ قدرَه، ثم قد اختلفت به الرتبُ حتى هانتْ، واعتلتْ به المملكةُ حتى لانتْ، فصارَ عزّها مسكوناً وملكها متهوناً.

[من يحذر الملك أن يجعلهم في بطانته؟]:

وليحذرِ الملكُ أنْ يستبطنَ، أو يسترسلَ إلى أحدٍ من عَددٍ[1]، مَعَايِنُهم[2] مفترقةٌ، وأحكامُهم متفقةٌ، بالأعداءِ المباينين أشبّهُ منهم بالأعوانِ المساعدين، فإنّ صَرْعَةَ الاسترسال لا تُقالُ[3].

= وهو بلفظه في التمثيل والمحاضرة (ص٢٨)، وفي مجمع الأمثال (٢ / ٨٧) وفي المعمرين٩-١٦، وهو من كلام علي في غرر الحكم (١٨١ و٣٠٨) وكتاب ألفي كلمة (ص٢١ رقم٤١٨) وهو من كلام أكثم بن صيفي في الفاخر (ص٢٦٢ رقم٣٩٦).

(١) قوله: «من عدد..»، أي من جماعة محدودين. وسيذكر المؤلف هذا العدد وأوصافهم. قال بطليموس في هذا الشأن: «ينبغي لذي السلطان أن لا يثق بمن كان له مهيناً، ولا بمن اشتد حرصه، ولا بمن أجهدته الفاقة والمسكنة، ولا بمن تقدم له جرم يخاف العقوبة عليه. ولا بمن سلبه ماله، أو عزله عن سلطانه، ولا بمن له مضرة بدولته، ولا منفعة له فيها، ولا بمن بينه وبين عدوه مودة، ولا يفوض إليهم ولا يستعين بهم ما وجد من ذلك بدأ» (مختار الحكم ٢٥٦). وحكى ابن قتيبة جماعاً لهذه الأمور ناقلاً عن التاج أن أبرويز كتب إلى ابنه شيرويه من الحبس: «ليكن من تختاره لولايتك امرءاً كان في ضعة فرفعته، أو ذا شرف وجدته مهتضمًا فاصطنعته، ولا تجعله امرءاً أصبته بعقوبة فانقمع عنها، ولا امرءاً أطاعك بعدما أذللته، ولا أحداً ممن يقع في خلدك أن إزالة سلطانك أحب له من ثبوته، وإياك أن تستعمله ضرعاً غمراً كثر إعجابه بنفسه، وقلت تجاربه عن غيره، ولا كبيراً مدبراً قد أخذ الدهر من عقله كما أخذت السن من جسمه» (عيون الأخبار ١ / ١٥)، ونقله ابن عبد ربه باختلاف يسير في العقد الفريد (١ / ٣٢).

(٢) معاينهم: مظاهرهم.

(٣) لا تقال: لا تغتفر.

أحدهم: (٤٦ب) شريرٌ مظاهرٌ بالخيرِ؛ لأنَّه ذو نفاقٍ ومكرٍ.

والثاني: مطّرحٌ للدينِ والمراقبةِ؛ لأنه قليلُ الوفاءِ سريعُ الغدرِ.

والثالث: حَرِصٌ شَرِهٌ؛ لأنّه ينبى[1] باليسيرِ ويطمع في التافهِ الحقيرِ.

والرابع: مضرورٌ ذو فاقةٍ؛ فإنه لا يصفو لمن لا يجرّ فاقتَهُ، ويسدّ خلّتَهُ.

والخامس: محطوطٌ عن رتبةٍ بلغَها، أو ممنوعٌ من حقوقٍ استوجبَها، وهو ساخطٌ متنكرٌ.

والسادس: مهاجرٌ بذنبٍ لم يُعْفَ عنهُ، ولم ينتقَمْ منه، فهو خائفٌ حذرٌ.

والسابع: مذنبٌ مع جماعةٍ عفي عنهم وعوقبَ فصارَ موتوراً.

والثامن: محسنٌ مع جماعةٍ جُوزوا ومُنِعَ، فصارَ محروماً.

والتاسع: ذو كفاءٍ من حسدةٍ وأعداءٍ قُدّموا عليه وأُخّر، فصارَ حنقاً.

والعاشر: مستضرٌّ بما ينفعُك، أو منتفعٌ بما يضرّك، فلا يكونُ [إلّا][2] مبايناً.

والحادي عشر: من كانَ لعدوّك أرجى منهُ لكَ، فيكونُ لعدوّك ممايلاً.

والثاني عشر: من بغى عليه أعداؤه، فسوعدوا عليه، فتنتقل عداوته إلى من صارَ له مساعداً.

فلا حظَّ للملكِ في استكفاءِ أحدِهم، ولا أقاربه، إن هزّته الرتبُ، ولزّته النوائبُ، كانَ بين مراقبةِ مختلسٍ، أو مواثبةِ مفترسٍ.

---

(١) غ: ينسى.
(٢) الزيادة من السياق.

وليحذرِ الملكُ من استدنائِهم؛ فإنّه معهم على خطرٍ من اغتيالٍ، أو احتيالٍ.

قال حكيمُ الرومِ:

ينبغي للملكِ أن يصرفَ حذرَه إلى الأشرارِ واستنامتِه إلى الأخيارِ[١].

فإن زالتْ أسبابُ الحذرِ، وعادوا إلى أحوالِ السلامةِ، صاروا كأهلِها في جوازِ الاستكفاءِ والاصطناعِ؛ فليسَ المأمونُ أن يصلحَ الفاسدُ، كما ليسَ بمأمونٍ أن يفسدَ الصالحُ، وللعللِ نتائجُ يرتفعُ معلولُها (١٤٧آ) بزوالِ تعليلِها، ونتائجُ الأضدادِ متباينةٌ.

وقد قيلَ في منثورِ الحِكَمِ:

من حَسُنَ[٢] صفاؤُه وجبَ اصطفاؤُه[٣].

قال الشاعر[٤]: [من الطويل]

وقـد تـقـلبُ[٥] الأيـامُ حـالاتِ أهـلِهـا
وتعـدو على أسـدِ الـرجـالِ الـثعـالـبُ[٦]

---

(١) قال ابن المقفع: «ليتفقد الوالي فيما يتفقد من أمور الرعية فاقة الأحرار منهم فليعمل في سدها، وطغيان السفلة منهم فليقمعه»، (الأدب الكبير ١١٦).

(٢) غ: من وجب صفاؤه والتصحيح من الأمثال والحكم والمستطرف.

(٣) قولهم: «من حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه»، أورده المؤلف في الأمثال والحكم (الورقة ٣١) غير منسوب، وأبو الحسن بن الحسين الرخجي غير منسوب أيضاً بلفظ «من عرف..» (أحاسن المحاسن ١٥٨)، والإبشيهي بلفظه غير منسوب أيضاً، و(المستطرف ١/٢٥).

(٤) قوله «قال الشاعر» قلت: هو الحارث بن نمر التنوخي إذ قد أورد الماوردي البيت في الأمثال والحكم منسوباً إليه وفي التذكرة السعدية.

(٥) تقلب كذا في غ، ط، التذكرة السعدية، وفي الأمثال والحكم (تغلب) بالغين.

(٦) البيت في الأمثال والحكم للماوردي (الورقة ٨ب)، منسوباً إلى الحارث بن نمر التنوخي والتذكرة السعدية ٣٧٥، رقم القطعة ١٥٩، من باب الأدب والحكم والأمثال ونسبه إليه مع بيت آخر قبله هو:

وكـل لـه فـيـما يـروم ضـريـبـة وتفضيـل ما بـين الـرجـال الضـرائب

فانظرهما فيها وفيها تخريج.

وإذا اكتفى من استكفاهُ، اقتصرَ، ولم يستكثرْ؛ فحسبُهُ في العملِ مَنْ كفاهُ؛ فما في الاستكثارِ بعد الاكتفاءِ إلّا مالٌ مضاعٌ، [وسرٌّ مذاعٌ][1]، وكلا الأمرين خللٌ وزللٌ.

قال بعض البلغاءِ:

ليسَ العملُ بكثرةِ الإخوانِ، ولكنْ بصالحِ الأعوانِ[2].

وإن وجدَ كافياً، ولم يجدْ عملاً لاستيلاءِ الكفاةِ على الأعمالِ، تمسّكَ بهِ، ولم يهملْهُ، وراعاهُ بقدر كفايَتِهِ، وادّخرَهُ لوقتِ حاجتِهِ، فلا غنى بالملك عن ادّخار أعوانٍ يعدّهم لما يطغى، ويستظهرُ بهم على من استكفى، حتى لا تفجأهُ الحاجةُ وأعوانُها متعذرون، ويكفي أن يسترسل أو يدلّ عليه الناظرون.

فإذا ادّخر الأموالَ لنوائبِ الملكِ كان ادّخارُ الأعوانِ أحقَّ؛ لتماثلِ الأموالِ، وتفاضلِ الأعوانِ.

* * *

---

(١) الزيادة من السياق لذكره أمرين.

(٢) قولهم: «ليس العمل بكثرة الإخوان ولكن بصالح الأعوان» أورده المبشر بن فاتك غير منسوب لأحد بلفظ «ليس رجاء الغلبة بكثرة الأعوان ولكنه بصلحائهم» (مختار الحكم ٣٥٥).

[الفصل الرابع والعشرون]
[أشد ما يمنى به الملك في سياسة ملكه]

وأشدُّ ما يمنى[(١)] به الملكُ في سياسةِ ملكهِ شيئان:
أحدهما: أن يفسدَ عليه الزّمانُ.
والثاني: أن يتغيّر عليه الأعوانُ.

[فساد الزمان]:
فأما فسادُ الزمانِ فنوعانِ:
نوع حدثَ عن أسبابٍ إلهيةٍ.
ونوعٌ حدثَ عن عوارضَ بشريةٍ.

[ما حدث عن أسباب إلهية]:
فأما الحادثُ عن الأسبابِ الإلهيةِ [فيجب][(٢)] أن يقابلَها الملكُ بأمرين:

أحدهما: إصلاحُ[(٣)] سريرتِه، وسرائرِ رعيّتِه. فقد[(٤)] روي عن النبيّ عليه السلام أنه قال:
«إذا جارت الولاةُ قحطت السّماءُ»[(٥)].

---

(١) غ: تمنى. ط: قال أقضى القضاة وأما ما تكلم به في سياسة الملك فأشد ما عني.
(٢) الزيادة من ط وفيها: فأما الأول فيجب...
(٣) ط: صلاح.
(٤) غ: وقد.
(٥) حديث «إذا جارت الولاة قحطت السماء»، أورده المؤلف من الأمثال والحكم بلفظه (الورقة ٤٨ب)، ومن توقيعات الأقدمين توقيعُ أردشير بن بابك، وكان أهل زمانه قحطوا فرفعوا إليه قصة يشكون ذلك فوقع إلى صاحب بيت المال: «إذا قحط المطر جادت سحائب الملك ففرق فيهم ما قاتهم ومانهم»، (رسالة أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم، ص٢١٧)، وفي غرر السير «رفع أهل اصطخر إلى أردشير يشكون إمساك القطر وسوء أثر القحط فوقع: إذا بخلت السماء بقطرها جادت =

وقال عليّ[١] بن أبي طالب رضي الله عنه:

من حاولَ أمراً بمعصيةِ اللهِ كانَ أبعدَ لما رَجَا وأقربَ لمجيء ما اتّقى[٢].

والثاني: (٤٧ب) أن يتطامَنَ لها إذا طرقتْ، ويتلطّفَ[٣] في تلاقيها إذا هجمتْ، حتى تنجلي عنه[٤] وهو سليمٌ من لفحتها[٥] معانٌ في شدّتِها، فما عن أقضيةِ اللهِ صادّ، ولا[٦] عن أوامرِهِ رادٌّ، فالسلمُ[٧] فيها أسلمُ، ودفاعُ الله عنها أقومُ.

وُجِدَ في عضدِ الإسكندر صحيفةٌ فيها مكتوبٌ:

قلّةُ الاسترسالِ إلى الدنيا أسلمُ، والاتّكالُ على القدرِ أروحُ، وعند حسنِ الظنّ تقرّ العين[٨].

= سحابتنا بدرها، وقد أمرنا لكم بما يجبر كسركم، ويغني فقركم» (ص٤٨٤)، وانظر (أقوال متفرقة لأردشير بكتاب عهد أردشير، ص١٠١-١٠٢، الفقرة رقم ٢٥)، وفي الإيجاز والإعجاز: «رفع أهل اصطخر إلى نرسي بن بهرام احتباس المطر فوقع: إذا انجلت - كذا ولعلها بخلت - السماء بقطرها جادت يد الملك بدرها» (ص١٣)، وانظر (خاص الخاص ٨٤). ومن كلام كسرى في قصة طريفة ما يأتي من هذا المعنى (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ١ / ٥٠٦)، وفي سيرة أنوشروان قصة تؤيد مصداق ما جاء في الحديث، أوردها الغزالي (نصيحة الملوك ٧٠-٧١).

(١) غ: وقال علي كرم الله وجهه.

(٢) قول علي رضي الله عنه: «من حاول أمراً بمعصية الله كان أبعد لما رجا وأقرب لمجيء ما اتقى»، نجده بلفظه في نهاية الأرب (٦ / ١٠٧)، وأورده المؤلف في الأمثال والحكم (الورقة ٤٥ب)، منسوباً إليه بلفظه وفيه «لمحي ما أبقى»، وهو تصحيف.

(٣) غ: ويتسلط.

(٤) غ: من وقد سقطت من ط.

(٥) غ: نفحتها.

(٦) ط: ولا لأوامره رادّ.

(٧) ط: والسلم.

(٨) غ: العيون والتصحيح من ط ومن الأمثال والحكم. وقوله: «وجد في عضد الإسكندر صحيفة فيها مكتوب: قلة الاسترسال.. إلخ» أورده المؤلف في الأمثال والحكم بلفظه (الورقة ٣٦ب)، ومن أقوال علي رضي الله عنه: «قلة الاسترسال إلى الناس أحزم»، (غرر =

وقد قيلَ في منثورِ الحكم(١):

لا تجهدنَّ(٢) في ما لا دَرْكَ فيهِ تربحِ التعبَ، وادحضِ البخلَ، وإلا كنتَ خازنَ غيرِكَ، [ولا تدخرنَّ المالَ لبعلِ عرسِك](٣) ولا تظهرنَّ(٤) إنكارَ ما لا عدّةَ معكَ لدفعِه، ولا يلهينّك قدرُه(٥) عن كيدٍ وحيلةٍ(٦).

قال الشاعر: [من الكامل]

ما للرجالِ مع القضاءِ تحيّلُ
ذهبَ القضاءُ بحيلةِ المحتالِ(٧)

[ما حدث عن العوارض البشرية]:

وأما الحادثاتُ عن العوارضِ البشريةِ من أفعالِ العبادِ(٨)، فهي التي يساسُ فسادُها بالحَزْمِ حتى تنحسمَ، وبالاجتهاد حتى تنتظمَ؛ فليسَ ينشأ(٩) الفسادُ إلا عن أسبابٍ خارجةٍ عن العدلِ والاقتصادِ، ولا تنحسمُ إلا بحسمِ أسبابِها.

= الحكم ٢٣٤) وفي موضع آخر «عثرة الاسترسال لا تقال» (٢٢١)، وبلفظ «من أقل الاسترسال سلم، من أكثر الاسترسال ندم» (ص٢٦٦).

(١) ط: في حكم الفرس.

(٢) غ: لاتجتهدون، والصواب ما أثبتناه عن ط، وعن الأمثال والحكم.

(٣) الزيادة من الأمثال والحكم.

(٤) غ: ولا تظهر.

(٥) ط: قدر وما أثبتناه هو الصواب عن غ وعن الأمثال والحكم.

(٦) قوله: «وقد قيل في منثور الحكم: لا تجهدن في ما لا درك فيه..» أورده المؤلف بلفظه في الأمثال والحكم (الورقة ٥٠ب)، ومن أقوال علي رضي الله عنه، «لا تبسطن يدك على من لا تقدر على دفعها عنه» (غرر الحكم ٣٣٥)، و«ما جمعت من المال فوق قوتك فإنما أنت فيه خازن لغيرك» (سراج الملوك ٩١)، ووجد مكتوباً على حجر: «انتهز الفرص عند إمكانها ولا تحمل على نفسك هم ما لم يأتك، واعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك، فكم من جامع لبعل حليلته» (سراج الملوك ٩١) ونجد في كلام الأحنف بن قيس ما يشبه هذا الكلام في خطاب طويل فانظره في (نهاية الأرب ٨ / ١٨٥-١٨٦).

(٧) مرّ هذا البيت قبلا.

(٨) ط: وأما الحادث عن الأسباب البشرية من أفعال المخلوقين.

(٩) ط: ينتشر الفساد.

قال الشاعرُ[١]: [من البسيط]

[وقـلمـا يـفـجـأ الـمـكـروهُ صـاحـبَـه
إذا رأى لـوجـوهِ الـشـرِّ أسـبـابـا[٢]

فيراعي الملكُ سببَ الفسادِ: فإن كانَ حادثاً عن شدةٍ وعسفٍ وعنفٍ حَسَمَهُ باللينِ واللطفِ، وإن حدثَ عن لينٍ وضعفٍ حسمَهُ بالشدّة والعنفِ، وكذلك ما عداهما من الأسبابِ، تنحسمُ بأضدادِها، فإن حسمَ الداءِ بضدّهِ من الدواءِ فقد قال الشاعر:][٣]: [من الكامل]

فـالـنـارُ بـالـمـاءِ الـذي هـو ضـدُّهـا
تـعـطي الـنـضـاج وطـبـعـهـا الإحـراق[٤]

وربما اختلفت[٥] الأسبابُ لامتزاجِ أنواعِ الفسادِ، فتحسمُ الأسبابُ المتنوعةُ[٦] بأضدادٍ متنوعةٍ، كما تعالجُ الأمراضُ المضادةُ بأدويةٍ متضادةٍ، فيستخرجُ حسمُ كلِّ فسادٍ من سببِه، وما يصعبُ من هذِهِ السياسةِ إلا معرفةُ الأسبابِ، فإذا عرفها وقفَ على الصوابِ، وإنْ أشكلتْ عليهِ التبسَ عليه الصوابُ؛ فتاهَ عن قصدِهِ وذهلَ عن رشدِه.

قال الشّاعر[٧]: (٤٨آ) [من الطويل]

---

(١) قوله: قال الشاعر: قلت هو حتامة بن قيس كما نسبه إليه الماوردي في الأمثال والحكم.

(٢) قوله: وقلما يفجا المكروه.. إلخ، البيت ورد منسوباً إلى حتامة بن قيس في الأمثال والحكم (الورقة ٧ب)، وهو غير منسوب لأحد في العقد الفريد (طبعة العريان، ٢ / ١٨٨) وفيه: حتى يرى لوجوه الشر...

(٣) الزيادة من حاشية الأصل غ وبعض منها من ط.

(٤) قوله: «فالنار بالماء الذي هو ضدها.. الخ» البيت مع بيت آخر قبله هو قوله:
وإذا عـجـزت عـن الـعـدو فـداره وامـزح لـه إن الـمـزاح وفـاق
سيأتي بهما المؤلف مرة أخرى في هذا الكتاب كما أتى بهما في أدب الدنيا والدين (١٦٧)، دون عزو إلى قائل. وقد ورد البيت غير معزو أيضاً في التمثيل والمحاضرة (٢٦٤) بلفظ (والنار). وقد سقط ما بين هذا البيت وبين ذكره مرة ثانية بعد ورقات من نسخة ط.

(٥) غ: اختلف.

(٦) غ: المتبوعة.

(٧) قوله «قال الشعر..» قلت قد سماه المؤلف في الأمثال والحكم فذكر أنه عبيدة بن حصن =

إذا مـا أتـيـتَ الأمـرَ مـن غـيـرِ بـابـهِ
ضللتَ وإنْ تقـصِـدْ إلى الـبـابِ تهـتـدِ[١]

وتقلّبُ الزمانِ بأحوالِ أهلِه يعودُ عليهمْ بخيرِهِ وشرِّهِ. روي عن النبيِّ صلى الله عليهِ وسلّم أنه قالَ:

«إذا كـانَ أمراؤُكم خيـارَكم، وأغنياؤُكم سمحـاءَكم، وكانَ أمـرُكم بينكم، فظهرُ الأرضِ خيرٌ لكمْ منَ بطنِها، وإذا كان أمراؤكم شرارَكم[٢]، وكانَ أغنياؤكم بخلاءَكم، وكانَ أمرُكم إلى نسائِكم، فبطنُ الأرضِ خيرٌ لكم من ظهرِها»[٣].

[تغيّر الأعوانِ]:

وأما تغيّر الأعوانِ فنوعانِ:

أحدهما: أنْ يكونَ لفسادٍ تعدّى إليهم.

والثاني: أنْ يكونَ لفسادٍ حدثَ منهم.

[تغير الأعوان لفساد تعدى إليهم]:

فإذا كانَ تغيّـرهم لفسادٍ تعـدّى إليهم عوجلوا بحسمِ أسبـابِه قبـلَ تفاقُمِها؛ فسيجدهم - بعد حسمِها - على السدادِ.

= الأودي، على حين ورد البيت في ديوان قيس بن الخطيم الذي جمعه الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور أحمد مطلوب ضمن قصيدة طويلة.

(١) قول الشاعر: «إذا ما أتيت الأمر من غير بابه..» البيت أورده المؤلف في الأمثال والحكم (الورقة ١٤ب)، منسوباً الى عبيدة بن حصن الأودي، وأورده دون أن ينسبه إلى قائل في أدب الوزير (ص١٩)، وهو في ديوان قيس بن الخطيم ضمن قصيدة طويلة لقيس بلفظ:
متى ما أتيت الأمر من غـير بـابـه ضللت وإن تـدخـل من البـاب تهتـد
(انـظر ديـوان قـيس بن الخـطيـم، القـصيـدة رقـم٦، ص٤٦) وقـد ورد البيت غير منسوب في نهاية الأرب (٦ / ١٠٥) وفي المستطرف (١ / ٣٠)، وهو فيهما بلفظه.

(٢) غ: أشراركم وكذا في الجامع الصغير والتصحيح من مصادر التخريج.

(٣) حديث: «إذا كان أمراؤكم خياركم..» رواه الترمذي عن أبي هريرة بلفظ «إذا كانت.. وأموركم شورى بينكم.. وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم إلى نسائكم..»، وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صالح المري وصالح في حديثه غرائب، لا يتابع عليها وهو رجل صالح، (سنن الترمذي ٣ / ٣٦١، رقم الحديث ٢٣٦٨)، وانظره في الجامع الصغير (١ / ٣٤)، والتيسير (١ / ١٢٥)، والترغيب والترهيب (٣ / ١٦٦-١٦٧).

فإنْ أهمِلوا، فلكلٍّ برهةٍ تمضي من زمانِهم تأثيرٌ في استحكامِ فسادِهم، حتّى يفضي إلى غايةٍ لا تستدرك؛ لأن حسمَ ما استحكمَ متعذرٌ، مستبعدٌ.

وسببُ هذا الفسادِ واحدٌ من ثلاثةِ أسبابٍ:
إما أنْ يكونَ لتقصيرٍ بهم فيستدرك بالتوفّرِ عليهم.
وإما أنْ يكونَ لعدوانٍ عليهم فيستدرك بالكفّ عنهم.

وإما [أنْ يكونَ] لمفسدٍ أطمعهم، فهو أخبثُها؛ لأنّ الطمعَ مصائل[1] للعقولِ، ومفسدةٌ للقلوبِ. فإن لم يصدّه حزمٌ، أو حذرٌ، خبثتْ به السرائرُ؛ فهيّجَ من النفوسِ سواكنَها، وأبرزَ من القلوبِ كوامنَها، وصارَ كأجيجِ النارِ في يابسِ الحطبِ.

وقد روي عن النبيّ عليه السلامُ أنّه قالَ:
«استعيذوا باللهِ من طَمَعٍ يؤدي إلى طَبَعٍ»[2].

---

(١) مصائل: اسم فاعل مأخوذ من صؤل البعير بالهمز من باب ظرف إذا صار يقتل الناس ويعدو عليهم ويواثبهم فهو جمل صؤول.

(٢) حديث «استعيذوا بالله من طمع يؤدي الى طبع»، رواه الإمام أحمد من حديث معاذ بلفظ «استعيذوا بالله من طمع يهدي إلى طبع ومن طمع يهدي إلى غير مطمع ومن طمع حيث لا طمع»، (مسند أحمد ٥ / ٢٣٢)، ورواه مرة أخرى عنه بلفظ «ومن طمع في غير مطمع» بدل قوله «ومن طمع يهدي الى غير مطمع»، (مسند أحمد ٥ / ٢٤٧)، وقد ورد الحديث في أدب الدنيا والدين (ص٢٩٨)، وفي نسخة ط بلفظ: «وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في ادعائه: اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع»، وقد ورد أيضاً في تهذيب اللغة (مادة طبع ٢ / ١٨٦)، بلفظ: «نعوذ بالله من طمع يهدي إلى طبع»، وقد رواه أيضاً الحاكم في المستدرك والطبراني في الكبير عن معاذ من حديث صحيح (الجامع الصغير ١ / ٤٠)، قال في التيسير: قال القاضي: والمعنى تعوذوا بالله من طمع يسوق إلى شيء في الدين وإزراء بالمروءة (١ / ١٤٧)، وإحياء علوم الدين ١ / ٣٣٠ ومن حكمهم: «رب طمع أدى إلى طبع» في قصة المثل المشهور «قالب الصخرة» وهي أنهم قالوا إنه كان رجل من معد رأى صخرة عظيمة ببلاد اليمن مكتوباً عليها بالمسند «اقلبني أنفعك» فاحتال في قلبها ولقي العناء من ذلك، فإذا على الجانب الآخر «رب طمع أدى إلى طبع» فما زال يضرب برأسه الحجر تلهفاً حتى انتثر لحمه ومات (ثمار القلوب ٥٥٨)، و(مجمع الأمثال ١ / ٤٣٩ رقم ٢٣٣٢)، وقولهم «رب طمع أدى إلى طبع» قد ورد في التمثيل والمحاضرة (ص٤٤٦)، =

وقالَ عمرُ [بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنه][1]:

إنَّ الطمعَ فقرٌ و[إنَّ] اليأسَ غنىً، وإنَّ المرءَ إذا يئسَ من شيءٍ[2] استغنى عنهُ[3].

وحسمُ هذا الطمعِ يكونُ بمعالجةِ إرغابِ من اشتدّ حتى ينسى، وإرهابِ من لانَ حتى ينتهي، لتمتزجَ (٤٨ب) الرغبةُ بالرهبةِ، ففي انفرادِ أحدِهما فسادٌ.

= ومجمع الأمثال (١ / ٣٠٦، رقم ١٦٤٢)، بلفظ (يهدي) وقال: الطبع الدنس، وقد أخذ هذا المعنى عروة بن أذينة القرشي - أموي - إذ قال:

لا خير في طمع يهدي الى طبع وغُفَّةٌ من قوام العيش تكفيني

(حاشية التاج في أخلاق الملوك ١٢١)، وفي الحماسة البصرية ٢ / ٨١ بلفظ «..يدنى إلى طبع وغبّر من كفاف..»، ونسبه ابن السكيت لثابت بن قطنة العتكي مع بيتين آخرين (كنز الحفاظ من كتب تهذيب الألفاظ تهذيب الخطيب التبريزي ص٢٢ و٤٣٧)، ومن أمثالهم «الطمع طبع»، (جمهرة اللغة مادة ط ب ع ١ / ٣٠٦).

(١) الزيادة من ط وفي غ: عمر عليه السلام.

(٢) غ: من الشيء.

(٣) قول عمر رضي الله عنه: «إن الطمع فقر واليأس غنى..» أخرجه ابن الجوزي من حديث هشام عن أبيه قال: قال عمر رضوان الله عليه: تعلموا أن الطمع فقر وأن اليأس غنى، وأن المرء إذا يئس من شيء استغنى عنه»، (سيرة عمر بن الخطاب ١٢٦)، وكتاب (ألف كلمة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب) بلفظ «إن الطمع فقر وإن اليأس غنى وإنه من ييأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم»، (ص٣٣ رقم القول ٣٢٤)، ورواه الماوردي في الأمثال والحكم (الورقة ٤٤آ) وأخرجه رزين من حديث عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب قال يوماً في خطبته «تعلمون أيها الناس: أن الطمع فقر وأن اليأس غنى، وأن المرء إذا يئس من شيء من أمور الدنيا استغنى عنه» (جامع الأصول ١١ / ٣٥٧، رقم الحديث ٨٤٥٠)، وقد ورد في ما نسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: «الطمع فقر ظاهر واليأس غنى حاضر»، (غرر الحكم ١٦)، وفي موضع آخر: «إن أكيس الناس من اقتنى اليأس ولزم الصمت والورع، وبرىء من الحرص والطمع الفقر الحاضر، وإن اليأس والقناعة الغنى الظاهر» (١١٤-١١٥)، وقد ورد معنى قول عمر ضمن حديث للرسول صلى الله عليه وسلم أن رجلاً قال: يا رسول الله أوصني. قال: عليك باليأس مما في أيدي الناس، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وإذا صليت صلاةً فصلِّ صلاة مودع، وإياك وما يعتذر منه» (المستدرك ٤ / ٣٢٦) عن سعد بن أبي وقاص وانظر (أدب الدنيا والدين ٢٩٨)، وانظر (الدر المنظم في الوعظ والحكم ص١٧)، وقد ورد هذا القول في رسالة (كلمات مختارة ص٢١)، بلفظ «إن المطامع فقر والغنى يأس» غير منسوب وبهذا اللفظ أيضاً في (الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٤٨).

قال الشاعرُ(١): [من الكامل]

والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبتَها
وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ(٢)

[تغيّر الأعوان لفساد حدث منهم]:

وأما تغيّر الأعوانِ لفسادٍ حدث منهم، عدلوا بهِ عن الاستقامةِ، وزالوا عن أحوالِ السلامةِ، فهو الدَّغَلُ(٣)، والقرحُ النغلُ(٤)، والخطبُ العضلُ(٥).

والفرقُ ما بين الفسادِ الطارئِ عليهم، والفسادِ الناشئِ منهم من وجهين:

أحدهما: أنّ الطارىء منفصلٌ، والناشىءَ متّصلٌ، ونكايةُ المتصلِ أبلغُ من نكايةَ المنفصلِ.

والثاني: أنّ الطارىءَ ظهرَ قبلَ حلولِهِ فيهم، فأمكنَ تعجيلُ استدراكِهِ، والناشىءُ ظهرَ بعد استحكامِهِ فيهم، فتعذّر تعجيلُ استدراكِه، فلزمَ لدغلِ دائِه، وعضلِ دوائِه، أن تقرّرَ في تلافيهِ، وحسمِ دواعيهِ، قواعدُ كلِّ حالةٍ على قاعدَتِها، ويدبّرَ بموجبِها.

* * *

(١) قوله: «قال الشاعر» قلت هو لأبي ذؤيب الهزلي وقد مرت ترجمته.
(٢) قوله: «والنفس راغبة..» مرّ الاستشهاد بهذا البيت وتخريجه.
(٣) الدغل - بفتحتين: الفساد.
(٤) النغل: يقال نغل الأديم: فسد وبابه طرب فهو نغِلٌ، ومنه قولهم: فلان نغِلٌ إذا كان فاسد النسب، والعامّة تقول نغل بالتسكين.
(٥) العضل: الشديد الذي أعيا الأطباء.

[الفصل الخامس والعشرون]
[سياسة الملك وأحواله]

[بم يساس الملك؟]:

وإذا كانَ كذلكَ فالملكُ يساسُ بثلاثةِ أمورٍ:

أحدهما: بالقوةِ في حراستهِ وحفاظِهِ.

والثاني: بالرأيِ في تدبيرِه وانتظامِه.

والثالث: بالمكيدةِ في فلِّ أعدائِهِ.

فتكون القوةُ مختصةً بالعقلِ.

والرأيُ مختصاً بالتدبيرِ. وهما على العمومِ في جميعِ الأحوالِ والأعمالِ.

فأما المكيدةُ فمختصةٌ بفلِّ الأعداءِ؛ فإنَّ من ضَعُفَ كيدُه قوي عدوُّه، وهذا أصلٌ يعتمد[1] عليه مدار السياسة، ويحمل عليه تدبير الملك[2].

[أحوال المُلْك]:

وللملكِ ثلاث أحوالٍ:

فالحال الأولى: تثبيت قواعده.

والحال الثانية: تدبير رعيته.

والحال الثالثة: استقامة أعوانه.

[١ - تثبيت قواعد الملك]:

فأما الحال الأولى في تثبيت قواعده وحراسته من الأعداء المنازعين فيه فضربان:

أحدهما: (١٤٩آ) حالُه قبل استقراره عند المنازعة فيه والمحاربة عليه، فيساس بالأمور الثلاثة:

---

(١) غ: معتمد.

(٢) قال محمد بن يزداد الكاتب: «إذا لم تستطع أن تقطع يد عدوك فقبلها»، (عيون الأخبار ٣ / ١١٢).

أحدها: بالقوة في حراسته والذب عنه حتى تستقر قواعده.
والثاني: بالرأي في تدبيره، حتى ينتظم على اعتداله.
والثالث: بالمكيدة في انتهاز فرصته ودفع غوائله.
والثاني: حاله بعد استقراره في السلم والدعة، فيساس بأمرين:
أحدهما: بالقوة الحافظة لقواعده المستقرة.
والثاني: بالرأي الجامع للسياسة العادلة.
ولا حاجة إلى استعمال المكيدة فيه عند السلم والموادعة.

[٢ - تدبير الرعية]:

وأما الحال الثانية في تدبير الرعية فضربان:
أحدهما: حالهم في السلامة والسكون، فيساس بالرأي وحدّةِ المحافظة لتدبيرهم على السيرة العادلة.
والضرب الثاني: حالهم في الاضطراب والفساد، فيساسون بأمرين:
أحدهما: بالقوةِ في كف مفسدهم، وكف الفساد عنهم.
والثاني: بالرأيِ في تدبير أمورِهم على السيرةِ العادلة.
ولا وجه لاستعمال المكيدةِ فيهم؛ لأن حقوق الأموال مستمدة منهم؛ فإن كيدوا صار الملك بهم مكيداً، فكان الضرر عليه أعود، والفساد فيه أزيد.

[أحوال الملوك مع رعيتهم]:

وقد تنقسم أحوال الملوك مع رعيتهم أربعة أقسامٍ يعلم بتفصيلها أسباب الصلاح ومواد الفساد:

فالقسم الأول: مِلكٌ صلحت سريرتهُ، واستقامت رعيته، فأعين على صلاح السيرة باستقامة رعيته، وأعينت الرعية على الاستقامة بصلاح سيرته، فهذا هو العدل منهما، فصارت السعادة شاملةً لهما، وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال:

«خيرُ أمرائِكم الذين تحبّونهم ويحبّونكم، وشرّ أمرائكم (٤٩ب) الذين تبغضونهم ويبغضونكم»[١].

---

(١) حديث: «خير أمرائكم الذين تحبونهم ويحبونكم...» رواه مسلم من حديث عوف بن مالك =

والقسم الثاني: ملِكٌ صلحت سيرته، وفسدت رعيته، فقد أضاعت الرعيةُ بفسادِها صلاحَ ملكِها، وخرجوا من سكون الدعة، إلى زواجر السياسة، فاحتاج إلى تقويمهم بالشدة بعد لينِهِ، وبالسطوة بعد سكونه[١]، ليقلعوا عن الفساد إلى السداد فيكف عنهم، والعدل في الحالين مستعمل معهم؛ لأنَّ الزجرَ تأديبٌ، والرهبةَ تهذيبٌ.

قال بعض الألباء:

لا تُعادوا الدُّوَلَ المقبلةَ، فإنّكم تدبرون بإقبالِها[٢].

والقسم الثالث: ملِكٌ فسدت سيرتُه، واستقامت رعيّته. فإن استدركَ صلاحَ ملكِه بعدلِ سيرتِهِ وصحةِ سياستِهِ، وإلاّ تطاولتْ عليه الرعيةُ بقوةِ الاستقامة، وكان معهم [على] أمرين:

أحدهما: أن يصلحوه حتى يستقيم، فيصير مأموراً بعد أن كان آمراً، ومقهوراً بعد أن كان قاهراً، وتزول هيبته، وتبطل حشمته، ولا يبقى له من الملك إلاّ اسمٌ مستعارٌ، قد استَبْقَوْهُ عليه تفضّلاً.

قيل: من كَثُرَ تعدّيهِ كَثُرَ أعاديه[٣].

= الأشجعي بلفظ «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم...» (صحيح مسلم بشرح النووي ١٢ / ٢٤٥) وأخرجه الترمذي من حديث عمر بن الخطاب بلفظ «ألا أخبركم بخيار أمرائكم وشرارهم؟ خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم وتدعون لهم ويدعون لكم وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم» (جامع الأصول ٤ / ٤٥٥ رقم٢٠٥٠) والجامع الصغير (٢ / ٨) والتيسير (١ / ٥٢٣-٥٢٤) والحديث في أدب الدنيا والدين بلفظ «خير أئمتكم... وشر أئمتكم...» وفيه زيادة هي قوله: «وتلعنونهم ويلعنونكم» (ص١٢٣).

(١) غ: كونه.

(٢) قول بعض الألباء: «لا تعادوا الدول المقبلة...» نجد معناه في أدب الدنيا والدين بلفظ «لا تعرضن لعدوك في دولته، فإذا زالت كفيت شره» (ص٣١٠). وقد نسبه المبشر بن فاتك إلى أفلاطون وجاء به ضمن حكمه وآدابه بلفظ «لا تعادوا الدول المقبلة، وتشربوا قلوبكم استثقالها فتدبروا بإقبالها» (محاسن الكلم١٧١).

(٣) قولهم: «من كثر تعدية كثر أعاديه» ورد غير منسوب في رسالة كلمات مختارة بلفظ: «من قلت أياديه كثرت أعاديه» (ص٤٠) ومن أقوال علي رضي الله عنه «من حسنت مساعيه طابت مراعيه ومن كثر تعديه كثرت أعاديه» (غرر الحكم٢٧٦).

والثاني: أن يعدلوا إلى غيره فيملكوه عليهم فيكونوا له أعـواناً إنْ نوزِعَ، وأنصاراً إنْ قورعَ، فيصير بفساد سيرته مزيلاً لملكه، ومعيناً على هلكه.

والقسم الرابع: ملك فسدت سيرته، وفسدت رعيته، فاجتمع الفساد في السايس والمسوس، فظهر العدوان من الرئيس والمرؤوس، فلم يتقاصد عن فساد، ولا داع إلى صلاح، فخرجت الأمور عن سبيل السلامة، وزالت عن قوانين الاستقامة، ولا ثبات لملك زالت عنه السلامة (٥٠آ) وعدمت فيه الاستقامة[١]، وهو بمرصد من ثائر يصطلم[٢]، وقـاهر ينتقم. وقـد قال أردشير بن بابك:

بمثل هذا الملك، وهذه الرعية تختم الدول، وتستقبل الفتنة، وتذال الدهور[٣].

[٣ - استقامة الأعوان]:

وأما الحال الثالثة في استقامة الأعوان فضربان:

أحدهما: حالهم في السكون والدعة: فيساسون بالرأي وحـده في تدبيرهم بالرغبة والرهبة حتى تستقر أمورهم على السيرة العادلة.

قال سابور[٤] في عهده إلى ابنه هرمز[٥]:

---

(١) غ: وعدمت فيه السلامة.

(٢) يصطلم: يستأصل.

(٣) قول أردشير: «بمثل هذا الملك...» تجد غرراً من كلامه في هذا المعنى في عهد أردشير والأقوال الملحقة به وفي كتاب غرر ملوك الفرس وسيرهم (ص٤٨٢).

(٤) سابور: معرب عن شابور وهي مخففة عن شاهبور، وهو سابور بن أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس ملك بعد أبيه واقتدى بسيرته طيلة إحدى وثلاثين سنة، انظر غرراً من أخبار ملوك الفرس وسيرهم ٤٨٧-٤٩٨ ومروج الذهب١ / ١٥٤-١٥٥ والمستطرف١ / ٩٤-٩٦ وفيهـا قصة ولادتـه وعدهـا من أعجب مـا حـدث، وثمـرات الأوراق -عـلى هـامش المستطرف١ / ١٨١-١٩٦.

(٥) هرمز: هو هرمز بن سابور ويقال له هرمز البطل لشدة بأسه ومراسه. ملك بعد أبيه سابور وكانت مدة ملكه نحواً من سنتين ثم ملك بعده بهرام بن هرمز. انظر نبذة من أخباره في =

اعلم أنّ جندك لم يغنوا عنك وإن كثروا وكملت عدّتهم، حتى تكمل فيهم ثلاثُ خصالٍ ليس عنهن[١] عوض: محض المودّة، وصدق الناس، وسلس الطاعة؛ فإنهم يؤدون بهن حقك، ويدفعون بهن عدوّك[٢].

والضرب الثاني: حالهم في تغيُّرهم وفسادهم:

[وفسادهم][٣] على ضربين:

أحدهما: أن يكون الفساد خاصاً في بعضهم، فيساس من فسد منهم بأمرين:

بالقوة في إصلاحهم بمن سلم.

وبالرأي في تدبير أمورهم كالمسالم؛ ليسيروا جميعاً على السيرة العادلة؛ فإن انتشار فسادهم من كثرة رؤسائهم المتنافسين في الرتب، فيجتذب كل رئيس حزباً يدعوهم إلى طاعته، ويبعثهم على نصرته، فيصيرون أحزاباً مختلفين، وأضداداً متنافرين.

فهذه حالهم إن كثروا، وهم بالضد منها إن قلّوا.

والضرب الثاني: أن يكون الفساد عاماً في جميعهم؛ فلا يخلو حالهم في الفساد العام من أن يتظاهروا به، أو[٤] يستروه.

فإن ستروه فقد استبقوا[٥] بالمساترة شطراً، فيساسون بالرأي وحده؛ لإعواز القوة بفسادهم، ولا يساسون بالمكيدة؛ لمساترتهم.

فإنْ جاهروا بالفساد (٥٠ب) فهو الوهنُ الواصمُ، والخطبُ القاصمُ.

= غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم٤٩٨-٤٩٩، مروج الذهب١ / ١٥٥، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء٢٩.

(١) غ: منهن.

(٢) عهد سابور إلى ابنه هرمز تجد نصوصاً منه في غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم٤٩٥-٤٩٨.

(٣) الزيادة من السياق وقد سقط هذا الموضوع من ط.

(٤) غ: ويستروه (بالواو).

(٥) غ: استبقوه.

ويتنوع ثلاثة أنواع:

أحدها: أنْ يكونَ فسادُهم مختصّاً بانتهاك الرعايا، واستباحةِ الأموالِ؛ فقد سلبوه القوةَ بمتاركتِه(١)، ومنعوه الطاعةَ بمخالفتهِ، وجعلوهُ كالصّنمِ الذي لا يزادُ على التعظيمِ، فاستبقوا يسيرَ حشمتهِ، واستولوا على جميع مملكتهِ، فيسوسهم بالرأي واللينِ، واجتذابِ فريقٍ، فعساه يقوىٰ فيمنعُ، ويشتدّ فيدفعُ، وإلا فالملكُ واهٍ والفسادُ متناهٍ، وهو كالمثلِ المضروبِ بقول الشاعر: [من الخفيف]

كم ترىٰ يلبثُ الرّصاصُ على النا........رِ ومنها يكونُ ذوبُ الرّصاصِ

قال بعض البلغاء:

أضعفُ الحيلةِ خيرٌ من أقوىٰ الشدةِ، وأقلّ التأنّي أجدىٰ من أكثر العجلةِ، والدولةُ رسولُ القضاء المبرمَ، وإذا استبدّ الملكُ برأيهِ عميتْ عليهِ المراشدُ(٢).

والنوع الثاني: أن يكونَ فسادهم مختصاً بالإسراف في مطالبته بما لا يستحقونه، والإقتراح عليه في التماس ما لا يستوجبونه، فلا يخلو فيه من أحدِ أمرين:

إما أن يكون قادراً عليه،

أو عاجزاً عنه.

فإن كان قادراً عليه كان هذا منهم طمعاً فيه قد اطّرحوا فيه مراقبته، واستبدلوا فيه [الاستطالة] بحشمته(٣)، وأوهنوا بالاستطالة ملكه، فصار مسلوبَ القوة باستطالتهم،

---

(١) غ: لمتاركته.

(٢) قول بعض البلغاء: «أضعف الحيلة خير من أقوى الشدة...» نسبه الماوردي إلى الفرس في حكمها وفيه «وأقل التأني خير من أكثر العجلة...» (أدب الدينا والدين ص٢٧٧) وفي هامشه: الدولة: أي الحرب. وقد ذكر ابن مسكويه أن قائله هو أوشهنج وأورده بلفظ: «أضعف الحيلة أنفع من أقوى الشدة... والدهاء رسول القضاء المبرم...» (الحكمة الخالدةص٩).

(٣) غ: واستبدلوا فيه حشمته، والزيادة يقتضيها السياق.

منهوب المال بمطالبتهم، قد جعلوه مأكلة مطامعهم، فهو معهم كذي المال المستضعف مع البغاة الأقوياء محروب[١]، ومسلوبٌ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فيساسون بالرأي والخداع، فما استبقوا من حشمته إلّا حشاشته[٢]، فلا يعرضها لنفور مهلك، ويتوصل إلى رضاهم سرًّا وجهرا، بما يختلفون (٥١آ) في أسبابه، وهم لا يشعرون؛ لتمتزج أسباب الرضا من وجوه متغايرة، فيكون به أرفق، ولهم أوفق، كما قال الشاعر: [من الكامل].

وإذا عجزتَ عن العدوّ فدارِهِ
وامزحْ له إنّ المزاحَ وفاقُ
فالنارُ بالماء الذي هو ضدُّها
تعطي النضاجَ وطبعُها الإحراقُ[٣]

فإذا سكنوا من فورةِ الاشتطاط، توصّل إلى حسمِ مطامعهم، وإن حسمتْ سلمَ ملكهُ بعد السقمِ، وإن لم تحسم[٤] فهو ذاهب الملك، وشيك الهلك، إن لم يعضّده نصر من الله وفتح قريب.

وإن كان عاجزاً عما اقترحوه، وطمعوا فيه فهو عنتٌ مستحيلٌ، قد جعلوا العنتَ فيه سبباً لغيره، فيساسون بأمرين: بالرأي والمكيدة؛ فإنهم لا يقفون على حالهم المستحيلة، وسينقلون عنها إلى خصلةٍ من ثلاث:

إما أنْ يكفّوا عن عنتهم، فيكفي أمرهم، ويدبرهم بعد كفهم.

وإما أن يختلفوا، فيقوى بمن وافقه منهم على باقيهم.

وإما [أن] ينتقلوا إن لم يعنه القدر عليهم إلى ما يقع فيه التسليم والاستسلام، والله يقضي فيه بما يشاء وهو القوي العزيز.

---

(١) المحروب: المسلوب قال في القاموس: حربه حرباً كطلبه طلباً سلب ماله فهو محروب وحريب (مادة حرب١ / ٥٥٥).

(٢) الحشاشة: بضم الحاء بقية الروح في المريض والجريح (قاموس -حشش- ٢ / ٢٧٩).

(٣) قول الشاعر: وإذا عجزت... البيتين: مر ذكر البيت الثاني قبل قليل.

(٤) غ: ينحسم.

والنوع الثالث: أن يكونَ فسادهم مختصاً بالتعريض لنفسه، وهو الشر المغتلم[١]، والبلاء المصطلم[٢]، وقل أن يكون إلّا لسببٍ من أحد ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكونَ لسوء سيرته فيهم، فهو الملومُ دونهم، وليس يرجى زواله مع بقائه على سوء السيرة. فإن أقلع عنها فرجعوا عنه، وإلّا ساسهم بما اقتضاه الرأي من لينٍ ولطفٍ، ثم لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ.

والسبب الثاني: أن يكونَ تغيّرهم عليه لمللٍ[٣] منهم له حدث بطول مكثه فيهم. فليس الملل[٤] من لوازم العلل، ولئن لم (٥١ب) يزدْهُ المكثُ حقاً لم ينقصْهُ.

وقلَّ أن يكون ذلك إلّا عند حدوثِ ناشئةٍ لم ينالوا من دولته حظًا، فهم يأملون بتقلبِ الأمورِ أن يستحدثوا نعمًا، ويرجون بانتقالها توجيهاً وتقدماً.

فإن لم يفسد بهم غيرهم كان الخطبُ بهم أيسرَ للظفرِ ببقيةٍ منهم؛ ليستعانَ بها عليهم.

وإن عمَّ بهم الفسادُ فهو أصعبُ الخطبين؛ فيسوسُهم باللطفِ والتأمينِ، واستصلاحِ فريقٍ بعد فريقٍ.

فإن ظفرَ منهم بظهور الأملِ، وإلا فهو بمرصاد من بغيٍ قد استولىٰ، وملكٍ قد تولّىٰ، إلّا أن يمدَّه الله تعالىٰ بلطفٍ غير مرتقبٍ، وعونٍ[٥] غير محتسبٍ.

والسبب الثالث: أن يكونَ تغيّرهم عليه لانحرافهم إلى عدوٍّ قد مايلوه، وإغرائهم إلى ضدّ قد استبدلوه، فهو أسوأ الخطوب حالاً،

---

(١) المغتلم: الهائج.
(٢) الاصطلام: الاستئصال.
(٣) غ: لملك وهو تصحيف.
(٤) غ: الملك وهو تصحيف.
(٥) غ: وهون وهو تصحيف.

وأعظمها وبالاً؛ لأنه قد بلي بانحراف أعوانه، واستطالةِ أعدائه؛ لأنّ لكلِّ واحدٍ منهما نكايةً لا تطاقُ، فكيف إذا اجتمعا؟

قال الشاعر[1]: [من الكامل]

إنَّ البلاء يطاقُ غيرَ مضاعفٍ
فإذا تضاعفَ صار غير مطاقِ[2]

ولم يبق ما يستدفع به خطبه إلا المكيدة؛ فإنها علاج ما أعضل من دائهم، فيعالجهم بها قبل أن يستأصلوه، ويظهر معها إن تراخت له المدة بإجمال سيرته، واحتماله رعيته؛ ففي كل واحد منهما عون.

فإن سرت المكيدة في عدوه لانَ أعوانُه.

وإن سرت في أعوانه لانَ عدوُّهُ؛ لأنَّ أعوانَهُ يُسَرُّ في واحد منهم، فهو موكول، متوقع لما تجري به الأقدار، ويتقلب به الليل والنهار، ولئن كان في غاية متناهية فليس بمأيوس أن يظفر.

روي[3] عن النبي صلى الله عليه وسلم (١٥٢آ) أنه قال:

«الدنيا دولٌ، فما كان مِنْهَا لَكَ أتاكَ على ضعفِك، وما كان منها عليك، لم تدفعْه بقوتك[4]، ومن انقطع رجاؤه مما فات استراح بدنه، ومن رضي بما رزقه الله قرت عينه»[5].

---

(١) قوله: قال الشاعر: قلت هو ابن الرومي وقد مرت ترجمته.

(٢) قوله: «إن البلاء يطاق... إلى آخر البيت» في ديوان ابن الرومي -بعناية كامل الكيلاني- ٣٦١/٣ مع ثلاثة أبيات أخرى. وقد أورده المؤلف في أدب الدنيا والدين (ص٢٧٠) منسوباً إليه. كما أورده غير منسوب لقائل في أدب الوزير (ص٢٤) وهو في نهاية الأرب غير منسوب أيضاً (٦ / ١١٠) وذكره الطرطوشي منسوباً إليه (سراج الملوك١٠٢).

(٣) ط: روى علي بن الحسين عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٤) غ،ط: بقوة، والتصحيح من مصادر التخريج.

(٥) حديث: «الدنيا دول...» في أدب الدنيا والدين (٢٠٩) وقسمه الأول في الحكمة الخالدة (١٨٨) بلفظ «...لك منها...وما كان عليك...إلى قوله: بقوتك». وقد نسبه ابن الأثير إلى أكثم ابن صيفي بلفظ «...لم تدفعه بقوتك، وسوء حمل الغنى يورث مرحاً، وسوء حمل =

وقيلَ:
ربّما كانَ اليأسُ إدراكاً، والحرصُ هلاكاً[1].

وقيل:
ربَّ مستسلمٍ سَلِمَ، ومتحرّزٍ نَدِمَ[2].

قال الشاعرُ: [من الكامل]

وحــذرتُ مــن أمــرٍ فــمــرّ بــجــانــبــي
لــم يــبــكــنــي ولــقــيــتُ مــا لــم أحْــذَرِ[3]

وليسَ يطرأ أمثالُ هذهِ الحوادثِ على الممالكِ إلّا من استرسالِ الملوكِ في حالتين:

إحداهما: أن يغفلوا عن الحزمِ حتى ينتشرَ من الإهمالِ ما يطغىٰ.

والثانية: أن يسترسلوا في العدلِ، حتى يظهر من الجورِ ما يوحشُ.

قال أردشيرُ بن بابك:

= الفاقة يضع الشرف، والحاجة مع المحبة خير من البغضة مع الغنى، والعادة أملك بالأدب» (مجمع الأمثال١ / ٣٣٧ رقم المثل١٨٠١). وقد أخرجه الشريف الرضي موقوفاً على علي رضي الله عنه من كتاب له إلى عبد الله بن عباس بلفظ: «أما بعد فإنك لست بسابق أجلك، ولا مرزوق ما ليس لك، واعلم بأن الدهر يومان يوم لك ويوم عليك، وأن الدنيا دار دول، فما كان منها لك أتاك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك» (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد٤ / ٢٣٢) وانظر الشطر الأول من الحديث غير منسوب في الأدب الصغير بلفظه (ص٥٣، وضمن رسائل البلغاءص١٧).

(١) قوله: «وقيل: ربما كان اليأس إدراكاً والحرص هلاكاً» نسب هذا القول إلى علي رضي الله عنه بلفظ «قد يكون اليأس إدراكاً إذا كان الطمع إهلاكاً» (غرر الحكم٢٣٢).

(٢) قولهم: «رب مستسلم سلم ومتحرز ندم» جاء معناه منسوباً إلى علي رضي الله عنه بلفظ «رب متحرز من شيء فيه آفته» (غرر الحكم١٨٤).

(٣) قول الشاعر: «وحذرت من أمر فمر بجانبي... الخ» أورده المؤلف في الأمثال والحكم (الورقة٢٦آ) بلفظ «... فمرّ... لم يبلني...» باللام. ونسبه إلى سهل بن حنطب وأورده كذلك في أدب الوزير (ص٢١) ولم ينسبه لقائل، وهو في نهاية الأرب غير منسوب (٦ / ١٠٧).

إذا رغبَ الملكُ عن العدلِ رغبت الرعيّةُ عن الطاعةِ[١].

وهما أُسّان للملكِ، فإذا خلا منهما، فاجتمع فيه طغيانُ الإهمالِ، واستيحاشُ الجور، تقوّضت قواعدُ صلاحهِ، وتهدّمت أركانُ سدادهِ، فلم تبعدْ عليه نتائجُ فسادهِ، بحوادثَ لا تحتسب، لأن عـواقبَ الفسادِ أدهىٰ وأمرّ، ونتائج الشرّ أعدىٰ وأضرّ. كما قال لقمْنُ لابنهِ:

يا بنيّ اعتزل الشّرَّ يعتزلْك؛ فإنّ الشرَّ للشرِّ خلقَ[٢].

قال بعضُ الألباء[٣]:

من فعلَ الخيرَ فبنفسِه بدا، ومن فعلَ الشرَّ فعلى نفسِهِ جنىٰ[٤].

---

(١) قول أردشير: «إذا رغب الملك عن العدل. . .» مر هذا القول قبلاً.

(٢) قول لقمان لابنه «يا بني اعتزل الشر يعتزلك فإن الشر للشر خلق» أورده المؤلف في الأمثال والحكم (الورقة٤٣ب) منسوباً إليه، وفي أدب الوزير (ص١٥و٢٩) أيضاً، وأورده ابن مسكويه دون أن ينسبه إلى أحد بلفظ «اعتزل الشر يعتزلك الشر فإن الشر يسرع إلى الشر» (الحكمة الخالدة١٢٧) ومن الأمثال التي تنسب إلى لقمان: «اترك الشر يتركـك» (مجمع الأمثال١ / ١٣٨ رقم المثل٦٨٨)، وأورد شطره الثاني دون نسبة بلفظ «الشر للشر خلق» وقال «هو كقولهم: الحديد بالحديد يفلح» (مجمع الأمثال١ / ٣٦٦ رقم المثل١٩٦٦)، ومن كلام الأحنف بن قيس: «إن رأيت الشر يتركك إن تركته فاتركه» (العقد الفريد١ / ١١٦) ولبطليموس قول يشابهه بلفظ: «ادفع الشر بالشر فإن الحديد بالحديد يفلح» (مختار الحكم ص٥٤) وأمثال أبي عبيد (ص٢) وفيه «ادفع الشر بمثله» (ص٤) وقد جاء عن لقمان ما يكذّب ذلك إذ قال: «يا بني كذب من قال: إن الشر لا يطفئه إلا الشر، إن كان صادقاً فليوقد ناراً إلى جنب نار، ولينظر هل يطفئها؟ ولكن الشر لا يطفئه إلا الخير كما يطفيء الماء النار» (مختار الحكم ٢٦٤) و(التمثيل والمحاضرة٣٥) وقال أيضاً: «اعتزلوا شرار الناس تصلح لكم قلوبكم وتسترح أبدانكم وتطب نفوسكم» (مختار الحكم, ٢٧٦).

(٣) ط: بعض الحكماء.

(٤) قولهم: «من فعل الخير فبنفسه بدا ومن فعل الشر فعلى نفسه جنى» استشهد به المؤلف في أدب الوزير بلفظه ونسبه إلى بعض الحكماء (ص١٥) وقد أخرجه ابن الجوزي بلفظ «من أحسن فبنفسـه بـدا ومن أسـاء فعـلى نفسـه اعتـدى» (المصبـاح المضيء في خـلافـة المستضيء٢ / ٤٦١ وفيها تخريج، وهو من أحاسن المحاسن غير معزو لأحد وقد جاء به بلفظ «. . .فعليها جنى واعتدى» (ص١٥٠) وقد نسبه الأمير أسامة بن منقذ إلى الحكيم أرسطوطاليس وجاء به بلفظ «لأن تحسن وتُكفر خير من أن تسيء وتُشكر، فمن أحسن فبنفسه بدا، ومن أساء فعلى نفسه اعتدى» (لباب الآداب (ونسبه الثعالبي إلى الخليفة القاهر بالله بلفظ «من صنع خيراً أو شراً بدأ بنفسه» .(الإيجاز والإعجاز ص٢٢).

قال الشاعر[١]:

الخيرُ لا يأتيكَ مجتمعاً
والشَّرُّ يسبِقُ سيلَه مَطَرُه[٢]

[استعمال الحزم وبسط العدل]:

وإذا أحكمَ الملكُ قواعدَ ملكهِ باستعمالِ الحزمِ وبسط العدلِ، ولم يغفلْ عن الحزمِ في صغيرٍ ولا كبيرٍ، ولم يترخّصْ في الجورِ من قليلٍ ولا كثيرٍ، أحاطت السلامةُ بملكهِ، وحفَّت السعادةُ بدولتهِ، فأمِنَ غوائلَ الفسادِ، وسَلِمَ (٥٢ب) من ظهورِ الفسادِ، وكان الناسُ معه من بين حامدٍ لعدلهِ وإحسانهِ، وحذرٍ من بأسهِ وسلطانهِ، فشكرَهُ الأخيارُ، واتّقاهُ الأشرارُ، ولم يتطرّق إلى ملكهِ خللٌ، ولا على نفسِه وَجَلٌ، فصحّ أن الحزمَ والعدلَ أدفَعُ لشوائبِ الملكِ، ومخاوفِ الملوكِ من كل عدّةٍ وأبلغُ في صلاحِهم من كل نجدةٍ، فيستنجدُ للملكِ حزمُه، ويستعدّ عدلُه؛ فإنه يستغنى بهما عن كل عدّةٍ، ويستعانُ بهما في حراستهِ من الخطرِ، وحفظِ ملكهِ من الغيرِ.

---

(١) قوله: «قال الشاعر...» قلت هو أبو زبيد الطائي -المنذر بن حرملة، وفي الطرائف اسمه حرملة بن المنذر، أدرك الإسلام ومات نصرانياً وكان من المعمرين يقال إنه عاش خمسين ومائة سنة، وكان ينادم الوليد بن عقبة، وأبو زبيد شاعر غير مكثر له ديوان جمعه زميلنا الدكتور نوري حمودي القيسي (مطبعة المعارف بغداد١٩٦٧) وله أبيات في حماسة ابن الشجري ٢ / ٩١٣، والأغاني١٢ / ١٢٦، والحيوان٣١٨، وجمهرة أشعار العرب٢٦٠، والطرائف الأدبية٩٨-١٠١.

(٢) مطره بالهاء في كل من غ وط وفي الأمثال والحكم (مطر) والبيت في الأمثال والحكم (الورقة٢٦ب) منسوبٌ إليه، وفي (أدب الوزير٢٥) غير منسوب لأحد، ولم أجده في ديوان أبي زبيد الطائي الذي جمعه الدكتور نوري حمودي القيسي. وقد وردت العبارة الأخيرة من الشطر الثاني مثلاً من الأمثال في التمثيل والمحاضرة (ص٢٣٧) بلفظ «سبق سيله مطره». والبيت في المستطرف (١ / ٣٠) دون نسبة، وفيه «...لا يأتيك متصلاً...» ومثل هذا قول الشاعر:

ألم تر أن سير الخير ريث — وأن الشر راكبه يطير

وقول محمد بن بشير ((أو يسير):

تأتي المكاره حين تأتي جملة — وترى السرور يجىء مع الفلتات

(البيان والتبيين ٣ / ٢٠٨-٢٠٩).

قال بعضُ العلماءِ(١):
بالعدلِ والإنصاف تكونُ مدةُ الائتلافِ(٢).

[قيل لأنوشروان: أي الخير أوفى؟ قال: الدين. قيل: وأي العدد أقوى؟ قال: العدل](٣)

[تصفح أحوال الحاشية في زمان السلم]:

وليعلم الملك أن من الحزم أن يتصفح أحوال حاشيته وأعوانه(٤) في زمان السلم، وأوقات السكون؛ لأن القدرةَ أشدّ، والمكيدة أمدّ؛ فإن لكلّ صنفٍ من الحواشي والأعوانِ آفةً مفسدةً، وبليةً قادحةً، تجعل الصلاحَ بهم فساداً، والميلَ منهم عناداً، فيقف عليها، يتصفّح أحوالهم؛ ليسلموا، فيصير منهم سليماً، ويستقيموا فيصير بهم مستقيماً، فقد قيل في منثور الحكم(٥):

آفة الملوك(٦) سوء السيرة.
وآفة الوزراء خبث(٧) السريرة.
وآفة الأمراء مفارقة الطاعة(٨).

---

(١) ط: وفي منثور الحكم.
(٢) قولهم: «بالعدل والانصاف تكون مدة الائتلاف»، أورده المؤلف مصدراً بقوله: «وقد قيل في منثور الحكم»، دون نسبة إلى قائل (أدب الوزير، ص٤).
(٣) الزيادة من ط.
(٤) قوله: «إن من الحزم أن يتصفح أحوال حاشيته وأعوانه..»، قال الجاحظ: «ومن أخلاق الملك السعيد البحث عن سرائر خاصته وحامته - بالحاء - أي الخاصة - وإذكاء العيون عليهم خاصة وعلى الرعية خاصة»، (التاج في أخلاق الملوك ١٦٧).
(٥) قوله: «قيل في منثور الحكم: آفة الملوك.. الخ» أورد هذه الأقوال كلها مع غيرها الأمير أسامة بن منقذ وقال ما نصه: «قال أبو الحسن علي بن محمد الصغاني في كتاب الفوائد والقلائد في الاستعانة على حسن السياسة آفة الملوك..» (لباب الآداب ٦٧-٦٨)، وقال الشيخ أحمد محمد شاكر: «لم أجد لهذا الكتاب ولا لمؤلفه ذكراً في شيء مما بين يدي من المراجع»، (لباب الآداب حاشية ٦٧)، وقد أوردها عبد الواحد الآمدي بتقديم وتأخير ضمن حكم الإمام علي رضي الله عنه، (غرر الحكم ١٣٦-١٣٧)، وهذه الأقوال وردت غير منسوبة في (أحاسن المحاسن ١٦٣).
(٦) غ، ط: الملك، ومن أحاسن المحاسن: السلاطين.
(٧) غ: خبث.
(٨) في غرر الحكم: «آفة الرعية مخالفة الطاعة، آفة الورع قلة القناعة»، وفي أحاسن =

وآفة الجند مخالفة القادة[١].
وآفة الرعية ضعف السياسة[٢].
وآفة العلماء حب الرياسة.
وآفة القضاة حب الطمع[٣].
وآفة العدول قلة الورع.
وآفة الملك تضاد الحماة[٤].
وآفة العدل ميل الولاة[٥].
وآفة الجرىء إضاعة الحزم[٦].
وآفة القوي استضعاف الخصم.
وآفة المجد عوائق القضاء[٧].
وآفة المشاورة انتقاض الأراء[٨].
وآفة المنعم قبح المن[٩].
وآفة المذنب سوء الظن[١٠].

= المحاسن: «آفة الأمراء، إضاعة الحزم» وليست في لباب الآداب، وقد قدمت في ط على ما قبلها.

(١) ورد في غرر الحكم بعدها: آفة الرياضة غلبة العادة.

(٢) في غرر الحكم ولباب الآداب: آفة الرعية مخالفة الطاعة. ومن لباب الآداب بعدها: وآفة الزعماء ضعف السياسة.

(٣) في غرر الحكم: آفة القضاء الطمع، وفي لباب الآداب شدة الطمع، وفي أحاسن المحاسن بعدها: آفة الفقهاء قلة الورع.

(٤) في لباب الآداب: آفة العدل ميل الولاة، وآفة الملك تضادد الحماة، وفي غرر الحكم: آفة الملك ضعف الحماية، آفة العهود قلة الرعاية، آفة النقل كذب الرواية، وفي أحاسن المحاسن: آفة الملك اختلاف الأراء فيه.

(٥) غرر الحكم: آفة العدل الظالم القادر.

(٦) لباب: آفة الحرب، الغرر: آفة الشجاعة إضاعة الحزم، أحاسن: آفة الأمراء إضاعة الحزم.

(٧) غ: القضاة والتصحيح من أحاسن المحاسن، ومن ط. وقد سقطت هذه العبارة وما بعدها من لباب الآداب.

(٨) غ: المعد والتصحيح من غرر الحكم وأحاسن المحاسن: آفة الحمد اختلاف الأهواء.

(٩) غرر الحكم: آفة السخاء المن، وفي أحاسن المحاسن آفة المنعم سرعة المن.

(١٠) غرر الحكم: آفة الدين سوء الظن، وفي أحاسن المحاسن: آفة الحمد حسن الظن، وآفة الحزم شتات الآراء.

وآفة الزعماء قلة السياسة[١] (٥٣آ)

وليس أسبابُ الفسادِ في هؤلاء الأصنافِ مقصورةً على هذه الأوصافِ، حتى لا يتعداها إلى ما سواها، وإنما ذُكِرَ الأغلبُ من فسادِ كل صنفٍ، وإن جازَ أنْ يفسدَ بغيره، فيتوصل إليه بتصفحِهِ، وسبرِه.

[حسم مواد الفساد]:

فإذا وقفَ الملكُ على موادِّ فسادِهم، وأسبابِ آفاتِهم، قطعَ أسبابَها، وحسمَ موادَّها؛ لتسلمَ له مصادرُ الأمورِ، فتستقيمَ مواردُها، ويأمنَ نتائجَ التقصيرِ، فتحمدَ عواقبُها، فإنَّ مبادىء[٢] الأمور أُسٌّ إنْ رَسَا تشيّد، وإنْ وهي تقوّض.

* * *

(١) في غرر الحكم ولباب الآداب: آفة الزعماء ضعف السياسة، وقد سقطت من ط.
(٢) غ: فبان مباد.

[الفصل السادس والعشرون
[دوام تفقد الملك الأحوال العامة]

[١ - تفقد الملك سيرة حماة البلاد وولاة الأطراف]:

وليكنْ كثيرَ الاعتناءِ بسيرِ حماةِ البلادِ، وولاةِ الأطرافِ، الذين فوّضَ إليهم أماناتِ ربِّه، واستخلفَهم على رعايةِ خلقهِ، فيندبُ لذلكَ من أمنائِه من حازَ خصالَ التفويضِ، واستحقّ بحزمِهِ وشهامتِهِ الولايةَ والتقليدَ.

قال أردشيرُ [بن بابكَ من بعضِ حكمه][١]:

لا يصلحُ لسدِّ الثغورِ، وقودِ الجيوشِ، وتدبيرِ الجنودِ[٢]، وحراسةِ الأقاليمِ[٣]، إلّا من تكاملتْ فيه خمسُ خصالٍ:

حزمٌ يتيقّنُ به عند مواردِ الأمورِ حقائقَ مصادرِها.

وعلمٌ يحجزُه عن[٤] التهوّرِ في المشكلاتِ، إلّا عند تجلّي فرصتها.

وشجاعة لا تنقصها[٥] الملمات بتواتر حوائجها [وعظم هولها][٦]

وصدق في الوعد والوعيد، يوثق منه بالوفاء عليهما[٧].

---

(١) الزيادة من ط.
(٢) ط: وتدبير الخيول.
(٣) ط: الإقليم
(٤) ط: عند التهور.
(٥) غ، ط: لا تقضها، والتصحيح من مروج الذهب.
(٦) الزيادة من ط.
(٧) ط: عليها.

وجود يهون عنده تبذير الأموال عند ازدحام السوّال عليه[١].

وأقول[٢]:

إن كمالها [فيه مقيد][٣] باعتبار خصلتين معها:

إحداهما: أن يقدم مصالح ما تقلده على مصالح نفسه؛ لعود صلاحه إليه، ورجوع فساده عليه.

والثانية: أن يرى [أن][٤] اكتساب الأجر والحمد أفضل مكاسبه[٥]، فإن لم يجذبه[٦] الميل إلى نفسه [فهو][٧] موثوق بخيره، مأمون[٨] على غيره، [وإلّا][٩] فلا خير فيه.

---

(١) قول أردشير: «لا يصلح لسد الثغور، وقود الجيوش.. الخ» أورده المسعودي ونسبه إلى هرمز بن سابور بلفظ: «كتب إلى بعض عماله: لا يصلح لسد الثغور، وقود الجيوش، وإبرام الأمور، وتدبير الأقاليم، إلّا رجلٌ تكاملت فيه خمس خصال.. وعلم يحجبه.. يوثق بوفائه بها، وجود يهريق عليه تدبير الأموال في حقها»، (مروج الذهب ١ / ١٥٥).
وقد ورد في هذا المعنى قولهم «ينبغي أن يجتمع في قائد الجيش: وثبة الأسد، واستلاب الحدأة، وختل الذئب، وروغان الثعلب، وحملة الخنزير، وبكور الغراب، وحراسة الكركي..»، (التمثيل والمحاضرة ص١٥٣)، وجعلها الثعالبي عشر خصال (برد الأكباد في الأعداد ١٤١)، وأن القائد العظيم ينبغي أن تكون فيه خصال من أخلاق الحيوان: شجاعة الديك، وتحنن الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وختل الذئب، وكان يقال من صفة الرجل الجامع: له وثبة الأسد، وروغان الثعلب، وختل الذئب، وجمع الذرة، وبكور الغراب»، (عيون الاخبار ١ / ١١٥)، وانظر ذلك وأنه من أقوالهم في (العقد الفريد - تحقيق العريان - ٢ / ١١١).
(٢) ط: قال أقضى القضاة: وأقول...
(٣) الزيادة من ط، وفيها مقيد بخصلتين أن يقدم.
(٤) الزيادة من ط.
(٥) ط: أفضل من اكتساب المال.
(٦) ط: لم يجتذبه.
(٧) الزيادة من السياق وليست من غ، أو ط.
(٨) غ: ومأمون.
(٩) الزيادة من السياق وليست من غ، أو ط. وقد سقطت العبارة (فلا خير فيه) من ط.

فهذه خصال إن لم يَحُزْها (٥٣ب) سائس الملك، ومدبر الرعايا، كان اختلال عمله بحسب اختلال كماله؛ لأن لكل ثلمٍ مَسَدًّا، ولكل وَهْيٍ[١] مردّاً.

وقد[٢] يقترن بهذه الخصال ما يختلف باختلاف الزمان، فربما حمد في بعض الأحيان اللين واللطف، وفي بعضها الخشونة والعنف، فإن لكل وقت[٣] حكماً، ولكل قوم تدبيراً.

وقد وصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخلاق الولاة فقال:

لا يصلح لمن يلي أمر الأمة إلّا أن يكون حصيفَ العقدة[٤] قليل العزة، بعيد الهمة، شديداً من غير عنف، ليناً من غير ضعفٍ، جواداً من غير سرفٍ، لا يخشى في الله لومة لائم[٥].

وهذه الأخلاقُ التي وصفها يجبُ أنْ تكونَ لازمةً في كل والٍ، مطبوعةً في كل مدبّرٍ، [وقد ذكرَ الإياديّ[٦]، مع إعرابيته، أوصاف الولاة في شعره][٧] فقال: [من البسيط]

---

(١) الوهي: يقال وهي السقاء يهي بالكسر وهيا تخرّق وانشق.

(٢) ط: وقال أقضى القضاة في أثناء كلامه: فربما حمد في بعض الزمان اللين.

(٣) ط: لكل زمان.

(٤) غ: حصيف العقد. والعقدة ما عقد عليه من رأي وعزم.

(٥) قول عمر: «لا يصلح لمن يلي أمر الأمة إلا أن يكون..» أخرجه ابن سعد وأبو عبيد والخطيب في رواة مالك، وابن عساكر، عن ابن عباس بأسانيد وألفاظ، (انظر كنز العمال جـ٥ ص٤٣٦-٤٤٠، رقم الحديث ٢٤٧٣، ٢٤٨٠، ٢٤٨٤)، وقد أورده الماوردي في كتابه أدب القاضي ١ / ٢٥٤، وانظره في العقد الفريد ١ / ٢٨، وعيون الأخبار ١ / ٩، والبيان والتبيين ٣ / ٢٥٥، وسراج الملوك ٦٢، ١٣٩، ١٤٠، وقد نسبت أقوال بمعناه إلى أفلاطون من السعادة والإسعاد ٢١٤، وإلى زياد بن أبيه في لباب الآداب ٣٥ وإلى علي رضي الله عنه في غرر الحكم ٢٤٦، وإلى المهدي في التمثيل والمحاضرة ١٣٨.

(٦) الإيادي: هو لقيط بن يعمر الإيادي، الشاعر المشهور الذي عاصر كسرى أنوشران، وقد طبع ديوانه بعناية زميلنا الدكتور خليل ابراهيم العطية، (بغداد ١٩٧٠)، وفي مقدمته تعريف بالشاعر ومصادر ترجمته.

(٧) الزيادة من ط، وفي غ: قال الشاعر.

[و] [١] قـلّدوا أمـرَكـم للهِ درّكـم
رحبَ الـذراعِ [٢] بـأمـرِ الحـربِ مضـطلَعا

لا متـرفـاً إنْ رخـاء [٣] الـعيشِ سـاعـدَه
ولا إذاَ عضَّ [٤] مـكـروهٌ بـهِ خَـشَـعـا

مـا زالَ يـحلبُ دَرّ [٥] الـعيشِ [٦] أشـطرَهُ
يـكـونُ مـتّـبِـعـاً يـومـاً ومـتّـبَـعـاً

حـتى استمـرّتْ [٧] عـلى شـزرٍ مـريـرتُـه
مستحكمَ الرأيِ [٨] لا قحماً [٩] ولا ضَرَعاً [١٠]

---

(١) الزيادة من ط، ومن مصادر التخريج وفي بعضها: فقلدوا.

(٢) في حماسة الظرفاء: رحب الجنان، وقوله رحب الذراع: أي واسعه (الكامل ٣ / ٤٠٦).

(٣) غ: رجاء.

(٤) ط: غضّ، حماسة الظرفاء: حل.

(٥) غ: ذر، ط: دى، وفي مختارات ابن الشجري: ما انفك يحلب هذا.

(٦) في عيون الأخبار ونهاية الأرب والأحكام السلطانية: در الدهر، وفي حماسة الظرفاء ومختارات ابن الشجري والكامل: هذا الدهر.

(٧) في شرح نهج البلاغة والأحكام: حتى استمر. واستمرت مريرته: أي فتلت فتلاً شديداً، وقوله، : على شزر أي فتل مقلوبا، ويقال شزرت الحبل، إذا كررت فتله بعد استحكامه راجعاً عليه، (الكامل ٣ / ٤٠٧).

(٨) في عيون الأخبار مستحكم السن، وفي حماسة الظرفاء: صعب المقادة، وفي الكامل: مر العزيمة.

(٩) في غ، وحماسة الظرفاء: قمحاً وفي ط، والأحكام السلطانية وعيون الأخبار فخمًا، وفي شرح نهج البلاغة قحم - بالرفع - وفي الكامل: لارثًا، وما أثبتناه عن نهاية الأرب ومختارات ابن الشجري والكامل. والقحم: الكبير السن (قاموس قحم ٤ / ١٦٣)، وقيل: آخر سن الشيخ، (الكامل ٣ / ٤٠٧).

(١٠) قوله: «وقلدوا أمركم..» الأبيات استشهد الماوردي بها في الأحكام السلطانية (ص١٦)، دون أن ينسبها إلى قائل. والأبيات من القصيدة التي كتب بها الشاعر لقيط بن يعمر الأيادي إلى قبيلته (إياد) وهم بالجزيرة حين وجه إليهم كسرى أنوشروان جيشاً كثيفاً على أثر نهوضهم على امرأته، وأخذهم لها مع أموال كثيرة لها في قصيدة طويلة وقعت في ٥٤ بيتاً ومطلعها: .

يـا دار عمرة من محتلها الجـرعـا هـاجت لي الهم والأحـزان والـوجعـا =

ثم عليه أن يحفظ مراتبَ جماعتهم، وينزلَ كل واحد منهم المنزلةَ التي يستحقها بكفايته[1] وحسن أثره. وإن حفظ المراتب في المملكة كحفظ السمع والبصر؛ لعظم المنافسة فيها، وانتشار العداوة منها، وقد تدلس عليها كتدليس البهرج، ويترشج لها من ليس لها كفواً، ولا من أهلها غاصباً، أو مغالطاً، فتصفر منها أيدي أربابها وينفذ فيها حكمُ غصابِها، وليس كلُّ من تعظّم بعظيمٍ، ولا كل من تنسّك بناسكٍ، ولا كلّ من تسوّدَ بسيّدٍ، والناسكُ غيرُ المتناسِك، (٥٤آ) والشريفُ غير المشرّف، ولا خيرَ في مملكةٍ صارَ الرؤوس فيها أذناباً، والأذنابُ فيها رؤوساً.

عهد بعضُ ملوكِ الفرس إلى ابنهِ فقال:

لا تكوننّ[2] في شيءٍ منَ الأشياءِ أشدَّ خشيةً منكَ من رأسٍ صارَ ذَنَباً، أو ذَنَبٍ[3] صارَ رأساً، أو يدٍ مشغولةٍ أحدثت فراغاً، أو كريمٍ حالَ إلى ضرٍّ، أو لئيمٍ صار إلى فرحٍ؛ فإنه يتولّدُ من تنقّلِ الناسِ عن حالاتِهم فسادٌ مضرٌّ[4].

= وكان تسلسل هذه الأبيات فيها على التوالي: ٤٢، ٤٣، ٤٥، ٤٧. انظر ديوان لقيط، (ص٤٦-٤٨)، وفيه إحالات إلى مظان القصيدة والأبيات، فلتراجع.

وقد وردت منسوبة إليه في عيون الأخبار ١ / ١٥، نهاية الأرب ٦ / ١٧، شرح نهج البلاغة ١ / ٤٠٨، ٤ / ٢٨٠، حماسة الظرفاء ١ / ٣٤-٣٥، رقم الحماسية ٢٨، وفيها إحالات إلى مظان القصيدة، والعقد الفريد - العريان - ٦ / ١١٨-١١٩، الكامل ٢ / ١٥٢، ٣ / ٤٠٦. وقوله: ضرعا: الضرع بالتحريك: الذليل والضعيف (مختار الصحاح، مادة ضرع ٣٠١)، والكامل ٢ / ١٥٢، ٣ / ٤٠٧.

(١) قوله: «وينزل كل واحد منهم المنزلة التي يستحقها بكفايته..» قال بطليموس: «ينبغي لأعوان السلطان أن يبدي كل واحد منهم عند سلطانه ما فيه من فضله ودينه ومروءته لشرفه بحسبه، وينبغي للسلطان أن يعرف أولياءه على منازلهم بقدر الذي عندهم من الفضل والدين والمروءة، ثم تكون منازلهم عنده واستعانته بهم على قدر الذي عند كل واحد منهم، من العناء والمنفعة»، (مختار الحكم ٢٥٧).

(٢) غ: (تكون) والصواب ما أثبتناه عن عهد أردشير، وقد سقطت هذه القطعة من ط.

(٣) غ: أو ذنباً.. أو يداً.. بالنصب.

(٤) قوله: «عهد بعض ملوك الفرس إلى ابنه فقال: لا تكوننّ في شيء..» إلى آخره، أورد الثعالبي بعض هذا العهد منسوباً إلى أردشير بلفظ: «أوحش الأشياء عند الملوك رأس صار =

وحفظ المراتب معتبر من وجهين:

أحدهما: في الولاية والتقليد.

والثاني: في الإكرام والتقريب.

فلا يتجاوز بأحدِهم قدرَ الاستحقاق في أحدهما؛ فإنه يطغى بالزيادة، ويستوحشُ من النقصان. وهذا أمرٌ يجب صرفُ الاهتمامِ إليه؛ لما في نظامِهِ من نضارةٍ، وغضارة[١]، وحفظِ مراتبه، وحشمتِهِ؛ إذ لا شيءَ أعظمُ إيحاشاً، ولا أكثرَ تنكراً أو فساداً من حطِّ مراتبِ الكفاةِ، ورفعِ السِّفْلة والدناةِ.

حكي أنّ أنوشروان وقّع إلى ولاة الحسبة[٢] من أعماله أن لا يدعوا[٣] أولاد السِّفلةِ أن يقعدوا[٤] في المكاتب، وأن يطردوا[٥] عن مجالس القضاة؛

= ذَنَباً، وذَنَبٌ صار رأساً»، انظر ثمار القلوب (ص١٧٨)، وفي التمثيل والمحاضرة له أيضاً (ص١٣٦)، وغرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص٤٨٣). ونجد هذا في عهد أردشير بلفظ: «فلا يكونَنَّ لشيء من الأشياء بأوحش منه من رأس صار ذنباً وذنب صار رأساً، أو يد مشغولة أحدثت فراغاً، أو كريم ضرير، أو لئيم مرح؛ فإنه يتولد من تنقل الناس عن حالاتهم أن يلتمس كل امرىء منهم أسنى من مرتبته، فإذا انتقل أوشك أن يرى أسنى مما انتقل إليه فيغبط وينافس، وقد علمتم أنّ من الرعية أقواماً هم أقرب الناس حالاً من الملوك، وفي تنقل الناس عن حالاتهم مطمعة للذين يلون الملوك في الملك، ومطغمة للذين دون الذين يلون الملك في تلك الحال، وهذا لقاح بوار الملك»، (عهد أردشير، ص٦٣-٦٤، رقم الفقرة ١٣).

ونجد مقاطع من هذه الفقرة في عين الأدب والسياسة (على هامش غرر الخصائص، ط القاهرة، ١٦٠) ونجد في التاج بلفظ: وكان أردشير.

(١) غ: غضارته وليست هذه القطعة في ط.

(٢) ط: الحبشة. وهو تصحيف والحسبة وظيفة اجتماعية مهمتها إزالة كل ما هو منكر وقد أصبحت في عهد المسلمين وظيفة دينية لها دورها في المحافظة على المصالح العامة، انظر مقالاتنا حول نظام الحسبة في الإسلام في مجلة الرسالة الإسلامية، العدد ٢٩، ٣١، ٣٧.

(٣) ط: لا تدعوا أولاد السفل.

(٤) ط: أن يقفوا.

(٥) ط: واطردوهم.

لأنهم متى ما تعلموا الجدال قدحوا في الدِّين، ومتى ما تمكنوا من أعمال السلطان عملوا في بوار[١] أهل البيوتات فقال [فيه][٢]: [من البسيط]

لله درَّ أنوشروانَ من ملكٍ
ما كانَ أعرَفهُ بالدونِ والسفلِ
نهاهم أنْ يَمَسُّوا بعده قَلَماً
وأنْ يروموا[٣] ركوب الخيل والإبل[٤]

وإذا حمد سعي صاحب في ولايته أقره على عمله؛ فإنه وإن حسُن أن ينقل الحمد من مدينة إلى أخرى وهو الأولى، حتى لا يستقر بهم وطن يأسَون إلى فراقه، ولا يفتتنون فيه ما يطيبون نفساً بتركه؛ فليس بصواب أن يُنقل والي المدينة، ولا صاحبُ الخراج، بل يكونُ على ولايته ما بقي على حميد سيرته. (٥٤ب) فإن أتى بمعصية، أو خيانة، صرف صرفاً لا ولاة بعده، إلا عن توبة وإقلاع، وكذلك في الحواشي والحكام.

والعلة في ذلك: أنه متى عرف من السلطان أنه يرى الصَّرْف والاستبدال، اعتقد كل وال أن أيامه قصيرة، فعمل لسوق يومه، ولم يلتفت إلى صلاح غده، واحتجن الأموال في صدر ولايته، وتأهب عليها لزمان عطلته، فإذا صرف عنها خلف البلاد على من بعده مختلة، وزاده الثاني اختلالاً على مثل حاله، ولا يلبث الإهمال حتى تخرب بمناهبة العمال.

وإذا سكنت نفس الناظر إلى أن أعماله مقرة عليه ما أقام على

---

(١) ط: في بوار أرباب البيوتات.

(٢) الزيادة من ط.

(٣) ط: وأن يديموا.

(٤) قوله: «حكي أن أنوشروان وقع إلى ولاة الحسبة..» إلى آخر القصة مع البيتين، أورد الثعالبي هذه الحكاية مع البيتين باختلاف، ونصها عنده كما يلي: «وكان يمنع أبناء العامة من التأدب ويقول: إن أبناء السفل إذا تأدبوا طلبوا معالي الأمور وإذا نالوها تحكموا في وضع الأشراف، وقد ذكر ذلك من نظمه فقال:

لله در أنوشروان من رجل ... ما كان أعلمه بالدون والسفل
نهاهم أن يمسوا بعده قلمًا ... كي لا يذلوا بني الأشراف بالعمل

(تاريخ غرر السير المعروف بكتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، ص٦٠٨).

نصيحته، وجرى على جميل سيرته، نظر فيها كنظر القِنى في عمارة ضياعهم وتميز خلاتهم، وفكره في صلاح غده قبل فكره في صلاح يومه؛ لعلمه ببقاء العمل عليه، وأن خير العاقبة وشرها عائد عليه، ومنسوب إليه، فتوفر نصحه واجتهاده، وعمَّ صلاحُهُ وعفافُهُ، وليكن نَزِهاً عن أموالهم وإن توفرت، غير طامع فيها وإن كثرت، ما لم تظهر منهم خيانة واحتجان؛ لأنهم قد يكسبون بجاه أعمالهم من مباحات الوجوه ما لا تبعة فيها عليهم، ولئن يكونوا ذوي أحوال وأموال يستعينون بها على العفة والأمانة أوْلى من أن يكونوا ذوي فاقة تضطرهم إلى الخيانة، فقد قيل:

لا أمانة لمحتاج[1].

وليعلم أنه متى طمِع منهم في اليسير أطمعهم في الكثير، وإن أخذ أموالهم جهراً بتأويل أخذوا منه أضعافها سراً بغير تأويل، فيظن أنه قد ارتفق بمال غيره، وهو قد أخذ بعض حقه، ويصير معدوداً من الظالمين، وهو مظلوم، ويصيروا معدودين في المظلومين وما منهم إلّا ظلوم، وإذا كف عنهم استكفهم، فناصف ونوصف.

قال بعض العلماء:
من طمع في أموال عماله، ألجأهم إلى اقتطاع أمواله[2].

وقال أنوشروان: (٥٥آ)
من خاف شرك أفسد أمرك[3].

---

(١) ط: لا أمانة لمحتاج وقيل: «من طمع في أموال عماله» أي بسقوط الكلام الذي بين القولين.

(٢) قوله: «قال بعض العلماء: من طمع في أموال عماله، إلخ»، أورده الأمير أسامة بن منقذ ضمن قول أبرويز الذي مرّ وهو قوله: «من اعتمد على كفاة السوء...» وبلفظه فلينظر في (لباب الآداب ٥٦)، وفي التمثيل والمحاضرة: «السلطان إذا قال لعماله: هاتوا فقد قال لهم خذوا» (ص١٣١).

(٣) قول أنوشروان: «من خاف شرك أفسد أمرك»، أورده الرخحجي منسوباً إليه بزيادة هي «فلا ترجو من لا يرجو خيرك، ولا تأمن من لا يأمن شرك»، وهو قول أردشير الذي سيأتي (انظر أحاسن المحاسن ١٤٧)، وسيأتي في معناه قولهم «من خاف إساءتك اعتقد مساءتك».

وقال أردشير:

لا ترجو(١) خير من لا يرجو خيرك، ولا تـأمن جانب من لا يـأمن جانبك»(٢).

فإن ظهر منهم على مال قد احتجنوه، وحق قد خانوه، طالبهم به مطالبة المدين المنصف، واستوفاه منهم استيفاء المحق المسعف، بعد إقامة حججه، وإظهار شواهده، ولا يستغنى بالقدرة عن إظهار الحجة ليكـون معذوراً وهم مذمومين، ومنصفاً وهم خائنين.

فإذا استوفى حقه، واسترجع ماله كان من وراء تأديبهم؛ تقويماً لهم واستصلاحاً لغيرهم.

وعلى حسب أقدارهم يكون التقويم.

وإذا وجد من بعض خدمه هفوة أو تقصيراً لم يأته عمداً، لم يأخذه بذنب الدهر وعوائق الزمان، مع حسن الثقة، وجميل الظن فيه؛ فليس من الزلل أمان، ولا إلى العصمة سبيل وقد قيل:

أي عالم لا يهفو، وصارم لا ينبو، وجواد لا يكبو(٣).

---

(١) لا ترجو كذا بالواو على النفي لا على النهي.

(٢) قول أردشير: «لا ترجو خير من لا يرجو خيرك..»، أورده الرخجي بعد القول الذي سبقه منسوباً إلى أنوشروان بلفظ «فلا ترجو من لا يرجو خيرك، ولا تأمن من لا يأمن شرك، فاجهل الناس بالزمان وأهله من اعتمد في أموره على من لا يأمل خيره ولا يأمن شره»، (أحاسن المحاسن ١٤٧)، وأورده في سراج الملوك (١٩٩-٢٠٠)، بلفظه دون عزو إلى قائل.

(٣) قولهم: «أي عالم لا يهفو، وصارم لا ينبو، وجواد لا يكبو»، نسبه الماوردي في أدب الدنيا والدين (١٦٣) إلى الحكماء وقد استشهد به ابن مسكويه ضمن حكم العرب وأمثالها السائرة بلفظ: «لا بد للجواد من كبوة، وللسيف من نبوة، وللحليم من هفوة» (الحكمة الخالدة ١٩٧)، وانظر أمثال أبي عبيد (ص٣)، بلفظ «إن الجواد قد يعثر»، والتمثيل والمحاضرة ٣٣٩، وعيون الأخبار ١ / ١٠٢. وبلفظ «لكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة ولكل عالم هفوة»، في أمثال أبي عبيد، ص١٣، ومجمع الأمثال ٢ / ١٨٧، رقم ٣٢٩٨، ونهاية الأرب ٨ / ١٧٦، ١٨١ من كـلام علي، وهـو في معنى قول الرسول صـلى الله عليه وسلم: «لا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة»، الذي سيأتي بعد قليل.

قال بعض العقلاء:

من كثرَ صوابُه لم يطَّرحْ لقليلِ الخطأ(١).

قال الشاعرُ(٢) [من الطويل]

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمّه
على شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المهذبُ(٣)

قال النبي عليه السلام:

«لا حليمَ إلّا ذو عثرةٍ، ولا حكيمَ إلّا ذو تجربةٍ»(٤).

---

(١) قوله: «من كثر صوابه لم يطرح لقليل الخطأ»، أتى به المؤلف من منثور الحكم، ولم ينسبه لقائل في أدب الوزير ٥٢، والأمثال والحكم، الورقة ٦٤ب، ونقله النويري عنه في نهاية الأرب ٦ / ١٣٧، وقد أورد ابن المقفع معنى هذا القول بلفظ « لا يمنعنك صغر شأن امرىء من اجتباء ما رأيت من رأيه صواباً واصطفاء ما رأيت من أخلاقه كريماً؛ فإن اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذي استخرجها»، (الأدب الصغير ٦٣).

(٢) قوله: «قال الشاعر..»، قلت هو النابغة الذبياني الشاعر المشهور بالاعتذاريات وديوانه طبع كثيراً. وفي ط: قال بعض الشعراء.

(٣) قول الشاعر: «ولست بمستبق أخاً لا تلّمه..»، أورده المؤلف في أدب الدنيا والدين ١٥٨، منسوباً إلى النابغة الذبياني وهو في ديوانه - باريس -٨٤، وصادر ٢٥، وضمن مجموع يشتمل على خمسة دواوين - المطبعة الوهبية - ١٤ والتمثيل والمحاضرة ٤٨، وعيون الأخبار ٣ / ١٦، ونهاية الأرب ٣ / ٦٣، ٢٦٢، ٨ / ١٧٦، أخبار النوابغ وآثارهم ٣٨٦، الإيجاز والإعجاز ٣٨، وخاصّ الخاص ٩٧، حماسة البحتري ٩٩، جمهرة أشعار العرب ٥٦، ٦١، لباب الآداب ٣٨٠، ٤٢٦، الفاخر ٣٨٦،، رقم ٤٥٠، والعقد الفريد - العريان - ٢ / ٣٦٥، المثل المقارن ١٤٧، العمدة ١ / ٩٧، كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ لابن السكيت بتهذيب الخطيب التبريزي ٥٠٩، ديوان المعاني ٢ / ١٩٦، شرح نهج البلاغة ٣ / ٢٣، ٤ / ٤٩٩، الموشح ٣٣، وقانون البلاغة لأبي طاهر محمد بن حيدر البغدادي منسوباً إليه - ضمن رسائل البلغاء - ٤٥٩، والتقنية للبندنيجي بتحقيق زميلنا الدكتور العطية - مطبوعة على الرونيو ص٥٣٥، وفيها تخريج. وقد أخذه زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر الوردي الشافعي فقال:

فمن ذا سواه في الورى لا تلمّه
على شعث أي الرجال المهذب

(ديوان ابن الوردي، مطبعة الجوانب - القسطنطينية ١٣٠٠هـ، ص١٧٠)، وقوله «أي الرجال المهذب»، عده ابن سلام في الأمثال، (أمثال أبي عبيد، ص٢)، ومجمع الأمثال ١ / ٢٣، رقم المثل ٦٥).

(٤) حديث: «لا حليم إلّا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة»، رواه الترمذي عن أبي سعيد =

وفي[1] تأويله وجهان:

أحدهما: أن معناه أنه لا يخلو حليم من عثرة، ولا حكيم أن يحتاج إلى تجربة.

والثاني: أن [لا] يكون حليماً، ولا حكيماً حتى تكثر عثراته وتجربته، فيصير - بعد كثرة التجارب والعثرات - حليماً حكيماً.

وإذا قطعت بعضهم عن الخدمة قواطع قطع، وظهرت بأعذارها، ووضح برهانها لم يكلفه فعل ما ليس في وسعه وطاقته؛ فقد رفع الله الحرج عن المعذور في حقه، وقد تقطع الملوك القواطع عن حقوق أنفسهم، وهم أقدر، فكيف بأوليائهم وخدمهم، وهم أعجز، وقد قال الشاعر[2]: [من البسيط]

مـا كـلّفَ اللهُ نـفـسـاً فـوق طـاقـتِـهـا
ولا تـجـودُ يـدٌ إلّا بـمـا تـجـدُ[3]

= الخدري من حديث حسن، (سنن الترمذي، كتاب البر، جـ٣، ص٢٥٥، رقم ٢١٠٢)، والإمام أحمد عنه (مسند الإمام أحمد ٣ / ٨، ٦٩)، والحاكم (المستدرك على الصحيحين ٤ / ٢٩٣)، وابن حبان في صحيحه، (الجامع الصغير ٢ / ٢٠٣)، وإسناده صحيح (التيسير بشرح الجامع الصغير ٢ / ٤٩٩)، وربما روي بلفظ «لا حليم إلّا ذو عـزة» كشف الخفاء ٢ / ٥٠٤ رقم ٣٠٦٠) وبلفظ «لا حكيم إلا ذو تجربة ولا حليم إلّا ذو عثرة»، كشف الخفاء ٢ / ٤٩٤، رقم ٣٠١٧)، و(المقاصد الحسنة ٤٩٥، رقم ١٣٠٣).

(١) ط: قال أقضى القضاة، وفي تأويله..

(٢) قوله: «قال الشاعر»، ذكر الماوردي أنه العقيمي (الأمثال والحكم، الورقة ١٤آ).

(٣) قول الشاعر: «ما كلف الله نفساً..»، ذكر الماوردي أن عمرو بن العلاء قال: «ثلاثة أبيات قالها أصحابها لم يعلموا ما خرج من رؤوسهم، منها قول العقيمي، وذكر البيت. وقال الفزاري.

ومن يلق خيراً يحمد الناسُ أمرَهُ ... ومن يغوِ لا يعدم على الغيِّ لائما

وقول الآخر:

أنا عائذ بالله من عدم الغنى ... ومن رغبة يوماً إلى غير مرغب

(الأمثال والحكم ١٤آ). وقد أورده ابن عبد ربه في قصة، قال: قال أبو هريرة ما وددت أنّ أحداً ولدتني أمه إلّا جعفر بن أبي طالب عليه السلام، تبعته ذات يوم وأنا جائع، فلما بلغ الباب التفت فرآني، فقال لي: ادخل، فدخلت ففكر حيناً فما وجد في بيته شيئاً إلّا نِحْياً - أي زقّاً خاصاً بالسمن - كان فيه سمن مرّ، فأنزله من رف لهم، فشقه بين أيدينا، فجعلنا نلعق ما كان فيه من السمن والرُّبّ - أي ثفله الأسود - وهو يقول: ما كلف الله =

[٢ - استخبار الملك عن رعيته وحاشيته والنائبين عنه]:

وإن الملك لجدير أن لا يذهب عليه صغير ولا كبير من أخبار رعيته، وأمور حاشيته، وسير خلفائه، والنائبين عنه في أعماله، بمداومة الاستخبار عنهم، وبث أصحاب الأخبار فيهم سراً وجهراً، ويندب لذلك أميناً يوثق بخبره، وينصح الملك في مغيبه ومشهده، غير شره فيرتشي، ولا ذي هوى فيوري أو يعتدي، لتكون النفس إلى خبره ساكنة وإلى كشفه عن حقائق الأمور راكنة؛ فإنه لا يقدر على رعاية قوم تخفى عليه[١] أخبارهم، وتنطوي عنه آثارهم، فربما ظنّ استقامة الأمور بتمويه الخونة، فأفضى به حسن الظن إلى فساد مملكته، وهلاك رعيته، وأن ينتهز العدو فرصة غفلته، فيستثير عن غوائل ضرره ما عساه يصعب، بعد أن كان سهل المرام، ويقوى بعد أن كان ضعيف القوام، فإن كبار الأمور تبدأ[٢] صغاراً.

قال بهرام جور[٣]:

لا شيء أضرُّ على الملكِ من استكفاءِ من لا ينصحُ إذا دبَّرَ، واستخبارِ من لا يصدقُ إذا خبّر[٤].

= نفساً.. البيت»، العقد الفريد ١ / ٢٧٤، ٣ / ١٠٦، ٣ / ١٣٧، وانظره أيضاً في التمثيل والمحاضرة (ص١٠)، وفي المستطرف بلفظ: لا كلف الله، مع بيت آخر هو قوله:

فلا تعد عدة إلا وفيت بها ... واحذر خلافَ مقالٍ للذي تعدُ

(١) غ: عليهم.

(٢) غ: تبدو.

(٣) بهرام جور: هو بهرام جور بن يزدجرد بن بهرام بن سابور، أحد ملوك الفرس. ولي بعد أبيه يزدجرد، بعد خلاف على توليته، وحكم ثلاثاً وعشرين سنة، انظر نبذة من سيرته وأخباره في غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ٥٣٩-٥٦٩، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ٤٩، ومروج الذهب ١ / ١٧٢، وذكر أن للفرس كتاباً مفرداً في أخبار بهرام جور، وحول ضبط حركات حروفه، انظر تثقيف اللسان ١٤١.

(٤) قول بهرام جور: «لا شيء أضر على الملك من استكفاء من لا ينصح..» قد ورد في لباب الآداب ٥٦، منسوباً إليه بلفظ، «لا شيء أضر بالملك من استخبار من لا يصدق إذا خبرّ، واستكفاء من لا ينصح إذا دبّر»، وبهذا اللفظ الأخير ورد في أحاسن المحاسن منسوباً إليه وفيه «ما شيء..»، وقد أورد المؤلف قولاً قريباً منه في المعنى المنسوب إلى بعض البلغاء بلفظ «لا تصطنع من خانه الأصل، ولا تستصحب من فاته العقل؛ لأن من لا أصل له يغش من حيث ينصح، ومن لا عقل له يفسد من حيث يصلح، وذلك مما يعسر توقيه ويفوت تداركه وتلافيه»، (أدب الوزير، ص٦).

ولم يكن في طلب الأجناد أشدَّ بحثاً عنها من أردشير بن بابك في آل ساسان، ومن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلفاء الإسلام؛ فإنه كان علمهما بأحوال العامة كعلمهما بأحوالِ الخاصة، وعلمُهما بمن بعد عنهما كعلمهما بمن قرب منهما. وبه استقامت سيرتهما، وظهرت حرمتهما.

وإذا كان باحثاً على الأخبار، مطلعاً على غوامض الأسرار، جمع في الاستخبار بين معروف مجاهر يكون به في الناس محذوراً، وبين مجهول مساتر يصير به واثقاً خبيراً، لا يتعارفان فيتواطآن، انكشف له غطاء الغفلة، وانجلت شُبَهُ الحيرةِ، فساس الأمور (٥٦آ) بثقته وبصيرته، وحرس الرعية بيقظته وصدق عزيمته، وتهيّب أعوانُه فعلَ الخير فاستقاموا، وتجنبوا[1] قبح المكاسب فأنصفوا[2]، ووثقت الرعية بكفّ العوادي[3] عنهم فأمنوا.

وإذا أنس بمطالعة الأخبار، استلذ غرائبها واستمد فوائدها.

وقد قال المنصور رضي الله عنه:

عجبت للسلطان الذي لا يتخذ بقراءة الأخبار لهواً بماذا يلهو؟ وللمدبر الذي لا يعلم ما حدث في عمله كيف يمضي تدبيره؟

قال بعض العلماء:

إذا لها السلطان عن الأخبار، ولم يله بها، وانصرف عنها، ولم ينصرف إليها، فاسم العجز أولى به من اسم الحزم، والتقصير عليه أغلب من الاستيفاء[4]، وجهل الواجب أبيَنُ فيه من علم الصوابِ.

ويجب أن تكون عنايته بأخبار من بعد عن حضرته كعنايته بأخبار من قرب منها، بل ربما كان أهم؛ لأن بعد الدار يبسط أيدي الظلمة، فإذا وافق بعدُ دارِهم قلةَ الاستخبارِ عن أحوالهم أمنوا في اتباع أهوائِهم، وسكنوا إلى

---

(١) غ: تحببوا.
(٢) غ: فانصافوا.
(٣) غ: الغوادي.
(٤) غ: الاستبقاء

الغفلة عن مذموم أفعالهم، فكانت أيديهم مبسوطة في الرعايا، وأهواؤهم مخلةً في القضايا، وربما أفضى ذلك إلى فسادهم في الطاعة لقبح آثارهم ومذموم أفعالهم؛ فإن المسيء مستوحش، والمهمل مسترسل، فكم من عصيان كان هذا بدأه، وانقراض ملك كان هذا بدره، وقد قيل:

ليس بين الملك وبين أن يملك رعيته أو تملكه إلّا الحزم [والتواني][(١)].

ولا يغترر بمن سداده في حسن الثقة به، ويترك الاستخبار عن حاله؛ تعويلاً على من يقدر من سداده، فربما يصنع في الأول، ويغتر في الآخر؛ فإن تقلب الزمان يغير أهله، فربما أفسد الصالح، وأصلح الطالح. فما تبقى الدنيا على حالة، ولا تمنع من استحالة.

وإذا أخبر بمنكر لم يستعجل المؤاخذة والإنكار[(٢)]، ويتّبت لكشفه حتى يقف على حقه من باطله، فما كل مخبر يصدق في (٥٦ب) خبره.

وإذا عرف بالأناة للكشف، لم يخبر إلّا بالصدق، ولم يعاقب إلّا المستحق.

قال الشاعر: [من الطويل]

---

(١) الزيادة من مصادر التخريج وليست من غ، ولا من ط، وقوله: «ليس بين الملك وبين أن يملك رعيته..» نسبه الأمير أسامة بن منقذ إلى معاوية بلفظ «قال معاوية رحمه الله لعمرو بن سعيد: ما بين أن تملك الملك رعيته وبين أن يملكها إلا الحزم والتواني»، (لباب الآداب ٣٥)، ونسبه الطرطوشي إلى معاوية أيضاً وجاء به بلفظ: «ليس بين أن يملك السلطان رعيته أو تملكه إلا الحزم والتواني»، قال: «وكماله أمران: شدة من غير إفراط، ولين من غير امتهان» (سراج الملوك ٥٧)، وبلفظ لباب الآداب نفسه في السعادة والإسعاد ٢٩٤، منسوباً إلى معاوية أيضاً. وفي نهاية الأرب (٦ / ٤٥)، من أقوال عبد الملك إلى ابنه الوليد بلفظ «يا بني اعلم أنه ليس بين السلطان وبين... إلّا حزمٌ أو توانٍ»، والقول بلفظه من عيون الأخبار ١ / ٣٣، غير منسوب لقائل وهو فيه بلفظ «... إلا حزم أو توانٍ».

(٢) قوله: «لم يستعجل المؤاخذة والإنكار..» في هذا المعنى قال بطليموس: «ينبغي لذي السلطان العالم إذا رأى الذنب من أصحابه أن لا يعجل عليهم»، (مختار الحكم).

تَـأَنَّ ولا تـعـجـلْ بـلومِـكَ صـاحـبـاً
لـعـلَّ لـه عـذراً وأنـتَ تـلومُ[١]

[٣ - مراعاة أخبار البلاد المتاخمة وملوكها]:

ولئن كان من حقوق ما استرعى من بلاده أن يتعرف أخبار أعماله وعماله، فمن حقوق السياسة أن يراعى أخبار ما تاخمها من بلاد وملوك يتصل به خيرهم وشرهم، ويعود عليه نفعه وضرهم؛ لأن الصلاح والفساد يسريان فيما جاوراه، وربما روصد فاعتقل بالاهمال، وعوجل بالاسترسال، فيحم عليه الأعداء، ويحجم[٢] عنه الأولياء؛ لأن للغفلات[٣] فرصاً ينتهزها المستيقظ من اللاهي، ويدركها المتحفظ من الساهي؛ لأن الفرصة لمن واثبها بحزمه، وسابقها بعزمه، فليستدفع بوادر الغفلة بالاستخبار، ويتحذّر منها بالاستظهار، ولا يغفل فيستغفل، ويهمل فيستعذر؛ ليحرس ملكه، ويحوط رعيته؛ فإنه لم تطل مدة الملك إلّا لمن يتيقظ[٤] ويتحفظ.

---

(١) قول الشاعر: «تأن ولا تعجل بلومك صاحباً..»، ورد غير منسوب في الأمثال والحكم (الورقة ٥٢ب)، ومجمع الأمثال ٢ / ١٩٢، رقم ٣٣٣٥ وقد ورد شطره الثاني مضمناً في قول الشاعر:

إذا ما رأيت الماء يشربه صد عليل ويستمريه وهو وخيم
فدعه ولا تحزن بلومك قلبه لعلّ له عذراً وأنت تلوم

(انظر زهر الربيع في المثل البديع ١٠٢).

وقد ورد هذا الشطر أيضاً في بيت آخر لمنصور بن الزبرقان النمري بلفظ:

لعلّ له عذراً وأنت تلوم وكم لائم قد لام وهو مليم

فانظره في التمثيل والمحاضرة ٨٣، والزهرة النصف الأول ١٤٩، وطبقات الشعراء لابن سلام ٢٤٧، بلفظ «لعلّ لها عذراً»، وفي نهاية الأرب ٣ / ٨٦، والبيان والتبيين ٢ / ٣٦٣، وأنه لمسلم بن الوليد. وأورد ابن مكي هذا الشطر وأنه مما تلحن فيه العامة فيقرأ «عذرٌ» بالرفع (تثقيف اللسان ١٠١)، وفيها تخريج، ونقل محقق عن ابن هشام اللخمي من المدخل، أن البيت لدعبل الخزاعي (حاشية ص١٠١، من تثقيف اللسان)، وهذا الشطر من المحاسن والمساوىء ٢ / ٥٣٦ غير منسوب لأحد.

(٢) غ: واحجم.

(٣) غ: الغفلات.

(٤) غ: تيقظ.

وقد ذكر الأوائل في مواعظ الملوك: أن الملك تطول مدته إذا كان فيه أربع خصال:

إحداها[١]: أن لا يرضى لرعيته ما يرضاه لنفسه.

والثانية: أن لا يسوف عملاً يخاف عاقبته.

والثالثة: أن يجعل ولي عهده من ترضاه رعاياه لا من تهواه نفسه.

والرابعة: أن يفحص عن أحوال رعيته[٢] فحص المرضعة عن منام رضيعها.

[٤ - حذر الملك قبول السعاية في أصحابه]:

ومما ينبغي للملك أن يحذره قبول السعاية في أصحابه، فذلك يوحش الناصح، ويؤمن الخائن، ويفتح للسعادة أبواب الرشا.

وليعلم أن الساعي لم يحمله على سعيه إفراط نصحه لسلطانه، وإنما يفعله إما حسداً لمن سعى به وطلبا للتشفي به، وإما تعرضاً للكسب به، وإما (٥٧أ) التماساً للحظوة عند السلطان.

فإذا شرع في السعاية أعطى الملك الرشوة، فأدخل عليه الشبهة، حتى يتصور الأمين بصورة الخائن، والمحسن بصورة المسيء، فتقل[٣] ثقته بأصحابه، وإذا قلت ثقته بهم أوحشهم، وإذا أوحشهم خافهم، فيكون إضراره بمن سعى إليه أكثر [من] إضراره بمن سعى به.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«إياك ومهلك الثلاثة».

قيل: وما مهلك الثلاثة؟.

---

(١) غ: أحدها.
(٢) غ: عن رعيته.
(١) غ: فيقل.

قال:

«الذي يسعى بأخيه إلى سلطانه فيهلك نفسه، وسلطانه، وأخاه»[١].

[وروي عن النبي عليه السلام انه قال:

«شر الناس المثلث» يعني الساعي][٢].

قال بعض البلغاء:

الساعي كاذب لمن سعى إليه وخائن لمن سعى عليه[٣].

ووقع المنصور في رقعة منتصح[٤]:

تقربت إلينا بما باعدك[٥] من الله عزَّ وجلَّ، ولا ثواب عندنا لمن آثرنا عليه.

وإذا حسم قبول السعاية في أصحابه أكذب السعاة وأخلص نيات الولاة، وتصفح أحوالهم بدلاً من قبول السعاية فيهم. وليوقظ عزمه في قلة الغفلة فيهم، فإذا علموا أنه ليس يخفي عليه من أفعالهم خافية، أقلع الخائن عن خيانته، وازداد الناصح نعمًا في ولايته، وعدل [عن][٦] التكسب بها إلى ما تستطاب جدواه، وتحمد عقباه، وصلح به الفريقان، مع استقامة الملك، وإخماد السعاية.

---

(١) حديث: «إياك ومهلك الثلاثة...» رواه المبرد بلفظ «لعَن الله المثلث، قيل وما المثلث؟ قال: الذي يسعى بجاره إلى سلطانه فقد أهلك نفسه وجاره وسلطانه» (الفاضل ص١٧).

(٢) الزيادة من ط وحديث «شر الناس المثلث» مر الآن.

(٣) قول بعض البلغاء: «الساعي كاذب...» ورد في مختار الحكم (ص١٩) منسوباً إلى هرمس وهو فيه بلفظه إلا أن فيه «كاذب إلى من ...وخائن لمن سعى فيه» وفي غ: وخائن لمن سعى إليه والصواب من ط.

(٤) ط: مستنصح.

(٥) غ: أبعدك.

(٦) الزيادة من السياق وليست في غ وقد سقطت الفقرة كلها من ط من قوله: وإذا حسم قبول السعاية... إلى قوله قيل في منثور الحكم: من فرطات العجز...إلخ. في الصفحة التالية.

وقيل:

انظر إلى المتنصح إليك، فإن دخل من جهته مضار الناس، فلا تقبل نصيحته، وتحرز منه، وإن دخل من جهته العدل والصلاح فاقبلها واستشره.

[٥ - مراقبة أحوال النقود وأمر جبايتها]:

وليعلم الملك أن الأمور التي يعم نفعها إذا صلحت، ويعم ضررها إذا فسدت أمر النقود من الدرهم والدينار، فإن ما يعود على الملك من نفع صلاحها لسعة دخله وقلة خرجه أضعاف (٥٧ب) ما يعود من نفعها على رعيته.

قيل في منثور الحكم:

من فرطات العجز ترك الأفضل وهو مباح[١].

فإن سامح في غشها وأرخص في مزج الفضة بغيرها، لم يف نفع صلاحها بضرر فسادها؛ لأنه إذا خلط الفضة بمثلها، وجعل في كل عشرة خمسة خرقاً وخمسة غشاً، وأمر أن تؤخذ بقيمة الفضة، كان محالاً كما لو رام أخذ النحاس بالذهب.

وإن رام أن تؤخذ بقيمتها لم يجد في ذلك نفعاً، وكأنه غير مكيالاً ووزناً مع فساد الفضة وخسران العمل، ثم إذا طال مكثها وكثر لمسها قبحت عند الناس، وتجنبوا قبض قبيحها، ورغبوا في طريها ومليحها، وبهرج أصحاب اللبس عليها بضرب كثير الرش، ربما كان أحسن من عتيق تلك، فتفسد النقود، ويتجنب الناس قبض الدراهم، ويمنعون من بيع الأمتعة إلا بالعين وإن كان سليمًا.

وإن كان كالورق في الغش، عدل الناس عن مطبوعها إلى الفضة الخرق، والذهب الخلاص، وصار أَدْخَالُ الناس أصولَ أموالهم، واستحدثوا

(١) قولهم: «من فرطات العجز ترك الأفضل وهو مباح» ذكره الماوردي في كتابه الأمثال والحكم (الورقة٥٨ب) بلفظه غير منسوب لقائل فيه.

لمعاملات[١] المهن نوعاً من غير النقود المألوفة يدفعون به الأقوات، وينالون به الحاجات، وبطلت معاملات الناس، فانتهك المستور المرق، ولم تصل الأمتعة والأقوات إلى أهل القدرة، وأرباب الأموال الجمة، فعند ذلك تدعوه الحاجة إلى تغيير الضرب.

فإن غيّر بمثله كانت حالهما واحدة، وكان حكمه في المستقبل حكمه في الأول.

وإذا عرف من السلطان تغير ضربه في كل عام، عدل الناس عن ضربه إلى ضرب غيره حذراً من الوضيعة والخسران، وكان عدولهم إلى ضرب غيره موهناً لسلطانه.

و[إن] كان النقد سليًا من غش، ومأموناً (٥٨أ) من تغيير، صار هو المال المدخور، فدارت به المعاملات نقداً ونَساءً، فعمّ النفع، وتم الصلاح.

وقد كان المتقدمون يجعلون ذلك دعامة من دعائم الملك.

ولعمري إن ذلك كذلك؛ لأنه القانون الذي يدور عليه الأخذ والعطاء، ولست تجد فساده في العرف إلا مقترناً بفساد الملك؛ فلذلك صار من دعائم الملك.

وليعلم الملك أن من أموال السلطنة شرعية، قد قدر الشرع مقاديرها، وبين وجوه مصرفها، وجعلها وفق الكفاية، وأغنى عما دعا إلى استزادة.

قال[٢] النبي عليه السلام:

«نزلت المعونة على قدر المؤونة»[٣].

---

(١) غ: المعاملات.

(٢) ط: روى عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «نزلت المعونة...».

(٣) حديث: «نزلت المعونة على قدر المؤونة» أورده الماوردي في كتابه الأمثال والحكم (الورقة٣ب-٤آ) بلفظ: روى قتادة عن عبد الله بن مسعود عن ابن عمر قال قال رسول الله (ص): نزلت المعونة على قدر المؤونة» وقد رواه الحكيم والبزار والحاكم في الكنى والبيهقي =

فليكن الملك عليها مقتصراً، ولأمر الله تعالى فيها ممتثلاً؛ فإنه نائب عن الكفاية فيها، زعيم بتولي مصالحهم بها.

فإن اتبع أمره في أخذها وعطائها، أجابت النفوس إلى بذلها طوعاً، ولم يلتمسها إلا مستحق، وكفى أن لا يطالب بالمحال، كما لم يطلبه، فسلم دينه، واستقام ملكه، ورضي جنده، وصلحت رعيته.

وإن تجاوز حكم الشرع في طلب ما لا يستحق، نفرت منه النفوس، فلم يجب إلى بذله إلا بالعنف الخارج عن قوانين السياسة، وعاد بالنقص بالحقوق الواجبة، وانفتحت عليه المطامع في المطالبة بما لا يجب، كما طالب به؛ لأن من جازف في الأخذ جوزف في الطلب، ومن ناصف نوصف، فلا يفي بزيادة أخذه بزيادة جزفه.

ثم هو بين نفور رعيته واشتطاط أعوانه، وليس مع هذين ملك يستقر.

فليحذر الملك مما حذره الله من تحيف عباده، وليمتثل أمره في مصالح بلاده، وليقم رعيته مقام عباده وحشمه اللائذين به وبكنفه، والداخلين في كفالته، في ارتياد موادهم، وانتظام اكتسابهم وكف الأذى عنهم، فهم من أمانات الله (٥٨ب) التي استودعه حفظها، وكفله القيام بها، فلا يهمل مراعاة أمانته، ولا يغفل عن القيام بحقه، فيصيروا رعية قهر، وفرية دهر، يستنفد أحوالهم تحيف السلطان، وجوائح الزمان، فسيؤاخذ بهم مع فساد ملكه.

= في شعب الإيمان عن أبي هريرة في حديث صحيح (الجامع الصغير ١ / ٨٥) بلفظ: «إن المعونة تأتي من الله للعبد على قدر المؤونة، وإن الصبر يأتي من الله على قدر المصيبة» وانظر التيسير ١/٣٠١، وله ألفاظ أخرى، انظر المقاصد الحسنة ١٢٨ رقم ٢٥٣ وكشف الخفاء ١ / ٢٩٦ رقم ٧٨٢ وروى موقوفاً على علي (غرر الحكم ٤١) بلفظ: المعونة تنزل من الله على قدر المؤونة» وأخرى بلفظ «تنزل من الله المعونة...» (ص ١٥٣) وبلفظ «على قدر المؤونة تكون من الله المعونة (٢١٥) وفي شرح نهج البلاغة (٤ / ٣٠٩) بلفظ «تنزل المعونة على قدر المؤونة» وانظر كتاب ألفي كلمة للإمام علي ص ٢٠ رقم ٣٩٣)، (ص ٤٠ رقم ٨٨٨، ص ٧٣ رقم ١٧٠٥) وعيون الأخبار (٣ / ١٨١) وروى موقوفاً على عمر بلفظ «فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية...» كتاب ألف كلمة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ص ٦٦ رقم ٦٥١).

قال النبي عليه السلام:

«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[١].

وكتب أمير المؤمنين عمر [بن الخطاب] رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري[٢] رحمه الله:

إن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته، وأشقاهم من شقوا به، وإنك إن ترتع يرتعْ عمالك، فيكون مثلك مثل البهيمة رأت أرضاً خضرة ونباتاً حسناً، فرتعت تلتمس، و[إنما][٣] حتفها في سمنها[٤].

---

(١) حديث «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» قطعة من حديث ابن عمر الذي رواه البخاري عنه في باب الجمعة من صحيحه (انظر صحيح البخاري ١ / ١١٠) وفي باب الجنائز (١ / ١٥٣) وفي باب الاستقراض (٢ / ٤٠) وفي العتق (٢ / ٥٦ مرتين) وفي النكاح (٣ / ١٦٨، ١٧١) والأحكام٤ / ١٥٨ ورواه في باب الوصايا (٢ / ٨٥) عن عمر ورواه مسلم في باب الإمارة من صحيحه (انظر صحيح مسلم بشرح النووي١٢ / ٢١٣) عن ابن عمر وكذا رواه الترمذي في الجهاد من سننه (٣ / ١٢٤ رقم١٧٥٧) وأبو داود عنه في الإمارة من سننه (٣ / ١٣٠ رقم٢٩٢٨) ورواه الإمام أحمد في مسنده (مسند أحمد ٢ / ٥، ٥٤، ٥٥، ١٠٨، ١١١، ١٢١).

(٢) أبو موسى الأشعري واسمه عبد الله بن قيس الصحابي المشهور، هاجر ثلاث هجرات، واستعمله الرسول (ص) على زبيد وعدن وساحل اليمن، واستعمله عمر على الكوفة والبصرة وعهد إليه بعهده المشهور (الدارقطني ٤ / ٢٠٦) توفي سنة ٥٠هـ انظر ترجمته ومناقبه في تهذيب الأسماء واللغات ١ / ٢ / ٢٦٨، ابن سعد ٢ / ٢ / ١٠٥ و٦ / ٩، الإصابة رقم٤٨٩٩، تذكرة الحفاظ رقم١٠ ومناقبه في السنن والصحاح. وفي العبر ١ / ٥٢ أنه توفي سنة ٤٤هـ.

(٣) الزيادة من ط ومصادر التخريج.

(٤) كتاب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه «إن أسعد الرعاة...» قد ورد بطوله وفيه تقديم وتأخير، وجاء قسمه الأخير في الوصايا الخالدة جمع وتحقيق عبد البديع صقر ومصطفى جبر (ط١ مطابع العروبة ١٣٨٦ ص٤٩) بلفظ: «...وقد بلغ أمير المؤمنين أنه قد فشت لك ولأهل بيتك هيبة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصب فلم يكن لها همة إلا السمن وإنما حتفها في السمن، واعلم أن للعامل مرداً إلى الله، فإذا زاغ العامل زاغت رعيته، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته والسلام» وانظرها في عيون الأخبار ١ / ١١، البيان والتبيين ٢ / ١٥٥، العقد الفريد ١ / ١٠٣، جمهرة رسائل العرب ١ / ٢٤٨-٢٥٠. وقد وردت تلك الرسالة بلفظ أقرب إلى ما هو مدون في المتن بلفظ «أما بعد فإن أسعد الرعاة =

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان أن يحمله على أخذ أموال السواد، فكتب إليه:

لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك، وأبق لهم لحوماً يعقدوا[١] بها شحوماً[٢].

قال وهب بن منبه:

أحسن الناس عيشاً من حسُن عيشُ الناسِ في عيشه[٣].

[٦ - الاهتمام بأمن السبل والمسالك]

وليهتم الملك كل الاهتمام بأمن السبل والمسالك، وتهذيب الطرق والمفاوز، لينتشر الناس في مسالكهم آمنين، ويكونوا على أنفسهم وأموالهم مطمئنين.

ولا يقتصر على حماية ما يستمده من بلاده وسواده؛ فلم يستقم أمر بلاد كانت المسالك إليها مخوفة، لأنها تفتقر إلى مجلوب إليها، ومجتلب منها؛ ليكثر جلبهم فيما ليس لهم، وتخصب بلادهم بما ليس عندهم، فيكون نفعهم عاماً،

= عند الله من سعدت به رعيته وإن أشقى الرعاة من شقيت به رعيته، وإياك أن تزيغ فيزيغ عملك فيكون مثلك مثل البهيمة نظرت إلى خضرة من الأرض فرتعت فيها تبتغي بذلك السمن وإنما حتفها في سمنها» انظر جمهرة رسائل العرب ١ / ٢٥٠، الخراج ص١٧، شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة ٣ / ١١٩ وفيه «فتزيغ رعيتك» محل «فيزيغ عملك» وقد وردت فقرات من الكتاب بصورة متفرقة من الإيجاز والإعجاز ص٨.

(١) يعقدوا كذا بحذف النون من ط ومن غ يعقدوها بحذف النون أيضاً، وكذا في مصدر التخريج.

(٢) كتاب الحجاج إلى عبد الملك نجده قد أورد الثعالبي بعضاً منه بلفظ: «ووقع إليه في أصل السواد: أبق لهم لحوماً يعقدوا بها شحوماً» (خاص الخاص٨٧) وجاء في ط هنا: وقال زياد: أحسنوا إلى المزارعين فإنكم لا تزالون سماناً [ما سمنوا] وقال وهب بن منبه...» أي بذكر قول زياد الذي مر في عمارة المزارع.

(٣) قول وهب: «أحسن الناس عيشاً...» نجده عند المؤلف في كتابيه أدب الوزير ص١٧ والأمثال والحكم الورقة ٤٣ب بلفظ «إنّ أحسن...» وهو بهذا اللفظ من أقوال علي (غرر الحكم ١١٣) وبلفظ: «أحسن الناس عيشاً من عاش الناس في فضله» (ص٩٠) وبلفظ: «أحسن الملوك حالاً من حسن عيش الناس في رعيته وعم رعيته بِعَدْلِهِ» (ص٩٦). وذكر الميداني أنه «قيل للمغيرة: من أحسن الناس؟ قال: من حسن في عيشه عيش غيره» (مجمع الأمثال ٢ / ٤٥٩) وعبارة ط: من حسن الناس في عيشه.

وخصبهم دارًا، ويصير رفق السلطان به أعظم من رفق رعيته، وعقباه أنفع من مملكته؛ لأنه ليس يعم صلاح إلا ونصيبه منه أكثر، لأن عوام الأموال صادرة إليه، وصلاح الجمهور عائد عليه (٥٩أ).

[٧ - مداهنة الأعداء]:

ليستعمل الملك مداهنة الأعداء قبل مكاشفتهم، وليجعل محاربتهم آخر مكايدهم، فإنه ينفق في المكايد من الأموال، وينفق في المحاربة من النفوس[١]. ولذلك قيل:

أوهنُ الأعداءِ كيداً أظْهَرُهُمْ لعداوتِه[٢]:

قال الشاعر[٣]: [من البسيط]

والسّلمُ تأخذُ منها ما رضيتَ بهِ
والحربُ يكفيكَ من أنفاسِها جُرَعُ[٤]

---

(١) قوله: «ليستعمل الملك مداهنة الأعداء...» قال الجاحظ: «ومن أخلاق الملوك المكايدة في حروبها، ولذلك كان يقال: ينبغي للملك السعيد أن يجعل المحاربة آخر حيلة؛ فإن النفقة في كل شيء إنما هي من الأموال، والنفقة في الحروب إنما هي من الأنفس «التاج في أخلاق الملوك ١٧٧) وقد وردت عبارة ط على الصورة التالية: وقال وهب بن منبه: أحسن الناس عيشاً من حسن الناس في عيشه، قال أقضى القضاة في أثناء كلامه: ويستعمل الملك مداهنة الأعداء قبل مكاشفتهم وليجعل محاربتهم آخر مكايدهم فقد قيل: أوهن الأعداء كيداً... أي بسقوط موضوع أمن السبل والمسالك كله.

(٢) قولهم: «أوهن الأعداء كيداً أظهرهم لعداوته» ورد في غ بلفظ بعداوته، وفي ط بعد عداوته والتصحيح من مصادر التخريج. وقد استشهد المؤلف بهذا القول في أدب الوزير ١٥ والأمثال والحكم والورقة ١٢ب، وهو في الآداب لابن المعتز ص١٠٠ وفي نثر الدرر له أيضاً (الورقة٣) ونهاية الأرب ٦ / ١٠٢ ومواسم الأدب ١ / ٩٠ وشرح نهج البلاغة ٢٠ / ٢٤٣ وفيه أهون الأعداء...» ونسبه إلى علي وكذا في غرر الحكم ٩٥-٩٦ بلفظ «من أظهر عداوته»، وبلفظ «من أظهر عداوته قل كيده» من ص٢٦٦ وأورده الثعالبي ضمن أقوال قسطنطين الرومي الوجيزة البليغة بلفظ «أوهن الأعداء أكثرهم إظهاراً للعداوة» (الإيجاز والإعجاز ص١١).

(٣) قوله: «قال الشاعر» قلت قد اختلف في نسبة هذا البيت فقد عزاه بعضهم إلى عمرو بن معدي كرب، وآخرون إلى العباس بن مرداس وآخرون إلى غيرهما فانظر مصادر التخريج.

(٤) قول الشاعر: «والسلم تأخذ منها ما رضيت به...» نسبه الماوردي في الأمثال والحكم (الورقة٣٢آ) إلى عمرو بن معدي كرب، وقد خطّأ جامع ديوان عمرو بن معدي كرب هذه =

وليعلم أنهم منه على ثلاث مراتب، لكل واحدة منهن حكم، فليكن مع من علا منهم وتقدم على الملاطفة والملاينة، ومع من دنا منهم وتأخر على التطاول والمباشرة، ومع من كافأ منهم ومايل على المقابلة والمسالمة؛ ليدوم السكون والدعة، وتتم له السلامة والاستقامة؛ فقد قال [أبو] عمرو بن العلاء[١]:

من عرف فضل من فوقه عرف فضل من دونه؛ فإن جحد جحد[٢].

= النسبة، ونسبه إلى العباس بن مرداس (مستدرك ديوان عمرو بن معدي كرب -مطبوع في آخر الديوان- ص١٩١ رقم القطعة١) والبيت من ديوان العباس بن مرداس الذي جمعه الدكتور يحي الجبوري (ص٨٦ رقم القطعة٢٦) وفي هامشها مظان أخرى للبيت. وقد استشهد به الحسن بن علي في خطبة له بلفظ: «والصلح تأخذ منه ما رضيت به...» (شرح نهج البلاغة ١ / ٢٨٣) وقد أورده الشيخ محمود محمد شاكر مع بيت آخر قبله ونسبهما إلى العباس بن مرداس (تفسير الطبري جـ٣ حاشية ص٢٢٥). وقد أورد العبدلكاني البيت مع بيتين آخرين من حماسة الظرفاء (١ / ٤٤) وذانك البيتان نسبا إلى خفاف بن ندبة (شعر خفاف بن ندبة السلمي ص١٣٢، ١٣٥). وورد في اللسان وقبله بيت آخر على أنه من قول العباس بن مرداس يخاطب خفاف بن ندبة (مادة أبس جـ٦ ص٣ -دار صادر) والبيت غير منسوب في تفسير الكشاف ١ / ١٢٧، وهو في كل هذه الإحالات بلفظ: «السلم» بدون واو.

(١) غ عمرو بن العلاء، والزيادة من ط ومصادر الترجمة.
وأبو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبد الله المازني النحوي المقريء أحد القراء السبعة المشهورين، وقد اختلف في اسمه على أحد وعشرين قولاً. ولد سنة ٧٠هـ وتوفي سنة أربع وقيل تسع وخمسين ومائة وقيل غير ذلك انظر نبذة من أخباره في بغية الوعاة ٢ / ٢٣١-٢٣٢ رقم١٨٦٤ البيان والتبيين ١ / ٣٢٠-٣٢١، معجم الأدباء ١١ / ١٥٧، العبر ١ / ٢٢٣ الفهرست٤٨، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية) ٢ / ١٢٩ وفيه مصادر.

(٢) قول أبي عمرو بن العلاء: «من عرف فضل من فوقه... الخ» تجده في الأمثال والحكم (الورقة ٤٥آ) بلفظه منسوباً إلى أبي عمرو بن العلاء. وقد وردت أقوال قريبة من هذا المعنى منها قول أبرويز: «أطع من فوقك» (أدب الدنيا والدين١٢٠) والإيجاز والإعجاز منسوباً إليه بلفظ «أطع من فوقك يطعك من دونك» (ص١٤) وعند ابن المقفع: «وقر من فوقك ولِن لمن دونك» (الأدب الصغير٧٤) ومن حكم الفرس «هب من فوقك يهبك من دونك» (التمثيل والمحاضرة٤٣) وفي غرر الحكم من كلام علي «أطع من فوقك يطعك من دونك» (ص٤٥) وبلفظ «من الحكمة أن لا تنازع من فوقك ولا تستذل من دونك» (ص٣٠٧) وفي خاص الخاص (ص٨) بلفظ «عجبت لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه» وهو فيه =

ولا يبتدي بالمنافرة ما وجد منها بدًا، وإذا ظفر بفرصة انتهزها، ما لم ينقض بينه وبينهم عهداً، فقد قيل في منثور الحكم:

غافص[١] الفرص عند إمكانها، وكِل الأمور إلى أوليائها ولا تحمل نفسك همّ ما لم يأتك، ولا تحزن على ما فاتك، ولا تعدن وعداً[٢] ليس في يدك وفاؤه، ولا تجد في[٣] الحرص [تعش][٤] ذا سرور[٥].

وإذا كاشفه العدو بعد المساترة، ونافره بعد المسالمة، وتكافأت قوتاهما كان الحال معتبراً بسيرتهما، وهما فيه على ثلاث أحوال:

= منسوب للحسن بن سهل. وأورده الثعالبي من كلام أبرويز بلفظ «من لم يطع من فوقه لم يطعه من دونه» (غرر أخبار ملوك الفرس ٦٩٠).

(١) غافص: المغافصة: المفاجأة والأخذ على غرة.

(٢) ط: وعدا ما ليس.

(٣) غ: من الحرص.

(٤) الزيادة من ط ومن الأمثال والحكم.

(٥) قولهم «غافص الفرص عند إمكانها... إلخ» أورده المؤلف في كتابه الأمثال والحكم (الورقة ٥٠ أ) بنفس لفظه وبطوله. وقد ورد هذا القول في السعادة والإسعاد بلفظ «مكتوب على باب الإسكندرية: يا ابن آدم فصّ الفرصة عند إمكانها، وكل الأمور إلى وليها، ولا يحملنّك إفراط الشره على ركوب مأثم، ولا تحمل على نفسك همّ يوم لا تدري أنه من عمرك، ولا تكن أسوة المغرورين بجمع المال، فكم قد رأينا جامعاً مالاً لبعل زوجته، واعلم أن تقصيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك، اندم على الذنب، وإن لا ذنب لك» (ص١٧٢) وأورده الطرطوشي بلفظ «وجد مكتوباً على حجر: انتهز الفرص عند إمكانها ولا تحمل على نفسك هم ما لم يأتك، واعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك، فكم من جامع لبعل حليلته» (سراج الملوك ٩١) وحول اغتنام الفرصة وردت أقوال عديدة منها: «قال أرسطوطاليس: افترص من عدوك الفرصة، واعمل على أن الدهر دول، ولا تصادم من كان على الحق، ولا تحارب من كان متمسكاً بالدين. صير الدين موضع ملكك، فمن خالفه فهو عدو لملكك، ومن تمسّك بالسنة فحرام عليك دمه، وإدخال المذمة عليه، واعتبر بمن مضى، ولا تكن عبرة لمن بعدك» (مختار الحكم ١٩٣) و(الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٦٢) وقال أوشهنج: «الحزم انتهاز الفرصة» (الحكمة الخالدة ٨) وقولهم: «تجرع من عدوك الغصة إلى أن تجد منه الفرصة، فإذا وجدتها فانتهزها قبل أن يفوتك الدرك، أو يعينه الهلك، فإن الدول تثبتها الأقدار ويهدمها الليل والنهار» (لباب الآداب ٦٣)، قال ابن قتيبة: «قرأت في كتاب أبرويز إلى ابنه شيرويه: عليك بالمشاورة... ولا تدع لك في عدوك فرصة إلا انتهزها، ولا لعدوك فيك فرصة إلا حصّنتها...» في كلام طويل (عيون الأخبار ١ / ٣٠) ومن كلام ابن المعتز: «تناول الفرصة الممكنة، ولا تنتظر غداً، فمن لغد عن =

أحداها:

أن يكون الملك أعدل من عدوه، وأحسن سيرة في رعيته، فليثق الملك بعدله أنه عونه، ورعيته أنهم أنصاره، وليستعن على عدوه بجوره؛ فإنه موهِنُهُ، وبرعيته، فإنهم خاذلوه، ويكونون[1] أعوان الملك عليه، ويقدم على مقارعته، فإن الرجاء في ظفره أقوى، ما لم يغلب قدر، فقد قيل في منثور الحكم:

العدل أقوىٰ جيشٍ (٥٩ ب) والأمنُ أهنأ عيشٍ[2].

والحال الثانية:

أن يكون العدو أعدل من الملك، وأحسن سيرة في رعيته، فليخش على نفسه من عدل عدوه أنه عونه، ومن رعيته أنهم أنصاره، وليحذر جور نفسه؛ فإنّه موهِنُهُ، ومن تنكر رعيته، فإنهم خاذلوه، ويحجم عن مقارعته، فالرجاء في ظفر عدوه أقوى ما لم يغلب قدر، ويدفعه بالمقاربة والحذر، وقد قيل:

= حادث بكفيل؟» (كتاب الآداب ١٨٨ رقم القول ٣٣١) وفي (ص ٢١١ منه) كلام بمعناه. ومن كلام الحارث بن ابي شمر الغساني ملك عرب الشام: «الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود» (الإيجاز والإعجاز ١٥) وفي شرح نهج البلاغة (٤ / ٣٦) من أقوال علي بلفظ: «بادر الفرصة قبل أن تكون غصة» ومن أقواله أيضاً «انتهزوا هذه الفرص فإنها تمر مر السحاب» (أدب الوزير ٥٣) و(شرح نهج البلاغة ٤ / ٢٥٢) وبلفظ «إضاعة الفرصة غصة» (شرح نهج البلاغة ٤/٢٩١) والعقد الفريد (١/١٩٥) وفيه زيادة: «ولا تطلبوا أثرا بعد عين»، وفي موضع آخر نجد من أقوال الحكماء: «رأس العقل مغافصة الفرصة عند إمكانها والانصراف عما لا سبيل إليه» (العقد الفريد ١ / ٢٥٠).

(١) غ: ويكونوا.

(٢) قولهم: «العدل أقوى جيش، والأمن أهنأ عيش» نسبه الثعالبي الى أبي الحسن الأهوازي وزير صاحب الصاغاليان بنفس هذا اللفظ (منتخبات سحر البلاغة ص ٨٧)، وأورده في موضع آخر منسوباً إليه بلفظ «العدل أقوى جيش وأهنأ عيش» (الإيجاز والإعجاز ص ٢٩). وورد هذا القول غير منسوب في (أحاسن المحاسن ١٦١) بلفظ «... والعافية أهنأ عيش» وأورد الطرطوشي قولهم في الأمثال: «إصلاح الرعية خير من كثرة الجنود» (سراج الملوك ١١٤). وقد أخرجه ابن الجوزي غير منسوب وذلك بنفس لفظه وبزيادة هي قوله: «والولاية إذا لم يعم جوانبها عدل عزل» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ٢ / ٤٥٢).

من أعرض عن الحذر والاحتراس، وبنى أمره على غير أساس، زال عنه العز، واستولى عليه العجز، فصار من يومه في نحس، ومن غده في لبس[١].

والحال الثالثة:

أن يكون الملك وعدوه متكافئين في العدل والسيرة، فيعتبر أمرهما بحال الزمان والأعوان، فإن كان الزمان صالحاً، فأصلحهما أعواناً أقوى رجاء للظفر؛ لأن صلاح زمانهم مناسب لصلاحهم، فكان عوناً ما لم يغلب قدر.

وإن كان الزمان فاسداً فأفسدهما أعواناً أقوى رجاءً للظفر؛ لأن فساد زمانهم مناسب لفسادهم، فكان عوناً لهم ما لم يغلب قدر، فيكون الإقدام من الراجي والحذر من الخائف.

فإن استوى الفريقان في الصلاح والفساد، اعتبر بالجد والهزل في الزمان والأعوان؛ فإن كان زمان جد فالرجاء لأهل الجد أقوى، وإن كان زمان هزل فالرجاء لأهل الهزل أقوى، اعتباراً بمناسبة الزمان لأهله، ما لم يغلب قدر.

فإن استوى الفريقان في الجد والهزل فالبادي بالمنافرة بارع، والباغي مصروع ما لم يغلب قدر.

قيل في منثور الحكم:

من سلّ سيفَ البغي اغمدَهُ في رأسِه، ومن أسّس أساسَ السوءِ أسَّسه على (٦٠أ) نفسِه[٢].

---

(١) قولهم: «من أعرض عن الحذر والاحتراس، وبنى أمره على غير أساس...» مرّ هذا القول وذكرنا تخريجه في تعليقات موضوع الرهبة من الفصل المسمى (أصل ما تبنى عليه السياسة العادلة).

(٢) قولهم: «من سل سيف البغي أغمده في رأسه...» نجده في كتب الماوردي بلفظه غير منسوب لقائل فانظر أدب الوزير ١٤ والأمثال والحكم الورقة ٥ب- ٦آ، وأدب الدنيا والدين ٣١٤ وكذا نجده في المستطرف ١ / ٢٦ وعده ابن مسكوية من حكم العرب وأمثالهم السائرة بلفظ «من سل سيف البغي قتل» (الحكمة الخالدة ١٩٨) وهو في مجمع الأمثال ٢ / ٣٢٧، وفي التمثيل والمحاضرة ٤٥٠ بلفظ «من سل سيف البغي قتل به»، وفي خاص الخاص ٢٦، وأورده ابن الجوزي بلفظه (المصباح المضيء ١ / ٤٦١ وفيه تخريج، وكل أولئك غير منسوب =

قال الشاعر(١): [من الكامل]

والبغيُ يصرعُ أهلَهُ والظلمُ مرتَعُهُ وخيمُ(٢)

= لديهم إلى قائل وقد نسب إلى الإمام علي بلفظ «من أسس أساس الشر أسسه على نفسه ومن سل سيف البغي أغمد في رأسه» غرر الحكم ٢٨٤ وبلفظ «من عامل بالبغي كوفيء به، ومن سل سيف العدوان قتل به» ص٢٧٩، وبلفظ «من سل سيف العدوان سلب عز السلطان» ص ٢٨٨ وبلفظ «من سل سيف البغي قتل به» (شرح نهج البلاغة ٤ / ٣٩٨ وكتاب ٢٠٠٠ كلمة ص ٤٧ رقم ١٠٦٦ وسراج الملوك ص ٢٨ ونهاية الأرب ٨ / ١٨٦ ونسبه الثعالبي إلى فيروز بن يزدجرد وقال: «وكان آخر ما تكلم به لما أشرف على الهلاك في حرب خشنوار ملك الهباطلة: من سل سيف البغي قتل به، ومن أوقد نار الفتنة كان وقوداً لها» (الإيجاز والإعجاز ص ١٤) وأورده الأمير أسامة بن منقذ منسوباً إلى الحكيم أي أرسطوطاليس بلفظ: «ومن سل سيف العدوان سلب عز السلطان...» ضمن كلام طويل (لباب الآداب ٥٦).

(١) قوله: «قال الشاعر» قلت هو يزيد بن الحكم الثقفي، وهو يزيد بن الحكم بن عثمان بن أبي العاص الثقفي أحد شعراء الدولة الأموية. شهد له الفرزدق بالمقدرة على الشعر، مدح سليمان بن عبد الملك بعد أن نفس عليه الحجاج حين فخر بأبيه، انظر الأغاني ١١ / ٩٦-١٠١ خزانة الأدب ١ / ١١١، شرح ديوان الحماسة ٣ / ١١٩٠-١١٩٨.

(٢) قول الشاعر: «والبغي يصرع أهله...» ذكره الماوردي في كتابه الأمثال والحكم ونسبه إلى يزيد بن الحكم الثقفي (الورقة ٥٣ أ)، وقد ورد البيت منسوباً إلى يزيد أيضاً في شرح ديوان الحماسية في الحماسية رقم ٤٤٥ جـ٣ ص ١١٩٢ ضمن ٢٣ بيتاً والتذكرة السّعدية ١ / ٢٩٣ وفيه تخريج وديوان المعاني ٢ / ٢٤٩ وشطراه من الأمثال السائرة (كتاب الأمثال لأبي الوفاء محمد بن أحمد البساك ص ٤٠) والتمثيل والمحاضرة ٤٥٠ ومجمع الأمثال ١ / ٤٤٤ رقم المثل ٢٣٥٣ وفي أمثال أبي عبيد ص ٤ ونسب شطره الثاني إلى حنين بن خشرم السعدي وجاء بنفس لفظه وجاء به مرة أخرى بلفظ «مرتع البغي وخيم» ص ١٥.

وقد ضمن الشطر الثاني الشاعر قيس بن زهير بقوله حين رثى حمل بن بدر بعد أن قتله الربيع بن زياد:

ولكن الفتى حمل بن بدر بغي والبغي مرتعه وخيم

مجمع الأمثال ٢ / ١١٦ رقم المثل ٢٩٢٥ وقول قيس هذا في حماسة البحتري ص ١٦٦ وشرح ديوان الحماسة ١ / ٤٢٩، والعقد الفريد - العريان - ٦ / ٢٣ وفي العقد.

فلا تسعى على أحد ببغي فإن البغي مصرعه وخيم

٢ / ١٦٢، وقد نظمه محمد بن عيسى بن طلحة بن عبد الله التيمي وقيل مهلهل بن مالك الكناني بلفظ:

ولا تعجل على أحد بظلم فإن الظلم مرتعه وخيم =

[٨ - مساواة الملك نفسه مع الرعية]:

وينبغي للملك، وإن كان بالملك مفضلاً، معظماً وبالسلطان مطاعاً مقدماً، أن يساوي بين نفسه ورعيته، في الحق لهم وعليهم، ولا يقدم شريفاً على مشروف، ولا يمايل فيه قوياً على ضعيف، ويعدل بين جمعهم في القضاء، ويجري الحكم على الخاصة والعامة بالسواء؛ فإن الله تعالى قد سوى بين عباده من غير تفضيل، وماثل فيه بين العزيز والذليل.

فإذا اقتدى فيه بأمره، وقام فيه بحقه، وأنصف فيه من نفسه، وحسم مواد الظلم وكف عوادي الغلبة، وتناصف الناس إذا أنصفوا رغباً ورهباً.

وقد قيل في منثور الحكم:

من جارت قضيته، ضاعت رعيته[1].

وسأل ملك ناسكاً عن الإخلاص[2]، فقال الناسك: ثلاث:

أعدل في القضية[3].

واقسم[4] بالسوية.

واعدد نفسك واحداً من الرعية.

= الحماسة الشجرية ١ / ٤٧٠، ونهاية الأرب ٣ / ٢٨٩، والحماسة البصرية ٢ / ٤١٤. وفي المستطرف غير منسوب بلفظ:

وحق الله إن الظلم لؤم ... وإن الظلم مرتعه وخيم
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

(المستطرف ١ / ١٠٥).

(١) سقط هذا الفصل من نسخة ط وبدأ بعد ذكر البيت بقوله: وسأل ملك ناسكاً.
(٢) غ: الخلاص، والصواب ما أثبتناه عن ط.
(٣) غ: أعدل في الرعية. وما أثبتناه عن ط.
(٤) ط: وأعدل بالسوية.

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه:
يا أبه ما السياسة؟

قال: هيبة الخاصة مع صدق محبتها، واستمالة قلوب العامة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصنائع؛ فإن شكرها لأقرب الأيدي لها[1].

ويتعهد[2] حال الفقير منهم بالبر والصدقة، ويراعي خلة[3] الكريم منهم بالرفد والصلة؛ فإن إحسانه إلى الفقير[4] يشكره عليه الأغنياء، فَلَقَلَّ شكرٌ وقفَ على الشاكر إلّا تعدّاه، ولقلّ برٌّ اختصّ بالمبرور إلّا تخطّاه.

كان الموبذان[5] إذا دخل على أنو شروان يقول[6]:
يا ملك استدم النعم بالعطف[7] على الرعية، وأهن طعامك بإشباع

(١) قول الوليد لأبيه: «يا أبه ما السياسة؟» رواه ابن قتيبة وهو فيه بلفظه غير أن فيه «يا أبت... واقتياد قلوب العامة...» (عيون الأخبار١ / ١٠) وأورده النويري بلفظ ابن قتيبة وفيه: «مع صدق مودتها» وسقوط العبارة «فإن شكرها...» (نهاية الأرب ٦ / ٤٣) وقد رواه الأمير أسامة بن منقذ عن المدائني وهو فيه بلفظ «...واقتياد قلوب العامة... فإن شكرها أقرب للأيدي منها» (لباب الآداب٣٥) وأورده ابن عبد ربه بلفظ «...مع صدق مودتها» وسقوط العبارة «فإن شكرها...» ولعل النويري قد نقلها منه (أنظر العقد الفريد١ / ٢٨).

(٢) ط: قال أقضى القضاة في أثناء كلامه في سياسة الملك ويتعهد حال الفقير...

(٣) ط: ويراعي حال الكريم.

(٤) ط: إلى الفقراء.

(٥) ط: الموبذ، وما أثبتناه عن غ قال ابن الأثير: الموبذان للمجوس كقاضي القضاة للمسلمين والموبذ كالقاضي (نهاية الأرب ٤/٣٦٩) والموبذ بضم الميم وفتح الباء كلمة مؤلفة من قسمين (مو) بمعنى الدين و(بذ) بمعنى الحافظ والقيم والفقيه. والألف والنون في آخره علامة الجمع. وقد وردت أقوال للموبذ أو الموبذان في عيون الأخبار ١ / ٤٧، ٢ / ١٢٩، البيان والتبيين ٣ / ١٣ والعقد الفريد ١ / ٢٨٣ وموبذان موبذ هو رئيس الموابذة (التاج ١٥، ٢٥، ٧٧) و(الترجمة والنقل٢٦٥).

(٦) ط: يا ملك الملوك.

(٧) ط: بالتعطف.

(٦٠ ب) الجائع وراء بابك[١]، وأنصف الناس من نفسك، وأعط[٢] الحق منك يتعاطاه الناس وراء بابك، واحذر[٣] النساء، ولا تفتح للسعاة طريقاً[٤].

[وقيل في منثور الحكم][٥]

بالراعي تصلح الرعية وبالعدل تملك البرية.

وينبغي للملك أن يميز أخيار رعيته، فيخصهم[٦] بالإكرام والتقريب، ويقمع أشرارهم بالإبعاد والتأديب، ليرغبوا في منازل الأخيار، ويقلعوا[٧] عن أخلاق الغاغة[٨] الأشرار؛ فإن لم يكونوا على الخير مطبوعين صاروا به متطبعين؛ فقد يضعف الطبع بالتطبع[٩]، وإن لم يزل، وتتغير الأخلاق بالتصنع، وإن لم تحد؛ فقد قيل:

ليس في الطبع أن يكون ما ليس في التطبع.

وفرق[١٠] ما بينهما: إن الطبع جاذب متفاعل[١١]، والتطبع مجذوب مفتعل، تتفق نتائجها مع التكلف، ويفترق[١٢] تأثيرها مع الاسترسال، فيظهر[١٣] الطبع ويزول التطبع.

---

(١) ط: ووراء بابك والتحف بالأمن بإنصاف الناس.

(٢) ط: يا ملك أعط الحق من نفسك معاطاة الناس.

(٣) ط: يا ملك واحذر النساء. وقد سقطت العبارة (ولا تفتح للسعاة طريقاً) من نسخة ط.

(٤) بمثل هذه الوصية نجد الفضل بن سهل يوصي المأمون في سراج الملوك١٤٤.

(٥) الزيادة من ط.

(٦) ط: فيستحثهم.

(٧) ط: وتقلعوا.

(٨) الغاغة: الجمع الكثير المختلط من الناس، يقال تغاغى عليه الغوغاء ركبوه بالشر. (معجم متن اللغة ٤/٣٤١) والغوغاء من الناس الذين لا نظام لهم معروف، وأخذ من غوغاء الذباب وهو إذا مازج بعضه بعضاً قبل أن يطير (جمهرة اللغة ١/١٨٥).

(٩) ط: فقد يضعف الطبع الطبع وتتغير الأخلاق بالتصنع وإن قيل: ليس في الطبع...

(١٠) ط: قال: وفرق.

(١١) غ: جاذب منفعل.

(١٢) غ: ويفرق بتأثيرهما.

(١٣) ط: فيستقر الطبع.

وتعليل هذا الفرق يقتضي[١] أن يأمن أهل الورع[٢] والسلامة خوف عقوبته اكتفاء بزواجر طباعه[٣] في الخير، ويخاف أهل البذاء[٤] والزعارة[٥] بادرة سطوته؛ ليكون الخوف زاجراً لطباعهم عن الشر فيشاكل[٦] الفريقين في طلب الخير، وتوقى الشر طبعاً وتطبعاً؛ فإنه مندوب إلى صلاح[٧] المهج وتقويم العوج.

قال بعضُ الحكماء:

انقياد الأخيارِ بحسنِ الرغبَةِ، وانقيادُ الأشرارِ بطولِ الرهبَةِ[٨].

---

(١) غ: ينبغي أن.
(٢) غ: أهله الورى.
(٣) ط: طباعهم في الخيرات.
(٤) غ: النداء، والبذاء بالمد: الفحش.
(٥) الزعارة بتشديد الراء: شراسة الخلق.
(٦) ط: فتشاكل الفريقان.
(٧) ط: إلى إيضاح المنهج.
(٨) قولهم: «انقياد الأخيار بحسن الرغبة، وانقياد الأشرار بطول الرهبة» تجده في أحاسن المحاسن ١٦٤ بلفظ «...بقوة الرهبة» غير منسوب وفي مختار الحكم: «قال أفليمون لأصحابه: عاملوا الأحرار بمحض المودة والرعية بالرغبة والرهبة، والسفلة بالمخافة والصغار» ص٢٩٩، وفي غرر السير ٤٨٣ بلفظ: «الملوك يؤدبون بالهجران ولا يعاقبون بالحرمان» وانظر أقوالاً لأردشير ملحقة بكتاب عهد أردشير ص١٠٠ الفقرة٢٢، وورد بلفظ «إن الملوك يؤدبون...» منسوباً إلى ناصر الدولة أبي محمد الحسن بن عبد الله الحمداني في الإيجازوالإعجاز ص٢٣ وخاص الخاص ص٥٢، وكان أنوشروان يكتب على عهد العمال: «سس خيار الناس بالمحبة وامزج للعامة الرغبة بالرهبة، وسس سفلة الناس بالإخافة» سراج الملوك ١٤٢-١٤٣ وهو من توقيعاته في السعادة والإسعاد ٣٠٢ ونهاية الأرب ٦ / ٤٤، وربما نسب إلى بزرجمهر بلفظ «وعاملوا أحرار الناس بصفو المودة وعاملوا العامة بالرغبة والرهبة وعاملوا السفلة بالمخافة صراحاً» (لباب الآداب ص٣٩) وانظر الترجمة والنقل عن الفارسية ١ / ١٠٨و١١٥ وعيون الأخبار١ / ٨ وسراج الملوك٦١ وديوان المعاني٢ / ٩٠ ومن أقوال المنصور: «عقوبة الأحرار بالتعريض، وعقوبة الأشرار بالتصريح» سراج الملوك٧٦. وفي لباب الآداب أنه «غضب كسرى على رجل من أصحابه فأمر بحبسه وقطع ما كان جارياً عليه فقال له بزرجمهر: إن الملوك تؤدب بالهجران ولا تعاقب بالحرمان» (ص٣٧)، ونقل المؤلف من كلام أردشير؛ «عاملوا أحرار الناس بالمودة محضاً، فإنهم لا يحتملون الهوان، وعاملوا العامة بالرغبة والرهبة، وعاملوا السفلة بالرهبة صراحاً» (نصيحة الملوك للماوردي -مخطوط- الورقة٦٢ب).

ووقع أنوشروان إلى عمالهِ:

تفقّدوا أمورَ الرعيّةِ فسدّوا فاقةَ أحرارها[١]، وامنعوا[٢] بطر أشرارها؛ فإنما يصول الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع[٣].

وقيل[٤]:

من أبطرته النعمة وقره زوالها[٥].

قال الشاعر: (١٦١آ) [من الطويل]

إذا كنتمُ للناسِ[٦] في الأرضِ سادةً
فسوسوا كرامَ الناسِ بالحلمِ والبذلِ
وسوسوا لئامَ الناسِ بالذلّ وحدَهُ
جميعا فإنَّ الذلَّ يصلحُ للنّذلِ[٧]

---

(١) ط: إفاقة أخيارها.

(٢) ط: وامنعوا من نظر لئامها.

(٣) قوله: «ووقع أنوشروان إلى عماله: تفقدوا أمور الرعية...» أورده ابن المقفع دون أن ينسبه لقائل، وهو عنده بلفظ: «ليتفقد الوالي فيما يتفقد من أمور الرعية فاقة الأحرار منهم فليعمل في سدها، وطغيان السفلة منهم فليقمعه، وليستوحش من الكريم الجائع واللئيم الشبعان، فإنما يصول الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع» (الأدب الكبير ١١٦ وضمن رسائل البلغاء ٥٢-٥٣) وقد وردت مقاطع منه متفرقة: قال أفلاطون: «اتقوا صولة الكريم إذا جاع وبطر اللئيم إذا شبع» (مختار الحكم ١٣٩) وفيه من أقوالهم: «استوحش من الكريم المهان ومن اللئيم المكرم، فإن الكريم يصول عند الجوع، وإن اللئيم يبطر عند الشبع» ص٣٥٥) وقد أورد المؤلف قولاً منسوباً إلى أردشير بن بابك بلفظ «احذروا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع» (أدب الوزير١٧) وهو من أقوال علي في غرر الحكم٧٣ وشرح نهج البلاغة ٤ / ٢٦٥ وكتاب ألفي كلمة ص٧ رقم٨٦ وهو من أمثال العرب في ثمار القلوب٦٨١، وديوان المعاني ٢ / ٩٠ ونهاية الأرب ٦ / ١٠٤، وهو من أمثال الفرس في التمثيل والمحاضرة٤٣.

(٤) ط: وقال بعض الحكماء.

(٥) قولهم: «من أبطرته النعمة وقره زوالها» أورده المؤلف بلفظه غير منسوب لقائل في أدب الوزير ص٨ ومن كلام علي: «من لم يشكر النعمة عوقب بزوالها» (غرر الحكم٢٧٤).

(٦) ط: في الأرض للناس.

(٧) قول الشاعر: «إذا كنتم للناس في الأرض سادة...» استشهد الماوردي بهذين البيتين مع بيتين آخرين وإن معناها مأخوذ من قول أردشير وإليك نص ما قال: «قالوا: وقد قال أردشير: عاملوا أحرار الناس بالمودة محضاً، فإنهم لا يحتملون الهوان، وعاملوا العامة بالرغبة =

ويراعي أهل النسك والصلاح[١]، يؤدي حق الله تعالى فيهم وحق نفسه في موافقتهم، يجل أقدارهم، ويعظم أخطارهم؛ لأنهم أهل الآخرة التي هي أشرف من الدنيا داراً، وأعزّ منها جواراً، ليعترف لله بحقوق أوليائه، وللدين بحقوق زعمائه، فإن من الديانة إعظامَ أهلِ الدين، وأن يرجع إليهم في ما أمروا به ونهوا عنه.

وليصلح من دينه ما اختلّ، ومن دنياه ما اعتلّ؛ فإنهم لا يأمرون إلا بطاعة، ولا ينهون إلا عن معصية.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
«استرشدوا العاقلَ ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا»[٢].

= والرهبة، وعاملوا السفلة بالرهبة صراحاً، فأخذ هذا المعنى بعض المحدثين فجعله شعراً فقال:

إذا كنتم للناس أهل سياسة	فسوسوا كرام الناس بالرفق والبذل
وسوسوا لئام الناس بالذل يصلحوا	على الذل إن الذل يصلح للنذل
وكونوا لأوساط الرجال كمازج	ذعافاً وماذياً كأحلى جنى النحل
ولينوا لهم طوراً ببسط كرامة	وخلوهم طوراً قياماً على رجل

انظر نصيحة الملوك للماوردي -مخطوط- الورقة٦٢ب.

(١) لخصت نسخة ط هذا القول ولفظها كما يلي: قال أقضى القضاة: ويراعي أهل النسك والصلاح بخصال ثلاث يؤدي بهن حق الله تعالى فيهم وحق نفسه في موافقتهم:
إحداهن: أن يجل أقدارهم ويعظم أخطارهم؛ لأنهم من أهل الآخرة التي هي أشرف من الدنيا داراً وأعز منها جواراً، ليتعرف الله بحقوق أوليائه وللدين بحقوق زعمائه، فإن من الديانة إعظام أهل الديانة.
والخصلة الثانية: أن يرجع إليهم في ما أمروا به ونهوا عنه ليصلح بهم من دينه ما اختل ومن دنياه ما اعتل، فإنهم لا يأمرون إلا بالطاعة، ولا ينهون إلا عن معصية.
والخصلة الثالثة: أن يتقرب إليهم بطاعة الله في خلقه، والقيام فيهم بحقه ليكونوا له حزباً وعلى أعدائه إلباً، يملك بهم القلوب ويستدفع بهم الخطوب فقد قيل لرسول الله عليه الصلاة والسلام: «إن الرجل ليعمل لله ويحبه الناس قال تلك عاجل البشرى -كذا- إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند الله فانظروا ما يتبعه من ثناء الناس» ومن يبتدع ما ليس من خيم نفسه... إلخ.

(٢) حديث: «استرشدوا العاقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا» رواه الخطيب في رواية مالك عن أبي هريرة في حديث ضعيف (الجامع الصغير ١ / ٤٠) وانظر شرحه في التيسير ١ / ١٤٦، والحديث في أدب الوزير٥٢.

وأن يتقربَ إليهم بطاعةِ اللهِ في خلقهِ، والقيامِ فيهم بحقهِ؛ ليكونوا له حزباً، وعلى أعدائه إلباً[١]، يملك بهم القلوب، ويستدفع بهم الخطوب، فقد قيل لرسول الله [صلى الله] عليه وسلم: إن الرجل يعمل العمل لله تعالى ويحبه الناس؟

فقال:

«تلك عاجل البشرى إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند الله تعالى فانظروا ما يتبعه من ثناء الناس»[٢].

ولا ينبغي أن يتصور في قوم منهم رياء أو سمعة، فيسقطه بها فيسري ذلك إلى جميعهم، فإن التظاهر بالصلاح أجل من التظاهر بالطلاح، وقد أعطى من الأحماد بمظاهرته شطراً، واستبقى منه في الباطن شطراً، وهما يتنافران كتنافر الطبع والتطبع، حتى يغلب أحدهما على الآخر، فتصح سريرته فيسلم، أو تفتضح علانيته فيسقم؛ فإن تدليس الرياء لا يستمر، حتى ينتهي إلى غاية من صلاح أو افتضاح، كالمريض الذي يفضي مرضه إلى سلامة أو عطب فقد قيل:

قيل:

من طمع أن يذهبَ على (٦١ب) الناسِ عيبُه فقد جهل[٣].

---

(١) إلب -بفتح الهمزة وبكسرها- أي مجتمعون «يقال: هم عليه ألبُ وإلْبُ واحد، مجتمعون» (قاموس مادة ألب ١ / ٣٨).

(٢) حديث «تلك عاجل البشري...» رواه مسلم عن أبي ذر بلفظ «قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيت الرجل يعمل من الخير ويحمده الناس عليه وفي رواية يحبه الناس عليه قال: تلك عاجل بشرى المؤمن» انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٦٨٣ رقم٥٣١٧ قال الشيخ عبد الغني النابلسي: «حديث الرجل يحب قوماً وفي رواية الرجل يعمل العمل من الخير وتحبه الناس...إلخ أخرجه مسلم في البر والصلة عن يحي بن يحي وأبي الربيع وأبي كامل وأبو داود في الأدب عن موسى بن اسماعيل وابن ماجه في الزهد عن محمد بن بشار» (ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الحديث ٣ / ١٦٥ رقم٦٩٣٩) وهو فيه من أحاديث أبي ذر الغفاري. وانظر رسالة الأخلاق لابن حزم ص١٣.

(٣) قولهم: «من طمع أن يذهب على الناس عيبه فقد جهل»، ورد هذا القول في ط بعد البيت التالي وهو قوله «ومن يبتدع ما ليس...» وقد جاء من أقوال بزرجمهر لكسرى في كتابه له، =

قال الشاعر[1] : [من الطويل]

ومن يبتـــدع مـــا ليس من خيم نفســـه
يـــدعــه ويـغلبــه عـلى الـنـفس خيـمُـهـــا[2]

فليعملْ على الظاهرِ لمن تظاهرَ بالصّلاح؛ فليسَ للناسِ من الناسِ إلّا ظواهرهم، ويتولّى اللهُ سرائرهم.

= في هذا المعنى قوله: «وينبغي لذوي السلطان أن يعلموا أنهم لا يقدرون على ألّا تنطق العامة بعيوبهم وألّا يتعنّوا - أي يتجشموا - من ألّا يبصر الناس ما فيهم، وليكن اجتهادهم في ألّا يكون لهم عيب ولا سبيل للقالة عليهم»، (الحكمة الخالدة ٤٦)، وسئل أنوشروان: «أي علم الوالي أنفع له؟ قال: أن يعلم أنه لا قدرة له على سد أفواه الناس عن عيوبه ومساوئه، فعند ذلك لا يلتمس إسكاتهم بالوعيد والغلظة، ولا يلتمس رضاهم وانتقالهم عن ذكر مساوئه وعيوبه إلّا بإصلاح تلك العيوب عن نفسه ورأيه وأخلاقه» (الحكمة الخالدة ٥٥)، ومن كلام أردشير: «اعلموا أنكم لستم على ختم أفواه الناس قادرين ولا قدرة لكم على أن تجعلوا القبيح حسناً»، (عهد أردشير ٧٠).

(١) قوله: «قال الشاعر» قلت نسب هذا البيت لأكثر من شاعر فهو تارة لكثير وأخرى لسليمان بن مهاجر وثالثة لخالد بن عبد الله الطامي ورابعة لحاتم الطائي وخامسة للأعور الشني، انظر التخريج.

(٢) قول الشاعر: «ومن يبتدع ما ليس من خيم نفسه..»، نسبه الماوردي في الأمثال والحكم، الورقة ٥٤ب، إلى كثير، وقد ورد منسوباً إليه في عيون الأخبار جـ٢، ص٥، وهو عنده بلفظ «ومن يبتدع ما ليس من سوس نفسه»، والسوس والخيم بمعنى الطبيعة، وقد ورد في اللسان (مادة خيم)، والحماسة البصرية (٢ / ١٧٣)، وفيها تخريج، ونسبه إلى كثير بن أبي جمعة، وقد نسبه البحتري إلى سليمان بن المهاجر وأورده بلفظ «ومن يبتدع ما ليس فيه سجية»، ونسبه المبرد إلى خالد بن عبد الله الطامي وأورده مع ثلاثة أبيات أخرى، وهو عنده بلفظ «ومن يبتدع خيمًا سوى خيم نفسه»، قال ويقال لحاتم الطائي، انظر الفاضل ص٤٠، وهو في الحماسة لحاتم ٤ / ١١٧ / ولم يوجد في ديوانه وفي الكامل ١ / ١١ عن أم الهيثم، وأورده صاحب الوساطة منسوباً إلى الأعور الشني (ص١٥٦). وقد روى جامع أشعار الأعور الشني، بشر بن منقذ بيتين بهذا المعنى بلفظ:

ومن يقتـرف خلقـاً سـوى خلق نفســه يـدعــه وتـغلب عـليــه الـطبــائــع
وأدوم أخـــلاق الـفتى مـــا نَـشَـــا بِــهِ وأقصــر أفعــال الــرجـــال الـبــدائـــع

انظر بشر بن منقذ الشني - أخباره وما تيسر من شعره لضياء الدين الحيدري مجلة البلاغ، العدد الأول، السنة الخامسة ١٣٩٤-١٩٧٤، ص٣١، وفيه تخريج. وقد ورد غير منسوب في العقد الفريد، جـ٢، ص٢٤، وجـ٣، ص٣، والكامل ١ / ١٧، وهو فيه بلفظ «ومن يتخذ».

وقد روي[١] عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«الناسُ كأسنانِ المشطِ، وإنما يتفاضلون بالعلانية»[٢].

فليعظم[٣] حق علانيتهم، وليكل ضمائرهم إلى عواقبها فيستجلي[٤] عن أحد الأمرين، فقد روى عن النبي عليه السلام أنه قال:

«المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور»[٥].

يعني [بالمتشبع بما لا يملك][٦] المتظاهر بما ليس فيه، [وقوله:][٧] «كلابس ثوبي زور» هو الذي يلبس ثياب[٨] الصلحاء ويفعل أفعال الطلحاء.

روى أبو هريرة قال:

---

(١) ط: وروي سهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم..

(٢) حديث «الناس كأسنان المشط، وإنما يتفاضلون بالعلانية»، أخرجه الديلمي عن سهل بن سعد وفيه «وإنما يتفاضلون بالعافية»، وفيه زيادة «انظر كشف الخفاء ٢ / ٤٥١، رقم ٢٨٤٧)، وكنوز الحلائق من حديث خير الخلائق ٢ / ١٣٣. وفي نسخة ط: الناس سواء كأسنان المشط.. قال أبو الوفاء محمد بن أحمد البساك في معناه «أي متساوون في النسب»، وهو عنده مثل من الأمثال (كتاب الأمثال ٤٢)، وفي التمثيل والمحاضرة بلفظ «وإنما يتفاضلون بالتقوى» (ص٢٣، وص٣٠١)، وانظر مجمع الأمثال ١ / ٣٢٩، رقم ١٧٧١.

(٣) ط: قال أقضى القضاة في أثناء كلامه.

(٤) غ: فسينجلي عن أحد أمورين.

(٥) حديث: «المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور»، متفق عليه من حديث أسماء بنت أبي بكر، بلفظ «بما لم يعط»، انظر صحيح البخاري ٣ / ١٧٣، وصحيح مسلم بشرح النووي ١٤ / ١١١، وأخرجه مسلم أيضاً عن عائشة ١٤ / ١١٠، وقد رواه أبو داود عن أسماء (سنن ٤ / ٢٩٩-٣٠٠)، والترمذي عن جابر (سنن ٣ / ٢٥٥-٢٥٦)، وهو فيه بلفظ «ومن تحلى بما لم يعطه كان كلابس ثوبي زور»، ورواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار عن سفيان بن عبد الله الثقفي عن أبيه أن النبي (ص) قال: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»، مجمع الزوائد ٨ / ٩٨، ورواه غيرهم عن جابر وأبي هريرة مرفوعاً بلفظ «من تحلى بباطل كان كلابس ثوبي زور»، وعن عائشة والثوري، انظر كشف الخفاء ٢ / ٣٣٢، رقم ٢٤٣٥، والمقاصد الحسنة ٤٠٧، رقم ١١٠٠، ورواه أحمد (الجامع الصغير ٢ / ١٨٥، والتيسير ٢ / ٤٥٤، وذخائر المواريث ٤ / ١٧٩) وهو في أدب الدنيا والدين ٩٤، ومجمع الأمثال ٢ / ١٥٠، رقم ٣٠٧٢، والتمثيل والمحاضرة ٢٣.

(٦) الزيادة من ط.

(٧) الزيادة من ط.

(٨) ط: لباس الصلحاء ويعمل عمل.

مرّ النبي عليه السلام على ناس وهم جلوس فقال:
«ألا أخبركم بخيركم من شركم؟».
فسكتوا.
فقال ذلك ثلاث مرات.
فقال له رجل: بلى يا رسول الله.

فقال:

«خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره»[1].

[٩ - رعاية العلم ومراعاة العلماء]:

وأما العلم فينبغي للملك أن يعرف فضله، ويستبطن أهله؛ لأنهم للدين أركان، وللشرع أعوان، والدين أس الملك ونظامه، وقد قاموا فيه بحقه، ونابوا عن الملك في حفظه، ولولاهم لما عرف حق أمر من باطله، ولا صحة حكم من فاسده، فليحفظ الملك نظام ملكه بمراعاتهم، وليستظهر لدينه وملكه باستبطانهم؛ ليكون بالعلم موسوماً، وإليه منسوباً؛ فإن الإنسان موسوم بسيما من قارب، ومنسوب إليه أفاعيل من صاحب؛ ولذلك قال النبي عليه السلام:

[«المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[2].

وقال عليه السلام:][3].
«المرء مع من أحب»[4].

---

(١) حديث «مر النبي عليه السلام على ناس وهم جلوس..»، لم يرد في ط، وقد رواه أبو يعلى عن أنس، (كشف الخفاء ١ / ٤٧٢، رقم ١٢٥٢)، ورواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة، (الجامع الصغير ٢ / ١٢)، وانظر التيسير ١ / ٥٣٤.

(٢) حديث «المرء على دين خليله..» مرّ تخريجه سابقاً.

(٣) الزيادة من حاشية الأصل غ، ومن ط.

(٤) حديث «المرء مع من أحب» متفق عليه من حديث أنس وأبي موسى الأشعري وابن مسعود، (كشف الخفاء ٢ / ٢٨٣، رقم ٢٢٨٤)، والمقاصد الحسنة ٣٧٩، رقم ١٠١١، ورواه كثيرون (الجامع الصغير ٢ / ١٨٥).

وقالت الحكماء:

يظن بالمرء ما ظن بقرينِهِ[١].

وقد يخص الملوك من هذا بما يباينون (٦٢آ) به من سواهم؛ لخفاء أحوالهم عن الرعية، فيقضون عليهم بما علموه من أحوال بطائنهم:

فإن استبطنوا العلماء قضوا عليهم بالعلم، وإن جهلوا.

وإن استبطنوا الجهال قضوا عليهم بالجهل، وإن علموا.

وليصر بمكاثرتهم مستظهراً، وبمذاكرتهم مستبصراً، وهم أنفع له في دينه ودنياه؛ لأنهم في الدين دعاة، وفي الدنيا هداة، مع ما ينشر من الفساد بإهمال العلماء، وترك مراعاتهم، وذلك أنهم ربما بعث بعضهم قلة المادة، وضعف الحال على مسامحة النفس والتبذل، وارتكاب الشبهة.

فإذا وافق ذلك إعراض السلطان عنهم فتحت آثارهم عند العامة، وتقاصرت رتبهم عند الخاصة، فهجروا هجر الأعداء، وزجروا زجر السفهاء، ثم سرى ذلك في خواصهم ومتصونيهم، وعم في خيارهم ومتدينيهم؛ لأن نقص الجنس يسري فيه، فذهبت بهجة العلم وبهاؤه، وقل طلابه وعلماؤه، وصار ذريعة إلى انقراضه ودراسته.

ثم لا يبعد أن يظهر أهل نحل مبتدعة، ومذاهب مخترعة، يزوقون كلامهم مموهاً، ويزخرفون مذهباً مشوهاً؛ لأن ما صحّ من المذاهب قد اعتقد، وما سلم منها قد استقر، ولذلك قال النبي عليه السلام:

«خير الأمور عوازمها، وشر الأمور محدثاتها»[٢].

فهم لا يستحدثون إلّا ما ابتدعوه، ولا ينصرونه إلّا بما اخترعوه،

---

(١) قولهم: «يظن بالمرء ما ظن بقرينه»، ورد في أدب الدنيا والدين ١٥١، وهو من أمثال المولدين (مجمع الأمثال ٢ / ٤٢٩)، وهو فيه بلفظ «ما يظن بقرينه».

(٢) في الأصل غ: خير الأمور عوامها.. وقد سقط من ط. وحديث «خير الأمور عوازمها، وشر الأمور محدثاتها»، رواه الديلمي (كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق ١ / ١٢٥).

يعدلون به عن ظاهر جلي إلى باطن خفي، يجلبون به قلوب الأعوام، ويعتضدون على نصرته بالغاغة الأشرار، فيشعرهم أنهم أظهروا لهم الحق بعد كمونه، وأوصلوهم إلى ما استأثر الله به دينه، فيصبوا إليهم الغر المختدع، ويميل معهم الجاهل المتبع، إلى أن يتكاثر جمعهم بخلابة كلامهم(١)، ولطف بيانهم (٦٢ب) مع أن لكل جديد لذة، ولكل مستحدث صبوة، وقد قال النبي عليه السلام:

«إن من البيان لسحراً»(٢).

و[قال](٣):

«إن أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان»(٤).

فتصير البدع حينئذ فاشية، ومذاهب الحق واهية، ثم يفضي بهم الأمر إلى التحزب، ويؤول إلى التعصب؛ لأن لكل مذهب شعاراً، ولكل شعار أنصاراً، ولكل أنصار صوْلة، ولكل صولة دولة، فإذا رأوا ظهورَ شعارهم وكثرة أنصارهم، داخلهم عزة القوة، ونخوة الكثرة، فتضافر جهّال نسّاكهم، وفَسَقة علمائهم بالميل إلى مخالفتهم.

فإذا استتبّ ذلك لهم، رابحوا(٥) السلطان في رياسته، وقبحوا عند العامة جميل سيرته؛ فربما انفتق منه ما لا يرتتق؛ فإن كبار الأمور تبدو صغارا، وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال:

«أهلك أمتي رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك».

---

(١) غ: كماهم.

(٢) حديث «إن من البيان لسحراً»، رواه مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي بحديث صحيح (الجامع الصغير ١ / ٩٨)، وكشف الخفاء ١ / ٢٩٦، رقم ٧٨٠، والمقاصد الحسنة ١٢٩، رقم ٢٥٥، وهو لديهم عن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما، وانظر سنن أبي داود ٤./ ٣٠٢ و٣٠٣، رقم ٥٠٠٧ و٥٠١١.

(٣) الزيادة ليست في غ، ولا في ط.

(٤) حديث «إن أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان»، رواه الإمام أحمد بحديث صحيح (الجامع الصغير ١ / ٨٧)، وكنوز الحقائق ١ / ١٠، عن عمر رضي الله عنه.

(٥) غ: راحوا.

وسئل عن شرار الأشرار فقال:
«شرار العلماء».[١]

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:
قصم ظهري رجلان: ناسك جاهل يدعو إلى الجهل بنسكه، وعالم فاسق يدعو إلى الفسق بعلمه[٢].

وقد قال المنصور في عهده إلى ابنه[٣]:
وكِّل همومك بأمورك، وتفقّد الصغير بعد الكبير، وخذ أهبة الأمر قبل حلوله؛ فإن ثمرة التواني الإضاعة، وكن عند رأس أمرك لا عند ذنبه؛ فإن المستقبل لأمره سابق، والمستدبر له مسبوق.

---

(١) حديث «أهلك أمتي رجلان..» تجده في إحياء علوم الدين ١ / ٦٣، بلفظ «هلاك أمتي عالم فاجر وعابد جاهل وشرّ الشرار، شرار العلماء وخير الخيار خيار العلماء»، قال زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم العراقي: «أخرجه الدارمي من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلاً، (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار ١ / ٦٣).

(٢) قول الإمام علي: «قصم ظهري رجلان.. إلخ»، أورده ابن أبي الحديد في مستدركه على نهج البلاغة بلفظ «قصم ظهري رجلان: جاهل متنسك وعالم متهتك»، (شرح نهج البلاغة ٤ / ٥٤٤)، وأورده عبد الواحد الآمدي ضمن كلماته بلفظ «ما قصم ظهري إلاّ رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك، هذا ينفر حقه بهتكه، وهذا يدعو إلى باطله بنسكه»، (غرر الحكم ٣١٢)، ونسبه الطرطوشي في سراج الملوك إلى جعفر الصادق وهو عنده بلفظ «قطع ظهري وأفسد الدين رجلان: جاهل ناسك، وعالم فاجر، هذا يدعو الناس إلى جهله بنسكه وهذا ينفر الناس عن علمه بفسقه»، ونجد معنى هذا الكلام في كلام طويل للإمام علي، في نهج البلاغة (شرح نهج البلاغة ١ / ٩٤).

(٣) قوله: «وقد قال المنصور في عهده إلى ابنه..» هو عهد أبي جعفر المنصور إلى ابنه محمد المهدي الذي قال فيه: «هذا ما عهد به عبد الله أمير المؤمنين إلى المهدي محمد بن أمير المؤمنين ولي عهد المؤمنين حين أسند وصيته إليه بعده، واستخلفه على الرعية من المسلمين وأهل الذمة، وحرم الله خزائنه وأرضه التي يورثها الله من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله في البلاد والعمل بطاعته في العباد.. في كلام طويل، انظر تاريخ اليعقوبي جـ٢، ص٤٧٢-٤٧٤، وقد نقله عن الدكتور حسن ابراهيم حسن في تاريخ الإسلام السياسي (ط٥، جـ٢، ص٤٣٧-٤٣٨)، ومن هذا العهد نجد نقولاً، انظر المصباح المضيء في خلافة المستضيء، ص٤٠٢، وتاريخ الطبري ق ٣م / ١٠ / ٤٠٣، والوزراء والكتاب ١٢٦، وسراج الملوك ٢٠٠

قال الشاعر: [1] [من الخفيف]

إنّ للدّهرِ صولةً فاحذرنّها
لا تبيتَنَّ قد أمنتَ الدهورا

شطَّ وَصْلُ الذي تريدين منّي
وصغيرُ الأمورِ يجني الكبيرا [2]

وهذا أمر يجب على الملك مراعاته، لما فيه من حراسة الدين وحفظ المملكة.

وحسم ذلك: أن يراعي العلم وأهله، ويصرف إليهم حظاً من عنايته (٦٣آ) ويعتمد أهل الكفاية منهم بالتقريب والصيانة، وأهل الخلة منهم بالبر والمعونة؛ ليكون العلم به أنشر، والتوفر عليه أكثر، والناس له أشكر؛ ففي ذلك بهاء الملك وإعزاز الدين وخلود الذكر.

---

(١) قوله: «قال الشاعر» قلت هو عدي بن زيد العبادي التميمي، من دهاة الجاهلية وشعرائها قتله النعمان بن المنذر في سجنه بالحيرة وعده القرشي من أصحاب المجمهرات، انظر ترجمته وأخباره في الأغاني ٢ / ٩٧، خزانة الأدب ١ / ١٨٤، الشعر والشعراء ١١١، طبقات فحول الشعراء ١١٥، ١١٧، ١١٨، شعراء النصرانية ٤٣٩، معجم الشعراء ٨٠، جمهرة أشعار العرب ١٧٨، وديوانه قد طبع بعناية زميلنا الأستاذ محمد جبار المعيبد في بغداد ١٩٦٥، وربما نسب لابنه.

(٢) قول الشاعر: «إن للدهر صولة..» إلى آخر البيتين، ذكرهما الماوردي في كتابه الأمثال والحكم (الورقة ٢٥ب)، ونسب الأول إلى سويد بن عدي بن زيد ولم يذكر القائل للثاني، وجاءت قافية الثاني فيه بلفظ (الكبارا) واستشهد بالأول في كتابه أدب الوزير، ص٢١ دون أن يعزوه إلى قائل، والبيتان في ديوان عدي بن زيد، ص٦٤، ضمن القصيدة التي قالها عدي في سجنه يذكر النعمان به، وفيه تخريج (ص٢١٢).

وقد ورد الأول في شرح نهج البلاغة وقد أتى به بلفظ: «إن للدهر صرعة..» مع بيت آخر بعده هو قوله:

قد يبيت الفتى معافى فيردي وقد كان آمناً مسروراً

في قصة بين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه والحرقة بنت النعمان، أو الخرقاء، عند المسعودي، ونسب البيتين إلى عدي (٤ / ٣١٧)، وفي المستطرف بلفظ «إن للدهر صرعة.. قد أمنت السرورا»، (٢ / ٥٩) والأول مع ثلاثة أبيات في الزهرة (النصف الأول ١٠٩)، منسوبة إلى عدي بن زيد، والأول في خزانة الأدب (بولاق ١٢٩٩، جـ١، ص٣٤٣)، منسوباً إلى سوادة بن عدي بن زيد، وانظر مروج الذهب ١ / ٢٩٦.

وقد قيل:

إن من إجلال الشريعة أن يجلّ أهل الشريعة[١]، ليكون المعروف من شيمه، والمألوف من أخلاقه أنه يكافيء المحسن بالإحسان إليه؛ ليألف الناس الإحسان رغبة في الجزاء من غير أن يجعل لجائزته حداً، ولصلته قدراً؛ فإن ذلك أبسط للأمل فيه، ولا يعرف منه في المسيء شيمة مألوفة في عفو ولا عقوبة؛ لأن المسيء إن عرف منه العفو اجترأ، وإن عرف منه العقوبة قنط، وإن لم يعرف منه واحداً منهما كان على رجاء من عفوه وخوف من عقوبته، فإن ذلك[٢] أبلغ في تأديبه ومصلحته.

فإن رآه للعفو أهلاً عفا عنه.

قال النبي عليه السلام:

«عفو الملك بقاء الملك»[٣].

وإن رآه للعقوبة أهلاً مستحقاً عاقبه أدباً له لا غضباً عليه.

قال أنوشروان:

إني بلغت هذه الرتبة بثماني خصال:

وذلك:

---

(١) قوله: «إن من إجلال الشريعة أن يجلّ أهل الشريعة»، أورده الإمام أبو الحسن بن الحسين الرخجي غير منسوب بلفظ: «من الشريعة أن تجل أهل الشريعة، ومن الصنيعة أن لا تخلي مالك من صنيعة»، (أحاسن المحاسن ١٥٩)، وقال أبو الوليد الطرطوشي: «وقال الحكيم: لا يزال السلطان مهملاً حتى يتخطى إلى أركان العمارة ومباني الشريعة، فحينئذ يريح الله منه»، (سراج الملوك ٥٣).

(٢) غ: فإن كان أبلغ.

(٣) حديث «عفو الملك بقاء الملك»، رواه الرافعي عن علي في حديث حسن (الجامع الصغير ٢ / ٦٠)، وهو فيه بلفظ «عفو الملوك أبقى للملك»، وانظر التيسير ٢ / ١٣٢، كنوز الحقائق ٢ / ١٢. وقد جرى هذا الحديث مجرى الأمثال السائرة فقد ورد في التمثيل والمحاضرة وهو فيه بلفظ: «عفو الملك أبقي للملك»، (ص١٣١ و٤١١)، وقد أورده الثعالبي ضمن كلام منوجهر - أحد ملوك العجم - بلفظ «عفو الملك أبقى لملكه» (الإيجاز والإعجاز ٩)، وأورده مرة أخرى على أنه من أمثال العجم بلفظ «عفو الملك أبقى للملك»، (خاص الخاص ١٧).

أني لم أهزل في أمر ولا نهي قط.
ولم أخلف في وعد ولا وعيد قط.
ووليت [للكفاية
وأثبتُّ][1] للعناء لا للهوى،
وعاقبت للأدب لا للغضب،

وأودعت في قلوب الرعية شدة المحبة من غير جرأة، وقوة الهيبة من غير ضغينة.

وعممت بالفوت[2].
وحذفت الفضول[3].

وهذا[4] أصح سيرة سار بها ملك في سياسة ملكه وتهذيب[5] دولته.

---

(١) الزيادة من مصادر التخريج وليست في غ، ولا في ط.

(٢) ط: بالقرب وفي سراج الملوك والعقد ولباب الآداب: بالقوت. وفي موضع آخر من اللباب: وعممت بالعدل.

(٣) قول أنوشروان: «إني بلغت هذه الرتبة بثماني خصال..»، رواه ابن قتيبة بلفظ: «ووصف بعض الملوك سياسته فقال: «لم أهزل في وعد ولا وعيد، ولا أمر ولا نهي، ولا عاقبت للغضب، واستكفيت على الجزاء وأثبت على العناء لا للهوى، وأودعت القلوب هيبة لم يشبها مقت ووداً لم تشبه جرأة، وعممت بالقوت ومنعت الفضول» (عيون الأخبار ١ / ١٠)، ونسبه الأمير أسامة بن منقذ إلى كسرى بلفظين قريبين من ذلك (لباب الآداب ٣٧، ٥١-٥٢)، ونهاية الأرب ٦ / ٤٤، ونسبه الطرطوشي إلى سابور ذي الأكتاف بلفظ: «ولما غزا سابور ذو الأكتاف ملك الروم وأخرب بلاده، وقتل جنده وأفنى بطارقته، قال له ملك الروم: إنك قد قتلت وأخربت، فأخبرني ما الأمر الذي تشبثت به حتى قويت على ما أرى وبلغت في السياسة ما لم يبلغه ملك، فإن كان مما يضبط الأمر بمثله، أديت إليك الخراج وصرت كبعض الرعية في الطاعة لك، فقال له سابور: إني لم أزد في السياسة على ثماني خصال... وذكرها قال: فأذعن له وأدي الخراج»، (سراج الملوك ٥٩-٦٠)، والقول في العقد الفريد ١ / ٢٨ بنفس لفظ ابن قتيبة. وفي نهاية الأرب: قال أنوشروان: ثمانية أشياء هي أساس الملك..» (٦ / ١٦)، وقد نسب المسعودي القول إلى سابور بن أردشير (مروج الذهب ١ / ١٥٤-١٥٥).

(٤) ط: قال أقضى القضاة وهذا أصح سيرة.

(٥) ط: وحراسة دولته.

قال النعمان بن المنذر[١] وهو ملك العرب: [من الكامل]

تعفو الملوكُ عن العظيمِ.. من الذنوبِ لفضلِها
ولقد تعاقبُ في اليسيرِ.. وليس ذاك لجهلِها
إلا ليعرفَ فضلُها ويخافَ شدةُ نكلِها[٢]

(٦٣ب)

ولا يعلن عقوبة من لم يعلن بذنبه، ويجعل لذنب السر عقوبة السر، ولذنب العلانية عقوبة العلانية؛ لأن عقوبة الذنب بحسبها، والمقابلة في الجزاء معتبرة؛ لتكون أشباهاً لها.

ولا يعاقب بالظن حتى يستيقن الذنب؛ فإن أكثر الظنون كاذبة.

فإن عاجل بالعقوبة وضعها في غير حق[٣]، وجنى على غير مستحق، فصار الذنب متوجها الله، واللوم عائداً عليه.

---

(١) ط: قال الشاعر، وما أثبتناه عن غ، والنعمان بن المنذر اللخمي أبو قابوس ملك الحيرة والمعروف بيوميه، قتل عبيد بن الأبرص في يوم بؤسه، وقاتل عدي بن زيد وصاحبه النابغة الذبياني .كان ملكه بعد أبيه طيلة اثنتين وعشرين سنة وقتله كسرى أبرويز بن هرمز فانقطع الملك عن لخم، وبسبب قتله وقعت حرب ذي قار، انظر بعضاً من أخباره في تاريخ سنن ملوك الأرض والأنبياء ٩٤-٩٥، مروج الذهب ١ / ٢٩٣-٢٩٦، ونجد بعضاً من أقواله في البيان والتبيين ١/١٧١، ٢٢٢، ٢٣٧، ٢٦٥، ٢٦٦، ٣٠٣، ٣٤٩، ٣٦٠، ٢/٢٧٦، ٣٢٥، ٣ / ٢٤٦، ٤ / ٤٣، ٧٣، وفي العقد الفريد ١ / ٣٨، وفي عيون الأخبار: ١ / ١٣٨، ١٨٣، ١٨٤، ٢٢٧، ٢ / ٢٣، ٢٤، ٧٧، ١٨٩، ٣٠٤، ٤ / ٦٥، المعارف - عكاشة - ٦٤٩ - ٦٥٠.

(٢) قول النعمان بن المنذر: تعفو الملوك عن العظيم... إلخ، الأبيات في حماسة الظرفاء ١ / ١٧٨ - وفيها تخريج - وهي منسوبة إليه وكذا في نهاية الأرب، جـ٦، ص٧، وقد جاء الثالث بلفظ: لكن ليرجى عفوها. والبيتان الأول والثاني في التمثيل والمحاضرة ١٣٤، وهما بلفظ «يعفو الملوك عن الكثير..» وقد نسبهما إليه. لكن ابن قتيبة قد نسب الأبيات الثلاثة إلى أعرابي، قالها بحضرة النعمان في قصة طويلة فلتراجع في عيون الأخبار ١ / ١٠٠.

(٣) قوله: «فإن عاجل بالعقوبة وضعها في غير حق..»، قال ابن المعتز: «لا تعاجل الذنب =

قال الشاعر[١]: [منَ الطويل]

إذا أنتَ لم تبرحْ تظنّ وتقتضي
على الظنّ أردتْكَ الظنونُ الكواذبُ[٢]

وليعلم الملك أن الذمَّ في الظلم بقدر الحمد في العدل، والزهدَ في ولاية الظالم بقدر الرغبة في ولاية العادل.

وكل مذموم ممقوت،
وكل محمود محبوب،
والممقوت مباعد،
والمحمود مساعد،
وناهيك بطرفيهما خيراً أو شراً، وبعقباهما نفعاً وضراً.

وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال:

= بالعقوبة» (الأداب ١٢٥)، وقال هرمس: «لا تعاجل الذنب بالعقوبة واجعل بينهما للاعتذار طريقاً» (مختار الحكم ٢٥)، وقال بطليموس: «ينبغي لذي السلطان العالم إذا رأى الذنب من أصحابه أن لا يعجل عليهم» (مختار الحكم ٢٥٧)، وقال ابن المقفع: «ليعرف الناس - فيما يعرفون من أخلاقك - أنك لا تعاجل بالثواب ولا بالعقاب؛ فإن ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي» (الأدب الكبير ١٠٨)، وفي غرر الحكم: «إياك والتسرع إلى العقوبة فإنه ممقتة عند الله ومقرب من الغير» (ص٧٦)، ومن كلام يزدجرد: «الملك الحازم من يؤخر العقوبة في سلطان الغضب، ويعجل مكافأة المحسن» (الإيجاز والإعجاز ص١٣).

(١) قوله: «قال الشاعر» ذكر الماوردي أنه الربيع بن أبي الحقيق اليهودي، (انظر الأمثال والحكم، الورقة ٨ب)، وهو من يهود بني النضير كما ذكر الجاحظ في البيان والتبيين ١ / ٢١٣، وابن سلام في طبقات الشعراء ١١٠، وابن هشام في السيرة ٢ / ٥١٥، ٥٥٠ إذ ذكر ابنيه الربيع وكنانة، وذهب الأصفهاني إلى أنه من بني قريظة، في الأغاني ٢١ / ٦١، وأنه كان أحد الرؤساء يوم بعاث، وهو آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج قبل الإسلام. له شعر في المصادر السابقة وفي ديوان المعاني ٢ / ٣٩، والبيان والتبيين ٢ / ١٤، والأمثال والحكم، الورقة ٦٥آ، ومصادر التخريج.

(٢) قول الشاعر: «إذا أنت لم تبرح تظن..» ذكره الماوردي في الأمثال والحكم منسوباً إلى الربيع بن أبي الحقيق اليهودي (الورقة ٨ب)، وذكره في أدب الوزير ص٥١، ولم ينسبه، وورد في نهاية الأرب ٦ / ١٣٥ دون نسبة، وهو غير منسوب أيضاً في التذكرة السعدية ١ / ٣٥٠، بلفظ «لم تبرح بظن...الظنون الحوادث».

«إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه»[1].

فينبغي للملك أنْ يختارَ لنفسه الرغبةَ في أيامه، والحمد لسيرته، بتسليط العدل[2] على ملكه، وتحكيم الدين على سلطانه.

قال الشاعر[3]: [من الطويل]

وما المرءُ إلّا حيثُ يجعلُ نفسَهُ
ففي صالحِ الأخلاقِ نفسَك فاجعلِ[4]

[١٠ - الإحسان إلى الرعية]:

وليحسن إلى رعيته إحسان من يؤدي حق الله فيهم، ويملك به خالصة قلوبهم؛ فإنه إن قدر على ملكة أجسادهم بسلطانه، فليس يقدر على ملكة قلوبهم إلّا بإحسانه[5].

---

(١) حديث: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه»، مرّ تخريج هذا الحديث من تعليقات موضوع (أسباب الكبر)، وقد سقط هذا الحديث هو والكلام الذي جاء بعد بيت الشعر السابق - من نسخة ط.

(٢) غ: بتبليط الحمد وما أثبتناه عن ط التي جاء فيها: قال أقضى القضاة في أثناء كلامه: فينبغي للملك أن يختار لنفسه الرغبة في أيامه...

(٣) قوله: «قال الشاعر» نسب هذا البيت إلى شعراء كثيرين فقد نسب إلى حزن بن جناب التميمي مرة وإلى المقنع الكندي مرة ثانية، وإلى أبي المياح العبدي مرة ثالثة، وإلى منقر بن فروة المنقري وغيرهم، انظر مصادر التخريج.

(٤) قول الشاعر: «وما المرء إلّا حيث يجعل نفسه...»، البيت ذكره الماوردي في الأمثال والحكم، الورقة ٤٦ب، دون أن ينسبه لقائل وهو فيه بلفظ «..ففي صالح الأعمال..»، وهو في البيان والتبيين ٢ / ١٠٣، دون نسبة وبنفس ما ورد هنا وقد نسبه في الجزء الثالث، ص٢٢٨ منه مع بيت آخر قبله هو:

وإن خفت من أمر فواتا فوله سواك وعن دار الأذى فتحول

إلى منقر بن فروة المنقري، وقد مرّ هذا البيت بلفظ (واترك محل السوء..)، وقد استشهد الأوزاعي بالبيت بلفظه في المستطرف ٢ / ٥٥، وهو من شعر حزن بن جناب التميمي الشاعر الجاهلي في التذكرة السعدية ١ / ٣٢٢، بلفظ (صالح الأعمال)، منسوباً إليه بعد خمسة أبيات أخرى، وهو بلفظ «صالح الأعمال» أيضاً في الحماسة البصرية من شعر المقنع الكندي جـ٢، هامش ص٣، مع بيتين آخرين وفي جـ٢، ص٢٣، منها من شعر أبي المياح العبدي.

(٥) قوله: «وليحسن إلى رعيته.. إلى قوله إلّا بإحسانه»، هذا القول هو معنى ما أثر عن =

وقيل:

قلوب الرعية خزائن ملكها، فإن أودعها من شيء فليعلم أنه فيها[1].

(٦٤آ)

وقيل:

من خاف إساءتَك اعتقد مساءتَك[2].

فإن استقامت له ظواهر رعيته، وأقاموا على أحكام طاعته، لم يفتش سرائرهم، ولم يؤاخذهم بما يخفونه في ضمائرهم؛ فإن ضمائر القلوب لا يؤاخذ بها إلّا علام الغيوب.

ومتى تكلف ذلك كثر ارتيابه، وقلت ثقته، ولم يقف على صحيحه من فاسده، والتمس من العناء المضاع ما هو غنى عنه، واستفسد من قلوب الأعوان ما هو حذر منه، وعدل عما يستصلح به السرائر من الإحسان إلى ما يستفسد الظواهر من المكاشفة.

= أرسطوطاليس فيما كتبه إلى الإسكندر: «املك الرعية بالإحسان تظفر منهم بالمحبة؛ فإن طلب ذلك منهم بالإحسان هو أدوم بقاء منهم بالاعتساف، واعلم أنك إنما تملك الأبدان، فتخطاها إلى القلوب بالمعروف»، سراج الملوك ١١٨، والعقد الفريد ١ / ٢٥ باختلاف.

(١) قولهم: قلوب الرعية خزائن ملكها، فإن أودعها من شيء فليعلم أنه فيها»، ورد هذا القول في ط بلفظ: وجد في حكم الفرس مكتوب: قلوب الرعية خزائن ملكها، من أودعها من شيء فليعلم أنه فيها، وقد أورده الثعالبي منسوباً إلى خسرو بن فيروز بلفظ «قلوب الرعية خزائن ملكها فما أودعه إياها وجده فيها»، الإيجاز والإعجاز ١٢، ومن الكلام المنسوب إلى علي قوله: «قلوب الرعية خزائن راعيها، فما أودعها من عدل أو جور وجده» (غرر الحكم ٢٣٧)، وفي لباب الآداب غير منسوب وهو فيه بلفظ: «وقالوا: قلوب الرعية خزائن ملكها، فما استودعها من شيء فليعلم أنه فيها» (ص٧٢)، وفي سير المتقدمين هذا الكلام بلفظ «فليعلموا» (سراج الملوك ١١٨)، وفي عيون الأخبار ١ / ١٠ بلفظ «فما أودعتها».

(٢) ط: اعتمد مساءتك، وقولهم «من خاف إساءتك اعتقد مساءتك» ذكره الماوردي بلفظه في أدب الوزير ص١٧ وفي أدب الدنيا والدين (٣١٠) بلفظ: «من نالته إساءتك همته مساءتك» وقد ذكره ابن مسكويه ونسبه إلى قيس بن عاصم بلفظ «من خاف إساءتك اعتقد مساءتك، ومن خاف صولتك ناصب دولتك» (الحكمة الخالدة١٤١) وأتى الرخجي بقول قيس بن عاصم بلفظ «من خاف صولتك ناصب دولتك» (أحاسن المحاسن١٤٧) وأورد القول نفسه ونسبه إلى معاوية وهو عنده بلفظ «إن من خاف إساءتك اعتقد مساءتك» (أحاسن المحاسن١٤٧).

وحكى اليزيدي[١] أن كسرى قباذ[٢] رفع إليه رجل من أصحابه: أن في بطانة الملك جماعة قد فسدت نياتهم، وخبثت ضمائرهم، وقد هموا بما [لم][٣] يفعلوا، وهم غير مأمونين على الملك، فوقّع:

أنا ملك الأجساد لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالرضى، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر[٤].

قال سليمان بن داود عليه السلام:

كما أن الوجوه لا تشبه بعضها بعضاً، كذلك القلوب لا يشبه بعضها بعضاً.

ليكن الملك بالظالم عسوفاً، وبالمظلوم رؤوفاً، لا يغلق عن المتظلمين باباً، ولا يضيق عليهم حجاباً؛ فإن في عوادي النفوس سراً لا

---

(١) غ: البريدي، وما أثبتناه عن ط.

(٢) كسرى قباذ بن فيروز وقد ملك بعد أخيه بلاس بن فيروز. وفي زمنه ظهرت فتنة مزدك الدينية. وقد استمر حكمه ثلاثاً وأربعين سنة. انظر مروج الذهب١ / ١٦٤، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ص٥٠.

(٣) الزيادة من لباب الآداب٣٧ وفي ط بما لا، ولا يصح لأن الفعل بعدها قد ورد بحذف نونه.

(٤) قوله: «حكى اليزيدي أن كسرى قباذ رفع إليه رجل...» ذكر ابن قتيبة أن ذلك قد قرأه في كتاب الآيين لبعض ملوك العجم، وأورده بلفظه (عيون الأخبار١ / ٨) وانظر كتاب الترجمة والنقل عن الفارسية ص٢٥٩، وقد ورد في لباب الآداب بلفظ «وقع بعض العمال إلى كسرى قباذ في إنطاكية: للملك جماعة قد فسدت نياتهم... وهم غير مأمونين على المملكة وهم فلان وفلان وفلان، فإن رأى الملك أن يعاجلهم فعل. فوقّع في رقعته: إنما أملك الأجساد... إلخ» (ص٣٧-٣٨) وفي موضع آخر غير منسوب بلفظ «إنما سلطان الملك على الأجساد دون القلوب» (ص٧٢) وثالثة منسوباً إلى الحكيم (٧٢-٧٣) وقد أورده أبو حيان التوحيدي بلفظ مقارب لما في المتن (البصائر والذخائر٤٨٧) وقد ورد القول في أدب الوزير ص٢٦ وفي سراج الملوك١١٨و٢٠٠ وتفسير روح البيان١/٣٩٢ ونهاية الأرب٦ / ١٦، ١٢٣، ونسبه الثعالبي إلى أنو شروان (خاص الخاص٨٥)، وفي عهد أردشير ص٥٦ من كلام أردشير، وفي الإيجاز والإعجاز ١٣ من كلام هرمز بن سابور وفي الحكمة الخالدة٤٧ من كلام بزرجمهر الذي كتب به إلى كسرى قباذ، وفي عيون الأخبار٢ / ٢٣٩ من خطبة لعتبة بن أبي سفيان في أهل مصر، وانظر القول في العقد الفريد١ / ٢٩، وغرر الخصائص٦٢ ومحاضرات الراغب الأصفهاني١ / ١٦٧.

يكفه إلا الحذر، ولا خير في ملك لا يتناصف أهله، فإن أهملوا ارتبعوا[١]، وإن خافوا ارتدعوا.

فليوقظ عزمه في تصفح المظالم، وإنصاف المظلوم من الظالم؛ ليكون آمراً بالعدل كما كان به مأموراً، وزاجراً عن الظلم كما كان عنه مزجوراً؛ فإن مراعاة المظالم من قواعد السياسة (٦٤ب) في انتظام الملك ومصالح الرعايا.

حكى[٢] أن بعض الملوك ذهب سمعه فبكى، وقال:

لم أبك من ذهابه إلّا لأني كنت أسمع ظلامة المتظلم فأنصفه، وقد صرت لا أسمعها وأنا أعتاض عن[٣] ذلك ببصري، وقد حرمت لباس الحمرة إلا على متظلم لأعلم بحاله[٤] إذا رأيت لباسه فأنصفه[٥].

فلا خير في ملك لا ينصف الرعية، ولا تنتصف به الرعية.

وسنّ أردشير بن بابك في ملكه، وعمل به أكثر ولده من بعده، أن يجلس في يوم النيروز جلوساً عاماً للخاصة والعامة؛ ليتقدم الخاصة للتهنئة، ويعقبهم العامة للمظالم، فإذا وصلت إليه رقاعهم جمعها وميزها؛ فإن كان التظلم فيها من غيره نظر فيه بنفسه، وأوصل المتظلم إلى حقه، وإن كان التظلم منه قام مع خصمه، وجثا بين يدي الموبذ وقال:

أيها الموبذ: ما من ذنب أعظم عند الله من ذنب الملوك، وإنما خوّلكها الله تعالى برعاياها، لتدفع عنها الظلم، وتذب عن بيضة الملك جور

(١) غ: ارتعوا، وارتبعوا أي أقاموا.

(٢) ط: ذكر أن...

(٣) ط: عنه.

(٤) ط: إلا على المتظلم لا علم بتظلمه إذا رأيته.

(٥) قوله: «حكى أن بعض الملوك ذهب سمعه...» روى هذا القول ابن قتيبة في قصة طويلة بين المنصور ورجل، فلتنظر في عيون الأخبار ٢ / ٣٣٥، قال الطرطوشي: ولقد بلغنا أن ملكاً من ملوك الهند نزل به صمم فأصبح متوجعاً مهتمّاً بأمور المظلومين...» (سراج الملوك ٥٤) وأورد الغزالي شيئاً يشبه ذلك (نصيحة الملوك للغزالي ٦٨).

الجائرين، وظلم الظالمين، فإذا كانت هي الظالمة الجائرة، فحق لمن دونها أن يجور ويظلم، ومجلسي هذا منك وأنا عبد ذليل يشبه مجلسك من الله تعالى غداً، فإن آثرت الله تعالى آثرك، وإن آثرت الملك عذبك.

فيقول له الموبذ: إن الله تعالى إذا أراد سعادة عباده اختار لهم خير أهل أرضه، وأجرى على لسانه ما أجرى على لسانك؛ ثم ينظر في أمره مع خصومه بالحق والعدل.

فإن صح على الملك شيء أخذه بأدائه[1]، وإلاّ وكل بمن ادعى عليه باطلاً، ونادى عليه: هذا جزاء من أراد شين (٦٥آ) الملك والمملكة، والقدح فيهما بالباطل.

ثم يقوم أردشير، فيحمد الله تعالى، ويضع التاج على رأسه، ويقول لأهل بيته وخاصته:

---

(١) في تاريخنا نماذج رائعة لعدلهم، لا سيما في القضاء، فكانوا مثالاً يحتذى في العدالة والمساواة:
فقد تحاكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته مع أبي بن كعب فأتيا زيد بن ثابت في بيته فقضى بينهما وقال لعمر: لو أمرتني لجئت، فقال عمر: في بيته يؤتى الحكم (انظر أدب القاضي للماوردي بتحقيقنا١ / ١٩٨، ٢ / ٢٥٢، ٣٧٩) وانظر (سنن البيهقي١٠ / ١٤٤).
واختصم علي رضي الله عنه في خلافته مع يهودي وجد معه درعاً ضاعت منه يوم الجمل إلى شريح القاضي (سنن البيهقي١٠ / ١٣٦) وانظر (أخبار القضاة لوكيع٣ / ١٩٤ -١٩٥ و٢٠٠) وانظر (أدب القاضي للماوردي ٢ / ٢٥٠-٢٥١، ٤١٦).
وتحاكم المهدي وهو خليفة مع خصوم له بالبصرة إلى قاضيها عبيد الله بن الحسن العنبري، فلما رآه القاضي مقبلاً أطرق إلى الأرض حتى جلس مع خصومه مجلس المتحاكمين، فلما انقضت الحكومة قام القاضي فوقف بين يديه، فقال المهدي: . والله لو قمت حين دخلت إليك لعزلتك، ولو لم تقم حين انقضى الحكم لعزلتك، ...» (أدب القاضي للماوردي ١ / ٢٤٨ -٢٤٩).
وتقاضى المأمون بين يدي يحي بن أكثم كما تحاكم كثير من الخلفاء مع خصومهم أمام القضاة (انظر التاج في أخلاق الملوك حاشية ١٦١ وحاشية ص٢٠٨).
وقد صنف أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري كتاباً خاصاً في هذا الموضوع سماه: كتاب من احتكم من الخلفاء إلى القضاة، ذكره ياقوت الحموي ص١٣٧ من القسم الأول من الجزء الثالث من معجم الأدباء.
ولئن سن هؤلاء الملوك يوماً واحداً في السَّنة، فإن السنة كلها في التشريع الإسلامي وقت ملائم لمحاكمة رئيس الدولة في ظل هذا التشريع الحكيم.

إني لم أبدأ بنفسي فأنصفت منها إلا لئلا يطمع أحد في حيف، فمن كان قبله حق فليخرج إلى خصمه منه[١].

فهذه السيرة أبقى فيها للعقل، وتفرد فيها بالسياسة من كان الله تعالى أمره والوعيد زاجره.

---

(١) هذه القصة وردت في كتاب التاج في أخلاق الملوك المنسوب للجاحظ ببعض الاختلاف (ص١٥٩-١٦٣) وعبارة المؤلف في نصيحة الملوك على الوجه التالي:

«وكذلك لم تزل الملوك الحزمة يتواصون به -أي العدل- ويأمرون به في عهودهم، ويحشون [به] كتبهم، ويرسلونه آثاراً على وجه الزمان لهم في سيرهم، فقد كان ملوك [آل] ساسان الذين بقيت آثارهم على وجه الزمان لهم في السنة يومان في النيروز والمهرجان يظهرون فيهما للخاصة والعامة فلا يحجب عنهم في هذين اليومين أحد من صغير ولا كبير، ولا شريف ولا وضيع. وكان يأمر الملك منهم بالنداء في مملكته قبل قعوده بأيام؛ ليتأهب الناس ليوم المحفل، فيعد المظلومون حججهم، ويكتبون قصصهم، ويحضرون خصومهم. وربما اصطلح كثير من أهل المظالم قبل ذلك اليوم؛ خوفاً من الفضيحة والتنكيل والعقاب الشديد، وأصلحوا تبعاتهم، فلما كان ذلك اليوم أمر الموبذان -وهو قاضي قضاتهم- أن يوكل رجلاً من ثقات أصحابه، فيقف بباب العامة، فلا يمنع أحداً من الدخول على الملك، وينادي مناديه: من حبس أحداً عن رفع مظلمة فقد عصى الله، وخالف سنة الملك، ومن عصى الملك فقد أذن بخزي منه ومن الملك، وأمر الملك أن يؤذن للناس ويأخذ رقاعهم ويتأمل فإن كان فيها متظلم من الملك بدىء به أولاً، وقدمت على كل مظلمة، ويحضر الملك الموبذ الكبير والدبيربذ ورأس سدنة بيوت النيران ثم يقوم مناد فينادي: ليعتزل المتظلمون من الملك، فيعتزلون، ويقوم الملك مع خصومه حتى يجثو بين يدي الموبذ فيقول: أيها الموبذ إنه لا ذنب عند الله أعظم من ذنب الملك، وإنما خولها رعاياه ليدفع عنها الظلم ويذب عن بيضة الملك الظالمين وجور الجائرين. فإذا كانت هي الظلمة الجائرة فيحق لمن دونها هدم بيوت النيران وسلب ما في النواويس من الأكفان، ومجلسي هذا منك وأنا عبد ذليل شبيه مجلسك من الله غداً، فإن آثرت [الله آثرك، وآثرت] الملك عذبك. فيثني عليه الموبذ خيراً ويقول له جميلاً. وربما قال: إن الله إذا أراد سعادة عباده اختار لهم خير أهل الأرض، وإذا أراد أن يعرفهم قدره أجرى على لسانه ما أجرى على لسانك. ثم ينظر في أمره وأمر خصمائه بالحق والعدل، فإن صح على الملك شيء أخذه به، وإلا حبس من ادعى عليه باطلاً ونكل به، ونادى عليه: هذا جزاء من أراد شين المملكة والقدح فيها بالباطل.

فإذا فرغ من مظالم الملك قام فسجد لله طويلاً، وحمد الله كثيراً على ما رفع عنه من المظالم، وحط عنه من الأوزار، ثم وضع التاج على رأسه، وجلس على سرير الملك والتفت إلى قرابته وخاصته وحامته فقال: إني لم أبدأ بنفسي فأنصفت منها إلا لئلا يطمع طامع في حيفي، فمن كان قبله حق فليرد إلى خصمه منه إما بصلح وإما بغيره.

[١١ - فعله للخير دائمًا]:

وليكن[١] من دأبه فعل الخير، إما ابتداء من نفسه أو اقتداء بالأخيار[٢]؛ ليكون في الخير تابعاً ومتبوعاً، وفي العمل به حامداً ومحموداً.

فقد قيل:
الناس في الخير على أربعة أقسام:
منهم من يفعله[٣] ابتداء.
ومنهم من يفعله اقتداء.
ومنهم من يتركه حرماناً.
ومنهم من يتركه استحساناً[٤].
فمن يفعله ابتداء فهو كريم.
ومن يفعله اقتداء فهو حكيم.
ومن يتركه حرماناً فهو شقي.
ومن يتركه استحساناً فهو ردي[٥].

ليكن ما يخلفه الملك من جميل الذكر وحسن السيرة، إماماً يقتدي به

= ثم كان أقرب الناس إلى الملك في الحق كأبعدهم، وأقواهم كضعيفهم قالوا: فلم تزل الناس على هذا من لدن عهد أردشير إلى أن ساسهم يزدجرد الأثيم، ثم غير هذه السيرة العادلة، وقتل أباه وكان من أمره ما كان...» (نصيحة الملوك للماوردي الورقة٦٣آ -٦٣ب).
ووردت هذه القصة في كتاب السعادة والإسعاد ص٢٨٦-٢٨٧ وفيها زيادة «وكان أمرهم على هذا إلى أن ملك يزدجرد فامتنع من التحاكم وقال: ليس للرعية أن تنتصف من الملوك، فبينا هو في إيوان له إذ دخل فرس ملجم مسرج فرمحه وقتله».
وتجد هذه القصة في نصيحة الملوك للغزالي، ص٨٤.

(١) ط: قال أقضى القضاة في آخر هذا الكتاب: وليكن من دأبه فعل الخيرات.
(٢) ط: بالأخيار من سلفه فقد قيل الناس في الخير أربعة أقسام...
(٣) ط: ومنهم يفعله.
(٤) قوله: «ومنهم من يتركه استحساناً» غير واضحة في نسخة ط.
(٥) قوله: «ومن يتركه استحساناً فهو ردي» غير واضحة في نسخة ط.
وكذا ما بعدها بمقدار سطر واحد ثم قال والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيِّه محمد وآله أجمعين.
وقولهم: «الناس في الخير على أربعة أقسام...إلخ» انظره في أدب الدنيا والدين =

الأخيار، ومثالاً يزدجر به الأشرار، فيكون بالحمد مذكوراً، وعلى الخير مشكوراً، قد أرشد بعد رشاده، وسدد بعد سداده، فسعد بعمله حياً ومفقوداً، وصار بعمل غيره مأجوراً ومحموداً، فإن ذلك أنفس ذخائره يوم معاده، وأنفع ما يخلفه لمن اقتدى به؛ فخير الناس أنفعهم للناس. أَمَدّه الله عز وجل بتوفيقه وتسديده، وتكفل بمعونته وتأييده، وكان له على الخير ظهيراً مرشداً، وعلى العدل معيناً مسعداً (٦٥ب) وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[1].

* *
*



= ص٩٦-٩٧ بتقديم وتأخير، وفي أحاسن المحاسن غير منسوب وفيه «...ومن يتركه استحساناً فهو غبي (ص١٦٢) وفي المستطرف بلفظ؛ «ومن تركه استحساناً فهو دني» ولم ينسبه لقائل (١ / ٢٦).

(١) جاء في نهاية نسخة غ ما نصه:
تم الكتاب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلامه.
وكان الفراغ في ليلة الاثنين حادي عشر رجب الفرد الحرام، المنتظم في شهور سنة ١٠٥٢هـ على يد أفقر العباد، وأحوجهم إلى رحمة ربه الفقير عبد الرحمن المكني بأبي هادي بن محمد بن أحمد بن الجبعاني الوقاد الشافعي، أحد العدول بمحكمة مصر القديمة، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

محتويات الكتاب

الباب الثاني - في سياسة الملك

* * *

* *

*